فهرس

الجزء السابع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

(تم فهرس الجـزء السابع من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجزء السابع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء السابع

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الطَّرَف العاشر

فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

(ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها فى الدولة الأخشيدية والطُّولُونِيَّة وما قبلهما)

والذى وقفتُ عليه من رسم المكاتبة عنهم أن تُفتتَح بلفظ: «من فلان إلى فلان».

كما كتب ابْنُ عبد كان عن أحمدَ بن طولونَ إلى ابنه العباس حين عصىٰ [عليه] (١) بالإسكندرية، منذرًا له وموبِّخا له على فعله، وهو:

«من أحمدَ بنِ طولونَ مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه، العاصى لربه، المُلِمِّ بذنبه، المُفْسِد لكَسْبه، العادى لطَوْره، الجاهلِ لقَدْره، الناكِص على عَقِبه، المركُوس فى فتنته، المَبْخُوس [من] (١) حَظِّ دنياه وآخرته»!

سلامٌ على كل مُنِيبٍ مستَجيب، تائبٍ من قريب، قبلَ الأَخْذ بالكَظَم، وحلولِ الفَوْت والنَّدم.

---

(١) الزيادة من الضوء للمؤلف ص ٤٦٦، ٤٦٧.

وأحمدُ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو حمدَ معترِفٍ له بالبَلاء الجميـل ، والطَّوْل الجليل ؛ وأسأله مسألة مخلِصٍ فى رجَائه ، مجتهِدٍ فى دُعائه ، أن يصلى علىٰ محمد المصطفىٰ ، وأمينه المرتضىٰ ، ورسوله المجتبىٰ ؛ صلىّ الله عليه وسلم .

أما بعد ، فإن مَثَلَك مثَلُ البقرة تُثير المُدْية بقرنيها ، والنملة يكون حَتْفها فى جناحَيها ، وستَعْلَم ـ هَبِلَتْك الهَوَابل ! أيها الأحمقُ الجاهل ، الذى ثَنىٰ علىٰ الغيّ عِطفه ، واغترَ بضَجَاج المَوَاكب خَلْفه ـ أىّ مَوْردةِ هَلَكةٍ بإذن الله توردْت ، إذ علىٰ الله جل وعز تمرّدْت وشَرَدت ، فإنه تبارك وتعالىٰ قد ضَرَب لك فى كتابه مثلا : ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

وإنا كُنّا نُقرِّبك إلينـا ، ونَنْسُبك إلىٰ بُيوتنا ، طَمَعًا فى إنابَتك ، وتأميلا لفَيْئتك ؛ فلمّا طال فى الغيّ انْهماكُك ، وفى غَمْرة الجَهْل ارْتباكُك ، ولم نَرَ الموعظةَ تَلين كَبِدك ، ولا التذْكيرَ يُقيم أوَدَك ، لم تكُنْ لهـذه النِّسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينـا مَوْضعا ومحَلّا ، بل لانكْنىٰ بأبى العبّاس إلا تكرُّهًا وطمَعًا بأن يَهب الله منك خَلَفا نقلده اسمك ونكْنىٰ به دُونك ، ونَعُدّك كنتَ نَسْيا مَنْسِيا ، ولم تكُ شيئا مقضيًا ؛ فانظُرْ ولا نَظَرَ بك إلىٰ عارِ نِسبتِه تقلَّدت ، وسَخَطِ من قِبَلنا تعرَّضْت ؛ واعلم أن البـلاء بإذنِ الله قد أظلَّك ، والمكروهَ إن شاء اللهُ قد أحاطَ بِك ؛ والعساكِرَ بحمد الله قد أتتْك كالسَّيْل فى الليل ، تُؤْذِنُك بحربٍ وبوَيْل ؛ فإنّا نُقسِم ، ونرجُو أن لانَجُورَ ونَظْلِم ، أن لا نَثْنى عنك عِنَانا ، ولا نُؤْثِرَ علىٰ شانِك شانا ، ولا نتوقَّلَ ذِرْوةَ جبل ، ولا نَلج بطن واد ، إلا جعلْناك(١) بحولِ الله وقُوّتهِ فيهما ، وطلبناك حيثُ أَمَّمْت منهما ، مُنفقين فيك كلَّ مالٍ خطير ، ومستَصْغِرِين بسبَبِك كلَّ خَطْبٍ جليل ؛ حتّىٰ نَستَمِرَّ من طَعْم العيش

(١) لعله "تبعناك" والمراد اقتفاء أثره حيث يمم .

ما آستحليت، وتستدفع من البلايا ما آستدعيت، حين لادافع بحول الله عنك، ولا مزحزح لنا عن ساحتك، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت، وتود أنك هبلت ولم تكن بالمعصية عجلت، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت؛ فحينئذ يتفرى[1] لك الليل عن صبحه، ويسفر لك الحق عن محضه، فتنظر بعينين لاغشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لاوقر فيهما؛ وتعلم أنك كنت متمسكا بحبائل غرور، متماديا فى مقابح أمور: من عقوق لاينام طالبه، وبغى لاينجو هاربه، وغدر لاينتعش صريعه، وكفران لايودى قتيله؛ وتقف على سوء رويتك، وعظم جريرتك، فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول، وأنت عليه محمول، وإذ السيف عنك مغمود، وباب التوبة إليك مفتوح؛ ولتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعا، وآنقدت إليه متنصحا.

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ماورد به كتابك على بعد نفوذى على الفسطاط من التمويهات والأعاليل، والعدات بالأباطيل؛ من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ماذكرت أنه فسد على، حتى ملت إلى الإسكندرية، فأقمت بها طول هذه المدة. وآستظهارا عليك بالحجة، وقطعا لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة، ولا أنه خالجنى شك ولا عارضنى ريب فى أنك إنما أردت التزوح والاحتيال للهرب، والتزوع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك، ولعل مصيرك إليها يكفينيك؛ ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك، لأنك إن شاء الله لاتقصد موضعا إلا تلوتك، ولاتأتى بلدا إلا قفوتك، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا آستعنت بالله عز وجل فى جد حبلها، وفصم عروتها؛ فإن أحدا لايؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين

(١) أى ينشق يقال فراه فافترى وتفرى انظر المختار.

من دِينٍ أو دُنْيا . فأما الدِّين فأنتَ خارجٌ من جملتـه لمُقامك علىٰ العُقُوق ، ومخالفة ربِّك وإسخاطه . وأما الدُّنيا فمـا أراه بقِيَ معك من الحُطام الذى سرقْتَـه وحملْتَ نفْسَك علىٰ الإيثار به ، مايَتَهيّأ لك مكاثرتُنا بمثلِه ، مع ما وهَب الله لنا من جَزيل النعمة التى نستَوْدِعه تبارك وتعـالىٰ إيَّاها ، ونرغَبُ إليه فى إنمائها ، إلىٰ ما أنت مقيمٌ عليه من البغْيِ الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبُك .

وأمَّا مامنَّيتناه من مَصِيرك إلينا فى حُشُودك وجُموعك ، ومَنْ دخَل فى طاعتك ، لإصلاح عملنا ، ومكافَحة أعدائنا ، بأمرٍ أظهَروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسبَبِك فأصلِحْ أيها الصبىُّ الأخرقُ أمرَ نَفْسك قبل إصلاحك عملَنا ، واحْزِمْ فى أمرك قبل استعمالك الحَزْمَ لنا ؛ فما أحوجَنا اللهُ وله الحمد إلىٰ نُصْرتك ومُوازرتك ، ولا اضْطرنا إلىٰ التكثر [بك] علىٰ شِقاقك ومعصيتك : ﴿وما كُنْتُ متَّخِذَ المُضِلّين عَضُدا﴾

وليتَ شِعْرى علىٰ مَنْ تَهوِّل بالجُنود ، وتَمَخْرقُ بذكر الجيوش ، ومَنْ هؤلاء المسخَّرُون لك ، الباذلون دِماءَهم وأموالَهم وأديانهم دُونك ؟ دُونَ رِزْق ترزقهم إيَّاه ، ولا عطاء تُدِرّه عليهم ؛ فقد علمتَ إن كانَ لك تميز ، أو عندك تَحْصِيل ، كيف كانتْ حالُك فى الوقعة التى كانتْ بناحية أطْرابُلُس ، وكيف خذَلك أولياؤك والمرتزِقةُ معك حتّىٰ هُزِمت ، فكيف تغترُّ بمَنْ معك من الجنود الذى لا آسمَ لهم معك ، ولا رِزْق يجرى لهم علىٰ يدك ؟ فإن كان يَدْعُوهم إلىٰ نُصْرتك هَيْبتُك والمداراةُ لك والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيجْذِبُهم أضعافُ ذلك مِنـا ، ووجودُهم من البـذْل الكثير والعطاءِ الجزيل عندنا ما لا يجدُونه عندك ، وإنهم لَأحرىٰ بخذلك ، والميـل إلينا دُونَك . ولو كانوا جميعا معك ومقيمين علىٰ نُصْرتك ، لرجَوْنا أن يمكِّن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائرةَ السَّوْء عليك وعليهم ، ويُجْرِيَنا من عادته فى النَّصْر وإعزاز الأمر علىٰ مالم يزَل . يتفضَّلُ

علينا بأمثاله، ويتطوّلُ بأشباهه . فما دعانى إلىٰ الإرجاء لك، والتسهيل من خنَاقك، والإطالة من عِنَانك، طُولَ هذه المدّة إلا أمران : أغلبُهما كان علىٰ آحتقارُ أمرك وآستصغارُه، وقلّةُ الاحتفالِ والاكتراثِ به؛ وإنى آقتصرت من عُقُوبتك علىٰ ما أخلقته بنفسك من الإباق [(١)] إلىٰ أقاصى بلاد المَغْرب شَرِيدا عن منزلك وبَلدك، فريدا من أهلك وولَدك ـ والآخر أنّى علمتُ أن الوَحْشةَ دعتْك إلىٰ الانحياز إلىٰ حيثُ آنحزتَ إليه، فأردتُ التسكينَ من نِفَارك، والطمأنينةَ من جأْشك ؛ وعملتُ علىٰ أنك تحِنُّ إلينا حَنِينَ الولَد ، وتَتُوق إلىٰ قُرْبنا تَوَقانَ ذى الرَّحِم والنَّسب ؛ فإنّ فى رِفْقنا بك ما يَعْطِفُك إلينا ، وفى تآخينا إيّاك ما يَرُدُّك علينا ، ولم يَسْمع منا سامع فى خَلَاء ولا مَلإٍ آنتقاصًا بك، ولا غَضًّا منك، ولا قَدْحا فيك؛ رِقّةً عليك، وآستتماما لليَد عندك ؛ وتأميلا لأن تكونَ الراجعَ من تِلْقاء نَفْسك ، والموفَّق بذلك لرُشْدك وحَظّك ؛ فأما الآنَ مع آضطرارك إيّاىَ إلىٰ ما آضطررْتنى إليه من الانزعاج نحوك ، وحَبْسك رُسُلى النافذين بعهد كثير إلىٰ ما قِبَلك ، وآستعمالك المُواربةَ والخِداع فيما يجرى عليه تدبيرك . فما أنت بموضع للصِّيانه، ولا أهلٍ للإبقاء والمحافظه ، بل اللعنةُ عليك حالَّه ، والذِّمّة منك بريّه، والله طالبُك ومُؤاخذك بما آستعملتَ من العُقُوق والقطيعه ، والإضاعةِ لرَحِم الأُبوّه ـ فعليك من ولَد عاقّ شاقّ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين، والملائكةِ والناسِ أجمعين ؛ ولا قَبِل اللهُ لك صَرْفا ولا عَدْلا ، ولا ترَك لكَ مُنْقلَبا ترجع إليه ، وخَذَلك خِذْلانَ من لا أوْبَةَ له ، وأثْكلَك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حَفِظك . فوالله لأستعمِلنَّ لَعْنك فى دُبُر كلِّ صلاة ، والدعاءَ عليك فى آناء الليل والنهار ، والغُدُوِّ والآصال ؛ ولأكتبنّ إلىٰ مِصْر ، وأجناد الشامات والثُّغور ، وقِنَّسرينَ ، والعَواصِم ، والجَزيرة ، والحِجاز ، ومكّة ، والمدينة كُتبا تُقرأ علىٰ منابرها

(١) مراده على ما اخترته لنفسك الخ

فيك، باللّعن لك، والبراءة منك، والدلالة علىٰ عُقوقك وقَطيعتك ؛ يتناقَلُها آخرٌ عن أوّل، ويأثُرُها غابرٌ عن ماض، وتُخلَّد فى بطون الصحائف، وتحملها الرُّكبان، ويُتحدّثُ بها فى الآفاق، وتُلحِق بك وبأعقابك عارا ما آطّرد الليلُ والنهار، وآختلَف الظّلامُ والأنوار .

فحينئذ تعلَمُ أيها المخالفُ أمرَ أبيه، القاطعُ رحِمَه، العاصى ربَّه ؛ أىّ جناية علىٰ نَفْسك جنيت؟ وأىّ كبيرةٍ آقترفت واجتنيت ، وتتمنّى لو كانتْ فيك مُسْكه ، أو فيك فَضْل إنسانيّة، أنك لم تكُنْ وُلِدت، ولا فى الخلق عُرِفْت، الا أن تُراجِع من طاعتنا والإسراع إلىٰ ما قِبَلَنا خاضعًا ذليلا كما يلزمك ، فنُقيمَ الآستغفارَ مُقام اللعنه ، والرقّةَ مقامَ الغِلْظه ، والسلامُ علىٰ من سَمِع الموعظة فوعَاهَا ، وذكَر اللهَ فاتّقاه، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وكما كتب الأخشيد محمد بن طُغْج [صاحب الديار المصرية](١) وما معها من البلاد الشامية، والأعمال الحجازيّة، إلىٰ أرمانُوس: ملكِ الروم، وقد أرسل أرمانوسُ اليه كتابا يذكُر من جملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادتُه أن يكاتِبَ إلا الخليفةَ ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكُتّاب عدّةَ أجوبة ورفعُوا نُسَخها إليه، فلم يرتضِ منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النَّجِيرمِيّ وكان عالما بوجُوه الكتابة .

ونسختُه علىٰ ما ذكره آبن سعيد فى كتابه "المُغْرب فى أخبار المَغْرب" :

من محمد بنِ طُغْج مولىٰ أمير المؤمنين، إلىٰ أرمانُوسَ عظيم الروم ومَنْ يليه .

سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحِقّون ، فإنا نحمدُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ونسأله أن يصَلّىَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من ضوء الصبح للمؤلف ص ٤٦٧ .

أما بعدُ، فقد تُرجِم لنا كتابُك الواردُ مع نُقولا و إسحاق رسولَيْك ، فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلةِ الرَّحمة، وما نُمِيَ عنا إليك، وصَحَّ من شِيَمِنا فيها لدَيْك ، و بما نحن عليه من المَعْدَلة وحُسْن السِّيرة فى رعايانا ، وما وصلتَ به هذا القول من ذكر الفِداء والتوصُّل إلىٰ تخليص الأسرىٰ، إلىٰ [غير] ذلك مما آشتمل عليه وتفهَّمناه .

فأما ماأطنبتَ فيه من فضيلة الرحمة فمن سَديد القول، الذى يليق بذَوِى الفضل والنُّبل ، ونحنُ بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفُون ، و إليه راغبُون ، وعليه باعثُون ، وفيه بتوفيق الله إيَّانا مُجتَهِدون، و به مُتَواصُون وعامِلون . وإيَّاه نسأل التوفيقَ لمَراشد الأمور وجوامع المَصَالح بمنّه وقُدْرته .

وأما مانسبتَه إلىٰ أخلاقنا من الرحمة والمَعْدَلة، فإنا نرغَبُ إلىٰ الله جلَّ وعلاَ الذى تفرَّد بكمال هذه الفضيلة، و وهبَها لأوليائه ثم أثابَهُم عليها، أن يُوَفِّقنا لها، و يجعلَنا من أهلها، و يُيَسِّرنا للاِجتهادِ فيها، والاعتصام من زَيْغ الهوىٰ عنها، وعِزَّة القَسْوة بها، و يجعلَ ما أودَع قلوبَنا من ذلك موقوفًا علىٰ طاعتـه ، ومُوجِبات مَرْضاته؛ حتّى نكونَ أهلًا لما وَصَفْتنا به، وأحقَّ حَقًّا بما دعوتَنا إليه، وممنْ يستحِقُّ الزُّلفىٰ من الله تعالىٰ ، فإنا فُقراءُ إلىٰ رحمتـه . وحَقٌّ لمن أنزله اللهُ بحيثُ أنزلَنَا ، وحمَّله من جسيم الأمرِ ما حمَّلنَا ، وجمعَ له من سَعَة الممالك ما جَمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يبْتَهِل إلىٰ الله تعالىٰ فى مَعُونته لذلك وتوفيقه و إرشاده، فإن ذلك إليه و بيده : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُور ﴾ .

وأما ما وصفتَه من آرتفاع محلِّك عن مَرْتَبة مَنْ هو دُونَ الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عِظَم مُلْككم ، وأنه المُلْك القديم الموهوبُ من الله، الباقى علىٰ الدَّهر ، وأنك إنما خصَصْتنا بالمكاتبة لما تحقَّقته من حالنا عندك ، فإنَّ ذلك لو كان حقًّا

وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصُر عن منزلة من تكاتبُه، وكان لك فى تَرْك مكاتبتنا غُنْم ورُشـد، لكان من الأمر البَيِّن أنَّ أحظىٰ وأرشدَ وأولىٰ بمن حلَّ محلَّك أن يعمل بمـا فيه صلاحُ رعيَّته، ولا يراه وَصْمةً ولا نَقيصةً ولا عَيْبا، ولا يَقع فى معاناةِ صغيرةٍ من الأمور تعقبها كبيرة، فإن السائس الفاضل قد يركَبُ الأخطار، ويخُوضُ الغِمار، ويُعرِّض مُهْجتَـه، فيما ينفَع رعيَّته؛ والذى تجشَّمْته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمرٌ سَهْل يسير، لأمرٍ عظيم خطير؛ وجُلُّ نَفْعه وصلاحِه وعائدته تخُصُّكم، لأن مذهبنا انتظارُ إحدىٰ الحُسنَيَيْن، فمَنْ كان منَّا فى أيديكم فهو علىٰ بيِّنة من ربه، وعزيمةٍ صادقةٍ من أمره، وبصـيرةٍ فيما هو بسَـبيله؛ وإن فى الأسارىٰ مَنْ يُؤْثِر مكانَه من ضَنْكِ الأَسْر وشِدّةِ البأساء علىٰ نَعيم الدنيـا وخيرها لحُسْن منقَلبه، وحميدِ عاقبته؛ ويعلم أن الله تعـالىٰ قد أعاذه من أن يفتِنه، ولم يُعِذْه من أن يبْتليَه. هـذا إلىٰ أوامر الإنجيل الذى هو إمامكم، وماتُوجبه عليكم عزائمُ سياستكم، والتوصـلُ إلىٰ استنقاذ أُسَرائكم؛ ولولا أنَّ إيضاحَ القول فى الصواب، أولىٰ بنـا من المُسامحة فى الجواب؛ لأضْربْنا عن ذلك صَفْحا. إذ رأينا أنَّ نَفْس السبب الذى من أجْله سَمَا إلىٰ مكاتبة الخلفاء عليهم السلام مَنْ كاتبهم، أو عَدا عنهم إلىٰ مَنْ حلَّ محلَّنا فى دولتهـم؛ بل إلىٰ من نزل عن مرتبتنا، هو أنه لم يثق من مَنْعه، وردِّ ملتمَسه ممن جاوره، فرأىٰ أن يقصِد به الخلفاءَ الذين الشَّرفُ كلُّه فى إجابتهم، ولا عار علىٰ أحد وإن جلَّ قدره فى ردِّهم؛ ومن وَثِق فى نفسه ممن جاوره، وجد قَصْده أسهلَ السبيلين عليه، وأدناهما إلىٰ إرادته، حسب ماتقدّم لها من تقـدّم. وكذلك كاتَبَ مَنْ حل محلَّك من قَصُر عن محلنا، ولم يقرُبْ من منزلتنا؛ فممالكُنا عِدّة، كان يتقلد فى سالف الدهر كلَّ مملكة منها ملكٌ عظيمُ الشان.

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطغىٰ فرعونَ علىٰ خَطَر أمره، حتّى آدّعىٰ الإلٰهية وآفتخر علىٰ نبىِّ الله موسىٰ بذلك .

ومنها ممالكُ اليمن التى كانتْ للتبابعة، والأقيال العَبَاهِلة : ملوكِ حمير، علىٰ عظم شأنهم، وكثرة عَدَدهم .

ومنها أجنادُ الشام التى

منها جُنْدُ حِمْص، وكانت دارَهُم ودارَ هِرَقْلَ عظيمِ الروم ومَنْ قَبْلَه من عظمائها .

ومنها جُنْدُ دِمشْق علىٰ جَلَالته فى القديم والحديث، وآختيارِ الملوك المتقدِّمين له .

ومنها جُنْد الأُرْدُنّ علىٰ جَلَالة قدره، وأنه دارُ المَسِيح صلّى الله عليه وسلم وغيرِه من الأنبياء والحواريِّين .

ومنها جُنْد فِلَسْطِينَ، وهى الأرض المقدَّسة ، وبها المسجدُ الأقصىٰ، وكرسىُّ النصرانيــة ، ومعتَقَدُ غيرها ، ومَحَجُّ النصارىٰ واليهود طُرًّا ، ومقرّ داودَ وسليمانَ ومسجدُهما . وبها مسجدُ إبراهيم وقبرُه وقبر إسحاقَ ويعقوبَ ويُوسفَ وإخوتِه وأزواجِهم عليهم السلام، وبها مولِدُ المسيح وأُمّه وقبرُها .

هذا إلىٰ ماتنقلّده من أمر مكّة المحفوفة بالآيات الباهره، والدلالات الظاهره، فانا لو لم نتقلّد غيرها لكانت بشرَفها، وعِظَمِ قدرها، وماحوتْ من الفضل تُوفِى علىٰ كل مملكة، لأنها مَحَجُّ آدمَ ومَحَجُّ إبراهيم وارثه ومُهاجَرهُ، ومَحَجُّ سائر الأنبياء، وقبلتُنا وقبلتُهم عليهم السلام ودارُه وقــبره[1]، ومَنْبِت وَلَده، ومَحجُّ العرب علىٰ مَرِّ الحِقَب، ومحلُّ أشرافها، وذَوِى أخطارها، علىٰ عظم شأنهم، ونخَـامةِ أمرهم . وهو البيتُ

(١) كذا فى " المغرب " أيضا ويظهر أنه مقدم علىٰ مابعده ويكون الضمير فيه عائدا علىٰ سيدنا إسماعيل فان مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحرّم المحجوجُ إليـه من كل فَجٍّ عميق ، الذى يعترِف بفضله وقِدَمه أهلُ الشرف، من مَضَىٰ ومَنْ خَلَف ، وهو البيتُ المعمور، وله الفضلُ المشهور .

ومنها مدينةُ الرسول صلّى الله عليه وسـلم المقدّسةُ بتُربته ، وانها مَهْبِطُ الوحْى ، و بيضةُ هذا الدِّين المستقيم الذى آمتدّ ظلُّه علىٰ البرّ والبحر، والسّهْل والوَعْر، والشّرْق والغَرْب ، وصَحَارىٰ العَرَب علىٰ بعـد أطرافها ، وتـنازُح أقطارها ، وكثرة سُكّانها فى حاضرَتها و باديتها ، وعظمها فى وفودها وشدّتها ، وصِـدْق بأسها ونَجْدتهـا ، وكبر أحلامها ، و بُعْدمَرامها ، وآنعقاد النصر من عند الله براياتها . و إن الله تعالىٰ أبادَ خَضْراء كِسرىٰ ، وشرَّد قيصرَ عن داره ومحل عِزّه ومَجْده بطائفة منها . هـذا إلىٰ ماتعلَمُه من أعمالنا ، وتحتَ أمرنا ونَهْينا ثلاثةُ كراسىٍّ من أعظم كراسيِّكم : بيتُ المَقْدس ، وأنطا كيةُ ، والإسكندريةُ . مع ما إلينا من البحر و جزائره ، واستظهارنا بأتمّ العَتاد . واذا وفّيت النظر حقَّه علمت أن الله تعالىٰ قد أصفانا بجُلّ الممالك التى ينتفع الأنامُ بهـا ، و بشَرَف الأرض المخصوصة بالشّرف كلّه دُنيا وآخرة ، وتحقّقت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوقَ كلّ منْزلة . والحمد لله ولىّ كلّ نعمة .

وسـياستُنا لهذه الممـالك قريبِها و بعيـدِها علىٰ عِظَمها وسَعتهـا بفَضْل الله علينا و إحسانه إلينا ومعُونته لنا وتوفيقه إيّانا كما كتبْتَ إلينا وصحّ عندك من حُسْن السّيرة ، و بمـا يؤلّف بين قُلُوب سائر الطّبقات من الأوليـاء والرعية و يجمعُهم علىٰ الطاعة وآجتماع الكلمة ، و يوسعها الأمنَ والدّعةَ فى المعيشة و يُكسبها المودّة والمحبة .

والحمد لله ربّ العالمين أوّلا وآخرا علىٰ نِعَمه التى تفوتُ عندنا عَدَدَ العادّين ، و إحصاءَ المجتهدين ، ونَشْرَ الناشرين ، وقولَ القائلين ، وشُكْرَ الشاكرين . ونسألُه أن يجعلنا ممن تحدّث بنعمته عليه شكرًا لها ، ونَشْرا لـما منحه الله منها [ومَن رضى

اجتهاده فى شكرها، ومن أراد الآخرة [(١)] وسعىٰ لها سَعْيها، وكان سـعيهُ مشكورا، إنه حميد مجيد.

وما كنت أُحبُّ أن أُباهِيَك بشىء من أمر الدنيا، ولا أتجاوزَ الاستيفاءَ لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرَّمه وأظهره، ووعدَنا فى عواقبه الغلبةَ الظاهره، والقُدرةَ القاهره، ثم الفوزَ الأكبر يوم الدِّين. لكنك سلكْت مَسْلكا لم يحْسُن[(٢)] أن نَعْدل عنه، وقلت قولا لم يَسعْنا التقصيرُ فى جوابه، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفْناه من أمرنا مكاثرتَك، ولا اعتمدْنا تعيين فضل لنا نَعُوذ به، إذ نحن نُكْرَم عن ذلك، ونرىٰ أن نُكْرِمك عند محلك ومنزلتك، وما يتَّصلُ بها من حُسن سياستِك ومَذْهبِك فى الخير ومحبَّتِك لأهله، وإحسانِك لمن فى يَدِك من أَسْرىٰ المسلمين، وعَطْفِك عليهم، وتجاوُزِك فى الإحسان إليهم، جميعَ من تقدَّمك من سَلَفك. ومن كانَ محمودًا فى أمره، رُغِب فى محبته، لأن الخـيْر أهلٌ أن يُحَبَّ حيث كان. فإن كنت إنما تُؤَهِّل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعَتْ مملكتُه، وعَظُمتْ دولتُه، وحَسُنت سيرتُه، فهذه ممالكُ عظيمةٌ، واسعةٌ جَمَّة، وهى أجلُّ الممالك التى ينتفعُ بها الأنام، وسرُّ الأرض المخصوصة بالشرف. فإنَّ الله قد جمع لنـا الشرف كلَّه، والولاء الذى جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مخصوصين بذلك إلىٰ مالنا بقديمنا وحديثنا وموْقعنا. والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنّه وإحسانه، ومنه نرجو حُسْنَ السعْي فيما يُرْضيه بلطفه. ولم ينْطوِ عنك أمرُنا فيما اعتمدناه،

وإن [كنت] تجرى فى المكاتبة علىٰ رسم مَنْ تقدمك فإنك لو رَجَعْت إلىٰ ديوان بلَدِك، وجدْتَ من كان تقـدّمك قد كاتب مِنْ قِبَلنا مَن لم يحُلَّ محلَّنـا، ولا أغنىٰ

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب".

(٢) فى المغرب "لم يجز لنا أن نعدل الخ".

غَناءَنا ، ولا ساس فى الأمو ر سياستَنا ، ولا قلّده مولانا أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلّدنا ، ولا فوّض إليه ما فوّض إلينا ؛ وقد كُوتِب أبو الجَيْش خُمَارويه بن أحمد ابن طُولون ، وآخر من كُوتِب تِكِين مولىٰ أمـير المؤمنين ولم يكن تقلد سوىٰ مِصْرَ وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرا علىٰ نِعَمه التى يفوت عندنا عددُها عدَّ العادِّين ، ونَشْر الناشرين . ولم نرد بمـا ذكرناه المفاخرةَ ، ولكنّا قصدنا بمـا عددْنا من ذلك حالاتٍ : أوّلُها التحَدُّث بنعمة الله علينا ؛ ثم الجوابُ عما تضمَّنه كتابك من ذكر المحَلِّ والمنْزِلة فى المكاتبة ، ولتعلم قَدْر مابسطه الله لنا فى هذه المَسَالك ، وعندنا قوةٌ تامةٌ علىٰ المكافأة علىٰ جميل فِعْلك بالأُسارىٰ ، وشكرٌ وافٍ لمـا تُوليهم وتتوخّاه من مَسَرَّتهم إن شاء الله تعـالىٰ وبه الثقة ، وفّقك اللهُ لمواهِب خيراتِ الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسَّداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يُحِبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفعُ فى الدنيا والآخرة أهلَه ، بمنّه ورحمته .

وأما المُلْك الذى ذكرت أنه باقٍ علىٰ الدهر لأنه موهوبٌ لكم من الله خاصّة ، فإنَّ الأرض لله يُورثُها مَنْ يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتقين . وإن المُلْك كلَّه لله يُؤْتِى المُلْكَ من يَشَاء ويَنْزِع المُلْك ممن يَشَاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء بيَدِه الخير وإليه المَصِير ، وهو علىٰ كل شيءٍ قدير . وإن الله عزَّ وجل نسخ مُلْك الملوك وجَبَرِيّةَ الجبَّارين بنُبُوّة محمد صلىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ آله أجمعين ، وشَفَع نبوّتَه بالإمامة وحازها إلىٰ العِترة الطاهرة من العُنْصُر الذى منه أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه ، والشجرة التى منها غُصْنه ، وجعلها خالدةً فيهم يتوارثُها منهم كابرٌ عن كابر ، ويُلْقيها ماضٍ إلىٰ غابر ، حتّى تَنجز أمرُ الله ووعدُه ، ويبهر نصرُه وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمودَ الدين بالأئمة

المهتدين ، وقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون حتى يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .

وإن أحق ملك أن يكون من عند الله، وأولاه وأخلقه أن يكنفه الله بحراسته وحياطته، ويحفه بعزه وأيده، ويجلله بهاء السكينة فى بهجة الكرامة، ويجمله بالبقاء والنجاء مالاح فجر، وكر دهر، ملك إمامة عادلة خلفت نبوة جرت على رسمها وسننها، وارتسمت أمرها، وأقامت شرائعها، ودعت إلى سبلها، مستنصرة بأيدها، متنجزة لوعدها، وإن يوما واحدا من إمامة عادلة خير عند الله من عمر الدنيا تملكا وجبرية .

ونحن نسأل الله تعالى أن يديم نعمه علينا، وإحسانه إلينا بشرف الولاية، ثم بحسن العاقبة بما وفر علينا فخره وعلاه، ومجده وإحسانه إن شاء الله، وبه الثقة، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسرى ، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحسنيين، وعلى بينة لهم من أمرهم، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة، عالمين بما لهم ، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأمر وشدة الباساء على نعيم الدنيا ولذتها، سكونا إلى ما يحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب . ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه، ولم يعذه من أن يبتليه ؛ وقد تبينا مع ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون، والسلف الصالحون، فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته، وغير خارج عما أحببته ؛ فسررنا بما تيسر منه، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع [كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان فى إنفاذهم، وبذلنا فى ذلك] (١) كل ممكن ، وأخرنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب" .

قولنا ، و إنجازُنا وعْدَنا ، و يُوشِـك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وَقَع أحسنَ المَوْقِع منك إن شاء الله .

وأما ما آبتدأتنا به من المُواصلة ، وآستشعرته لنـا من المودّة والمحبة ، فإنّ عندنا من مقابلة ذلك ماتُوجبه السياسةُ التى تجمعنا على آختلاف المَذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلّفنا على تبايُنِ النحل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخُصُّنا و إيّاك . ورأينا من تحقيق جميل ظَنّك بنا إيناسَ رُسُلك و بَسْطهم ، والاستماعَ منهم والإصغاءَ اليهم والإقبال عليهم ، وتلقينا آنبساطَك إلينا ، و إلطافَك إيّانا بالقَبول الذى يحقُّ علينا ، ليقع ذلك موقِعَه . وزدنا فى تَوْكِيدِ ما آعتمدته ماحَمّلْناه رسـلك فى هذا الوقت على آستقلالنا إيّاه من طرائف بَلدِنا وما يَطْرأ من البلاد علينا ، و إن الله بعَـدْله وحكمته أودَعَ كلّ قريةٍ صِنْفا ، ليَتشوّف إليه من بَعُد عنه ، فيكون ذلك سـببا لعِمارَة الدنيا ومَعايِش أهلها . ونحن نفردك بمـا سلّمناه إلى رسولك لتقِفَ عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذْتَه للتجارة فقد أمكنّا أصحابَك منـه ، وأذِنّا لهم فى البيع وفى آبتيـاع ما أرادُوه وآختارُوه ، لأنا وجَدْنا جميعه ممـا لايَحْظُرُه علينا دينٌ ولا سياسةٌ . وعندنا من بَسْطك وبَسْط مَنْ يَرِد من جِهَتك ، والحرص على عِمَارة مابدأْتنا به ورِعايَته ، ورَبّ ما غَرسـته ، أفضلُ ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يُعِين على ما نَنْويه من جميل ، ونَعتَقِده من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومَن آبتدأ بجميل لزمه الجرْىُ عليه والزيادة ، ولاسيما إذا كان من أهله وخليقًابه . وقد آبتدأتنا بالمؤانَسة والمُباسَـطة ، وأنت حقيقٌ بعمارة ما بيننا ، وبآعتمادِنا بحوائجك وعوارضك قِبَلَنا ، فأبْشِرْ بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمـــد لله أحقُّ ما آبْتدِئ به ، وخُتم بذكره ، وصلّى الله على محمد نبىّ الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلّم تسليما .

الحالة الثانية

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان الحالُ عليه بعد الدولة الفاطمية فى الدولة الأيوبية)

وقد ذكر «عبدالرحيم بن شيث» أحد كُتّاب الدولة الأيُوبيـة فى أواخر دولتهم مصطلَحَ ما يُكتَب عن السلطان فى خِلال كلامه، فقال: إن الناس كانوا لا يكْتُبون «المجلس» إلا للسُّلطان خاصّة، ويكتُبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحَضْرة» ثم أفردُوا السلطان بالمَقام والمقَرّ، وصاروا يكتُبونَ «المجلس» لمن دُونَه، ولم يُسوِّغوا مكاتبةَ السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحَضْرة. قال: ويكْتُب السلطانُ إلىٰ ولده المستخلَف عنه «بالمجلس» دُونَ المقام. واصطلَحُوا علىٰ الاختصار فى نُعُوت المُلُوك المكتوبِ إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحتَ أمرِ السلطان وتحتَ حَوْزته، فإنه كُلّما كثُرت النعوتُ والدعاءُ له فى مكاتبـة السلطان إليه، كان أبلغ: لأنَّ ذلك فى معنىٰ التشريف من السلطان، وأنه لا يقال فى المقام «السامى» بل «العالى». وأنه إذا كتب السلطانُ إلىٰ مَنْ هو دونَه من ذوى الأقدار عبَّر «بالمجلس السامى»، ولا يُزاد علىٰ ذلك، ثم يفرد عن النَّسَب بعـد السامى، فيقال: الأمير الأجل من غير ياء النسب. وأنه لا يقال العـالى مكانَ السامى فى الكتابة عن السلطان، وقد يُجمَع بينهما لذَوِى الأقدار، وأنه يُضاف فى نَعْت كل أمير «عمدةُ الملوك والسلاطين عزُّ الإسلام، أو نُصْرة الإسلام، أو فارسُ المسلمين» أو ماشابه ذلك من غير ضَبْط ولا تخصيص لأحدٍ دُونَ أحد إذا أحرزوا النعْتَ الذى اشتهر به المكتوبُ إليه. وأنه يقال: «عمدةُ الملوك والسلاطين» و«عدّةُ الملوك والسلاطين» و«ذُخْر الملوك» ودُونَها «اختيارُ الملوك». وللأقارب «فخْرُ الملوك» و«جمالُ الملوك» و«عزُّ الملوك» و«زين الملوك». وللأماثل «مُعين الملوك» و«نُصْرة الملوك» وما أشبه ذلك.

وأنه يكتب للأُمَراء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و «سيفُ أمير المؤمنين» . ولكُبَراء الدولة من الكُتَّاب : « خاصَّةُ أمير المؤمنين » و « ولِيُّ أمير المؤمنين » و « صفوةُ أمير المؤمنين » . و « ثِقَةُ أمير المؤمنين » و « صَنِيعة أمير المؤمنين » على مقدار مراتبهم . وأن نعتَ الأجلّ يذكر بعد العُلوّ والسُّمو بأن يقال : «المجلس العالى الأجلّ» أو « السامى الأجلّ » وربما كان بعد ذكر الإمرة أو القضاء فيقال «الأمير الأجلُّ» أو «القاضى الأجلُّ» . وأن السلطان لايبتدئ بالدعاء فى كتبه إلى أحدٍ إلا من ماثله فى المُلْك . وأن السلطان لايكتب إلى أحد ممن هو تحتَ أمره «بلا زَالَ» «ولا بَرِح» فى الدعاء ، وإنما يكتب بذلك إلى من ماثله من المُلُوك ، أو إلى ولده المستخْلَف عنه فى المُلْك . وأن الدعاءَ للملوك يكون مثل «أدام اللهُ أيَّامه» و « خَلَّد سلطانه وثبَّت دولته » وما أشبه ذلك . وأن التحميد فى أوائل الكُتُب لايكون إلا فى الكُتُب الصادرة عن السلطان . وأنَّ غاية عَظَمة المكتوب إليه أن يكون الحمدُ ثانية وثالثة فى الكتاب ، ثم يؤتَى بالشهادتين ، ويصلِّى على النبيّ صلّى الله عليه وسلم . وأنه يكتب فى الكتب السلطانية «صدرتْ» و«أصدرناها» ولايكتب « كتبتْ » . وأن الذى تُخاطَب به الخلافةُ عن السلطان : « المواقِف المقدّسة الشريفة ، والعَتَبات العالية ، ومَقَرّ الرحمة ، ومحلّ الشرف » . والذى يخاطَبُ به الملوك : « المقام العالى ، والمَقَرّ الأشرف » ولا يقال « المَقَام السامى » . والذى يخاطب به الوزراء : «الجناب العالى ، والمحلّ السامى» . ومَنْ دون ذلك «المجلس السامى» ودونه «مجلس الحضرة» . ودونه «الحَضْرة» . وأنه لايكتب عن السلطان لمن هوتحت أمره إلا بنون الجمع لدلالتها على العَظَمة ، ولا يُكْتَب «تشعر» إلا عن السلطان خاصّةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة الطرّة ، وتكون بقلم جليلٍ غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين السطور حتى يكون بين كل

سطرين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لايخرج عن سَمْت البسملة فى الكتابة، ولا يحتمل ذلك إلا فى الحَمْدلة . وأنه لايكثر النقط والشكل فى الكتب الصادرة عن السلطان لاسيَّما فى الألفاظ الظاهرة . وأن الدعاء علىٰ العدو كان محظورا فى الكتب الصادرة عن السلطان إلىٰ مَنْ دُونه ، ثم آستعمل ذلك . وأنه لاتترك (١) فضلة فى آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب فى حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان فى كتبه لمن تحت أمره أعلاهم وأدناهم ، العلامة ؛ فان أراد تمييز أحد منهم كتب له شيئا بخطه فى مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلىٰ البسملة من السلطان أقرب ، وأنه لاحرجَ علىٰ السلطان أن يترجِم للقُضاة والعلماء والعُبَّاد بأخيه وولده . وأن عَنْونة الكتاب وخَتْمه مختصٌّ بصاحب ديوان الإنشاء ليَدُلَّ ذلك علىٰ وقوفه علىٰ الكتاب . وأنه لا يجوز عنونةُ الكتاب قبل أن يُكْتَب عليه السلطان ترجمتَه أو علامته . وأن الكتبَ لاتبقىٰ مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكِتاب ختمه ، ولا أكرَم من كتب السلطان ، ويكون طَيُّ الكتاب الصادر عن السلطان عَرْضَ ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتباتهم علىٰ أربعة أساليب :

الأسـلوب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبـةُ بالدعاء للمجلس أو الجَناب)

مثل : أدام اللهُ أيامَ المجلس ، أو أدام الله سلطانَ المجلس ، أو أدام الله نعمةَ المجلس ، أو أدام الله آقتدارَ المجلس ، أو أدام الله سعاداتِ المجلس ؛ أو خلَّد الله أيام المجلس أو سلْطان المجلس ، أو ثبَّت الله دولةَ المجلس ، وما أشبه ذلك ممـا فيه معنىٰ

(١) فى الضوء " وأنه يترك " بغير لا النافية وإثباتها أوضح .

الدوام؛ وربمـا أبدل لفظ الدوام وما فى معناه بالمُضَاعفة،مثل : ضاعفَ اللهُ نعمة المجلس . ويؤتىٰ علىٰ الألقاب إلىٰ آخرها، ثم يقـال : نُشْعِر المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك ، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويُخْتَم بالدعاء وقد يُخْتم بغيره .

وهــذه نسخةُ مكاتبةٍ من هذا الأسلوب بالإخبار بفَتْح غَزَّة واقتلاعها من الفَرَنْج الديوية، الذين كانوا مستوْلِين عليها، وهى :

« أدامَ الله ســعاداتِ المجلس ، وأحسن له التدبير، وأصفىٰ عيْشَه من التكدير، وحَقَّق له وفيه أحسَنَ الرجاء والتقدير، وجعل وَجْهه من أهِلَّة الأكابر والتكبير، وأعاذ تأخيرَ أجلِه من التقديم وتقديمَ حَظِّه من التأخير .

نُشْعِر المجلس بمـا مَنَّ الله تعالىٰ به من فتح مدينة غَزَّة يوم الجمعة الجامع لشَمْل النصر، القاطع لحَبْل الكُفْر ؛ وهــذه المدينة قد علم الله أنهـا من أوسع المدائن ، وأملإ الكَنَائن ، وأثرىٰ المَعادن ؛ وهى كُرسِىُّ الدَّيوِيَّة ومَهْبِط رءوسهم ، ومَحَطّ نفوسهم ، وحِمىٰ كليبهم بل كِلابِهم ، وظهيرُ صَلِيبِهم بل أصــلابهم ؛ وما كانت الأبصارُ إليها تَطْمَح ، ولا الأقدارُ بها قَبْلنا تَسْمَح ؛ ولهـا قلعةٌ أنْفُها شامخ فى الهواء، وعِطْفها جامحٌ عن عطفة اللواء ؛ قد أوغلَتْ فى الجوّ مرتفِعه ، وأومضَتْ فى الليل مُلْتمِعه، وبِرِداء السَّحاب ملتفِعه ؛ قد صافَحَتْها أيدى الأنام بالسلامة من قوارِعها، وهادَنَتْها حوادثُ الأيام علىٰ الأمن من روائعها ، إلىٰ أن أُتِيح لهـا مَنْ أتاح لهـا الحَيْن ، وقُيِّض لهـا مَنِ اقتضىٰ منهـا الدَّيْن ؛ فصَبَّحها بمـا ساء به صَبَاحُها ، وزَعْزعها بالزَّئير الذى خَرِسَ له نُباحُها . وكان من خبرها أنا لمـا أطلنا عليهـا مُغِــيرين ، وأطَفْنا بهـا دائرين ، ولكُــئُوس الحرب مُديرين ؛ تَقَلَّبت الأنجادُ والأبطال علىٰ الزَّحْف ، وأعجلَ ارتيـاحُ النصر عن انتظام عِقْد الصَّف ؛ وانقضُّوا عليها، انقضاضَ البُزَاة علىٰ طرائدها، وأسرعُوا إليها، إسراعَ العِطَاش إلىٰ مَوارِدِها؛

ورُفعت الألويةُ خافقةً كذوائب الضِّرام، طالعةً برسائل الحَمام، مُشيرةً بالعَذَبات إشارةً لم يطمئنوا إليها بالسَّلام؛ وجاءهم الموتُ من كلِّ مكان، وأُمطِرت الشُّهُب من كل سِنَان؛ فرأَوْا مَثواهم الجَيِب، ومحلَّهم الخَصيب؛ وقد ركضَتْ فيه خيولُ الغِيَر، واعترضَتْ فيه سُيولُ العِبَر، وجُرِّدت فيه نُصول القَدَر؛ والنارُ قد لَعِبتْ فيه مُجدِّه، واحمرَّت فيه خدودُها مخدّه؛ وأقواتهم المُدَّخره، وأموالهم المثمَّره؛ نَفَلا مُباحا، وزَبَدا مُطاحا، ومَغْنَما مُشَاعا، ونَهْبا مُضَاعا؛ قد مُلِئت منه الرِّحال وأخصبت، واتَّسعَتْ به الأيدى وضاقَتْ به الأرض بما رَحُبَتْ.

الأسلوب الثانى

(أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ الإصدار)

مثل: أصدَرْنا هذه المكاتبة، أو أُصْدرت، أو صدرت؛ ويؤتَى على المقصود على ما تقدّم.

وهذه نسخة كتابٍ من هذا الأسلوب كتب به القاضى الفاضلُ، عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى أخيه سيف الإسلام سلطانِ اليمن، يستقدمه إليه معاونًا له على قتال الفرنج خذلهم الله! ويبشّره بفتح كَوْكب، وصَفَد، والكَرَك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو:

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس، ومما تجدّد بحضرتنا فتوحُ كَوْكب: وهى كرسىُّ الاستبارِيَّة ودارُ كُفْرهم، ومستقرُّ صاحبِ أمرهم، وموضعُ سلاحِهم وذُخْرهم؛ وكان بمجمع الطُّرُق قاعدا، ولمُلتقَى السُّبُل راصدا؛ فتعلَّقتْ بفتحه بلادُ الفتح واستوطنَتْ، وسُلِكت الطُّرُق فيها وأمِنَت، وعُمِرت بلادُها وسكَنَتْ؛ ولم يبقَ فى هذا الجانب إلا صُور، ولولا أن البحرَ يُنجِدها، والمَراكبَ تَرِدها؛ لكان قِيادُها

قد أمكن ، وجِمـاحُها قد أذْعَن ، وما هم بحمد الله فى حِصْن يَحْميهم ، بل فى سِجْن يَحْويهم ، بلْ هم أُسارىٰ وإن كانوا طُلَقاء ، وأمواتٌ وإن كانوا أحْياء ، قال الله عزّ وجل : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ولكلِّ امرئ أجلٌ لابُدّ أن يَصْدُقه غائبُه ، وأملٌ لابدّ أن يكْذِبه خائبـه ــ وكان نزولُنا علىٰ كَوْكَب بعد أن فتحت صَفَدُ بلدُ الديوية(١) ومعقِلُهم ، ومشتَغَلُهم وعملُهم ، ومحلُّهم الأحصَنُ ومنزِلُهم ، وبعد أن فتحنا الكَرَك وحصونَه ، والمجلسُ السيفىُّ أسماه الله أعلَمُ بمـا كان علىٰ الإسلام من مؤونته المُثقِله ، وقضيَّته المُشْكِله ، وعلَّته المُعْضِله ، وأن الفرنج ــ لعنهم الله ــ كانوا يقْعُدون منـه مَقاعِدَ للسّمْع ، ويتبوّءون منه مواضِعَ للنّفْع ، ويحولُون بين قات وراكبها ، فيذَلّلون الأرضَ بمـا كان منه ثِقلا علىٰ مَناكِبها ، والآنَ ماأمْنُ بلادِ الحَرَمين ، بأشدَّ من أمنِ بلاد الحَرَمَيْن ؛ فكلُّها كان مشترَكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت تُرامِى ولا تُرام ، وتُسامِى ولا تُسام ، وطالمَـا ٱستفرغْنا عليها بيوتَ الأموال ، وأنفقْنا فيها أعمـارَ الرجال ، وقرعْنا الحديدَ بالحديد إلىٰ أن ضَجّت النّصالُ من النّصال ، والله المشكورُ علىٰ ما ٱنطوىٰ من كلمة الكُفْر وٱنتشَرَ من كلمة الإسْلام . وإنّ بلاد الشام اليومَ لاتَسْـمَع فيها لَغْوا ولا تأثيما إلا قيلًا سَـلامًا سَلامًا . وكان نزولُنا علىٰ كوكب والشتاءُ فى كَوْكبه ، وقد طلع بيُمْن الأنواء فى مَوْكبه ، والثلوجُ تنْشُر علىٰ البلاد مُلاءَها الفَضيض ، وتكْسُو الجبالَ عمائمَها البيض ، والأوديةُ قد عَجّتْ بمائها ، وفاضَتْ عند ٱمتلائها ، وشمَخَتْ أُنوفُها سُيُولا ، نخرِقَتِ الأرضَ وبلغَتِ الجبالَ طُولا ، والأوحالُ قد ٱعتقَلَتِ الطُّرُقات ، ومشىٰ المُطلَقُ فيها مِشْيةَ الأسِير فى الحَلَقات ، فتجشّمْنا العَناء نحن ورجالُ العساكر ، وكاثَرْنا العدوَّ والزمانَ وقد يُحْرِزُ الحظَّ المكاثِر ، وعلِمَ اللهُ النيـةَ فأنجدَنا بفضلها ، وضميرَ الأمانة فأعانَ علىٰ حَمْلها ، ونزلنا منْ رُءوس الجبال بمنازلَ كان

(١) فى " الروضتين " ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الديوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أصعبَ من نِقلها، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقلها؛ ﴿وأمَّا بنِعْمةِ ربّكَ فحدّثْ﴾ .

والحمد لله الذى ألهمنا بنعمته الحديث، ونصرَ بسيف الإسلام الذى هو سيفُه وسيف الاسلام الذى هو أخونا الطيبَ على الخبيث ، فمدْحُ السيف ينقسم على حدّيه، ومدْحُ الكريم يتعدّى إلى يديْه، والآنَ فالمجلس ـ أسماه الله ـ يعلَم أن الفرنج لايَسلُون عما فتحنا، ولا يصْبِرون على ما جرَحْنا؛ فإنهم ـ خذلهم الله ـ أممٌ لاتُحصى، وجيوشٌ لاتُستقصى؛ ووراءهم من ملوكِ البحر مَنْ يأخُذُ كلَّ سفينة غَصْبا،ويطمعُ فى كل مدينة كَسْبا، ويدُ الله فوقَ أيديهم، واللهُ محيطٌ بأقربيهم وأبعديهم؛و﴿سيجْعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرا﴾ ، ﴿لاتَدْرِى لعلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمْرا﴾ .

وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ ، وشياطينُ قد تغاوَتْ ، و إن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانب دُحُورا، ويُتْبَعوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحورا، آستأسَدُوا وآستكلَبُوا، وتألَّبُوا وجلَبُوا وأجلَبُوا ، وحاربُوا ، وحزَّبوا ؛ وكانُوا لباطِلهم الداحض ، أنصرَ منّا لحقِّنا الناهض، وفى ضلالِهم الفاضح، أبصرَ منا لهدانا الواضح . ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ ينصُرُ الكَرَمَ آبْنُها، * وآبنُ اللئيمةِ للِّئامِ نَصُور !

فالبِدَارَ إلى النَّجدة البِدَار! والمُسارعةَ إلى الجنة فإنها لاتُنالُ إلا بإيقاد نارِ الحرب على أهل النّار، والهِمَّةَ الهمةَ! فإن البحار لاتُلْقىَ إلا بالبِحار، والملوكَ الكِبار لايقِفُ فى وجوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلَا * ليَوْمِكَ ماحنَّتْ رَوَازِمُ نِيبُ !

ونحنُ فى هذه السنة ـ إن شاء الله تعالى ـ تنزِل على أنطاكيَةَ ، وينزل ولدُنا الملك المظفَّر ـ أظفره الله ـ على طرابُلُس، ويستقرُّ الركاب العادلىّ ـ أعلاه الله ـ

بمصر ؛ فإنها مذكورةٌ عند العدو ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق ، وأن الطلب على الشام ومصر تفرَّق ؛ ولا غِنَى عن أن يكون المجلس السيفىُّ ـ أسماه الله ـ بحرًا فى بلاد الساحل يَزْخر سِلاحا ، ويجرِّدُ سيفا يكون على مافتحْناه قُفْلا ولما لم يُفْتح بعدُ مفْتاحا ؛ فإنه ليس لأحدٍ ماللأخ من سُمْعةٍ لهـا فى كل مَسْمع سَمْعه ، وفى كل رُوع رَوْعه ؛ وفى كل محْضر مَحْضَر ، وفى كل مسجِد مِنْبر ، وفى كل مَشْهَد مَخْبَر ، فـا يُدْعى العظيمُ إلا للعظيم و[لا يُرْجَى](١) لموقف الصبر الكريم إلا الكريم [هذا](١) والأقدارُ ماضيه ، وبمشيئة الله جاريه ؛ فإن يشإ اللهُ ينصر على العدو المضعَّف ، بالعدد الأضعف ؛ ويُوصَلْ إلى الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى ؛ فإنا لا نرتابُ بأن الله مافتح علينا هذه الفتوحَ ليُغْلقَها ، ولا جَمع علينا هـذه الأمة ليفرِّقها ؛ وأن العـدو إن خرج من داره بَطَرا ، ودخل إلى دارنا كان فيهـا جَزَرا ؛ وما بقِىَ إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلى ناهبها ، ورقابٌ تقادُ إلى ضارِبها ، وأسلحةٌ تحمَلُ إلى كاسبها ؛ وإنمـا نُؤْثِر أن لاتنطوىَ صحائفُ الحمد خاليةً من اسمه ، ومواقفُ الرشد خاويةً من عَزْمه ؛ ونؤثر أن يُساهِمَ آلَ أيُّوبَ فى ميراثهم منه مَوَاقعَ الصبر ، ومطالع النصر ؛ فوالله إنا على أن نُعْطيه عطايا الآخرةِ الفاخره ، أشدُّ مِنّا حِرصا على أن نُعطيَه عطايَا الدنيا القاصره ؛ وإنا لا يسرُّنا أن ينقضىَ عمرُه فى قتالِ غيرِالكافِر ، ونِزالِ غير الكُفْء المناظِر ، ولا شكَّ أن سيْفَه لو اتصل بلسانٍ ناطقٍ وفَمٍ ، لقال مادُمْتُ هُنالك فلسْتُ ثَمّ ؛ وما هو محمول على خُطّة يخافُها ، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحكمنا يعافُها ؛ والذى بيده لا نَستكْثره ، بل نستقْصره عن حقه ونستَصْغره ؛ وما نَاوَلْناه لفتح أرضه السِّلاح ، ولاأعرْناه لِملْك مركَزِه النَّجاح ؛ إلا على سخاءٍ من النفس به وبأمثاله ، على علمٍ منّا أنه لا يقْعُد عنّا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله ؛ فلا نكُنْ به ظَنًّا أحسنَ منه فِعْلا ، ولا نَرْضَى وقد جعلنا الله أهلًا أن لانراه

(١) الزيادة من الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ .

لنصرنا أهلا، وليستشر أهلَ الرّشاد فإنهم [لا يألونه](١) حقًّا وآستنهاضا، وليَعْصِ أهلَ الغَوَاية فإنهم إنما يتغالون(٢) به لمصالحهم أغراضا؛ ومن بيته يَظْعَن، وإلىٰ بيته يَقْفُل؛ وهو يُجيبنا جوابَ مثله لمثلنا، وينْوِى فى هذه الزيارة جمعَ شَمْلِ الإسلام قبلَ نِيَّة جمع شملنا، ولا تَقْعُد به فى الله نهضةُ قائم، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم، ولا يستفت فيها فوت طالب ولا تأخُذُه فى الله لومةُ لائم؛ فإنما هى سَفْرةٌ قاصده، وزَجْرةٌ واحده؛ فاذا هو قد بَيَّضَ الصحيفةَ والوجهَ والذِّكْرَ والسُّمْعه، ودانَ اللهَ أحسنَ دِيْن فلا حرجَ عليه إن فاء إلىٰ أرضه بالرَّجْعه؛ وليتدبَّر ما كتبناه، وليتفهَّم ما أردْناه؛ وليُقدِّم الآستخاره، فإنها سراجُ الآستناره [وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان الآستغضاب والآستشارة](٣) وليَحْضُر حتّى يشاهد أولادًا لأخيه يستشعِرُون لفُرْقته غمًّا، وقد عاشُوا ما عاشُوا لا يعرِفُون أن لهم مع عمِّهم عمًّا؛ والله سبحانه يلهمه توفيقا! ويسلُكُ به إليه طريقا؛ ويُخِذُنا به سيفًا لرقبة الكفر مَرِقًا ودمه مُرِيقا؛ ويجعلُه فى مِضْمار الطاعات سابقًا لا مسبُوقا.

الأسلوب الثالث

(أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس»)

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أيْلة التى تحت العَقَبة فى ممَرّ حُجّاج مصر، وهى:

هذه المكاتبة إلىٰ المجلس الفلانىّ أعلىٰ الله سلطانَه، وعَمَر بالنجاح آمالَهُ وبالسعادة أوطانَه؛ ولا زالتْ يدُ النصر تُصرِّف يومَ اللّقاء عِنانَه، ويدُ لطف الله تُفيض علىٰ

(١) فى الأصل فانهم يألوه والصواب ما أثبتناه فى الصلب.
(٢) كذا فى الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضا لنوال مصالحهم الذاتية.
(٣) الزيادة مما سيأتى له فى المهيع الثالث من هذا الجزء.

الخلق يومَ العلياء عَنانه، وتمكّن من هامِ الأعداءِ ونُحورِهم سيفَه وسِنانَه؛ (نُشعِره) أنه لم تزلْ عوائدُ الله سبحانَه عندنا متكفِّلةً مايُوجِب أن يُبْدَأ الحمد و يُعاد، مقرِّبةً لنا من الآمال كلَّ ما كان رَهينَ نَأيٍ و بِعاد، موافقةً لنا بالتوفيق فكأننا و إيّاه على مِيعاد، مُعِينةً لنا على ما يعتدُّه الغاشُّ معاش وعيدِ معاد . وقد كان ماعلِم من غزوتنا إلى أيْلةَ التى آتخذها العدوّ معْقِلا ، وتدبَّرها منْزِلا ، وعَدَّها موْئلا ، وغاضَ بها رونقُ الجمله ، وفاضَ بهـا أهلُ القبله ، وصارتْ على مَدارج الأنفاس ، وعلى مراصد الأفْتراص والأفتراس؛ وخصَّتِ الحرمين بأعظم قادح، وآشتدّ عن حادثتها من لُطْف الله أعظمُ فاتح؛ ولمـا توجَّهنا إليها، ونزلنا عليها، شاهَدْنا قلعةً يحْتاجُ راميها إلى الدّهْرِ المَديد، والأملِ البعيد،والزاد العَتيد،والبأسِ الشديد؛تَنْبو بعطْفٍ جامحٍ عن الخِطْبه،وتُعْرِض بذكْرٍ مانعٍ عن الضربه؛ وتَعطِف بأنفٍ على السَّحاب شامخ، وتطلَعُ فى الصَّباح بوجهٍ شادخ، كأنما بَيْنَها وبين الأيَّامِ ذِمام،وكأنَّ نار الحوادث إذا بلغتْ ماءَها بردٌ وسلام، فأطفْنا بهـا متبصِّرين، ونزلنا من ناحيــة البَرِّ بها مفكِّرين، و بَيْنا نحنُ نأمر بالحرب أن يُشَبَّ أُوارُها ، و بالخيــل أن تُسيرَ أسرارُها، و بنار اللّقاء أن يســتطير شَرارُها، و بقَناطيرِ الموت من القِسيّ أن تُعقَّد أوتارُها، و بالمجـانيق أن تُعقَد حناياها وتُحَلَّ أزرارُها،و بالكواكب أن تُذيقهم طعمَ الصَّغار كبارُها، إذ نادى منادٍ من أعلى قِمَّتها، ورأس قُلَّتها، مُعْلِنا بالأمان، ناسخًا لآية الكفر بآية الإيمان؛ فأعارَتْه الأسماعُ إنصاتها، وآستحقت القلوب حَصاتَها، وعمدت إليــه بنت بحر، عادتْ بابَ نصر، وساعة بدهر، و بَشَّرنى بغلام على كِبَر، و بظَفَر فى ســفَر على قدَر؛ فأعطى فَرَجُها ماطلبوا،وأتى اللُّطْف للسلمين بما لم يحتسِبوا؛وفى الحال رُفِعتْ عليها ألويةُ الإسلام ونُشِرت، وأوَتْ إليها فئةُ الحق وحُشِرتْ، وتظاهرت عليها أوليـاءُ الله وظهرَتْ؛ وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين .

الأسلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : « كتابنا » وباقى الأمر على نحو ماتقدم)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضى الفاضل عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهى :

كتابنا هذا إلى الأمير، معزّين بالرُّزْء الذى كَلُت أقسامه وتمّتْ ، ورمتْ أحداثه القلوبَ فأصمَتْ وطرقتْ أحاديثُه الأسماعَ فأصمّتْ ، وأبى أن تعفو كُلُومُه ، وكاد لأجله الأفقُ تنكسف بُدورُه وتنكدر نُجومه ، وثَلَم جانبَ الدِّين لفَقْد مَنْ لولاه لدَرَسَت أعلامُه ولم تُدْرَس علومُه، وفَجَأ فاستولى على كلِّ قلبٍ وَجيبُه وعلى كلِّ خاطرٍ وُجومه ، بانتقال المولى «نورالدين» إلى سُكنى دارالسلام ، وقُدومه على ما أعدّه الله من جزاء ذَبّه عن الإسلام ، وبكى أهله على فَقْد عزائمه التى بها حُفِظتْ وحُرِسَتْ ، وشكَت الممالكُ وحشةَ بُعْده وإن ابتهجَت الملائكةُ بقُرْبه وأَنِسَتْ ؛ فلله هو! من مُصَابٍ أغرى العيونَ بفيضها ، والنفوسَ بفَيْظها ، ونقَلَ الأولياءَ من ظل المَسرَّة ونعيمها إلى هَجير المَسَاءة وقَيْظها ، وأوجبَ تناجِىَ الكُفّار بالنَّجاة من تلك السَّطْوة التى لم تزل تزيدُها غمّا وتردُّها بغيظها .

ومهنّئين بما أسا الكَلْمَ وداواه ، وحوى الحقَّ إلى الجانب الأمْنَع وآواه ، من جلوس ولده «الملك الصالح» ذى التصويب والتسديد مشمولا منّا بالعُرْف العميم ، والطَّوْل الجسيم ، جاريًا على سُنَنه المعهوده ، وعادَته المحموده ، فى رفع صالح أدعيته عن صفاء سريرته ، وخُلُوص عقيدته ، مستمرًا على جميل تحيته ، فى إمدادنا ببركته ، إن شاء الله تعالى .

قلت : والمصطلح الجارى عليـه الحالُ فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية فى زماننا مأخوذةٌ من الأساليب الثلاثة : الأول والثانى والثالث المقدّم ذكرها . على أن فى الدولة الأيوبيـة أساليبَ أُخرىٰ لا يسع آستيعابها ، ويغنىٰ عنها بما تقدّم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد آنفردوا عن كُتّاب المشرِق وكُتّاب الديار المصرية بأمور :

منها أن المخاطبة تقعَ للمكتوب إليـه بميم الجمع مع الأنفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الأنفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنىٰ الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : «كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا» .

ومنها أنهم يترضَّوْن عن الخليفة القائمين بدعوته فى كتبهم .

ومنها أنهم يذكُرون آسمَ المكتوب إليه فى أثناء الكتاب ، وباقى مكاتباتهم علىٰ نحوٍ من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ، وكُتبهم تُختَم بالسلام غالبا ، وربما خُتِمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عنـدهم بلفظ الرياسة مثل أن يقال : رِياستكم الكريمة ونحو ذلك . ولهـا حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقدم، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تُفتتحَ المكاتبةُ بلفظ "من فلان إلى فلان" ويُدْعىٰ للمكتوب إليه، ثم يقع التخلُّص إلى المقصود بأما بعد، ويُؤْتىٰ عليه إلى آخره، ويُختَم بالسلام)

كما كتب أبو بكر بنُ هشام عن أبى محمدِ بنِ هودٍ، فى قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلدٍ من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة، أدام الله كرامَتَهم وآثرهم بتقواه، وعرّفَهُم عوارفَ نُعْماه، وكنَفَهم فى حَرَمه المنيع وحِمَـاه، وجعلهم ممن وُفّق إلى رضاه، وحُفَّ بخَيْرِ ماقدَّره وقضاه، بسلام

أما بعدَ حمد الله على مُتتابِـع واسع فَضْله، هازمِ الباطلِ وأهلِه، ومورِّط الجاهل فى مَهْواة جَهْله، المـالئِ بدعوة الحق ما اتّسع من حَزْن المعمورِ وسَهْله، والصلاةِ على سـيدنا محمد نبيِّه المصطفىٰ خاتمِ رُسُله، المؤيدِ بالقرءان الذى عَجَزت الجنُّ والإنسُ أن يَـأتُوا بمثله، وعلى آله وصحبه الجارين على قويم سُنَّته وواضح سُبُله، والرِضَا عن الإمام العباسىّ أمير المؤمنين، الذى لا إمامَ سواه للسلمين، المفرَّع من مَحْتِده الكريم وأصله، المُدافِع عن حرم أمره بسَديد نَظَره وحَديد نَصْله، والدعاءِ لمقامه العلىّ، ومكانِه السنىّ، بالسَّعْد المصاحب بمصاحبَة ظِلّه، والعَضُدِ الفاتح مالم يُفتَح لأحد من قبله، فإنا كتبناه لكم - كتبكم الله ممن انتَفَـع بقوله وعمله، وتوجَّه إلى رضاه بمبسوط أمله، وجَرَتْ له الأقدار بأفضل معتادٍ وأجله - من فلانة، والتوكلُ على الله سبحانه نتائجُ تُبرِزُها الأيّام، ويستنجدُها السَّـعْد والحُسام، ويستدنيها التفويضُ

إلى الله سبحانه والاستسلام ، والدعوةُ العليةُ – أدام الله أيامها ، وأسعد أعلامها ، – الآثار التى تجملت بها المَذاهب ، والأنوار التى وَضَحت بها المَسارى والمَسارِب ، وأضاءت بها المشارق والمغارب . والحمد لله حمدا كثيرا – المكانُ الذى تتجدّدُ حُرمتُه ، وتتأكّدُ ذِمّتُه ، ولا توضَع عن يَد الاعتناء والاهتمام أزِمّتُه ، وإذا أنهضتِ العزائمُ لمصالح العباد تقدمتْ كلَّ العَزَمات عَزْمته ؛ لأنه المكانُ الذى صرف وُجوه الأعداء ، وصابر مكابدةَ الإضرار والاعتـداء ، واحتمَلَ مكروهَ الدواء ، فى مُعالجةِ الشِّـفاء ومعاجَلَة حَسْم الداء ، فكَرُمت آثارُه ، وتعيَّن تخصيصُه بالمَزيد وإيثاره ، وطابتْ أخبارُه ، وطالت فى مَضايِق مَجال الرجال أسِنّتُه وشِفاره ، فنحن نُوجب تكريمَه ، ونُؤْثر تقديمه ، ونُتْبِع حديثَه فى الاعتناء قديمَه ، والله يتولَّى تكميل قصدِنا الجميلِ فيه وتتميمه ! .

وقد بلَغ – بلَّغكم الله أملكم ، وأتم نعمته قِبَلكم – تحرُّكُ ذلكم الخائنُ للإضرار بالبلاد ، وإيثارُه دَواعِى الشر والفَساد ، ومتىٰ احتيج إلىٰ إعلامِ جهة من الجهات بأحواله ، وما يتصوره بفاسد خَياله ، وتَغلُّب كِبْره المردى واختياله ، وما يصدُر عنه من قبيح آثاره وأعماله ، فإنما يُستَعْلم تحقيقُها منكم ، ويُتَعرَّف تصديقها من لدنكم ؛ بِصدْق جِوارِكم ، ودُنُوّ داركم ، وتداخُل آثارِه مع آثارِكم ؛ فأنتم أقربُ اطّلاعا علىٰ خُبْث سِرِّه ، وسُوء مَكْره ، وما يُضْمِر للمسلمين من إذايته وضُرّه ؛ فمتىٰ انصرفتْ وجوهُ المسلمين إلىٰ جهادهم ، واشتغلُوا بتأمين بلادهم ، انتهز الفُرصةَ فى فسادٍ يُحْدِثه ، وعَقْد ينكُثه ، واستعجالِ ما يعجِّل عليه ولا يلبِّثه ؛ ونحن نُعْرض عنه إعراضَ من يرجُو مَتابه ، ويرتقب رُجوعَه إلىٰ الحق وإيابه ، وهو متخَبِّط فى أهوائه ، مستمرٌّ علىٰ غُلَوائه ، مُصِرّ علىٰ إضراره واعتدائه ، لا يكُفُّ الكَفُّ عنه من استطالتِه ، ولا يُريه الاستبصارُ وِجْهةَ جهالته ، فوجب علينا بحكم النظَر للبلاد التى لحقَها عُدْوانه ، وأضرّ بها مكانُه ،

وتكرَّر عليها امتحانهُ، أن نُعاجل حَسْم عِلّته، ونَسُدّ مَواقعَ خَلَله، ونرد عليه كلَّ مضَرَّةٍ لاحقةٍ من قِبَله، حتّى يَستريح الناسُ إلى أمن مبسوط، وكَنَفٍ مضبوط، وحَوْزٍ بالكِفاية والوِقاية مَحُوط، وقد كُنّا عند الفَراغ من مصالح البلاد الغَرْبيه، وآنتهاء الفتح فيها إلى مالم يدُرْ بالخاطر ولم يُحْسَب بالنّيه، نظَرْنا فى إعداد جموعٍ من أجناد الغَرْب، وتخيَّرنا منهم كلَّ من دَرِب بالطَّعْن والضَّرْب، وسَعِد لكم (؟) من جَماهير الأعْراب وجَزُولة وسائر القبائل النازلين بالبِلاد، المتأهّبين لمـا يُطْلَبون به من الغزو والجهاد، ورسَمْنا لهم أن يلحَقُوا بنا عند الآستدعاء، علىٰ ماجدّدْنا لهم فى الآنتخاب والآنتقاء، لتأخُذَ الجموعُ كلُّها من محْوِ أثرِ هذا الخائن بنصيب، وتَضْرب فيه، وفى كلِّ عملٍ يَعْقُبه، بسهمٍ مُصيب، لكن لما تعجّل حركتَه التى تعجّل بها الحَيْن، وساقه إليها القدَرُ الذى أعمىٰ البصيرةَ والعَيْن، رأينا أن نُنْفِذ إليه قصْدَنا، وأن نعاجِلَه بما حضر عندنا، متوافرةَ الأعداد، غنيَّةً عن الآستمداد، غير مفتقرةٍ إلى الآزدياد، ومع هذا فقد أمرْنا أهلَ الجهات كلّها بالّحاق بنا، وأنْ يَنْهَض جميعُ أعدادهم من الخيل والبَطَل والرُّماة علىٰ سبيلنا ومذهبنا، لتكونَ الأيْدى فى هذه المصلحة العامّة واحده، والعقائدُ فى دفع هذا الضرر عن الكافة متعاقده، حتّى يذهبَ أثرُ هذه النَّكْبة وعينُها، ويزُولَ عن بَهْجة الإحقاق والآتّفاق شَيْنُها، وإذا وجب علىٰ أهل هذه الجهات أن يَنْفِروا فى هذه الدَّعاة خِفَافا وثقالا، ويُبادروا رُكبانا ورجَالا، كانَ الوجوبُ فى حقِّكم وجوبين، والفرضُ عليكم فرضَيْن، لمـا يخُصُّكم من هذه المصلحة التى أنتم أولىٰ من يجتلى صُوَرها، ويجتَنى ثمرَها، ويجِـدُ فى حالهِ وآستقباله إثرها، فليكُنِ آستعدادكُم بحسَبِ ذلكم، وآستوعِبُوا جميع أنجادكم، من خَيْلكم ورُماتكم ورجالكم، وكونُوا واقفين على قَدَم التأهُّب إلىٰ أن يكون الآجتياز من هُنالكم، إن شاء الله تعالىٰ والسلام".

الأســـلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أما بعد» وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن تُعقَّب البعديةُ بالحمد لله، ويؤتىٰ علىٰ الخطبة إلىٰ آخرها، ثم يتخلّص إلىٰ المقصود ويختَم بالسلام علىٰ نحو ما تقدّم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبى عبـد الله بن هُود أيضا إلىٰ أكابر بلَده بالرِّفق بالرعية عند وُرود كتابهم عليه بتحصين البلد، و بلوغه جورُ المستخْدَمين بها علىٰ الرعية، وهو :

أما بعدَ حمد الله تعالىٰ مُعْلِى منَارِ الحقّ و رافعه، ومُولى مُتوالِى الإنعام ومُتَابِعه؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد عبدِه ورسوله مشفَّع الحَشر وشافعه، المبعوثِ ببدائع الحِكَم وجوامِعِه؛ وعلىٰ آله وصحبه المبادِرين إلىٰ مَقاصِـده العلية ومَنَازِعه، والذّابِّين عن حَوْزة الإسـلام، بمواضى الأعتزام، وقواطِعِه؛ والرضا عن الخليفة الإمام العباسىّ أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَال سموُّ مَطَالعه .

فإنا كتبنا إليكم - كتب الله لكم عِزّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطها للنماء حائز- من فلانة، وكلمةُ الحق منصورةُ اللواء، منشورةُ الأضواء، والتوكُّل علىٰ الله فى الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مناطُ أمرنا فى الأنتهاء والأبتداء، وحمدُ الله تعالىٰ وشكرُه وَصَّلَنا إلىٰ نَيْل مزيد النَّعماء والآلاء؛ ومكانتُكم لدَيْنا مكانةُ السَّنِىّ المَناصب، المنتمِى إلىٰ كِرام المنتَميات والمَنَاسب، المتحلِّى فى الغَناء والاكتفاء، والخلوص والصَّفاء، بأكرم السَّجيّات والمَنَاقب؛ المعلومِ مالديه من المصالحة السالكة بأكرم السَّجيّات فى المَنَاحى الحِسان علىٰ المَهْيَع الأوضح والسَّنَن اللّاحب .

وقد وقفنا على كتابكم مُعلِما بخبر فلانة وما رأيتموه من المَصْلحة فى تحصينها، والاجتهادِ فى أسبابِ تأمينها؛ ونحن نعلم أنكم تُريدون الإصلاح، وتتوخَّوْن ماتتوسَّمون فيه النَّجاح، لكن أهمّ الأمور عندنا، وأولى مايُوافق غرَضنا وقصْدنا، الرفقُ بالرعيَّه، وحملُها على قوانين الإحسان المَرْعيّه - وعلى أثر وُصول كتابكم وصَلَنا كتابُ [أهل] فلانة المذكورة يشكُون ضرَر الخدَمة المتصرِّفين فيهم، ويتظلَّمون من متحيِّفيهم ومتعسِّفيهم، وفى هذا مالا يخفى عليكم، ولا تَرْضَوْن به لو انتهى إليكم؛ فإنه إذا كان الناظرُ فى خدمةٍ ممن لا يُحسن سياسةَ الأمور، ولا يعلم طريقةَ الرِّفق الجارية بوَفْق الخاصة والجُمهور، أعاد التسكينَ تنفيرا، والتيسيرَ تعسيرا؛ وتعلمون أنا لا نُقدِّم على إيثار العدل فى عِباد الله المسلمين عملا، ولا نبغى لهم باطنة بغير التخفيف عنهم والإحسانِ إليهم بدَلا، وأنتم أولى مَنْ يُعتقَد فيه أنه يكمِّل هذا المَقْصَد، ويتحرَّى فى مصالح الرَّعايا هذا السَّنَنَ الأرشَد؛ وقد خاطبْنا أهلَ فلانة بما يُذْهب وَجَلهم، ويَبْسُط أملَهم؛ وعرّفناهم بأنكم لوعلمتم مَنْ جار عليهم من الخَدَمة لأخذتم على يَده، وجازيتموه بسُوء معتقَده؛ وأشعرناهم بأنا قد آستوصَيْناكم بهم خيْرا، ونبَّهناكم على مايَدْفع عنهم ضَيْما ويَرْفع ضَيْرا؛ وأنتم - إن شاء الله - تستأنِفون نظرا جميلا، وتُؤخِّرون عنهم الخَدَمَةَ الذين لايسلُكون من السياسة سبيلا، وتُقدِّمون عليهم من تَحْسُن فيهم سيرتُه، وتَكْرُم فى تمشيته الرِّفق علانيتُه وسريرتُه؛ ومثلُكم لا يؤكَّد عليه فى مذهبٍ تحسُن عواقبُه، وغرضٍ يُوافقه القصدُ الاحتياطىُّ ويصاحبُه، إن شاء الله تعالى والسلام.

الضـــرب الثـانى

(أن تعقَّب البعديةُ بذكر المقصود من غير خُطْبة ، ثم يؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره علىٰ نحو ما تقـــدم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القُضاعىّ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبى جميل إلىٰ أهل ناحية بولايةِ والٍ عليهم وهى :

أما بعدُ، فالكتاب ـ كتب الله لكم مِلْءَ الجوانبِ، قَرارا، وأرسل عليكم سمـاءَ المواهب ، مِدْرارا ، من فلانة ، وليس إلا الخيرُ الدائم ، واليُسر المُلازِم ، وقد توالىٰ إعلامُكم بالغرض الجميل فيكم ، والاْعتناءِ المتَّصل بتمهيد نَوَاحيكم ؛ وأنتم اليوم بثغرٍ متحيِّف ، وجنابٍ متطرِّف ؛ يتضاعَفُ الاْحتياط عليه ، ويجب تيسيرُ المِيَر إليه ؛ فالنظر له مُعْمَل ، والتهمُّم به لا يُهْمَل ؛ وهذه ألسُنٌ قد مُلِك قِيادُها ، وأُوثر بوجوه القَرابة إمدادُهـا ، وفلان قد خاطب يستأذن فى القُدوم علىٰ الباب الكريم ، ويؤكِّد ما عنـده فى الخِدْمة والتصـميم ؛ والخيراتُ بسبيل الاْتصال ، والمَسرَّات واردةٌ مع البُكُور والآصال .

والحمد لله الجسيمِ فضلُه ، والعظيمِ نَيْـلُه ؛ فاْحمَـدُوا الله على ما يَسَّر لنـا ولكم ، وآستوْزِعوه شكر ما خَوّلَنا وخوَّلَكُم ؛ وآعلموا أنا نَرْعاكم ، كما رعىٰ أوّلُنا أولاكم ؛ وقد عُيِّن لموضعكم كذا وكذا فاْنفـذُوا إلينا بعضَكم مُعْجِلا ، وآستشعروا إنمـاءَ الأَثَرة ، وآطِّرادَ النُّصْرة ، حالًا ومستقْبَلا ، والحركةُ الكبرىٰ ـ يمَّنها الله ـ قد شُرِع فى أسبابها ، وأُتِىَ مايُؤْتَى بمشيئة الله الفتحَ القريبُ من بابها ؛ ولا غِنًى بما يُدار فى ذلك عن فلان وقد خُوطب بالوصول ، ووُجِّه إليكم فلان واليـا عليكم ، وثاويًا لديكم ؛ وهو ممن خُبِرَتْ كفايتُه ، وآرتُضِيتْ لجبر أحوالكم سيا ستُه ، وشُكِر هنا فأُوثِرتم به هنالكم ؛ وقد فُوِّض

إليكم من نظر(١) لخاصّتكم وجُمهوركم، وقلد بما يستقلُّ أتمَّ الاستقلال من تدبير أموركم، وأمضى معه من الأجناد طائفةً يحسنون الدفاع والذّياد، ولا يفارقون الجِدّ والاجتهاد، ووراءَ هذا من كريم العناية وجميل النظر، مايقضى لكم بالفَلَج والظَّفَر، ويُديلكم بالأمانة الشاملة من الذُّعر والحَذَر، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الأســلوب الثالث

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «كتابُنا إليكم من موضع كذا، والأمرُ على كذا وكذا» ويؤتىٰ على المقْصد إلىٰ آخره ويُختم بالسلام)

وربمـا قيل : «هذا كتابنا إليكم» وربما قيل : «كتَبْنا إليكم» ونحو ذلك .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن ابن هود فى البِشارة بفتح حصن، وهو :

كتابُنا إليكم ـ أطلع الله عليكم من البشائر أنورها جَبينا، وأوضحَها صُبْحا مُبينا ـ من فلانة فى يوم كذا .

ســلامٌ عليكم فإنى أحمدُ إليكم اللهَ الذى تكفَّل بنَصْر من ينْصُره، ونصلّى على سـيدنا محمد الكريم محْتِدُه الزاكى عنصُرُه، ونُجدّد مشفوعَ الصلوات، ونردّد مرفُوعَ الدعوات، للإمام الخليفـة «المستنصر بالله أمير المؤمنين» ذى المناقب التى لاعادّ يعدُّها، ولا حاصِر يحصُرُها .

والحمدُ لله الذى أنعم علينا بتقليد إمامته، التى لا تُعقَد معها إمامه، وأقامنا لإقامة دَعْوته، التى لاتجوز علىٰ غيرها إقامه، وجعَلنا نَرمى الغرضَ باسمه الأشرف فنُصيبه، ونسـتوهِبُ فضلَ الله سبحانه فيتوفَّر قِبَلنا نَصيبُه، ونستنزلُ بخلافته المباركةِ جوامعَ النصر، كما استنزل الفاروقُ بغُرّة جَدّه هوامِعَ القَطْر، فتسيرُ أمامَ رايته السَّوْداء بالأثرِ

---

(١) لعله "إليه النظر الخ" .

المُبِيض ، وتُرْوِى هذه أُوامَ القلوبِ كما أَرْوَىٰ ذلك أُوَامَ الأرض ، وما زِلْنا منذُ كان النزولُ على هذا الحصن نتعرّف فيه من مخايل النُّجح ، ودلائل الظّفَر والفتح ، ما أعطانا فَثَلج اليقينُ بأنا نَفصِم عُرْوته ، ونَقْرَع ذِرْوته ، ولم يزل العزمُ يذلّل شِمَاسه ، ويقَلّل ناسَـه ، حتّى أذعنوا لما عُرّفتم به من النزول لوقتٍ معدود ، وأمدٍ محدود . ثم إنهم خامَرَهم طارقُ الوَجَل ، فعجّلوا أداء دَيْنِــه قبل حُلول الأجل ، وأمكنَ اللهُ من هذا المَعْقِل الفذّ فى المَعَاقِل ، وقتلَ الطائين لامتناعِهم والحسامُ إن شاء الله تعالىٰ فى يَدِ القاتل ، وقد صَعِدتْ راياتُنــا علىٰ السُّور ، وسَعِدت إدارتُنا بالعَزْم المنصور ، وشيَّد اللهُ من هذا الفتح الجليل أقصىٰ الفُتُوح بعلوٍ ، وأشجاها للعدوّ ، وأدلّها علىٰ نُجْح عملٍ مستأنفٍ وبلوغ أملٍ مرجوّ .

والحمــد لله الذى ردّ حَقّنا المغتصَب ، وكفانا فى وَجْهنا هذا التعبَ والنّصَب ؛ وعرّفنا كم بهذا الخبر الذى هو غِذاءٌ للرُّوح ، والمنبئ عن فتح الفُتُوح : لتشكُروا اللهَ عليه شكرا ، وتُوَفُّوه حقّه إذاعةً له ونَشْرا ، وتُجَدِّدوا بحمدالله [علىٰ] ما أَوْلىٰ من خالص النِّعم ، ووافر القِسَم ، ما يَطيب به المُعرَّس والمَقِيــل ، ويُستقْصَر به الأمَدُ الطويل . واكتبُوا من خطابنا هذا نُسَخًا إلىٰ الجهات ليأخذ منهــا كلٌّ بحظه ، وينْعَم القريبُ والبعيدُ بجلالة معناه وجَزَالة لفظه ؛ أعاننا اللهُ وإيّاكم علىٰ شــكر إحسانه الجزيل ، ولا أخلىٰ من لطفه العميم ونظره الجميل ، بمنّه والسلام .

الحالة الثانيـــة

(ما الأمر مستقر عليه الآنَ مما كان عليه عَلّامة متأخرى كُتّاب المغرب

أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير ابن الأحمر : صاحب

حمراءِ غَرْناطة من الأندلس)

والأمر فيها على نحو ماتقدم فى الحالة الأولى : من التعبير عن المكتوب إليه بميم الجمع وإن كان واحدا، والتزام الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبنا إليكم ونحو ذلك. وعادتهم أن يُكتب كتابُ السـلطان فى طُومارٍ كامل ، فإن استوعب الكلامُ جميع الطومار كُتِب على حاشيته ، ويكتبُ صاحبُ العـلامة علامةَ السلطان فى آخره ، ويُطوى طيًّا عريضا فى نحو ثلاث أصابع معترضـة ، ثم يُكْسَر ويطوى نصفين ، ويكتبُ العُنْوان بالألقاب التى فى الصَّدْر ، ويُحْزَم بدَسْرة من الورق ، ثم يُخْتَم بخاتم السلطان على شَمَع أحمر كما تقدم بيانه .

وهى على ثلاثة أساليبَ :

الأسـلوبُ الأوّلُ

(أن تُفتتح المكاتبةُ باللَّقب اللائقِ بالمكتوب إليه ، وهو على أضْرُب)

الضـرب الأوّل

(أن يبتدأ بلفظ «المقام» وهو مختصٌّ بالكتابة إلى الملوك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المَقَام» ويُنْعت بما يليق به ، ثم يُقال : «محلُّ أخينا، أو محلُّ ولدنا ، أو محلُّ والدِنا السلطان» ويؤتى بألقابه ثم يسمَّى ؛ ثم يقال : « من فلان » ويُفعل فيـه كذلك إلى منتهى نَسَبه ، ويُدعى له بالبقاء وما يتبعه ؛

ثم يقال : معظّم قدره أومعظّم مَقَامه، وما أشبه ذلك، ويذكر آسمُ المكتوب عنه؛ ثم يقال : أما بعدَ حمد الله ويُؤتىٰ بالخطبة إلىٰ آخرها ، ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا ، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره ، ويختَمُ بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبُو عبد الله بنُ الخطيب المقدّم ذكره عن سلطانه آبن الأحمر المذكور أعلاه، إلىٰ السـلطان أبي عِنانِ بنِ أبي الحسن المَرِينيّ صاحب فاس، عند موت الطاغية ملك قَشْتالة من إقليم أشْبِيلِيَةَ ، وطُلَيطُلَة، وقُرْطبةَ وما معها بعد نُزُوله علىٰ جبل الفَتح من مملكة المسلمين بالأندلُس لمحاربة المسلمين فيه، ورحيل قومه بعـد موته به، وهو :

المقامُ الذى أنارت آياتُ سـعده، فى مسطور الوجُود ، وتبارَتْ جيادُ مجْده ، فى ميدان البأس والجُود ، وضمِنَتْ إيالتُه لمن بهذه الأقطار الغربيةِ تجديدَ السُّعود ، وإعادةَ العُهُود، وآختلفَتْ كتائبُ تأييد الله ونصره لوقْته المشهورِ فيها ويومه المَشْهود؛ مقامُ محلّ أخينا الذى نُعَظّمه ونرفَعُه ، ويُوجب له الحقَّ العلىَّ موضـعُه ؛ السلطان أبي عِنَـان آبن السـلطان أبي الحسن ، ابن السـلطان أبي سـعيد ، ابن السلطان أبي يوسُفَ ، بن عبد الحق ـ أبقاه الله يتهلّل للبشرىٰ جَنَابُه ، ويُفتَح لواردِ الفتح الإلهيّ بابُه ، وتُعْمل فى سبيل الله مكارِمُه وعزائمُـه ورِكابُه ، ويتوفَّرُ بالجهاد فيه مجدُه وسـعدُه ونخْرُه وثوابُه ؛ مُعظّم قدره الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فَرَج بن نصر، سلامٌ كريم مشفوعٌ بالبشائر والتّهانى، محفوف [الركاب][1] ببلوغ الأمانى، ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعـدَ حمدِ الله مُطْلِع أنوار الصنائع العجيبة متألّقـةَ الغُرَر ، ومُنْشِئ سحائب الألطاف، الكريمةِ الأوصاف، هاميةَ الدِّرَر، الكريمِ الذى يُجيب دعوةَ المُضْطَرّ إذا

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

دعاه، ويكشف السوء وما أمره إلا واحدةٌ كلمحٍ بالبصر، حجب كامن(١) ألطافه عن قوى الفِطَن ومدارك الفِطَر، فما ﴿يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى المعجزات الباهرة والآيات الكُبَر، الذى بجاهه الحصين نمتنع عند استشعار الحذَر، وبنور هداه نستضىء عند التباس الوِرْد والصَّدَر، فنحصل على الخير العاجل والمنتظَر، والرضا عن آله وأصحابه الكرام الأثر، الذين جنَوْا من أفنان الصبر فى الله ثمار الظَّفَر، وفازوا من إنجاز الوَعْد بأقصى الوَطر، وانتظموا فى سلك الملة الرفيعة انتظام الدُّرَر، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال المسرّات وتوالى البُشَر، والسعد الذى تجرى بأحكامه النافذة تصاريفُ القدَر، والصُّنْع الذى تُجلى عجائبُه فى أجمل الصُّوَر — فإنا كتبناه إليكم — كتب الله لكم من حظوظ فضله وإحسانه أجزل الأقسام، وعرّفكم عوارف نعمه الثَّرّة وآلائه الجسام — من حمراء غَرْناطة — حرسها الله — واليُسْرُ بفضل الله طاردُ الأزمات بعد ماقعدتْ، وكاشفُ الشدائد بعد ما أبرقتْ وأرعدتْ. ثم ماعندنا من الاعتداد بإياكم التى أنجزتْ لنا فى الله ماوعدتْ، ومددْنا إليها يَدَ الانتصار على أعدائه فأسعدتْ، إلا الصُّنْعُ العجيب، واليُسْر الذى أتاح ألطافَه السميعُ المجيب؛ واليُمْنُ الذى رفع عمادَهُ التيسيرُ الغريب، ومدّ رُواقَهُ الفرجُ القريب؛ وإلى هذا أيّدكم الله على أعدائه، وأجزل لديكم مواهبَ آلائه؛ وحكم للإسلام على يديكم بظهوره واعتلائه، وعرّفكم من أخبار الفتح الهنىّ المدْفَع وأنبائه كلّ شاهدٍ برحمته واعتنائه.

فإنا كتبناه إليكم نحقّق لديكم البُشْرى التى بمثلها تُنضى الرِّكاب(٢)، ويُخاض العُباب؛ ونَعرض عليكم ثمرةَ سعدكم الجديدِ الأثواب، المفتّح للأبواب؛ عِلْماً بما عندكم

(١) فى ريحانة الكتاب "مكامن".

(٢) الركاب المطىّ واحدها راحلة من غير لفظها.

من فضل الأخلاق، وكرم الأعراق ؛ وأصالة الأحساب ، والمعرفة بمواقع نعم الله التى لا تجرى لخلقه على حساب ، والعناية بأمور هذا القطر الذى تعلق بأذيال ملكِكم السامى الجناب . [وقد تقرر لدى مقامكم الأسنى ما كانت الحال آلت إليه بهذا الطاغية](١) الذى غرّه الإمهالُ والإملاء ، وأقدمه على الإسلام التمحيصُ المكتوبُ والابتلاء ، فتملأ تيها وعُجبا ، وارتكب من قهر هذه الأمة المسلمة مركبا صعبا ؛ وسام كلمة الإسلام بأسًا وحربا ، فكتائبُ برّه توسع الأرجاءَ طعنا وضربا ، وكتائبُ بحره تأخذ كلَّ سفينة غصبا ، والمخاوف قد تجاوبت شرقا وغربا ، والقلوبُ قد بلغت الحناجرَ غمًّا وكربا ، وجبلُ الفتح الذى هو بابُ هذه الدار ، وسببُ الاستعداء على الأعداء والانتصار ، ومسلكُ الملّة الحنيفيّة إلى هذه الأقطار ، قد رماه ببوائقه ، وصيّر ساحته مجرّ عواليه ومجرى سوابقه ، واتخذه دار مقامه ، وجعله شغل يقظته وحلم منامه ، ويُسّر له مايجاوره من المعاقل إملاءً [من الله] لأيامه ، فاستقر به القرار ، واطمأنت الدار ، وطال الحصار ، وعجزت عن نصره الحيلُ والأنصار ، ورجمت الظنونُ وساءت الأفكار ، وتجر نظارَ القلوب الاضطرار ، إلى رحمة الله والافتقار ، فجبر الله الخواطر لما عظم بها الانكسار ، ودار بإدالة الإسلام الفلكُ الدوّار ، وتمخض عن عجائب صُنع الله الليلُ والنهار ، وهبّت نواسمُ الفرج ، عاطرةَ الأرج ، ممن يخلقُ ما يشاءُ ويختار ؛ لا إله إلا هو الواحدُ القهّار .

وبينما نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقل العزيز على الإسلام لجّة متراميةَ المعاطب ، ونقتعد صعبا لا يليق بالراكب ؛ ولولا التعلّق بأسبابكم فى أنواء تلك الغياهب ، وما خلص إلى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المواهب ، ومواعيدكم الصادقة ومكارمكم الغرائب ، وكتبكم التى تقوم عند العدو مقام الكتائب ، وإمدادكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ريحانة الكتاب .

تلاحُقَ العظام الجنائب، لما رَجَع الكفرُ بصفقة الخائب، إذ تجلّى نورُ الفرج من خلال تلك الظُّلمه، وهَمَتْ سحائبُ الرحمةِ والنِّعمةِ على هذه الأُمَّه، ورمى اللهُ العدوَّ بجيش من جُيوش قُدرته أغنى عن العديد والعُدّه، وأرانا رَأْيَ العِيان لطائفَ الفَرَج من بعد الشِّدّه، وأهلك الطاغيةَ حتْفَ أنفه، وقطَع به عن أَمَله قاطعُ حتفه، وغالته أيدى المَنونِ فى غيلِه، وانتهى إلى حُدُود القواطع القويّةِ والأشعّة المِرّيخية نصيرُ دليله؛ فشفى اللهُ منه داء، وأخذه أشدَّ ما كان اعتدادا واعْتداء؛ وحمى الجزيرةَ الغربية وقد صارَتْ نُهْبَةَ طُغاته، وأشرقه بِرِيقه وهى مُضْغة فى لَهَواته؛ سبحانَه لا مبدِّل لكلماته.

فانتثر سِلْكُه الذى نَظَمه، واختلَّ تدبيرُه الذى أحكمه؛ ونطقتْ بتَبارِ مَحَلَّاته ألسنةُ النار، وعاجلَت انتظامَها أيدى الانْتِثار؛ وركَدتْ رِيحُه الزَّعْزَعُ من بَعد الإعصار، وأصبح من استظْهَر به من الأشياع والأنصار ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ وولّوا به يحثُون التُّرابَ فوق المَفارِق والتَّرائب، ويخلِطُون تِبْرَ السِّبال الصُّهْبِ بذَوْب الذَّوائب؛ قد لبِسوا المُسوحَ حُزْنا، وأرسلُوا الدموعَ مُزْنا، وشقُّوا جيوبَهم أسفا، وأضرمُوا قلوبَهم تلهُّفا؛ ورأَوْا أنّ حصنَ استطبونة[1] لايتأتَّى لهم به امْتِناع، ولا يُمكِنُهم لمن يرومُه من المسلمين دِفَاع؛ فأخلَوْه من سُكّانه، وعاد فيه الإسلام إلى مكانه؛ وهو ماهو من طِيب البُقْعه، وانْفِساح الرُّقْعه؛ ولو تمسَّك به العدُوّ لكان ذلك الوطنُ بسُوء جواره مكْدُودا، والمسْلَك إلى الجبل ـ عصمه الله ـ مسْدُودا؛ فكان الصنيعُ فيه طرازًا على عاتق تلك الحُلّة الضافيه، ومزيدًا لحُسْنى العارفةِ الوافيه؛ فلمَّا استجلينا غرّةَ هذا الفتح الهنيّ، والمَنْح السَّنيّ، قابلْناه بشكر الله تعالى وحمده، وضَرعْنا إليه فى صلة نِعَمه فلا نعمة إلا من عنده؛ وعلِمنا أنه عُنوانٌ على مزيد ملككم الأعلى وعلامةٌ على سَعْده، وأثرُ نيّته

(١) فى الريحانة "استبونة" ولم نعثر عليه.

للإسلام وحُسنِ قصده ، وذُخرُ ذخره الله لأيامكم لا نهاية لحدّه ، فإنكم صرفتم وجه عنايتكم إلى هذا القطر على نأى المحلّ وبُعْـده ، ولم تَشْغَلْكم الشواغلُ عن إصلاح شأنِه وإجزال رِفْده .

وأما البَلَدُ المحصورُ ، فظهر فيه من عَزْمكم الأمضى ما صَدّق الآمالَ والظُّنُون ، وشَرَح الصُّدُور بمقامكم وأقرّ العيون : من صِلَة الإمداد على الخَطَر ، وتردُّد السابلةِ البحرية على بُعْـد الوطن وتعذُّر الوَطَر ، واختلافِ الشَّوانى التى تَسْرِى إليه سُرى الطَّيْف ، وتخلُصُ سهامُها إلى غَرَضه بعـد أَنَّى وكَيْف ؛ حتَّى لم تَعْدَمْ فيه مَرْفَقَةٌ يسُوء فُقْدانُها ، ولا عُدّةٌ يهمّ شأنُها ؛ فجزاؤكم عندَ الله موفُور القِسْم ، وسعيُكم لديه مشكورُ الذِّمم ؛ كافأ الله أعمالَكم العاليةَ الهِمَم ، وخِلالَكم الزاكيةَ الشِّيَم ؛ فقد سَعِد الإسلامُ ــ والحمد لله ــ بمُلْككم الميمونِ الطائر ، وسَرَتْ أنباءُ عنايتكم بهذه البلاد كالمَثَل السائر ؛ وما هو إلا أن يَسْتَتِبَّ اضـطراب الكُفّار واختلافُهم ، ويتنازَعَ الأمْرَ أصنافُهم ؛ فتغتنمون إن شاء الله فيهم الغِرّةَ التى ترتقبها العزائم الشريفه ، والهممُ المُنِيفـه ، وتجمع شيمُكم العُلْيـا ، بين فخر الآخرة والدُّنيا ، وتحصُل على الكمال الذى لاشَرْطَ فيه ولا ثُنْيا ؛ فاهنئُـوا بهذه النِّعمة التى خَبأها الله إلى أيّامكم ، والتُّحفة التى بعثها السَّـعْدُ إلى مَقامكم ؛ فإنمـا هى بتوفيق الله ثمرةُ إمدادِكُم ، وعُقْبى جِهادكم ؛ أوزعَنا اللهُ وإيّاكم شكْرَها ، وألهمنا ذِكْرَها .

عرّفناكم بمـا اتّصـل لدينا ، وورَدَ من البشائر علينا ؛ عملاً بمـا يجب لمَقامكم من الإعلام بالمتزيّدات ، والأحوال الوارِدات ؛ ووجّهنـا إليكم بكتابنا هـذا مَنْ ينوب عنّا فى هذا الهَناء ، ويُقرِّر ماعندنا من الوَلاء ، وما يتزيّد لدينا بالأنباء ، خالصةَ إنعامنا ، المتميّزَ بالوسيلة المرعيَّـة إلى مَقامنا ، الحظىّ لدينا ، المقرَّبَ إلينا ؛ القائدَ الفلانىَّ أبا الحسن عبادا وصل الله عِزّته ، ويمّن وِجهته ؛ ومَجْدُكُم ينْعِم بالإصغاء إليه ، فيما أحلْنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدكم ، ويحرُس مجدَكم ؛ والسلام .

⁂

وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبى سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تلمسان، عند بعثه بطعام إلى الأندلس، شاكرًا له على ذلك، ومخبرًا له بفتح حصن من حصون الأندلس يسمّى حِصْن قنيط، وهو :

المقامُ الذى تحدّثتْ بسعادته دولةُ أسلافه ، وآتّفق به قولُهـا من بعد آختلافه ، وعاد العقدُ إلى آنتظامه والشَّمْلُ إلى آئتلافه ؛ مقامُ وليّنا فى الله الذى هيّأ الله له من جميل صُنْعه أسبابا، وفتَح به من [مُبْهَم][1] السَّعْد أبوابا ، وأطلَع منه فى سمـاء قومه شهابا. وصَفِيّنا الذى تُنْهِبُ القولَ فى شكر جَلاله ووصْفِ خِلاله إسهابا، السلطان أبو سعيد عثمانُ، آبنُ الأمير أبى زيد، آبنِ الأمير أبى زكريّا، آبن السلطان أبى يحيى يغمراسن ، بن زيان ؛ مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه ــ أبقاه اللهُ للدولة الزّيّانية ــ يُزيّن بالأعمـال الصالحة أجيادَها ، ويَملِك بالعدْل والإحسان قِيادَها، ويُجْرِى فى ميدان النَّـدىٰ والباس، ووَضْع العُرْف بين الله والنـاس، جيادَها . سلامٌ كريم كما زحفَتْ للصباح شُهب المواكب، وتفتّحت عن نَهَر المجـرّة أزهارُ الكَواكب ؛ ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعدَ حمدالله جامع الشَّمْل بعد آنصداعه وشَتَاته،وواصلِ الحَبْل بعد آنقطاعه وآنْبِتاته ؛ سبحانَهُ لامبدّل لكلماته، والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمد رسولِه الصادع بآياته ، المؤيّد ببيّناته ؛ الذى آصطفاه لحمل الأمانةِ العُظمىٰ ، وحَباه بالقَـدْر الرفيع والمحلّ الأسمىٰ ؛ واللهُ أعلمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالاتِه . والرضا عن آله وصَحْبِـه وأنصاره وحزبه وحُمَـاته، المتواصلين فى ذاتِ الله وذاتِه ، القائمين بنَصْر دينه وقَهْر عُدَاته . فإنّا كتبْناه إليكم ــ كتب الله لكم سعدًا ثابتَ الأركان ، وعزًّا سامِىَ المكان، ومجدًا

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب .

وَثيقَ البُنْيان، وصُنْعا كريمَ الأثرِ والعِيان ــ من حمراءِ غَرْناطة ــ حرسها الله ــ والثقةُ بالله سبحانه أسبابُهـا وَثيقه، وأنسابُها عَتِيقه، والتوكُّل عليه لاتلتَبِس من سالكه طريقه ولا تختلِطُ بالمجاز منـه حَقِيقه، وعندنا من الاعتدادِ بكم فى الله عُقودٌ مُبْرَمه، وآىٌ فى كتابِ الإخلاص مُحْكَمه، ولدَيْنا من السُّرور، بما سَنَّاه الله لكم من أسباب الظُّهور، الذى حُلَلُه مُعْلَمه، وحُجَجُه البالغةُ مسلَّمه، مالاتفِى العبارةُ ببعض حُقوقه المُلْتَزَمه، وإلىٰ هذا ــ أيد الله أمرَكم ــ فإننا ورد علينا فلان وصل الله كرامتَه، وسنَّىٰ سلامتَه، صادرا عن جهتكم الرفيعةِ الجانِب، الساميَةِ المَراقب، طَلْقَ اللسان بالثناء بما خَصَّكم الله به من فضل الشمائل وكرم المذاهِب، محدِّثا عن بحر مكارمكم بالعَجائب، فحضر بين يدينا مُلْقِيا ماشاهده من آزدياد المَشاهد، بتلك الإياله، وآستبشارِ المعاهد، بعودة ذلك الملك الرفيع الجَلاله، الشهير الأَصاله، ووصل صُحْبتَه ماحمَّلتم جَفْنَة[١] من الطعام برسم إعانةِ هذه البلاد الأندلُسيَّه، والإمداد الذى آفتتحتم به ديوانَ أعمالكم السنيَّه، وأعربتم به عمَّا لكم فى سبيل الله من خالص النيَّـه، وأخبر أنَّ ذلك إنمـا هو رَشَّة من غَمَام، وطليعةٌ من جيشٍ لُهَام، ووَفْدٌ من عَدَد، وبعْضٌ من مَدَد، وأنَّ عزائمكم فى الإعانة والإمداد علىٰ أوّلها، ومكارمكم يُنْسىٰ المـاضى منها بمستقبلها؛ فأثنينا علىٰ قصدكم الذى لله أخلصتموه، وبهذا العمل البِرّ خصصتُموه؛ وقلنا : لاينكر الفضلُ علىٰ أهله، وهذا بِرٌّ صَدَر عن محلِّه؛ فليست إعانةُ هـذه البلاد الجهاديَّة ببِدْعٍ من مكارمِ جنابِكم الرفيع، ولاشاذَّةٍ فيما أسْدىٰ علىٰ الأيام من حُسْن الصَّنِيع؛ فقـد علم الشاهدُ والغائب، ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليها الحَقائب، ماتقدّم لسَلَفكم فى هـذه البلاد من الإرْفاق والإرفاد، والأَخْذ بالحظِّ الموفُور من المُدافعَة والجهاد، وأنتم أوْلىٰ مَنْ جدّد عُهودَ قومه، وكان غَدُه فى الفَخْر أكبرَ من يومه، وقد ظهرتْ لله فى حيِّز تلك

(١) مراده سفينة أو نحو ذلك .

الإيالة الرَّبَّانيَّة نتيجةُ تلك المقدّمات، وعُرِفت بركةُ ماأسلفته من المكْرُمات. وسنَّى الله سبحانه بين يدَىْ وُصول مابه تفضَّلتم، وفى سبيله بذَلتم، أن فتح جَيْشُنا حصناً من الحصون المجاورة لغربىّ مالَقَة يُعْرَف بحِصْن قنيط من الحُصُون الشهيرة المعروفه، والبُقَع المذكورة بالخِصْب الموصُوفه، ودفَع الله مضرّتَه عن الإسلام وأهلِه، ويَسّره بمعهودِ فضله، فجعَلْنا من ذلك الطعامِ الذى وجَّهتم طُعْمةَ حُمَاته، ونفقاتِ رجالِه ورُمَاته، آختياراً له فى أرضىْ المَرَافق من سُبُل الخير وجِهاته. وأما نحن فإنْ ذهبْنا إلىٰ تقرير ماعندنا من الثناء، علىٰ معَالِى مُلْكِكم الأصيلِ البناء، والآعتدادِ بمَقامكم الرفيع العِماد، والآستنادِ إلىٰ ولائكم الثابت الإسناد، لم نبلُغ بعضَ المُراد، ولاوفىٰ اللسانُ بمـا فى الفؤاد، فمن الله نسألُ أن يجعلَه فى ذاته، وذريعـةً إلىٰ مَرْضاته، ومرادنا من فضلكم العميم، ووُدِّكم السـليم، أن تحْسِبُوا هـذه الجهة بجهتكم فيما يَعْرِض من الأغراض: لنعمل فى تتميمها بمقتضىٰ الوُدّ العَذْب المَوارد، الكريم الشَّواهد، والله يَصِل سعْدَكم، ويحْرُس مجدَكم، والسلام.

الضرب الثـانى

(أن يقع الآبتـداء بالمقـرّ)

والرسمُ فيه أن يقال : المَقَرّ، ويُنْعت، ثم يقال : مَقَرّ فلان، ويُنْعت بالألقاب، ثم يُذْكَر المكتوب عنه. ثم يقال : أما بعدَ حمد الله، ويُؤتىٰ على الخطبة إلىٰ آخرها، ثم يقال : فإنا كتَبْناه لكم من موضع كذا، ويُتخلَّص إلىٰ المقْصد بلفظ : وإلىٰ هذا فإن كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقْصد إلىٰ آخره ويُختَم بالسلام.

كما كتب آبنُ الخطيب عن سـلطانه آبن الأحمر إلىٰ عَجْلانَ سـلطانِ مكة شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها، وهو :

المَقرّ الأشرفُ، الذى فَضل المحالَّ الدينيّة مَحلُّه ، وكَم فى بئر زمزمَ مُنْبَط إسماعيل صلّى الله عليه وسلم نَهَلُه وعَلُّه ، وخصَّه بإمرة الحَرم الشريف الأمينِ مَنْ بيده الأمرُ كلُّه ؛ فأسفرَ عن صُبْح النصر العزيزِ فَضْلُه ، وآشتمل على خواصّ الشَّرف الوضّاح جنْسُه وفَصْلُه ، وطابتْ فُرُوعه لما آستمدَّ من ريحانتَى الجنة أصْلُه .

مَقرُّ السلطان الجليل، الكبيرِ، الشريف، الطاهرِ، الظاهرِ، الأمجد، الأسعدِ، الأوحد، الأسمىٰ الشهيرِ البَيْت، الكريم الحىّ والمَيْت، الموقَّر، المعظَّم، ابن الحسين، وحافد سيد الثَّقَلين، تاج المعالى، عزّ الدنيا والدّين، أبى السَّبْق عجلان، ابن السلطان الكبير، الشهير، الرفيع، الخطيرِ، الجليلِ، المثيلِ، الطاهر، الظاهر، الشريف، الأصيل، المعظَّم، الأرضىٰ، المقدّس، المنعَّم ، أسدِ الدين، أبى الفضل "رميثة" بن محمد بن أبى سعيد الحسنى ـ أبقاه الله، وجعل أفئدةً من الناس تهوى إلىٰ قاطنِ مَثْواه، علىٰ بُعْدِ الدار، ولتقرّبُ فيه إلىٰ الله بالتثام الترابِ وآستلامِ الجدار، وتُجيب أذانَ نبيّه إبراهيمَ بالحجِّ إجابةَ الآبتدار، وهَنّاه المزيّةَ التى خصه بها من بين مُلوك الأقطار، وأولى المراتب فى عِباده والأخطار؛ كما رَفع قدْرَه علىٰ الأقدار، وسجّل له بسِقاية الحج وعِمارةِ المسجد الحرام عَقْدَ الفخَار. ويُنْهِى إليه أكرمَ التحيّات تتأرّج عن شذَا الروضة المِعْطار، عَقِبَ الأمطار، معظِّم ما عظَّم اللهُ من شعائرِ مَثْواه، وملتمسُ البركةِ من أبواب مفاتحتِــه ولكل آمرئٍ ما نَواه ؛ ومُوجِبُ حقّــه الذى يليقُ بمَنِ البتولُ والرِّضــا أبواه، الشّيّقُ إلىٰ الوِفادة عليه وإن مَطَله الدهرُ ولَوَاه ؛ فلان . كان الله له فى غربته وآنفرادِه، وتولّى عونَه علىٰ الجهادِ فيه حقَّ جِهادِه .

أما بعـدَ حمد الله وَلِىّ الحمدِ فى الأُولىٰ والآخره ، ومَطْمَحِ النُّفوس العالية والهِمَم الفاخره ، مؤيِّد العزائم المتعاضِـدة فى سبيله المتناصره، ومُعزّ الطائفة المؤمنة ومُذلّ

الطائفـة الكافره ، ومُنيل القياصرة الغَلَبَ والأ كاسِره ، وتارك أرضها عبْرةً للآذانِ السامعةِ والعُيون الباصِرة .

والصلاةِ علىٰ سـيدنا ومولانا محمد عبـده ورسوله نبيّ الرحمة الهـامية الهامِرَه ، والبركات الباطنةِ والظاهِره ، المجاهِد فى سبيل الله بالعزائم الماضيةِ والصّوارم الباتره ، مُضْمِت الشّقاشق الهـادِرَه ، ومُرْغِم الضَّلالة المكابِره ، المنصورِ بالرُّعب من جنود ربِّه الناصِره ، المحروسِ بحَرَس الملائكة الوافره ، الموعودِ مِلْكَ أُمّتِه بما زُوِى له من أطراف البَسيطة العامِرَه ، حسَبَ ما ثبتَ بالدلائل المتواتره .

والرِّضا عن آلِه وأحزابه ، وعترته وأصحـابِه ، المجاهـدةِ الصابِره ، أُولى القلوبِ المُراقِبـة والألْسُن الذاكِره ، والآداب الحَريصةِ علىٰ الاهتداء بهُداه المثابِره ، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جِهاده يخوضُون لأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا بحارَ الرَّوْع الزّاخره ، ويُقْدِمون بالجموع القليـلة علىٰ الآلافِ المتكاثِره ، حتّى قرّتْ بظُهور الإسلامِ العُيُونُ النـاظِره ، وحلَّت فى العدوِ الفاقِرَه ، فكانُوا فى الذَّبّ عن أُمّتِه كالأُسُـود الخادِرَه ، وفى الهِدايةِ بِسَماءِ مِلّته كالنُّجوم الزاهِره .

والدعاء لشَرَفكم الأَصيلِ المَناسِب الطاهِره ، والمَكارم الزاهيةِ بِنُوّةِ الزَّهْراء البتُول بِضْعةِ الرسولِ الزّاهِره ، بالصُّنْع الذى يُسْفِر عن الغُرَر المشرقةِ السّافره ، والعِزّ الذى يَضْـفُو منه الجَنـاحُ علىٰ الوفود الوافره ، والفُضَلاءِ من المجاوِره ، ولا زال ذِكْرُكم بالجميل هِجِّيرىٰ الركائبِ الواردةِ والصادِره ، والثناءُ علىٰ مكارمكم يُخْجِل أنفاسَ الرِّياضِ العاطِره ، عَقِبَ الغمائم المـاطِره .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم عنايةً تحجُب الأسواءَ [بجُنّتِها][1] الساتره ، ورعايةً تجمع الأهواءَ المختلفةَ والقلوبَ المتنافِرَه ـ من حمراءِ غَرْناطة دارِ المُلْك الإسلاميّ

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب .

بالأندلس ـ حرسها الله ووفّر جموعَ حاميتها المُثاغِره ـ وسـدَّ بيد قدرتِه ما هَمَّ بها من أفواه العِدى الفاغِره ، ولا زالت سحائبُ رحمةِ الله الحائطةِ لهـا الغامره ، تُظلّل جُموعَ جهادِها الظافره ، وتجودُ رِمَمَ شُهدائها النـاخره ، ونِعَمُ الله تحطُّ ركائبَ المزيدِ فى نواديها الحامدةِ الشاكره .

والحمـدُ لله كما هو أهلُه ، فلا فضلَ إلا فضـلُه . وجانبُكم موفَّى حقَّه من التعظيم الذى أناف وأربى ، وقدرُكم يعرِفه مَنْ صام وصلَّى فضـلاً عمن حَجَّ ولبَّى ، ومستَنَدُ وُدِّكم ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عليهِ أجْرًا إلا المَوَدَّةَ فى القُرْبى﴾ . وإلى هذا ـ حرس الله مجدَكم ومَقرّكم الأشرف ، كما سحب على البيت العتيق ظِلّكم الأورف ـ فإنّ الجهادَ والحجَّ أخوان ، يشْهَدُ بذلك المَلَوان ، مرتضِعان ثَدْىَ المناسَبه ، ويكادان يتكافآن فى المحاسَبه : سَفَرًا وزادًا ، ونيَّةً وآستعْدادا ، وإتلافًا لمَصُون المال وإنفادا ، وخروجًا إلى الله لا يُؤْثِر أهْلا ولا وَلَدا وإن آفترقا محلًّا فقد آجتمعا جِهادا ، ورفعًا لِلـملة منارًا ساميًا وعمادا ، ووطَنًا ـ والحمد لله ـ على هذا العهد المخصوصُ بكمال هذه المزيَّه ، والقيام بفرض كفايتها البحريةِ والبرِّية عن جميع البَرِيَّه ، [السليمة من الضَّلال البَرِيَّة][1] وهذا النسب واشجةٌ عُروقُه ، صادقةٌ بُروقُه ، ومَتاتُه[2] لا يفضُله مَتاتٌ ولا يفُوقُه . ونحن نعرِّفكم بأحوالِ هـذا القطرِ المستمسكةِ فُروعه بتلك الجُرْثومة الراسـيَه ، الممدودة أيديه إلى مثابتها المتصـدِّقة بالدعاء المُواسِـيه ؛ فاعلموا أن الإسـلامَ به مع الحياةِ فى سَقَط حرج ، وفى أمرٍ مَرِج ، وطائفةُ الحق قليـلٌ عدَدُها ، منقطع إلا من الله مدَدُها ، مستغرَق يومُها فى الشِّـدّة وغدُها ، فالطلائع فى قُنَن الجبال تَنُور ، والمُصحِر من بيتـه مغرّر ؛ والصَّيحةُ مع الأحيانِ مسمُوعه ، والأعداء لردّ ما آستخلصـه الفتحُ الأوّلُ مجموعه ؛ والصبر قد لُبِست مَدارِعُه ، والنصر قد آلتُمستْ مَشارِعه ؛ والشُّهداءُ تَنُوش أشلاءَهم

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" . (٢) المتات مايمت به .

القَشَاعِم ، وتحتفلُ منهـا للعوافِي الولائم والمَطاعم ؛ والصِّبيانُ تُدرَّب على العمل بالسِّلاح ، وتُعـلَّم أحكامَ الجهادِ تعـلُّمَ القرءان فى الألواح ؛ وآذانُ الخيل مستشرفة للصِّياح ، ومَفارِق الطامحين فى سبيل الله تعالىٰ تَبـلىٰ بأيدى الرياح ؛ والمآذنُ تُجيبها النواقيسُ مناقِضـه ، وتراجِعُها مُغاضبةً معارِضـه ؛ وعددُ المسلمين لا يبلُغُ من عَدَد الكفَّار، عُشْرَ المعشار، ولا وَبَرَةً من جلود العِشَار؛ إلا أن الله عز وجلَّ حَلَّ بولَايتنا المُختَنِق المشْدُود، وفتح إلىٰ التيسير المَهْيَع المسدُود، وأضفىٰ ظلال اليُمْن الممدُود، والحمـد وله الشكْر على الإلهـام، وتسـديد السِّهام . والحمدُ لله الذى يفوتُ مَدارِكَ الأفهام ـ إلىٰ اجْتِهادٍ قُرِن به التوفيق، وجِهادٍ نُهِج به إلىٰ النجاة المُنْجِيَـة الطريق؛ سـبحانَهُ من كريم يُلْهِم العملَ ليُثيب، ويأمرُنا بالدعاء ليُجيب ؛ فتحرَّكْنا حركاتٍ ساعَدَها ـ ولله المنةُ ـ السعد ، وتولَّى أمرَها ونُصْرَتَها مَنْ له الأمرُ من قبلُ ومن بَعْد .

ففتحنا مدينة بُرْغة الفاصلةَ كانت بين البلاد المُسْلمه ، والشَّجَا المعترِضَ فى نَحْر الكَلِمه ؛ وتبعتها بناتٌ كُنَّ يرتضعن أخْلافَ دِرَّتها، ويتعلَّقْن فى الحرب والسِّلْم بأزِرَّتها .

ثم نازلنا حصنَ آش ركابَ الغارات الكافره، ومستقرَّ الشوكة الوافره؛ فرفع اللهُ إصْرَه الثقيل، وكان من عَثْرة الدِّين فيه المُقيل .

ثم قصدنا مدينـةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر، وعَرِينَ الأسود الغُلْب وكِنَاسَ الظِّباء العُفْر؛ فاستبحناها عَنْوة أضرمت البلادَ نارًا، ودارت بأسوارها المنيعة سِوَارًا، وآستأصلْنا أهلَها قَتْلًا وإسـارا ؛ وملأْتِ الأيدىَ من نُقَاوة سبْىٍ تعدّدت آلافه ، وموفُور غُنْم شذَّت عن العبارة أوصافُه .

ثم كانت الحركةُ إلىٰ مدينـة جَيَّان وشُهرتُها فى المعمور، وشِياعُ وصْفِها المشهور، تُغْنِى عن بَسْط مالهـا من الأمور؛ ففتحها الله علىٰ يديْنـا عنوة وجُعلت مقاتِلُها نَهْبا

للسيوف الرِّقاق، وسَبْيُها مَلَكةٌ للاَسترقاق، وأهِلَّةُ مبانيهـا البيض دَريئـة للمِحَاق، وآستولت علىٰ جميعها أيْدى الهَدْم والإحراق، ثم دُكَّت الأسوار، وعُقِرت الأشجار، وآستُخْلِف علىٰ خارجها النـار، فهى اليوم صَفْصف ينشأُ بها الآعتبار، وتعجب الأبصـار.

وغزونا بعدها مدينـة أُبَّدَةَ أختها الكبرىٰ، ولِدَتَها ذات المحل الأسرىٰ، وكانت أُسوةً لها فى التدمير، والتَّتبير والعفاءِ المُبير.

ثم نازلنا مدينـة قُرطبةَ وهى أمُّ هذه البلاد الكافره، ودارُ النِّعم الوافره، وذاتُ المحَاسن السافره، فكِدْنا نستبيحُ حِماها المَنيع، ونُشَتِّت شَمْلها الجَميع، ونحتَفِل بفتحها الذى[هو للدين أجل](١) صنيع، ولولا عوائقُ أمطار، وأجلُّ منته إلىٰ مِقْدار، فرحلنا عنها بعد آنتهاكِ زَلْزَلَ الطَّوْد، ووعدْناها العَوْد، ونؤمِّل من فضل الله إنفاذَ البُشرىٰ بفتحها علىٰ بلاد الإسـلام، ومُتاحَفَةَ مَنْ بها من الملوك الأعلام، بالإخبارِ به والإعْلام.

وبلغ [من](١) صُنْعِ الله لنا وهو كافٍ من توكَّل عليه، وفوَّضَ الأمورَ إليه، أن لاطَفَنا النصرُ بحُصونٍ أربعة لم نُوجِف عليهـا رِكابا، ولا تملَّكْتها غِلَابا، فطهَّرنا بيوتَ الله من دَنَس الأوثان، وعوَّضْـنا النواقيسَ بكلمةِ الإيمـان. والحمـد لله علىٰ مواهب الآمتنان، ومنه نستزيدُ عوائدَ الإحسان.

وهذه المُجْمَلات تحتمل شَرْحا، تسبَحُ فى بحره سِنَانُ الأقلام سَبْحا، من أوصافِ مَغَانم شذَّتْ عن الحَصْر، ومواقفَ لتنزُّل السكينة وهُبوبِ النَّصْر، ومآظهر من جِدِّ المسلمين فى آفتتاح تلك المَعَاقل المَنيعة المُنيفه، ومقارعةِ الجموع الكَثيفه، وبركةُ الحرمِ الشريف فى كل حالٍ موجودَه، وأقطارُ الإسلام بها مَجُوده، والوسائلُ إلىٰ الله بأهْله فى القديم والحديث لا مُخَيَّبةٌ ولا مَرْدُوْده، فهو الأصل، والغِمْد الذى سُلَّ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الريحانة.

منه النَّصْل ؛ حتّى بلغ التخُومَ القاصيه ، وذلَّل الممالك المتعاصِيَه ، وقاد مَنْ تقاعدَ أو تقاعَس بالناصيه .

وقد ظهر لنا أن نوجّه الىٰ المدينة المقدّسةِ صلواتُ الله علىٰ مَنْ بها وسلامُه رسالةً تعرّفه بهذه البركات الهامية من سماء عِنايته المعدودِ خارِقُها آيةً من آياته ، وكلُّنا جُناه ، وما كُنّا لنهتَدِىَ لولا أنْ هدانا اللهُ بِهُدَاه ، وأصحبْناها أشخاصًا من نَوَاقيس الفرَنج مما تأتّى حمله ، وأمكن نَقْلُه ؛ وما سواه فكانت جِبالا ، لايقبل نقلُها آحتيالا ، فتناولَ درعَها المَسْخ والتكسير ، وشُفِى بذَهاب رسُومها الاقامةُ والتكبير ، والأذانُ الجَهير ؛ ومرادُنا أن تُعْرَض بمجتمَع الوفُود تذْكِرةً تستدْعِى الإمْدادَ بالدعاء ، وتقتضى بتلك المَعَاهد النَّصر علىٰ الأعداء ؛ ثم تُصْحَب رِكَاب الزِّياره ، الىٰ أبواب النبوّة ومطالع الإناره ؛ وأنتم تعملون فى توفيَة هذه الأحوال ورِعَايتها ، و إبلاغها إلىٰ غايتها ؛ مايليق بحَسبِكم الوَضّاح ، ومجدكم الصُّراح ، وشرفكم المتبلِّجة أنواره تبلُّج الإصباح (فأنتم خيرُ من ركب المطايا وأندىٰ العالَمين بطُونَ راحْ) ولكم بذلك الحظُّ الرَّغيب فى هذه الأعمال البَرَّه ، والله سبحانَهُ لايُضيعُ مثقال الذَّرّه ؛ وهو سبحانه يتولّاكم بما تولّى به من أعزَّ شِعارَه وعظَّمها ، ورَعىٰ وسائلَهُ وآحترمهـا ؛ ويصِلُ أسبابَ سعدكم ، وينفعُكم بقَصْدِكم . والسلامُ الكريم ، الطيِّب البَرُّ العميم ؛ يُحَيِّي مَعاهِدَكم الكريمةَ علىٰ الله عُهودُها ، النامية بغمائِم الرَّحمات والبركات عُهودُها ؛ ورحمةُ الله و بركاته .

و ربما قُدِّم علىٰ لفظ المقرّ صلةٌ يُعتمَدُ عليها فى البُداءة .

كما كتب عنه أيضا فى معنىٰ ذلك إلىٰ أمير المدينة النبوية علىٰ ساكنها سيدِنا محمد افضلُ الصلاة والسلام .

يعتمِد المقرُّ الأشرفُ الذى طاب بطَيْبة نَشْره ، وجَلَّ بإمارتها الشريفة أمْره ، وقُدِّر فى الآفاقِ شَرفُه وشَرُف قدره ، وعظُمَ بخِدْمة ضريح سيدِ ولدِ آدم فَخْرُه ،

[أبقاه الله منشرحا بجوار روضة الجنة صدره، مُشرقا بذلك الأفق الأعلى بدره،] (١) ذائعًا على الألسُن المادحة، فى الأقطار النازحة، حمدُه وشُكْره، مُزرِيًا بشذا المسك الأذفر فى الجمع الأوفر ذِكْره؛ تحيةَ مُعظِّم ما عظَّم اللهُ من دار الهجرة دارِه، ومَطْلَع إبْدارِه، الملتمس بركةَ آثاره، المتقرِّب إلى الله بحبِّه وإيثاره . فلان .

أما بعدَ حمدِالله الذى فضَّل البُقَع بخصائصها الكريمة ومَزَاياها، تفْضيلَ الرياض الوَسمية بريّاها، وجعل منها مَثاباتِ رحمةٍ تضرِبُ إليها العبادُ آباطَ مَطَاياها، مؤمِّلةً من الله غُفرانَ زَلّاتها وحطَّ خطاياها، وخَصَّ المدينةَ الأمينةَ بضريح سيدِ المرسلين فأسعَدَ منها مَماتَها ومَحْياها، ورفع عُلْياها .

والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله الكريم، الرءوف بالمؤمنينَ الرَّحيم؛ مُطْلِعِ أوجُه السعادة ببُرُوق مُحيَّاها، ومُوضِّح أسرارِ النَّجاة ومبيِّن خَفَاياها؛ الذى تدارَكَ الخليقةَ بهَدْيه وكَشَف بلاياها، ورعى لسُنّةِ اللهِ رَعَاياها، وجمع بينَ صلاح دِينها ودُنْياها .

والرضا عن آله وصَحْبه، وعِتْرته وحِزْبه؛ التى كَرُمتْ سجاياها، وعظُمتْ ألطافُها الهاديةُ وهَدَاياها؛ وجاهدتْ بعده طوائفَ الكُفَّار، تُشَعْشِع لها فى أكْواس (٢) الشِّفَار، مَنَاياها، وتُطْلِع عليها فى الليل البَهيم، سَنا الصَّباح الوَسيم؛ من غُرَرِ سَرَاياها، وتَسُدّ بغَمام الأسِنَّة ورِياح ذَوات الأعِنَّة ثنَاياها .

والدعاء لمَقَرّ أصالتِكم الشريفةِ حيَّاها اللهُ وبيَّاها، كما شرَّفها بولادة الوصيِّ الذى قرَّرَ وَصَاياها، وسُلالةِ النبيِّ الذى أعظمُ مَواهِب فَخْرها منه وعَطَاياها، بالسَّعادة التى تُبْرِزُ أكفُّ الأقدار على مرور الأعصار خَبَاياها، والعزّ الذى يُزاحِم فرقَدَ السماء وثُرَيّاها .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) كذا فى الريحانة أيضا وابن الخطيب يستعمل هذا الجمع كثيرا ولكن الذى فى كتب اللغة أن جمع الكاس أكؤس وكئوس وحرر .

فانا كتبْناه إليكم ـ كتب الله لكم من مَواهبِ الصُّنع الجميل أغياها ، كما طَيَّب بذِكْركم أطرافَ البَسيطة وزَوَاياها ، وجعلَ فَخْرَ الجوار الكريم فى عَقِبكم كلمةَ صِدْق لاتختلِف قضاياها ، مامرَّضتِ الرِّياضُ مُورَّساتِ عَشاياهـا ، بجعلتْ من النواسم مشمُومَها ومن الأزهار البَواسِم حَشَاياها . من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ ونِعمُ الله يَحُوكُ حُلَلَها الجهاد ، والسيوفُ الحِداد ، وتلبسها البلادُ والعبادُ ، وتتربَّاها . وفُلُولُ الكفر ناكصةٌ علىٰ الأعقابِ ، من بعد شَدِّ الوَثاق وضَرْب الرقاب ، خزاياها ؛ وبركاتُ حَرَم النبيِّ الوجيـهِ علىٰ الله يستظلُّها الإسـلامُ ويتفيَّـاها ، ويَنْقع الغُلَل من رَوَاياها .

والحمد لله كثيرًا كما هو أهلُه ، فلا فضلَ إلا فضلُه ؛ ولمعَاهدكم الكريمة الارتياح ، كلَّما أوْ مَضتِ البُروقُ وخفَقتِ الرِّياح ، ولِسَنِيِّ عنايتها الالْتماح ، إذا اشتجرت الرِّماح ؛ وفى تأميل المَثُول بها تُعْمَل الأفكارُ وإن هِيضَ الجنَاح ، وبهُداها الاستنارةُ اذا خَفِيَ للمَراشد الصَّباح ، وبالاعتمال فى مَرْضاة من ضَمَّه منها الثَّرَىٰ الفَوّاح ، والصَّفيحُ الذى تُراثُ ساكنه العواملُ المجاهدة والصِّفاح والجهـادُ الصُّراح ، يَعْظُم فى الصَّدْر الانشراح ، ويَعِزُّ المَغْدىٰ فى سبيل الله والمَرَاح .

وإلىٰ هذا أجزل الله مسرَّتكم بظُهور الدين ، واعتلاء صُبْحه المُبين ، فانّا نعرِّفكم أنّـا فتح اللهُ علينا وعلىٰ إخوانكم المؤمنين بهـذه الثُّغور المنقطعة الغربيَّه ، المـائلةِ علىٰ الآمادِ البعيدةِ بالذِّمم العربيَّة ، فُتوحًا حَوَّزتْ من مملكة الكُفر البِلاد ، ونَفَّلت الطارفَ والتِّلاد ، حسَبَ ما تنصُّه مخاطبَتُنا إلىٰ نبينا الكريم الذى شرَّفكم الله بخدْمة لَحْده ، واستخلفكم علىٰ دار هِجْرته من بعده ؛ إذ لاحاجةَ إلىٰ التَّكْرار بعد ما شُرِحت به الصُّدُور من الأخبار ، فى الإيراد والإصدار ؛ ووجَّهنا صُحبتَها من النَّواقيس التى كانت تُشيع نِداءَ الضَّـلال ، وتُعارضُ الأذانَ بجِلاد الجدال ، وتُبادرُ أمرَ التِّمثال

بالامتثال، مايكونُ تذكرةً تحِنُّ بها القلوبُ إلى هذه الطائفة المسلمة إذا رأتها، وتنتظرُ قبولَ الدعاءِ لها من الله كلّما نظرتها، وتتصور الأيدىَ المجاهدةَ التى جنتها من أفنان المستشرفات العاليةِ واهتصرتها إذا أبصرتها.

وهذا كلّه لايحصّلُ على التمـام إلا بمشاركةٍ منكم تُسوّغه، وإعانةٍ تؤدّيه وتبلّغه، تُشيـع لكم عند تعرّفها الثناءَ الدائمَ التّرداد، والدعاءَ بحُسن المكافأة من ربِّ العباد، وسَهْمكم فى أمرِ الجهاد، وأنتم تعملون فى ذلك بما يناسبُ مثلكم من الشّرفاء الأمجاد، واللهُ عزَّ وجلَّ يواليكم بنعـمه الثّرّةِ العِهـاد، ويعرّفكم عوارفَ السـعادة فى المَبْدإ والمَعـاد، ويختِمُ لنا ولكم بسعادةِ المَعـاد، والسـلامُ الكريم يخصّكم عودا على بَدْء ورحمةُ الله تعالى وبركاته.

الضربُ الثـالث

(أن تُفتتح المكاتبـةُ بلفظ الإمارة)

بأن يقال: الإمارةُ التى نعتُها كذا وكذا إمارةُ محـلِّ أخينا فلان، ويُدْعى له. ثم يقال: معظّم إمارته، أو معظم أخُوّته فلان. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أمّا بعد حمد الله، ويُؤْتَى بخطبة؛ ثم يقـال: فإنا كتبْناه إليكم كتَب الله لكم كذا وكذا من موضع كذا؛ ثم يُتخلّص إلى المقصود بلفظ وإلى هذا، ويؤتى على القصْد إلى آخره، ويُختم بالسلام على نحو ما تقـدّم فى غيره من الضروب، وبذلك يُكتَب إلى الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم. كما كتب ابنُ الخطيب عن ابن الأحمر إلى أبى علىٍّ النـاصرِ ابن السـلطان أبى الحسن المَرِينىّ بفاس، عنـد ما أرسله والدُه إلى ناحيـة من النّواحى لِعمارتها وإصلاح حالهـا، مهنّئًا له بمـا أجراه اللهُ على يديه من الصّلاح، وهو:

الإمارةُ التى لها المكارمُ الراضيه، والعزائمُ الماضيه، والجلالةُ الراقيه، والأعمالُ الصالحةُ الباقيه، إمارةُ محلّ أخينا الذى نُعظّم مجده السامى الجلال، ونُثنى على شِيَمه الطاهرةِ الخلال، ونعتدّ بودّه الكريم الأقوال والأعمال، ونُسَرُّ بما يسنّيه الله لعزه الفسيح المجال، من عوائد اليُمْن والإقبال.

الأميرُ الأجلّ، الأعزّ، الأسمىٰ، الأطهر، الأظهر، الأسنىٰ، الأسعد، الأرْشد، الأرضىٰ، المؤيَّد، الأمضى، الأفضل، الأكمل، أبو علىّ الناصر ٱبن محلّ أبينا الذى نُعظّمه ونُجلُّه، ونُوجبُ له الحقَّ الذى هو أهلُه، السلطان الجليل الكذا أبو الحسن ٱبنُ السلطان المؤيَّد، المُعان المظفَّر، صاحبِ الجُود الشهيرِ فى الأقطار، والفضلِ المتألِّق الأنوار، والمآثرِ التى هى أبهىٰ من مُحيّا النهار، أمير المسلمين، وناصرِ الدين، المجاهدِ فى سبيل ربّ العالمين، أبى سعيد ٱبن أمير المسلمين وناصر الدين، قامعِ الكافرين، المجاهدِ فى سبيل رب العالمين، أبى يُوسُف بن عبد الحق. أبقاه الله والسعودُ اليه مبتدرة مستبِقه، والمسَرّات لديه منتظِمة متَّسِقه، وغُرَر أيامه واضحةٌ مُشْرِقه، والأهواءُ علىٰ محبته متَّفِقه. معظِّم إمارتِه الرفيعةِ الجانب، القائمُ من إجلالها ونَشْرِ خلالها بالحقّ الواجب، المثنى علىٰ مالها من السِّيَر الفاضلة المذاهب، والأصالةِ الرفيعة المناسب، والبسالةِ الماضيةِ المضارب، والمكارمِ التى تشهدُ بها مواقفُ الجهاد، وظُهورُ الجياد، وصحائفُ الكُتُب وصَفائحُ الجِلاد، الأميرُ عبدُ الله يوسف ٱبن أمير المسلمين، أبى الوليدِ إسماعيلَ بن فَرَج بن نصر. سلامٌ كريم، برٌّ عَميم، تتأرّجُ الأرجاء من طِيب نفحته، ويُشرِق نورُ الودّ الأصيلِ علىٰ صفحته، يخصّ أُخوّتكم الفاضله، وإمارتكم الحافله، ورحمةُ الله وبركاته.

أما بعدَ حمد الله الذى شرَحَ بالتوكل عليـه صُدورًا ، و[(١) جعل الوُدّ فى ذاته كنْزًا مذخُورا] والأعمال التى تقرِّب إليـه نُورا ، والصلاةِ علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى بعثـه بالحق هاديا وبالرُّعب منصورا ، ورفَع لدعْوته العاليـة لِواءً من عنايتـه مَنشورا ، وآختاره لإقامةِ دِينِ الحق والأرضُ قد مُلِئتْ إفكا وزُورا ، حتّى بلغ مُلْكُ أمته ما كان منها معْمورا .

والرِّضا عن آلِه وأحزابه الذين آنْتَـقُوا فى قلائد مِلّته الرفيعة شُـذُورا ، وطَلَعُوا فى سمائها بُدُورا ، وبذَلُوا نفوسَهم النفيسةَ فى نَصْره وإعلاء أمْرِه فكانت شفاعتُه لهم جزاءً وكان سَعْيُهم مَشْكورا .

والدُّعاء لإمارتكم العاليةِ بالسعد الذى يُصاحبُ منه رِكابُها مَدَدا موفُورا ، والتوفيقِ الذى يُوسـع عملَها نُجحا وأمَلَها سُرُورا .

فإنا كتبْناه إليكم _ كتب الله لكم سَـعْدا متجدّدَ الإحكام ، وصُنْعا مُشْرِق القَسام وافر الأقسام ، وعرَّفكم ماعوّدكم من عوَارف الإنعام ، وعوائدِ النصر الواضِح الأعْلام_ [ولازائد بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة سيدنا ومولانا محمدرسوله الذى أوضح برهانه ، ثم بما عندنا من التشيُّع فى مقام محلّ أبينا والدكم السلطان الجليل ، أسعد الله سلطانه ! ومهَّد به أوطانه ! إلا مايرجىٰ من عوائد الله الجميله ، ومِننه الجزيله ، وألطافه الكافية الكفيله](١) وعندنا من التعظيم لِتلك الإمارةِ الرفيعةِ ماهو أشهَرُ من الشهير ، وأعظَمُ من أن يحتاج إلىٰ التفسير ، فلا نَزالُ نَعتدّ لجانب أُخُوّتها بالعَتاد الكبير ، والذُّخر الخطير ، ونُثْنِى علىٰ مَكارمها بالقلم واللِّسان والضَّمير . وإلىٰ هذا أيّد الله إمارتكم ، وسَنّىٰ إرادتكم ، وأسعدَ إدارتكم ؛ فقد علم الغائب والشاهد ، والصادِر والوارِد ؛ ماعِنْدنا لكم من الحُبّ الذى

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

صـفتْ منـه الموارد ، والولاءِ الذى تضوّعتْ من طيبـه المَعاهد ؛ وإننا تعرَّفنـا ما كان من قدومكم السعيد على أحواز المَرِيَّة من تلك الأقطار ، وطُلوعكم عليها بالعَزْم الماضى والجَيْش الجَرّار . وأن محـلّ والدنا وصل الله له عُلوّ المقدار ، قدّم منكم بين يَدَيه مُقدِّمة اليُمْن والاستبشار ، ورائد السعادة المشْرِقة الأنوار ، بخلال مايتلاحقُ بها رِكابُه العالى قدْرُه على الأقدار ، وأن مَخايِل النُّجح لإمارتكم الرفيعة قد ظهرتْ ، وأدلّة الصُّنع الجميل قد بهرتْ ، ومَن بتلك الجهات ، من القبائل المختلِفات ، بالطاعة قد ابتدرتْ ، وبأوامرِها الإمارِيَّة قد ائْتمرتْ ، وأنكم قد أخذتُم فى تسكين الأوطان وتمهيدها ، واستئناف العزائم وتجْديدها ، [وإطفاء نار الفِتَن وإخمادها][1] وإعلاءِ أركان تلك الإيالة ورَفْع عِمادها ، فكتبْنا إليكم هذا الكتاب نهنِّئكم بما سنّاه الله لمجدكم الرفيع ، من حُسْن الصَّنيع ، ونُقرِّر ماعندنا من الوُدّ الكريم ، والحُبّ الصَّميم ، ونستفهم عن أحوال أُخُوَّتكم لنكونَ من علمها على السَّنَن القويم ؛ وحتَّى لاتزالُ الأسبابُ متّصله ، والمودّةُ جديدةٌ مقتبله ، ولولا العوائقُ المانعه ، والشُّقّةُ البعيدةُ الشاسعه ، والامواجُ المترامية المتدافعه ، لم نُغِبَّ المخاطبه ، ولوصَلْنا المراسلةَ والمكاتبه ؛ ومجدُكم يقْبل الأعذار الصحيحة بمقتضى كماله ، ومعْهودِ إفضاله ؛ والله تعالى يُصْلح بكم الأحوال ، ويسكّن الأهوال ، ويُبلّغكم من فضله الآمال . وغرَضُنا أن تعرِّفونا بمـا لديكم من المتزيِّدات ، والصنائع المتجدِّدات ، وبما عندكم من أحوالِ محلّ أبينا وصَل الله عوائد النَّصْر لسلطانه ، وتكفّل بإعلاء أمره وتمهيد أوْطانه . وقد كتبْنا إليه صحبة هذا كتاباً غرَضُنا من أُخُوَّتكم الطاهرة ، أن يَصِـل إلى حضرته العلية تحتَ عِنايتكم ووصَاتكم ، والرعاية التى تليق بذاتكم ؛ وهو سبحانه يَصِل سعْدكم ويحرُس مجدكم ، ويحفظ ولاءكم الكريم وودّكم ؛ والسلامُ الكريمُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الأســــلوب الثانى

(أن تُفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه أو المكتوب عنه، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه تعظيمًا له)

والرسم فيه أن يقال : إلى فلان، ويُنْعَت بما يليق به؛ ثم يُؤتى بالسلام، ويقال : أما بعد ويؤتى بخطبة، ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم كتبَ اللهُ لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ويُتخلّص إلى المقصود بلفظ «وإلى هـذا» ويؤتى على المقصود إلى آخره ويُختَم بالســـلام .

كما كتب ابنُ الخطيب عن سـلطانه ابن الأحمر إلى الأمير يَلْبُغا العُمَرىّ الشهير بالخاصكىّ : أتابك العساكر بالديار المصرية فى الدولة الأشرفيّة «شعبان بن حسين» .

إلى الأمير المؤتَمَن على أمر سلطان المسلمين، المقلَّد بتدبيره السديد قِلادةَ الدِّين، المُثنِى على رُسوم بِرّه المُقامة لسانُ الحَرَم الأمين، الآوِى من مرضاة الله تعالى ورسولِه إلى رَبْوة ذاتِ قرار ومَعِين، المستعينِ من الله على ما تحمّله وأمّله بالقوىّ المُعين؛ سيفِ الدّعوه، رُكنِ الدوله، قِوامِ المله، مؤمَّل الأمّـه، تاج الخَوَاصّ، أسـدِ الجُيوش، كافِى الكُفاة، زينِ الأُمراء، عَلَم الكُبَراء، عَيْن الأعيان، حَسَنة الزمان؛ الأجَلّ، المُرَفَّع، الأسنى، الكبير، الأشهر، الأسمى، الحافِل، الفاضِل، الكامل المعظم، الموقَّر، الأمير، الأوحد، «يَلْبُغا الخاصكى» وصل الله له سـعادةً تُشْرِقُ غُرَّتُها، وصـنائعَ تَسِحُّ فلا تَشِحُّ دِرّتُها، وأبقى تلك المثابةَ قلادةَ اللهِ وهو دُرّتُها؛ سلام كريم، طيب عميم؛ يخص إمارتكم التى جعل الله الفضلَ على سعادتها أماره،

واليُسْرَ لها شاره، فيساعد الفلكَ الدوّارَ مهما أعملتْ إداره، وتمتثل الرسوم كلّما أشارتْ إشاره .

أما بعد حمد الله الذى هو بعلمه فى كل مكان ، من قاصٍ ودان ، وإليه تُوجَّه الوجوهُ وإن آختلفت السِّيَرُ وتباعدتِ البُلْدان ، ومنه يُلتمَس الإحسان ، وبذكره يَنْشرح الصدرُ ويطمئنُّ القلب ويمرحُ اللّسان .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسولِه العظيمِ الشان ، ونبيِّه الصادق البَيان ، الواضحِ البُرْهان .

والرضا عن آله وأصحابه ، وأعمامه وأحزابه ، أحْلاسِ الخَيْل ، ورُهبان الليل ، وأُسُودِ المَيْدان .

والدعاءِ لإمارتكم السعيدة بالعزِّ الرائق الخبرِ والعِيان ، والتوفيقِ الوثيقِ البُنْيان ؛ فإنا كتبناه إليكم — كتب الله لكم حظًّا من فضله وافرًا ، وصَنيعا عن مُحيَّا السرور سافرا ، وفى جوِّ الإعلام بالنِّعم الجسام مُسافرا . من حمراءِ غَرْناطة — حرسها الله — دار الملك بالأندلس ، دافع الله عن حوزتها كيدَ العُداه ، وأتحف نصلها ببواكر النّصر المُهْداه ؛ ولا زائدَ إلا الشوقُ إلىٰ التّعارُف بتلك الأبواب الشريفة التى أنتم عُنوانُ كتابها المرقُوم ، وبيتُ قصيدِها المنْظوم ، وآلتماسُ بركاتها الثابتة الرُّسُوم ، وتقريرُ المُثول فى سبيلِ زيارتها بالأرواح عند تعذُّره بالجُسُوم .

وإلىٰ هذا فإنّا كانتْ بين سَلَفِنا — تقبّلَ اللهُ جهادَهم وقدّسَ نُفُوسَهم وأمّنَ مَعَادَهم — وبَيْن تلك الأبوابِ السلطانية — ألقىٰ اللهُ علىٰ الإسلام والمسلمين ظِلالَها ، كما عرّفهم عَدْلها وإفضالَها — مراسلةٌ يَنِمُّ عَرْفُ الخُلُوص من خِلالها ، وتسطَع أنوارُ السعادة من آفاق كمالها ، وتُلْتَمح من أسطار طُرُوسها محاسنُ تلك المعاهد ، الزاكيةِ المَشاهد ،

وتُعرِب عن فضل المَذاهب وكَرَم المَقاصد، آشتقنا إلى أن نُجدّدها بحُسْن مَنابِكم، ونَصِلَها بمواصلة جَنابكم، ونَغْتنِمَ فى عَوْدها الحميد مكانكم، ونفضل لها زمانكم، فخاطبنا الأبوابَ الشريفةَ فى هذا الغَرَض بمخاطبة مَحَلّة من التقصير، وحِلْية من الناقد البصير، ونُؤمِّل الوصول فى خِفَارة يَدِكُم التى لها الأيادِى البِيض، والمَوَارِد التى لا تَغِيض، ومِثْلكم من لا تخيب المقاصد فى شمائله، ولا تَضْحىٰ المَآمِلُ فى ظِلِّ خمائله، فقد آشتهر من عظيم سِيرتكم ماطَبَّق الآفاق، وصَحِبَ الرِّفاقَ وآستلزم الإصْفاق، وهذه البلادُ مباركه، ما أسْلف أحَدٌ فيها مُشاركه، إلا وجَدَها فى نَفْســه وماله ودِينه وعياله، والله أكرمُ مَنْ وَفَّى لأمرئٍ بمكياله، والله جل جلالُه يجمع القلوبَ علىٰ طاعته، وينفَعُ بوسيلة النبيّ الذى نُعَوِّل علىٰ شـفاعته، ويُبقِى تلك الأبوابَ ملجأ للإسـلام والمسلمين، وظِلًّا لله علىٰ العـالَمين، وإقامةً لشـعائر الحَرَم الأمِين، ويتولّىٰ إعانة إمارتكم علىٰ وظائف الدِّين، ويجعلكم ممن أنْعَمَ الله عليه من المجاهِدِين، والسلامُ الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاتُه.

الضــــرب الثانى

(أن تُفتَتح المكاتَبة باسم المكتوب عنه، وهو علىٰ صنفين)

الصنف الأوّلُ

(مايُكتَب به إلىٰ بعض الملوك)

والرسمُ فيه أن يقال: من فلان إلىٰ فلان، بألقابه ونعوته ونُعُوت آبائه علىٰ ما تقـدّم، ثم يؤتىٰ بالسلام، ويقال أما بعـد حمد الله، ويؤتىٰ بخطبة ثم يقال فإنا كتبناه إليكم كتَبَ الله لكم كذا، ثم يقال: وإلىٰ هذا فإن كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء ثم بالسلام علىٰ نحو ما مرَّ.

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر إلى بعض ملوك الغرب يهنئه بدخول مدينة بجاية فى طاعته ماصورته :

من أمير المسلمين عبد الله محمد، ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج، ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أيّد الله أمره، وأعز نصره، إلى محلّ أخينا الذى نصل له أسباب الإعظام والإجلال، ونثنى عليه بما له من كريم الشيم وحميد الخلال، ونسرّ له ببلوغ الآمال، ونجاح الأعمال، فى طاعة ذى الجلال؛ السلطان فلان ابن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصل الله له سعدًا متصل الدوام دائم الاتصال، وصنعا تجلى وجوهه من ثنايا القبول والإقبال، وعزًا تتفيأ ظلاله عن اليمين والشمال، سلام كريم، برٌّ عميم، يخص سلطانكم الأسنى، ويعتمد مقامكم المخصوص بالزيادة والحسنى، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الواهب الفاتح، المانع المانح، مُظهر عنايته بمن خلص إليه قصده، وقصر على ماليده صدره ووِرْده، أبدى من محيا النهار الواضح . الذى وعد من اتقاه حق تقاته، على ألسنة سفرة الوحى وثقاته، بنجح الخواتم والفواتح .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المبتعث لدرء المفاسد ورعى المصالح، وسعادة الغادى والرائح، منقذ الناس يوم الفزع الأكبر وقد طاحت بهم أيدى الطوائح، وهاديهم إلى سواء السبيل بأزمة النصائح، ومظفرهم من السعادة الدائمة بأربح البضائع وأسنى المنائح .

والرضا عن آله وأصحابه، وعترته وأحزابه، الذين خلفوه امتثالا لأمر الصحائف وإعمالا للصفائح، وكانوا لأمته من بعده فى الاقتداء بسنته والمحافظة على سننه كالنجوم اللوائح .

والدعاء لسلطانكم الأسمىٰ ، بالسَّعْد الذى يَغْنَىٰ بوثاقة سببه ، ووُضُوح مذهبه ، عن زَجْر البارِح والسانح ، والعِزّ البَعِيـد المَطارح ، السامى المَطامح ، والصنع الجميل الباهر المَلامح ، ولا زال توفيقُ الله عائدًا علىٰ تدبيركم السعيدِ بالسَّعْى الناجح ، والتَّجْر الرابح .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من فضله أوْفَر الأقسام وأوْفاها ، وأوردكُم من موارد عنايته أعذبَ الجِمَام وأصْفاها ، كما أسبغَ عليكم أثوابَ المواهب وأضْفاها . [وأبدى لكم وجوهَ اللطائف الجميلة وأحفاها](١) من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ وفضلُ الله هامِيَةٌ دِيَمُـه ، وعوائدُ اللُّطف يَصِلُها فضلُه وكرَمُه ، والإسلام بهذا الثغرِ الجهادىّ مَرْعِيَّةٌ ذِمَمُه ، وجاهُ النبوّة المحمديّة يَعْمَلُ بين إرغام العدوّ الكافر ، و إهداء المَسرّات والبَشائر ، سَيْفُه وقلَمُه . والسُّرور بمـا يبلُغ من مَزِيد سَـعْدِكم وميضُـه خافِقٌ عَلَمُه ، ووُدُّكم ثابت فى مواقف الخُلُوص قَدَمُه .

وقد اتصل بنا ما كان من دخولِ حضرة بجاية حرسها الله فى طاعتكم، وانتظامِها فى سِلْك جماعتِكم ، وانقطاعِهـا إلىٰ عِصْمتكم ، وتمسُّكها بأزِمَّتكم ؛ وعقدِكم منهـا ومن أختهـا السابقةِ الذِّمام ، الخليقةِ بمَزِيد الأهتمام ؛ علىٰ عقيلَتَى الأقطار التى لايجمَعُ بينهما إلا مَلِك هُمَام ، وخليفةٌ إمام ؛ ومَنْ وضَحَت من سـعادته أحْكام ، وشُهِرت بعنـايةِ الله له أدلّةٌ واضحـةٌ وأعلام ، ومن جَمَع الله له بين البرّ المترا كض الخُيول ، والجيشِ المتدافع السُّيول ، والخِصْب الذى تُنْضِى مَوَاجده المستنجزةُ ظهورَ الخُيول ؛ وبين البحرِ الشهير بنَجْدة الأسطول ، و إنجاز وعد النصر المَمْطُول ، ومَرْسَىٰ السُّفُن التى تخوض أحشاءَ البِحار ، وتجلِبُ مَرافِقَ الأمطار والأقطار ، وتُتْحِف علىٰ النَّأْى بطُرَف الأخبـار .

(١) الزيادة من الريحانة .

بجايةُ وما بجاية ! دارُ المُلْكِ الأصيل العتيق، وكرسيُّ العزّ الوثيق، والعُدّه، إذا تُوُقّعتِ الشّدّه، كم ثبَتَتْ علىٰ الزّلزال، وصابرتْ مواقفَ النّزال، أعْطاكم السّعدُ صَهوتَها، وأحلّكم التوفيقُ رَبْوتَها، من غير مُطاولةِ حِصار، ولا آستِفادِ ذى وُسْع وآقتدار، ولا تَسَوُّرِ جِدار، فأصبحت دولتُكم السعيدة تتفيّأ [جَنىٰ الجنّتين، وتختال فى حُلّتين، وتجمع بقُنَّيا[1]] السيوفِ المالكيّةِ بين هاتين الأختين، أوزعكم الله شُكْرها من نعمةٍ جلّت مَواهبُها، ووضَحَتْ مذاهبُها، وصَنيعةٍ بَهرت عجائبُها .

وإذا كانت عقائلُ النّعم تَخْطُب أكفاءَها، وموارِدُ المِنَنِ تَعرِض علىٰ الوُرّاد صَفاءَها، فأنتم أهلُها الذين لكم تُدّخر، وبِمَنْ دُونكم تَسْخر، فإنكم تميّزتم بخصال العَفاف والبَساله، والحَسَب والجَلاله، وأصبحتُم فى بيتِكم صَدْرا، وفى هالةِ قومكم بَدْرا، مَواقِفُكم شَهيره، وسِيرتُكم فى الفضل لا تَفْضُلها سِيره، ونحن نهنّئكم بما مَنَحكم الله من آنفساحِ الإياله، ونُمُوّ الجَلاله، والنِّعَمِ المُنْثاله، بسلطانٍ ألقىٰ عِنانَه إلىٰ مثلكم قد آختاره لِقِياده، وآرتادَ فسعِد فى آرتياده، وتكفّل الحزمُ بحفظ بِلاده، وصَوْنِ طارِفه وتِلاده، وكأنَّ به قد آستولىٰ علىٰ آمادِه، وتطاولَ لإرث أجدادِه . ولنا فيكم - علم الله - وُدٌّ [تأسّسَ بناؤه، وكَرُمت أبناؤه[1]] وحُبٌّ وجب بالشرع إنفاذُه إليكم وإنهاؤه . وغرضُنا الذى نُؤْثِره علىٰ الأغراض والمَقاصد، ونقدّمه بمقتضىٰ الخُلُوص الذى زكَتْ منه الشّواهد، أنْ تتصلَ بيننا وبينكم المخاطبه، وتتعاقبَ المواصلةُ والمُكاتبه، والله عزّ وجلّ المعينُ علىٰ مايحب لودّكم من برٍّ تكفل واجبُه، وتوضح مذاهبُه، وآعتقادِ جميل يتساوىٰ شاهدُه وغائبُه، وهو سبحانه يَصِل سعدكم، ويحرُس مجْدَكم، والسلام الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الصنف الثانى

(ما يكتب به إلى الرّعايا)

والحكم فيه على نحو ماتقدم فى الصّنف الذى قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .

كما كتب آبنُ الخطيب عن آبن الأحمر أيضًا إلى بعض رعَايَاه بمدينة المَرِيّة بالأندَلُس ، بالبشارة بموت الطاغيةِ ملكِ قَشْتالة بجبَل الفتح ، ورحيلِ قومه به إلى بلادهم ماصورته :

من الأمير عبدِالله يوسفَ ، آبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيلَ بنِ فَرَج آبن نصر أيّدَالله أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عَصْره ، إلى أوليائنا فى الله تعالى الذين نُبادِر إليهم بالبشائر السافرة الغُرَر ، ونجلُو عليهم وجوهَ الصنائع الإلٰهيَّة(١) كريمةَالخُبْروالخَبَر ، ونَعْلَم مالهم من الوُدّ الكريم الأَثَر : القائد بالمَرِيَّة ، والقاضى بها ، والفقهاءِ ، والأشياخ ، والوزراءِ والأمراء والكافّة والدَّهْماء من أهلها ؛ عَرَّفهم الله عوارِفَ الأداء ، وأوزعهم شُكْرَ نعْمَةِ هذا الفتح الرَّبّانىّ الذى تفتّحت له أبوابُ السماء ، وأنشرتْ معجزاتُه ميْتَ الرجاء فى هذه الأرجاء . سلامٌ كريم ، طيبٌ بَرٌّ عميم ؛ تُنْشَقُ منه نَفَحاتُ الفرج ، عاطرةَ الأَرَج ، ورحمةُ الله وبركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله فاتح ابوابِ الأمَلِ بعد آستِغْلاقها ، ومُتدارِك هذه الأمةِ المحمديَّةِ بالصُّنع الذى تجَلَّى لهـا ملْءَ أحْدَاقها ، والرحمـةِ التى مدّتْ على النُّفُوس والأموال ، والحُرُماتِ والأحوال ، ضافِىَ رُواقها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى دَعْوتُه هى العُروة الوُثْقَى لمن تمسك باعتِلاقها ، وأقام على مِيثاقها ؛ ذى المُعجزات التى بهَرت العُقُول بائتِلاقها ،

(١) فى الريحانة ج ٢ " من وجوه الغنائم الاهلية كريم " الخ .

الذى لم ترُعْه فى الله الشدائدُ علىٰ آشتدادِ وثاقِها، وفظاعةِ مَذاقِها؛ حتّى بلغتْ كلمةُ الله ما شاءتْ من آنتظامها وآتّساقِها .

والرضا عن آله وصحبه، وعترته وحزبه، الفائزين فى ميْدان الدنيا والدين بخَصْل سِبَاقِها . فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم شُكْرا لنِعَمِه، ومعرفةً بمواقع كرمه . من حمراءِ غَرْناطةَ ـ حرسها الله ـ ولا زائدَ بفضل الله سبحانه إلا ما أمّن الأرجاءَ ومهّدها، وأنشأ مَعالمَ الإسلام وجدّدَها، وأسّس أركانَ الدين الحنيف وأقام أَوَدَها؛ وأنتم الأولياءُ، الذين نعلَم منهم خُلوصَ الأهواء، ونتحقّق ماعندهم من الخُلوص والصّفاء. وإلىٰ هذا فقد علمتم ما كانتِ الحالُ آلتْ اليه من ضِيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذى جرىٰ فى ميْدان الأمل جَرْىَ الجَمُوح، ودارتْ عليه خمرةُ النَّخْوة والخُيَلاء مع الغَبُوق والصَّبُوح؛ حتّى طَفَح بسُكْر آغتراره، ومُحِّص المسلمون علىٰ يديْه بالوقائع التى تُجاوِزُ منتهىٰ مِقْداره؛ وتوجّهت إلىٰ آستئصال الكلمةِ مطامعُ أفكاره، ووَثِق بأنّه [يطفئُ][1] نورَ اللهِ بناره، ونازل جبل الفتح فشدّ مُخَنّق حِصَاره، وأدارَ أشياعَهُ فى البَرّ والبحر دَوْرَ السّوار علىٰ أسْواره؛ وانتهز الفُرصةَ بانقطاع الأسباب، وآنبهامِ الأبْواب، والأمور التى لم تجرِ للمسلمين بالعُدْوتين علىٰ مألوفِ الحساب؛ وتكالَبَ التثليثُ علىٰ التوحيد، وساءتِ الظُّنونُ فى هذا القُطْر الوحيد؛ المنقطِع بين الأُمَم الكافرة، والبُحُور الزاخرة، والمَرام البعيد . وإننا صابَرْنا بالله تيّارَ سَيْله، وآستضأنا بنُور التوكُّل عليه فى جُنْح هذا الخَطْب ودُجُنّة ليله، ولجأنا إلىٰ مَنْ بيده نَواصِى الخلائق، وآعتلَقْنا من حبله المتين بأوْثق العلائق، وفسّحنا مَجالَ الأمل فى ذلك المَيْدان المتضايِق؛ وأخْلَصْنا لله مُقيلِ العِثار، ومَولىٰ أولى الآضطرار، قُلوبَنا، ورفَعْنا إليه أمْرَنا، ووقَفْنا عليه مطلُوبَنا، ولم نُقَصّر مع ذلك فى إبرام العَزْم، واستِشْعار الحَزْم، وإمداد

(١) من "ريحانة الكتاب" ج ٢ .

الثُّغُور بأقصىٰ الإمكان ، وبَعْث الجيوش إلىٰ ما يَلِينا من بلاده علىٰ الأحيان ؛ فرحِمَ اللهُ انقطاعَنا إلىٰ كَرَمه ، حين لجَأْنَا إلىٰ حَرَمه ؛ فجلا بفضله سبحانه ظَلامَ الشِّدّه ، ومَدّ علىٰ الحريم والأطفالِ ظِلالَ رحمتـه المُمتدَّه ، وعَرَّفَنا عوارفَ الصُّنْع الذى قَدُم به العهدُ علىٰ طول المُدّه ، ورماه بجَيْش من جيوش قُدْرته أغنىٰ عن إيجاف الرِّكاب ، وآحتشاد الأحزاب ، وأظهر فينا قُدرةَ مُلْكه عند انقطاع الأسـباب ، وآستخلص العبادَ والبلاد من بين الظُّفُر والناب ؛ فقد كان سَدّ المَجازَ بأساطيله ، وكاثرَ كلمةَ الحقّ بأباطيله ، ورمىٰ الجزيرةَ الأندلُسيَّةَ بشُؤْبوب شَرّه ، وصيَّرها فريسةً بين غِرْبان بحره وعِقْبان بَرّه ؛ فلم يخلُص إلىٰ المسلمين من إخوانهم مَرْفَقةٌ إلا علىٰ الخَطَر الشديد ، والإفلاتِ من يَدِ العُدُوّ العَنِيد ، مع توفُّر العزائم ـ والحمدُ لله ـ علىٰ العمل الحَمِيد ، والسعْيِ فيما يعودُ علىٰ الدِّين بالتأييد .

وبينما شَقَقْتُنا علىٰ جبـل الفتح تُقِيم وتُقْعِد ، وكَتائبُ الأعداء عليه يُبْرِق ويُرْعِد ، واليأْسُ والرجاء خصمانِ هـذا يقرِّب وهـذا يُبْعِد ، إذ طَلَع علينا البشيرُ بآنفراج الأزمه ، وحلِّ تلك العَزْمه ؛ وموتِ شاةِ تلك الرُّقْعه ، وإبقاءِ الله علىٰ تلك البُقْعه ؛ وأنه سـبحانه أخذ الطاغيةَ أكثَر ما كان آغترارا ، وأعظَمَ أنصارا ؛ وزَلْزَل أرضَ عِزّه وقد أصـابَتْ قرارا ؛ وأنّ شِهابَ سـعده أصبح آفِلا ، وعَلَمَ كِبْره آنقلب سافِلا ؛ وأن من بيـده مَلَكُوتُ السموات والأرض طَرَقه بحَتْفه ، وأهلكه برَغْم أنفه ؛ وأن مَحِلّته عاجلها التَّبابُ والتَّبار ، وعاثَتْ فى منازله النـار ، وتمخَّضَ عن سُوء عاقبته الليلُ والنَّهار ؛ وأن حُماتَها يُخْرِبون بيوتَهم بأيديهم ، ويُنادى بشَتات الشَّمْل لسانُ مُناديهم ؛ وتلاحَق بنا الفُرسان من جبل الفتح : المعقِلِ الذى عليه من عِنايةِ الله رُواقٌ مَضْروب ، والرِّباطِ الذى مَنْ حارَ به فهو المَحْروب ؛ فأخبرَتْ بانْفِراج الضِّيق ، وآرتفاع العائق لهـا عن الطَّريق ؛ وبُرءِ الداءِ الذى أشرق بالرِّيق . وأن

النصارى دمّرهم الله جدّت فى ٱرتحالها، وأسرعت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها، وسمحت [للنّهب] (١) والنّهب والنار بأسلابها وأموالها، فبهرنا هذا الصّنع الإلهى الذى مهّد الأقطار بعد رجفانها، وأنام العيون بعد سهاد أجفانها، وسألنا الله أن يعيننا على شكر هذه النّعمة التى إن سلّطت عليها قوى البشر فضحتها ورجحتها ، أو قيست بالنعم فضلتها ، ورأينا سرّ اللطائف الخفيّة كيف سريانه فى الوجود ، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطف الإلهى والجود، وقلنا إنما هو الفتح الأوّل شفع بثان، وقواعد الدين الحنيف أيّدت من صنع الله ببيان .

اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهره ، ومننك الوافره ، أنت وليّنا فى الدنيا والآخره ، وأمرنا للحين فقلدت لبّات المنابر بهذا الخبر ، وجلّيت فى جماعات المسلمين وجوه هذا الفتح الرائق بالغرر ، وعجّلنا تعريفكم به ساعة ٱستجلائه ، وتحقّق أنبائه ، لتسحبوا له أثواب الجذل ضافيه ، وتردوا به موارد الأمل صافيه ، فإنما هو ستر الله يشمل أنفسكم وحريمكم ، وأمانه كفل ظاعنكم ومقيمكم ؛ فقرّطوا به الآذان [وبشّروا به الإقامة والأذان] (١) وتملّوا بالعيش فى ظلّه ، وواظبوا حمد الله ولىّ الحمد وأهله ، وٱنشروا فوق أعواد المنابر من خطابه راية ميمونة الطائر ، وٱجعلوا هذه البشارة سجلّا فى فرقان البشائر ، فشكر الله سبحانه يستدعى المزيد من نعمه ، ويضمن ٱتّصال كرمه ، وعرّفوا بذلك من يليكم من الرعيّة ليأخذ مثل أخذكم ، ويلحظ هذا الأمر بمثل لحظكم ، لحقيق عليكم أن تشيدوا بهذا الخبر فى الحاضر والباد ، وتجعلوا يوم عاشوراء الذى تجلّى فيه هذا الصّنع ثالث الأعياد ، والله سبحانه يجعله للمسرّات عنوانا ، ويطلع علينا وعليكم وجوه صنعه غرّا حسانا ؛ والسلام الكريم يخصّكم ورحمة الله وبركاته .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" ج ٢ .

الأســـلوبُ الثـالث

(أن تُفْتتح المكاتبــة بلفظ «أما بعــد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعدَ حمدِ الله ، أو أما بعـدُ فالحمدُ لله ، ويُؤْتىٰ بخطبة . ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ، ثم يُتَخلَّص إلىٰ المقصود ويُؤْتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويُختَم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب آبن الخطيب عن آبن الأحمر من الأندلُس .

أما بعدَ حمد الله مُحْسن العَوَاقب ، ومُخلِّد المَناقب، ومُعْلى المَراقى فى دَرَج عَلِيّة[1] المَراقب، ومسخِّر النجم الثاقب، فى الغَسَق الواقِب، والكفيل بالحُسْنَى للمتوكِّل عليه المُراقِب، ناسخِ التمحيص، بالعناية والتخصيص، لتظهر حكمةُ المُثيب والمعاقِب .

والصلاةِ والسـلام علىٰ سـيدنا ومولانا محمد رسولِه المـاحى الحاشر العـاقب ، ذى القَدْر المُسامِى للزُّهْر المُصاقِب .

والرضا عن آله الذين كانُوا فى سمـاء ملَّته لهـداية أمته كالشُّهُب الثَّواقب ؛ فإنا كتبْنـاه إليكم ـ كتب الله لكم تَوالِىَ المَواهب ، ووضُوحَ المَذاهب ؛ ووُقوفَ الدهرِ لديْكم مَوْقفَ التائب من القدح النائب ؛ ووالىٰ لديكم مُفاتحةَ الكُتُب المهنِّئة بفُتُوح الكتائب ـ من حمراءِ غرناطة ـ حرسهـا الله ـ وفضلُ الله بتعرُّف صُنْعه لكم هامِى السَّحائب ، وكفيلٌ ببَذْل الرغائب ؛ والسرورُ بمـا سَنّاه الله لكم من آستقامة أحوالكم شأنُ الشاهد والغائب، والرائح والآئب .

والحمدُ لله علىٰ ماتوالىٰ من الألطاف والعجائب. وقد وصل كتابُكم الذى أكَّد السُّرورَ وأصَّله ، وأجملَ مقتضىٰ البُشرىٰ وفصَّــله ، ونَظَم خبر الفتح ووصَّله ؛ وراش سَهْمَ

---

(١) فى الريحانة فى "درج عنايته والمراقب" .

السّعادة والسّداد، والعناية والإمداد، ونَصّله، وأحرز حَظّ السعادة وحصّله؛ تعرفون ما أتاح لكم اللطيفُ الخبير، والولىُّ النصير؛ من الصُّنع الذى آتّسق نظامه، والنصرِ الذى سُنّتْ فى أمّ الكتاب أحكامُه؛ والعز الذى خفقتْ أعلامُه، والتوفيقِ الذى قَرْطستِ الغرضَ سهامُه؛ وأنكم من بَعْد الكائنة التى راشَ لطفُ الله بها وجبَر، وأحسن الخير وأدال الخَبر، وجعل العاقبةَ الحُسنىٰ لمن صَبر؛ جهزتم الجُيوش المختاره، والعساكرَ الجَرّاره، يقودُها الخُلصان من الوزراء، وتتقدّم رايتَها ميامنُ الآراء؛ فكتب اللهُ ثباتَ أقدامِها، وتولّى نَصْر أعلامِها؛ ولم يكُنْ إلا أن حَمِىَ وطيسُ النّزال، ورجفَت الأرضُ لهَوْل الزِّلزال، وتُعُوطيت كُئوسُ الآجال، فى ضَنْك المَجال؛ ودَجا القَتام، وتُوهِّم مع فضل الله الاغتنام، وعَبَسَ الوجهُ العَبّاس وضَحِك النَّصْل البَسّام، وأوْرد الخيلَ مَوارد الطّعان الإقدام؛ فكان لحِزبكم الظهورُ الذى حَكّمَ المهنّدةَ فى الرّقاب، والسُّمْرَ الطّوالَ فى الثُّغَر فى الأعقاب، وبَشّرت برُؤْيةِ هلال الفتح عيونُ الارتقاب، وحَطّ عن وجه الصنع الجميل ما رانَ من النّقاب؛ وأن مَنْ بغىٰ عليكم حَسَبَ ما قررتم، وعلىٰ نحو ما أجملتم وفَسّرتم، من شيوخ الغرب المَخِيلَه، ووُجوه الخَدَم المنتمية إلىٰ حسن العهد المنتَسِبه، تحصّل فى حُكم آسترقاقكم، وتحتَ شَدّ وَثاقكم؛ وربما أسفر المكروهُ عن المحبوب، وآنجلىٰ المرهوبُ عن المرغوب، والله مقلّب القُلوب؛ وشِيَمُكم فى آئتلاف النافر، والأخذ من فضل العَفْو بالحَظّ الوافر، كفيل لكم بالصُّنع السافر؛ والله يحمِلُكم علىٰ ما فيه رضاه، ويَخِيرُ لكم فيما قضاه؛

فسُررنا بما آتّصل لكم من الصُّنع وآطّرد، ورحّبنا بهذا الوارد الكريم الذى ورد؛ وشكرْنا فضلكم فى التعريف بخَبَره المودُود، والشرح لمَقامه المحمود؛ وكتبنا نُهنّئكم به هناء مَشفُوعا، وبالدعاء لكم متبوعا؛ والله يُطْلِع من توالى مَسرّتكم علىٰ ما يَبْسُط

الآمال، ويُنْجِح الأعمال؛ ويَفْسَح فى السعد المَجَال. والذى عندنا من وُدّكم أعظمُ من آستيفائه بالمَقَال، أو نهوض اليَرَاع بوظائفِهِ الثِّقَال؛ يعلمُ ذلك عالم الخفيَّات، والمجازى بالنِّيَّات، سبحانه. والله يَصِلُ سعدكم، ويحرُس مَجْدكم، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

الطَّرَفُ الثانى عَشَرَ

(فى الكتب الصادرةِ عن وُزَراء الخلفاء المتَقَدِّين أمورَ الخــلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وفيه جملتان)

الجمـــلةُ الأولىٰ

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العَبَّاس ببغداد ووُزَراء ملوكها يومئِــذ)

أما وُزَراء إقطاعاتها، فقد ذكر أبوجعفر النحاس فى "صناعة الكُتَّاب" أن المكاتبة من الوزير إلىٰ الخليفة فى زمانه كانت: «أطالَ اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأعزَّه وأيَّده وأتَمَّ نعمته عليه، وأدام كرامته له».

قال آبن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب": وإن كانت المكاتبةُ من الوزير إلىٰ مَنْ دونَه فدعاؤه له: «أطال الله بقاءَك وأدام تأييدَك وتمهيدَك وكرامَتَك». ودونه «أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وحِراسَتَك». قال: وعلىٰ مقـدار المكاتَب يكونُ الدعاء. وأقسامه كثيرة. ثم ذكر الأدعيةَ العامَّةَ بعد ذلك علىٰ الترتيب، فقال: إن أعلاها يومئــذ «أطال اللهُ بقاءه وأدام تمكينَـه ورِفعته وبَسْطته وعُلُوّه وسُمُوّه، وكبتَ أعداءَه وحسدتَه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تمكينَه وارتقاه، ورفعته

وسناه ، وتمهيده وكبت أعداه» . ودونه «أطال الله بقاه وأدام تأييده ونُعْماه وكبت أعداه» . ودونه « أطال اللهُ بقاه وأدام تأييدهَ وحرس حَوْباه»(١) . ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام تأييده ونُعْماه» . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام نعماءه» . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام عزَّه» . ودونه « أطال اللهُ بقاءه وأدام توفيقَه وتسديده» . ودونه «أطال اللهُ بقاءه وأدام سدادَه و إرشاده» . ودونه « أطال الله بقاءه وأدام حراسَته» . ودونه « أدام الله تأييدَه وتمهيدَه » . ودونه « أدام الله توفيقَه وتسديدَه » . ودونه « أدام الله عِزَّه وسناه » . ودونه « أدام الله عِزَّه » . ودونه « أدام الله حِراستَه » . ودونه « أدام الله كرامتَه » . ودونه «أدام الله سلامتَه » . ودونه « أدام الله رِعايتَه » . ودونه « أدام الله كِفايتَه » . ودونه « أبقاه الله » . ودونه «حَفِظه الله » ودونه «أعَزَّه الله » . ودونه « أيَّده الله » . ودونه « حَرَسه الله » . ودونه « أكْرَمَه الله » ودونه «وَفَّقه الله » . ودونه « سَلَّمه الله » . ودونه « رَعَاه الله » . ودونه « عَافَاه الله » .

ثم المكاتبات الصادرة عنهم علىٰ أسلوبين :

الأســــلوب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبــة بلفظ «كتابى»)

والرسم فيه أن يقال كتابى ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ، أو بقاء مولانا ــ والأمرُ علىٰ كذا وكذا ، ومولانا أميرُ المؤمنين ، أو والجانبُ الأشرفُ ونحو ذلك علىٰ حال كذا ؛ ثم يتخلّص إلىٰ المَقْصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويُختَمُ بقوله و رَأْى حضرة سيدنا أعلىٰ .

(١) فى القاموس الحوباء النفس .

كما كتب بعض الكُتّاب عن الوزير قوام الدين بن صَدقة إلىٰ بعض وُزَراء ملوك زمانه فى مَعنىٰ أمير مكة المشرَّفة ، وما كان بينه وبين أمير الحاجّ فى بعض السّنين ما صورته :

كتابى ـ أطال الله بقاء حضرة سيدنا ـ ومواهبُ الله سبحانه فى أمر مولانا امير المؤمنين جاريةٌ علىٰ الإراده ، مقابَلةٌ بالشكر المؤذِن لها بالدوام والزّياده ، والحمدُ لله ربّ العالمين . وقد تتابعت المكاتَباتُ فى أمر النَّوبة المكّية تتابعًا علمه السامى به مُحِيط ، والعُذْرُ فى الإضجار بها مع إنعام النظَر بسببها مَبْسوط ؛ وبعد ماصَدَر آنفا فى المعنىٰ المذكور وصل كتابُ زعيمِ مكّةَ بما نفذ علىٰ جهته لِيُعْلَم منه ومما لاريبَ أنه أصْدره إلىٰ الدّيوان العالى السلطانى ـ أعلاه الله ـ حقائق الأحوال بغير شَكّ : أنه قد آتضح تفريطُ من فَرَط فى هذه النوبة وعَجِل ، وتحقَّق المثَلُ السائرُ « رُبَّ وائِقٍ نَجِل » ، وأسبابُ ثمرة الهوىٰ الذى مازال يجمَحُ براكبه ، ويُرِيه سُوءَ عواقبه ؛ وعلِم أنه لم يُحْطِ فيما شَرَع فيه ، وآستمرّت علىٰ الخطإ أواخِره ومَبادِيه ، إلا بوَعْد أُخْلِف ، ومالٍ أُتلِف ، وخَطرٍ آرتكِب ، وصواب تُنُكِّب ، وحَزْم أُضِيع ، وهَوًى أُطِيع ؛ حتّى كان قُصاراه دَفْعَ اللائمة عنه ، فإنه أوصل الحَجِيج إلىٰ مقصودِهم وأعادهم ، وأحسن التواصُلَ حتّى أدركُوا من أداء الفريضة مُرادَهم ؛ وهل آعترض دُونَ هذا الأمرِ مانع ، أو كان عنه دافع ؟ لولا ماصَوّره من الأسباب التى أفسَدَ بها الأمور ، وأوْغرَ بمكانِها الصُّدُور ، وكَفَل بعدَ ماقرّره من ذلك ومَهّده ، ماعكسه سفَهُ الرأى عليه ، وأبعده العجزُ عن الوصول إليه ؛ وأىُّ عذر فى هذا المَقام يُستَمع ؟ أم أىُّ لائمةٍ عنه تندَفِع ؟ وقد جرت الحال علىٰ ماعُلِم ، وتحدَّث بانخراق حِجاب الهَيبة كلُّ لسانٍ ناطقٍ وفَم ؛ ووقع الآتفاق من كافّة الحاجّ علىٰ أن تمسُّك نائب مكّةَ بطلب الرِّضا ، وتكفيل خَصْمه باستدراك ماتَلِف من التفريط فى مَعايشه ومضىٰ ؛

ونظَرِه فى العاقبة التى يَنْظُر فيها ذُوو الألباب، وعملِه بما أصدره الديوانُ العزيزُ من مكاتبةٍ أُمِر فيها بالطاعة وخِطَاب، هو الذى لَأَمّ النوبةَ وشَعْبها، وسَهّل عسيرَها ومستصْعَبها، ولو آفتقرت إلى سَعْيِ أميرِ الحاجِّ واجتهاده، وإبْراقِه بعسكره وإرعادِه، لكان الحجُّ ممتنعا والخَطَر العظيمُ متوقّعا، ولم يحصُل الوفدُ إلا على التغرير بالنفوس، والجَود منها بكل مَضْنُون به مَنْفُوس، ثم عَرَبُ الطريق الذى ما زال أميرُ الحاجّ فى حقّهم خاطبا، ولإكرامهم بالقولِ المتكرِّر طالبا، وجاعلاً مالعله يتأخَّرُ من رسم أحدهم من دواعى الخطر فى سلوك [الطريق] المُرْديه، ومُوجِبات الفَساد فى المَناهل والأوْدِيه، يتلو من النَّهب والاجتياح، والأذى العائد على فاعله بالاقتراف العظيم الوِزْر والاجتراح، بما يُؤلِم شجاعةَ القلوب ويحرّقُها، ويُبكِى العيون ويؤرِّقُها؛ ولقد آنتهى أن العسكر المنفَّذ أمامه كان يتنقَّل فى هِضاب البَرِّيَّة وغِيطانِها، ويُنقِّب عن مَنازل العرب وأوطانها، فيستَقرِى أحياءَهم حَيًّا فحَيًّا، ويتخلّل الفِجاجَ فجًّا فجًّا، فإذا شارفُوا قبيلةً منهم طلب النجاةَ منهم بالحُشاشات رجالُها، وأسلَمَتْ إليهم نساؤها وأطفالَها وأموالَها، فيتحكّمون فى ذلك تحكُّمَ من آستحلّ موْقفَه فى إباحة محارِمِ الله ومُقامَه، وأمِنَ مكْرَ الخالق بالظالمين وآنتقامَه، ويستَبيحون حريمَ كلِّ برِىء غافلٍ لم يُقارِف ذنبا، وطائع لا يستَحِقُّ غارةً ولا نَهْبا، فأين كان [من] النظر عند هذا الفعل فى حِفْظ عَرَب الطريق؟ وكيف عَزُب عنه فى هذا الرأى مَنْهجُ التوفيق؟ وهل تُتَصوَّر الثِّقةُ بكل قبائلِ العرب عن إفساد الآبارِ والمَصانع؟ والعَبَث بكل مستطاعٍ فى المَناهل والمَشارع، خاصّةً إذا علموا أن الذى ظلَمهم، وأباح حُرَمهم، هو السالكُ للطريق آنفا، والمتمكّن فيهم من مُعاودة الأذى الذى أضحى كلٌّ به عارفا، وآستدراكُ الفارطِ فى هذا الأمرِ المهمّ متعين، ووجه الرأى فيه واضحٌ متبيِّن؛ والإشارة فى كتاب زعيم مكة، إلى ماجرى من المعاهدة وآستقرّت القاعدةُ عليه [من] إعادة آرتفاعه المأخوذ

ورسومه على التمام والكمال إليـه ، أدلُّ الأدلّة على بُعْد النوبة من الآلتئام ، ودخولِ الخَلَل عليها وآنحلال النِّظام ، وتعـذُّر الحجّ فى المستقبل . على أن مَنْ أفسـدها ، لم يتأمّل لنفسه طريقَ الصَّدَر حين أو رَدها ، والألمعيةُ السامية المعزّية حرس الله عزّها اللامحةُ ببديهتها العواقب ، المستشْفَعة سرائرُها بالرأى الثاقب ، أهدى إلى تدبيرها بما يستدرِك الفارط ، ويتلافى غَلَط الغالِط ، و يعيدُ الأحوال إلى جَدَد الصلاح وسَدَنه ، ويُجْريها على أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنه ، وما أَوْلاه بالتقـديم فى هـذا المهمّ الذى لا أحق منه بالآهتمام ، والجِـدّ الصادق التام ، بمـا تطْمئِنّ به النفوس إلى صَلاحه وآنتظامه ، وآرتفاع كلِّ مَخْشِىّ من الخلل الداخلِ عليه وآنحسامه ، والإعلامِ فى الجواب بمـا يقع السكون إلى معرفته ، ويحصُل الأنس والشكر فى مقابلته ، ورأىُ حضرة سيدنا أعلى إن شاء الله تعالى .

الأسـلوب الثانى

(أن تُفْتتح المكاتبـة بلفظ الإصـدار)

مثل أن يقال : أُصْدِرت هذه المكاتبة ، أو هذه الجملةُ ، والأمرُ على كذا وكذا ، بعد أن يُدْعى لمكتوب إليه بعد لفظ الإصدار ، ثم يَتخلَّص إلى المقصود بمـا يليق بالمَقام ، ويُوَتى على القصد إلى آخره ، ويختِمُ بقوله : ورأىُ حضرة سيدنا أعلى .

كما كُتِب عن الوزير قوام الدين بن صَدَقة أيضا إلى ملك سَمَرْقند جوابًا عن كتاب وصل منه إليه :

أُصْدِرت هـذه الجملةُ (١) ـ أطال الله بقاءَ حضرة مولانا ـ ومواهبُ الله سبحانه فى الجَنَـاب الأشرف ـ لا زالتْ مطالـعُ سُعوده مُنـيره ، وأعوادُ عَلائه مُورقـةٌ

---

(١) تارة يعبر بالجملة وتارة بالخدمة .

نَضيره ـ آهلةُ الرُّبُوع ، عَذْبةُ اليَنْبُوع ، قارَّةٌ لايظعَنُ رَكْبها ، دارَّةٌ لايعز حَلَبها ، والحمدُ لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوَّه الصادرُ على يد الشيخ الأجلّ العالِم أبي الحسن بن علك وقفتُ عليه وعَرَفت فَحْواه ، وتضاعَف الشكرُ لله سبحانه بما حَواه ، من آطِّرادِ الأمورِ وآتِّساقها ، وطلوعِ شمس النُّجح فى سماء مَباغيه وإشراقها ، وأحدثَ آبتهاجًا بوروده متوفِّرا ، وآغتباطًا بما أولاه جلّت آلاؤه من صنعه الذى أصبحَ ذَنْب الأيام معه مغتَفَرا ، وعُرِضتْ خدمتُه المقترِنة به على مَجالس العَرْض الشريفة قدّسها الله مشفوعةً بذكر ما لبيته الكريم وسلَفه الزاكى الأُرُومة من المآثِرِ التى أضحى بها فى الفخر عَلَما ، وعلى ناصِيَة المجد محتويًا محتكما ، فى ضمن إيضاح المحاسن التى أصبح أيّد الله سموّه بها منفَرِدا ، ولنِجاد المحامِدِ بحسَنِها مقلَّدا ، والمواقِف فى الطاعة الإمامية التى أصبحت غُرَّة فى جَبهة الزمان ، ولم يَسْعَ فى مثلها لغيره قَدَمان ، وآنتهتْ فى تمكين القواعد وتَوْطيدها ، وتأكيدِ الأحوال وتمهيدها ، والتجرُّدِ فى تحصيل الأَرَب ، وتيسيرِ المَطْلَب ، إلى ما يُوجِبه الودُّ المُخْصَف الأمْراس ، والمصافاةُ الخالصةُ من الشوائب والأَدْناس ، فآنَستْ فى مقابلة ذلك من الإلتفات الى ماأوردته مما بيّن عن لُطف مكاتبته بالموقِف الأشرف ويُعرِب ، ويصفُو مَوْرِدُ الفَخَار بمثله ويَعذُب ، وجدّد من التشريف والزيادة فيه مايُوفِى على الذى تقدّمه قدرا ، ويَجِلّ طَوْقُه عن أن يرضى عُمْرا ، وشَفَع ذلك بتنفيذ التشريفات لولده أيَّد الله علوّه والمُطيفين بحضرته ، واللائذين بحوْزته ، وآبتدائهم بالإحسان والإنعام ، والتكْرِمة المُوفِية على المَرام ، إكبارًا لشانه ، وإبانةً عن محلّه من الآراء الشريفة ومكانِه ، وإيثارًا لإعظام أمره ، وإعلاءِ قَدْره ، ليَعْلَم ـ أيد الله علوه ـ مكانَ التجرُّد فى هذه الحال ، وصدق

السـعي الذى ٱقترنت تُغوره عن نُجح الآمال ، وأرجو أن يصادف حسنُ المقام فى ذلك عنده موقعه ، ويلقىٰ لديه ٱعترافًا يُوافق مرآه مسمعه .

فأما الإشارةُ إلىٰ المشار إليه فى التوزُّع لتلك المحنات الجاريه ، التى مازالت الأيامُ بمثلها جائيه ، والأستبشارِ بزوال ما عرض وٱضمحلاله ، وعودِ الرأى الأشرف إلىٰ أكمل أحواله ، وقد عرفها بمزيد الأعتداد والشكر قائلُها ، ولم يكن الذى جرىٰ مما يُشعّب فكرا ، أو يتوزّع سِرّا ، فإن الأعتداد الأشرفَ كان بحمد الله محفوظا ، والأجتهادَ فى الخِـدْمة بعين الأعتراف والرضا ملحوظا ، لم تُحِلْه حالٌ متجدده ، ولا رَتعت الحوادثُ مورده ، وما زالت ثُغورُ الأيامِ فى كل وقت عن الزيادة باسمه ، وسُحبه بنُجح اشتطاط الآمال ساجمه ، والمندوبُ لتحمُّل المثال وما يقترن به من التشريف فلان ، وهو من أعيان العلماء ، ومَنْ له فى ميدان السبق شأوُ القُرناء ، وله فى الدار العزيزة مجّدها الله الخدمةُ الوافيه ، والمكانةُ الوافره ، وما زالت مذاهبُه فى خدمه حميده ، ومقاصِدُه علىٰ تقلُّب الحالات مَرْضيّةٌ سديده ، وجديرٌ بتلك الألمعيّة الثاقبة أن تلقىٰ ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النِّعم المسداةَ إليه بالشكر الماطر الأنواء ، وتُوقظَ ناظرَ ٱهتمامه للنهوض بأعباء الخدمة الإماميّه ، وحيازةِ المَرَاضى المكرّمة النبويّه ، وتُمْهِى عزيمتَها فيما يكونُ بالإحماد الأشرفِ مُحْظيا ، ولأمثال هذا العُرْف المصنوع مستدعيا ، ولرأىِ حضرة سيدنا فى ذلك علوُّ رأى إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثانيـــة

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر علىّ بن خلف من كُتّاب دولتهم فى كتابه "موادّ البيان" أنه إذا كانت المكاتبةُ من الوزير إلىٰ مَنْ دونه ، تكون بغير تصدير ، إلا أن الخطاب فيها يجب أن يُبْنىٰ علىٰ أقدار المخاطبين فى مراتبهم فى الدولة ، ولم يزد علىٰ ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوبٌ واحد: وهوأن يفتتح الكتاب بلفظ «كتابُنا والأمر علىٰ كذا» ويُتعرّض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة، ثم يتخلّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه الحال، ويؤتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء.

كما كتب القاضى الفاضل عن بعض وزراء العاضد: آخر خلفائهم إلىٰ بعض الملوك، وصورته:

كتابُنا – أطال الله بقاءَ الملك – عن مودّةٍ ظاهرةِ الأسباب، متظاهرةِ الأنساب، ضافيةِ جلباب الشّباب، وعوائدِ عوارفَ لايتنكّر معروفها، ووفودِ فوائدَ لايتصدّع تاليفُها، ومسَاعى مسَاعد لاينقصُ معروفها ولاينفض مَسُوفها، وسعادةٍ بالخلافة التى عدقَ إليه أمرها وأوضح سِرّها، وملأ سرائرها وسريرَها، وأطلع شمسها وقمرَها. بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تُوالىٰ مَيامنُها، وتتلألأ محاسنُها، وتشرُف درجاتُها، وتتضاعفُ سعادتها، والكلمةُ قائمة علىٰ أصولها، وأمور الخلق جاريةٌ علىٰ ماهولها، ونظامُ الإسلام بسياستها لايهى، وسياقةُ الدوام فى سعادتها لاتنتهى؛ والله المُوزع شكرَ هذه المِنَن، المسئولُ فى الإنهاض لما نهضت فيه النيّةُ وقصُرت عنه المُنَن؛ ولم نزل – أدام الله إقبال الملك المعظم – معظّمين لأمره، عارفين نُبل قدره وجليلَ فخره، مُشيدين بجميل ذكره وجزيل نصره، مُعيدين لما تتهادىٰ الألسُنُ من مستطاب نَشره، قارئين من صَفَحات الأيام ما أمدّها به من بِشره، غير مستيمنين لذكر آسمه الكريم إلا بصيامه وشكره، مُوردين مما هو يبلُغه من بارع ضَرائبه بالمقامات الشريفة من آثار سلَفه ومآثرِهم، ومأثورِ مكارمِهم ومفاخرِهم، وآستنادِ المكرُمات إلىٰ أولهم وآخرِهم، ومشهورِ ذَبِّهم عن المِلَّه، ودفاعِهم عن أهل القبله، وسَدادهم فى الأمور، وسِدادِهم الثُّغور، وسِيادتهم الجمهور، وآستقلالِهم بالمشقّات المتقدّمه، وإخمادِهم نيرانَ الخُطوب المضطرِمه، وكفِّهم سيولَ السيوف العَرِمه، وموالاتِهم أمورَ الدولة

العَلَويَّة التى آشتهر بها منهم الأكابِر، وورِثها كابرٌ عن كابِر، وحافَظُوا منها على سيرة معروفٍ لايُنْسَخ، وعَقْد صفاءٍ لايُفْسَخ، وسريرةِ صدقٍ تستقرّ فى الضمائر وتَرْسَخ، وتتوضّح بها غرّةٌ فى جِباه السبْق وتَشْدَخ، وتستهْدى عند إيراد هـذا الذِّكر العَطِر، والثناء المشتَهر، من الدعوات الشريفة العاضديّة المعضودة بالنُّجح، المتوضّحة عن مثل فَلَق الصُّبح، مايتهلّل لمَساعيه بالمَيَامِن المستهِلَّه، ولمَراميه بالإصابة المتصله، بينه وبين هـذه الدولة العاليه، والخلافة الحاليَه، بكتاب منـه نَهَجْنا فيه طريقَها اللاحِب، وآستدْعَيْنا به إجابَته التى تُتَلقّى بالمَرَاحب، وأعلمناه أنّ تمادىَ الأيام دُونَ المراسَلة وتطاوُلَهـا، وتنقّلَ الأحوال والدُّول وتناقُلَها، لايزيدُ مودّتَه إلّا آسـتحكامَ معاقِد، وآنتظام عَقائد، ووفاءَ مَواعِد، وصَـفاءَ مَوارِد، وأنه لاتبـاعد بين القلوب بغَرض المَرْمىٰ المتباعد، ولاتُفَرِّق المسافاتُ القَوَاصى مابين النِّيات القَواصد. فلمـا تأخرت الإجابه، تقدّمت الإسترابه، وتناجتِ الظنونُ المعتلِجة، وتراجعت الآراءُ المختلجه، بأن الرسولَ عاقَتْه دُونَ المَقْصد عوائق، وتقَسَّمَتْه من الأحداث دُونَ الطريق طرائِق، فلم ترد المكاتبةُ إلىٰ جَنابه، ولاأسعدَ السعى بطُروق جنابه، الذى تُنالُ السعادةُ وتُجْنىٰ به، وإلا فلو أنه أمّ له، بلَغَ ماأمّلَه، ولو وصله، لأجاب عما أوْصَلَه، لأنّ مكارِم خلائقه تبعَثُ علىٰ التبرّع بالمسنون فكيفَ بقَضاء المفروض، وشرائفَ طرائقه تأبىٰ للحقوق الواجبة أن تَقِف لديه وقْفَ المطْرَح المرفُوض. فجدّدنا هذه المكاتبةَ مشتملةً علىٰ ذلك المراد، وفاوَضْناه بمـا يُعيره الإصغاء، ويجنّبه الإلغاء، ويُحسن له الإنصات، ولايَحتـاجُ فيه إلىٰ الوصَات. ورَسَمْنا أن يكتُمَه حتّى عن لسانه، وأن يَطْوِيَه حتّى عن جَنَـانه، وأن يتمسك بالأمر النبوىّ فى آستعانَته علىٰ أمره بكِتْمانه، فمن حُسْن الحزم سوءُ الظن، وهل لأرباب الأسرار فَرَجٌ إلا مادامتْ فى السجن، وقد آستلزمنا المرتَهن لمـا آستعظَمْنا الرهن، وفوّضنا إلىٰ مَنْ لايعتَرينا فيه الوَهْم ولا منه الوَهْن،

ونحن نَحَيَّتَنا بما يُعْلَم به حسنُ موقع رسالةِ الاسترسال، وبما يبيِّن به عن دلالة الإدلال، وبما يرحِّب بمودّته مجالُ الجمال؛ والله سبحانه يؤيِّد الملِك بنصر تُسْتَخْدَم له الأقدار، وسعادة لا تتصرَّف فى تصريفها أحكامُ الفلك المُدَار، وإقبالٍ يقابل آراءه وآدابَه فى فاتحة الوِرْد وعاقبة الإصْدار، وعزٍّ لا يزال منه متوقَّلا فى درجات الاقتدار إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثالث عشر

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأتباع، إلىٰ الملوك ومَنْ فى معناهم؛
وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرةِ عن أتباع ملوك الشرق إليهم
فى الزمن المتقدم، وهى علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ: «كتابى»)

ويدعىٰ للمكتوب[1] ... ... كذا وكذا، ويتخلَّص إلىٰ المقصود بما تقتضيه الحالُ، ويخاطَبُ السلطان فى أثناءِ الكتاب بمولانا أو بمولانا الملك، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بتاء المتكلم ولفظ الإفراد، ويُختَم بقوله: فإن رأىٰ أن يفعل كذا فعل إن شاء الله تعالىٰ . ويُدْعىٰ للمكتوب إليه بطول البقاء مع التعرّض لذكر الخليفة فى أثناء الكتاب .

---

(١) فى الأصل محو ولعله ويدعى للمكتوب اليه ثم يقال والأمر على كذا الخ .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأُسْلوب، كتب به أبو إسحاقَ الصابى عن أبى الفضل الشِّيرازى: أحد نُوَّاب بنى بُوَيه إلىٰ عَضُد الدولة بن بُوَيه، فى جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خُراسانَ وطاعةِ صاحبها، وهو:

كتابى ـ أطال الله بقاءَ مولانا ـ والأمورُ التى أخْدمُ فيها جاريةٌ علىٰ السَّداد، مستمرّةٌ علىٰ الأطراد، والنِّعمُ فى ذلك خليقةٌ بالتَّمام، مُؤْذِنةٌ بالدَّوام.

والحمدُ لله حقَّ حمده، وهو المسئُول إطالةَ بقاءِ مَوالينا الأمراء، وحراسةَ ما خوّلهم من العز والعَلاء، وأن لا يُخْليهم من صَلاح[1] الشان، وسُمُوّ السلطان، وظهور الولىّ، وثُبُور العدوّ.

ووصـل كتابُ مولانا [الأمير أطال الله بقاءه][2] الصادرُ من معسكره المنصور بكازرين[3]، بتاريخ كذا، مُخْبِرا بشُمول السلامه، مبشّرا بعُمُوم الإستقامه، موجِبًا لشكر مامنح اللهُ من فضـله وأعطىٰ، مقتضيًا [نَشْر][2] ماأسبغ من طَوْله وأضفىٰ، مشروحًا فيه الحالُ فيما كان يجْرى من الخلاف بين مولانا الأمير السيد « ركن الدولة » وبين وُلاة خُراسانَ، وجهادِه إيَّاهم فى حِياطة الدِّين، وحمايةِ حَريم المسلمين، والدعاءِ إلىٰ رضـا رب العالمين، وطاعةِ مولانا أمير المؤمنين، وتَذَمُّمه مع ذلك من دماء كانتْ باتِّصال الحروب تُسْفَك، وحُرماتٍ باستمرار الوقائع تنتهك، وثغورٍ تُهْمَل بعد أن كانت ملحوظه، وحُقُوقٍ تُضاعُ بعـد أن كانت محفُوظه، وانه لـمـا جُدِّدت العزيمةُ علىٰ قصـد جُرْجانَ ومنـازعةِ ظهير الدولة أبى منصور بن وشمكير مولىٰ

(١) فى المختارات المطبوعة ص ٩٣ من عُلُوّ الشان.

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة.

(٣) فى المختارات « بدارزين » وكلتاهما من بلاد فارس.

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال ، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين](١) بوسيلةِ موالينا الأمراء أدام الله تمكينهم منها ومنازعته ومجاذبته فيها ، نهض مولانا [الأمير الجليل عَضُد الدولة](١) إلىٰ كُرْمان علىٰ آتفاقٍ كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة و بينه فى التوجُّه إلىٰ حدود خُراسان . فحين عرف القومُ الجِدَّ فى ردّهم ، والتجريدَ فى صدّهم ، وأنه لامَطْمَع لهم فى جَنَبةٍ إلىٰ طاعة أمير المؤمنين آنتسابُها ، وبذِمام سادتنا الأمراءِ آعتصامُها ، آتّعَظُوا وآتّزعوا ، وعرَّجوا ورجعُوا سالكين أقصَدَ مسالكهم ، منتهجين أرشَدَ مَناهجهم ، معتمدين أعْودَ الأمور علىٰ المسلمين عمومًا وعليهم خصوصًا باجتماع الشَّمْل ، وآتصالِ الحَبْل ؛ وأمْن السِّرْب ، وعُذُوبة الشِّرب ؛ وسكون الدَّهْماء ، وشُمول النَّعْماء ، فخطبُوا الصُّلْح والوُصْله ، وجنَحُوا إلىٰ طلب السِّلْم والألفه ، وأن مولانا [الأمير عضد الدولة](٢) آثَرَ الأحسَنَ وآختار الأجمل : فأجاب إلىٰ المرغُوب فيه إليه ، وتوسَّط مابين الأمير السيد ركن الدولة وبين تلك الجَنَبة فيه ، وتكفَّل بتقريره وتمهيده ، وتحقَّق بتوطيده وتشييده ؛ وأخرج أبا الحَسَن عابدَ بن علىّ إلىٰ خُراسانَ حتّىٰ أحكم ذلك وأبرَمه ، وأمضاه وتمّمه ، بمَجمَع من الشيوخ والصُّلَحاء ، ومَشْهد من القُضاة والفُقَهاء ، وأنّ صاحب خُراسان عاد علىٰ يد مولانا [الأمير عضد الدولة](٢) إلىٰ طاعة مولانا أمير المؤمنين ومُشايعته ، والإمساك بعلائق وَلائه وعِصْمته ؛ وصار وليًّا بعد العَداوه ، وصديقًا بعد الوَحْشه ؛ ومُصافِيًا بعد العِناد ، ومخالطا بعد الآنفراد ، وفهمته . وتأمّلت ـ أيد الله مولانا ـ مافى ذلك من ضُروب النعم المتَشَعِّبه ، وصُنُوف المِنَح المتفرِّعه ؛ العائدةِ علىٰ المُلْك بالجَمال ، وعلىٰ الرعيّة بصلاح الحال ؛

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطيّة .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعية إلى الائتلاف والاتفاق، المزيلةِ للخلاف والشقاق، فوجدْت النفعَ بها عظيما، والحظَّ فيها جسيما؛ وحمدتُ الله حقّ حمده عليها، وشكرْته أنْ أجراها على يد أولى الناس بها، وأحقِّهم بالمكارم أجمعها، وأن قرب الله بيُمْنه [ما كان بعيدا مُعْضلا ويَسَّر ببركته] (١) ما كان ممتنعا مشكلا . فأصلح ذاتَ البيْن بعد فسادها، وأخمد نيرانَ الفتن بعد تلهبها واتّقادها، ووافق ما بين نيّات القلوب، وطابق بين نخائل الصدور، وتحنّت الضلوع بنُجْح سعيه على التألُّف، وانضمّت الجوانحُ بميمون رأيه على التعاطُف؛ وحصل له فى ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر، وجليل الفخْر، وأَريج النَّشر، مالا تزال الرُّواة تدرُسُه، والتواريخُ تحرُسه، والقُرونُ تتوارثُه، والأزمان تتداولُه، والخاصّة تتحلّى بفضله، والعامّة تأوى إلى ظله .

فالحمدُ لله كثيرا، والشكرُ دائما على هذه الآلاء المتواتره، والعطَايا المتناصره، والمفاخر السامية، والمآثر العاليه، وإيّاه أسأل أن يُعرّف مولانا الملكَ الخيرةَ فيما آرتآه وأمضاه، والبركةَ فيما أولاه وأجراه، وأن يُهنِئه نِعمه عنده، ويظاهرَ مواهبَه لديه، ويسهّل عليه أسباب الصلاح، ويفتحَ أمامه أبوابَ النجاح، ويَعْكس إلى طاعته الرقابَ الآبيه، ويذلل لموافقته النفوسَ النائيه، ولا يُعدِمه وموالِيَنا الأمراءَ أجمعين المنزلةَ التى يرى معها ملوكُ الأرض قاطبةً التعلّقَ بحبلهم أمنا، والإمساكَ بذمامهم حِصْنا، والانتماءَ إلى مخالطتهم عِزّا، والاعتزاءَ إلى مواصلتهم حِرْزا؛ إنه جل وعزّ على ذلك قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير .

وقد آجتهدت فى القيام بحقّ هذه النعمة التى تلزمُنى، وتأدية فَرْضها الذى يجب علىّ: من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعه، حتّى آشتهرتْ فى أعماله التى

---

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية وهى مناسبة .

أنافيها ، وآستوىٰ خاصّتُها وعامّتُها فى الوقوف عليها ، وآنشرحتْ صدورُ الأولياء معها ، وكَبَتَ الله الأعداءَ بها ، وآعتددت بالنعمة فى المطالعة بها والمكاتبةِ فيها ؛ وأضفْتها إلىٰ ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وسلف من أترابها وأشكالها ، فإن رأىٰ مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمُرَ أعلىٰ الله أمره بإجرائى علىٰ أكرمِ عاداته فيها ، وآعتمادى بعوارضِ أمره ونهيه كُلِّها ؛ فإن وفور حَظّى من الإخلاص ، يقتضى لى وفُورَ الحظ من الآستخلاص ، فعل . إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الثانى

(أن يفتتح الكتاب بالإصدار)

مثل : أصدر الخادمُ أو العبدُ ونحوه ، ويؤتىٰ بالصدر إلىٰ آخره ، ثم يتخلّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختمُ بقوله : وللرأى العالى مزيدُ العُلوّ ونحو ذلك .

كما كُتِب عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلىٰ السلطان سَنْجَر السَّلْجوقى ، فى حق قُطْب الدين أبى منصور أزدشير العبادىّ : وقد ورد إلىٰ أبواب الخلافة ببغداد رسولًا ، وكان أبوه وخالُه وسلَفُه من أهل العلم والزُّهد ، وهو من الفُصَحاء البُلَغاء ما صورته :

أصدر خادمُ المجلس العالى هذه الخدمةَ عن ضميرٍ معمورٍ بالوَلاء ، وإخلاصِ دَوَاعيه متصلةٌ علىٰ الوِلَاء ، وعكوفٍ علىٰ ما يرجُو به حصولَ المَرَاضى العليه ، والتحقُّق لمشايعته الواضحةِ شواهدُها الجليّه ، والحمدُ لله رب العالمين .

وبعد ، فما زال الجنابُ العالى السلطانىُّ الشاهنشاهىّ الأعظمىّ أعلاه الله لكلّ خيرٍ مَنْبعا ، وحرمُه الآمنُ للفوائد الجمّة مغانًا ومَرْبعا ، والسعادةُ والتوفيقُ مقرونين

بسامى آرائه، مُطيفين به من أمامه وورائه، فى كل رأى يرتئيه، ومقرَّب يصطفيه، وآمرئ يتخيّره ويقلّده، وأمر يحلّه ويعقده، وصُنع جميل يُصيب من الآستحقاق موضعه، ويعيد طيب الذكر مجهّزه ومُبْضِعَه، مناقبُ تفوتُ الإحصاءَ عدّا، وترِدُ من مفاخر الوصف منهلا عذْبا وتسير بذكرها الرِّفاقُ غورا ونجدا، وتجاوزُ غاياتِ المدح علاء ومجدا، وكفى على ذلك دليلًا قاطعا، وبرهانًا ساطعا، ما آقتضته الآراءُ العلية من التعويل على فلان العبّادىّ فى تحمُّل الرسالة الأعظميّة التى عُدقت منه بالنقىّ الجيب، البرىّ من العيب، العارى من دنس الشكّ والرِّيب، فإن آختياره لهذا الأمر طبّق مَفْصِل الصواب، ولشاكلة رمى الرأى أصاب، إذ هو الفذُّ فى علمه وفضله، السديدُ فى قوله وفعله، البارعُ فى إيجاز الخطاب وفصْله، المُعْرِقُ فى الزّهادة والدّيانة المزيّنين لفرعه وأصله.

ولما وصل إلى الأبواب العزيزة الإماميّة ـ ضاعف الله تعالى مجدها ـ مثَل بالخدمة مؤدّيا من فرضها مايلزم أمثاله من ذوى العقائد الصحيحه، والموالاة المحضة الصريحه؛ وصادف من التّكْرِمة والإنعام ما يُوجِبه له محلُّه من العلم الذى لا تكدّر الدّلاءُ بحره، ولا تُدرِك الأرشيةُ بطُولها قعْره، فهو فيه نسيجُ وحده، وناسجُ بُرْده، وناشرُ علَمه، ومستغزر دِيَمه. وألفىَ من ذلك مايقتضيه آختبارُ أحواله الشاهدة بأنه ممن أصحبَ فى يده قيادُ الفصاحة الأبىّ، وملَّكته زمامَها الممتنعَ على من عداه العَصىّ؛ وجُمع له من الفضائل ماأصبح فى سواه متفرّقا، وخيِّر له منها ماجعَل جَفْن حاسده لفرط الكمد مؤرّقا، إلى ماحاز هذه الخصائصَ التى تفرّد فيها وبرَع، وطال مناكبَ الأقرانِ وفرَع: من الإخلاص الدالّ على تمسّكه بحبل الدّين المتين، وآستمراره على جَدَده الواضح المُبين، وفَصَل عن الأبواب العزيزة فائزًا من شرَف الإرعاء، ماوفّر الحظوظَ والأنصباء، حاصلًا من حميد الآراء، على أنفس العطاء وأجزل الحِباء؛

وقد تمهّد له من الوَجَاهة والمكانة ما يَفْخر بمكانه ، وتنقطع دُونَ بلوغ شأوه أنفاسُ أقرانه ؛ ورسَمَ ـ أعلى الله المراسيمَ الإمامية وأمضاها ـ مطالعةَ المجلس العالى السلطانىّ أعلاه الله بهذه الحال، تقريرا لها عند العِلم الكريم، وآستمدادًا للطَّوْل والإنعام، باختصاص قطب الدِّين بالآحترام ؛ الذى هو حقيقٌ بمثله ، وخليقٌ أن لا يَضْحَى عن وارِف ظله ؛ وما يُوعَز به من ذلك يُصادِف من دَوَاعى الآستحقاق أوْفاها ، ويَرِدُ من مَنَاهل الذكر الجميل أعْذَبَها وأصفاها ، ويُتَلَقّى من شرف المحامد بألطفها وأحفاها ، وللرأى العالى علوُّ رأيه، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانيـــة

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهـم ،
والمختارُ منه أسلوبان)

الأســلوبُ الأوّل

(أن تُفتَتَح المكاتبـة بالدعاء)

مثل أن يدعى بعِزّ الأنصار ، أو إدامة السلطان ، أو تخليــده ، أو إدامة بَسْطة السلطان ، أو إدامة الأيّام ونحو ذلك . ويخاطَبُ السلطان فيــه بمولانا ، ويعبّر المكتوب عنه عن نفسه بالمملوك، ويُختَم بالدعاء . وهى طريقة القاضى الفاضل ومَنْ تلاه من كتّاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية .

قال آبن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يقال فى مخاطبة السلطان : سيدنا مكانَ مولانا، وإن كان السيد من الألقاب السلطانيّة ، لأنّ لفظ سيدنا مما آصطُلح عليه لأكابر المتعممين من الفقهاء والقُضاة والكُتّاب، فاجتُنِب فى حق السلطان كى لا تقع المشاركةُ بينه وبين غيره فى الخطاب .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب كُتِب به إلىٰ الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى جواب كتابٍ ورد منه بالبشارة بفتح خِلَاط وهى :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل وزاده من فضله ! ، ومدّ علىٰ خَلْقه وارِفَ ظلّه ، وأظهر به دينَــه علىٰ الدِّين كلّه ، وأوضح إلىٰ مَرضاته مايَسْلكه من سُبُله ، ولا عَدِمت يدُ الإسلام والمسلمين التعلُّقَ بوثيق حَبْله ، وفرّج به الخُطَط المُطبِقه ، وفتح به البلاد المســتغلِقه ، وأخضع لطاعته الأعناق ، وعمّ بفتوحه الآفاق ، ودمّر الكُفْر بمقامه ، وطوىٰ أيّامَهم بمـا ينشُره ويُدِيمه من أيامه ، وأنزل النصرَ فى مواقف النّزال بما ترفعه راياتُه من أعلامه .

وقف المملوكُ علىٰ ماأنعم به مولانا : من كتابِ البِشارة التى وصلَتْ إلىٰ كلّ قلب وسَمْع ، وأمّل بها كلُّ مسلم كلَّ خيرٍ ونَفْع ، وعلِم ماوراءها من جمْع شَمْلٍ كان عزيزَ الجمع ، وعلم مايتبعُها من عواطف مولانا التى عوّدها منه أكرمُ طَبْع ، وتحقّق أن الله سبحانه قد قلّد الدين منه سيفا خَلَقه للوصل وخلق السُّيوفَ للقطع .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلىٰ هــذه المِلّة بنظر مولانا لهـا ، وكَفَالته لأهلها ، وسياستهم بشَرَف السجِيّة وعَدْلها ، وإن كل ما آختلَس الملكُ الناصرُ رحمه الله فإن الله يُتمّه علىٰ يديه ، ويجبرُ به تارة بصَفْحه وتارة بحَدَّيه ، ويَهَبُ له عُمْرا نُوحِيًّـا إلىٰ أن لايَذَر علىٰ الأرض من الكافرين ديّارا ، وإلىٰ أن يُورِث الإســلامَ بسيفِه منهم أرضًا ومالًا ودِيارا ، وهذه مخايِلُ لا يُخْلِف اللهُ بارقَها ، بل يُرِدُّ إلىٰ جهة الكفر صاعقَتها ، فمـا يَحْسَب المملوك أن جانبًا يتلوّىٰ علىٰ طاعة مولانا ولا يَنْحرف ، ولا أنّ كلمةً عليه بعد اليوم تختلف ، ولا أنّ ممتنِعًا بالأمس يكون معــه اليومَ إلا أن يرضىٰ عنه مولانا وعليه ينعطف .

وعلىٰ هـذا فالشام الفرنجى متأخذ بجناح إلىٰ الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم لا ثَمَن لها، والفُرَصُ تمرّ مَرَّ السحاب، والمستعاذُ بالله من حَسَرات الفَوْت بعد الإمكان ﴿ولَينْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُره﴾ وما يشخص لخطاب الله تعالىٰ (١) بالجهاد إلا مولانا : النيةُ خالصه، والبصيرةُ ثاقبه، والعزيمة ماضيه؛ والشجاعة مِنحةٌ من الله له موهوبه، والسماحةُ خليقةٌ من خلائقه الكريمة موجوده؛ والرجالُ تطأ عَقِبَيْه، والملوك تُطيع أمره والشُّجعانُ تبذُل أنفسهم بين يدَيْه، والعدوّ يعرِف منه خَصْما طالَما خاطبه بلسان السيف منه إليه . وليس كلُّ من قدَر عليه أراده، وعكّا أقربُ من خلاط وأنفع للمسلمين فتحا، وأعظمُ فى الكُفّار قدْحا؛ فوالله لئن آنغلق بابُ الشام فى وجه الكُفْر، لتنقَطِعنّ آمالُ أهل البحر والبرّ؛ وما دام فى الشام بقية من الكُفْر فهو يقْبَل الزِّياده، وينتظر النَّجْدة ويؤمِّل الآستعاده؛ وما كرر المملوك هذا الحديثَ جَهْلا بما يجبُ فى خدمة الملوك من الأدَب فى أن لا يتكلّم فى القضية إلا من استُشير فيها، ولا يجترئَ علىٰ الكلام إلا إذا كان مجيبا بما يؤمَر بالإجابة عنه، ولكن المملوك غُلِب علىٰ الصُّحْبه، وآنقطع عن الخِدْمه؛ وعلِم أنه لوكان حاضرا لكان مولانا يَبْسُطه ولا يَقْبِضه، ويستشِفّ ما عنده ويستعْرِضُه؛ ويُشفِّع قلبه فى لسانه إذا هفَا، ويحمله علىٰ صَفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابِلُ بالتكدير مَنْ صفَا؛ فقد علم الله أن المملوك يتمنّى للسلمين أن يُردّ عليهم حقُّهم، وتَرْجع إليهم بلادُهم؛ وأن تكون هذه الأُمنيّةُ جاريةً علىٰ يدِ مولانا ومستفادةً من عزيمته، ومكتوبةً فى صحيفته؛ ومغتنَمةً فيما يمُدّه الله فى حياته؛ فإن الأمور فيما بعدُ ملموحه، ولكن أبوابُ قدرةِ الله مفتوحه؛ فالله يجعل منها أن يَفْتح علىٰ مولانا فيه بلادَ الساحل، وأن يأخذَ للإسلام به أُهبةَ المقيم وللمُقيم أُهبة الراحل؛ وما يخلط المملوكُ هذا المهمّ بغيره، طالع به، ولمولانا علوّ الرأى .

(١) لعله وما يختص بخطاب الخ .

الأســـلوب الثـانى

(أن تُفتتح المكاتبة بيقبّل الأرض مصدَّرا بالمملوك)

وهى من مصطلحات الدولة الأيوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دُونَ من تقدّم، كما كتب القاضى الفاضلُ عن نفسه إلى السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» يهنئه بمولودٍ وُلد له :

المملوك يقبّل الأرض بالمَقام العالى الناصرىّ نصرَ اللهُ الإسـلامَ بمقامه، وأهلك أعداءَ الحقّ بانتقامه، ولا أعْدم الأمةَ المحمديةَ عَقْدَ آعتزائه بكَفَالتها ومَضاء آعتزامه .

يهنّئُ المملوكُ المولى بنعمة الله عنـده وعند الإسـلام وأهله بمَنْ زاده فى ولده، وكَثّره فى عدده، وهو الأمير «أبو سليمان داود» أنشأه اللهُ إنشاء الصالحين، ومَنَّ الله بكمال خَلْقه، ووَسَامةِ وجهه، وسَلامةِ أعضائه، وتهلُّل غُرّته، وآبتسام أسِرّته، ودل على أن هـذا البيتَ الكريم فلكُ الإسـلام لايطْلُع فيه إلا البُدُور، كما دلَّ على عناية الله بأبيه، فإن الله تعالى قال : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُور ﴾ فطريقُ المولى هـذه قد توالَتْ فيها البِشَائر، ونصر اللهُ فيها بألطاف أغنَتْ بلُطْف الخواطر عن قُوّة العساكر، وآشتملَتْ عليـه (؟) فى الغائبِ من أمره والحاضر ﴿ وإنْ تَعُـدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها ﴾ وكيف يُحْصِيها المُحْصِى ويحصُرها الحاصر، أيحيطُ مايَفْنَى بما لا يَنْفَد ؟ .

فالحمدُ لله الذى جعل كُتُبَ المولى إلى أوليـائه وكُتبهم إليه مبْتسِمةً عن المَسَارّ، ناطقةً بأطيب الأخبار، منكشِفةً أسرارُها عمّـا يُرَوِّح الأسرار ؛ وهذا الولد المبارَكُ هو المُوفِّى لاْثنَىْ عشر ولدا، بل اْثنَىْ عشَرَ نجْما متوقِّدا ؛ فقد زاد اللهُ فى أنجمه عن أنجم

يوسفَ عليه السلام نجمًا ، ورآهم المولى يقظةً ورأى ذلك الأنْجُمَ حُلُمًا ؛ ورآهم ساجدينَ له ورأينا الخلْقَ له سُجُودا ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُدودَ المولى إلى أن يراهم آباءً وجدودا .

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب إليهم ، والمختار منه أربعة أساليب)

الأسلوبُ الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلقب المكتوبِ إليه)

مثل : المقامُ أو الجناب ، ويُنْعت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يؤتى بالسلام ثم بالبعديّة ، ويؤتى بخطبة ، ويتخلّص إلى المَقْصَد ، ويؤتى عليه إلى آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب آبن البنّاء عن آبن خلاص إلى أمير المسلمين الواثق بالله أبى بكر بن هُود ، فى جواب كتابٍ ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلىّ ، الواثِقىّ المعتصِمىّ ، المبارك السامى السَّنِىّ ؛ معْدِنُ الفضل ومقرّه ، ومَسْحَب ذيلِ الفخر ومجرّه ؛ ومَناط حمل أمانةِ المسلمين التى لا يحملها إلا أبلجُ الشّرف أغرُّه ، ولا يتقلّد قلادتَها إلا تقىُّ المَنْشإ برّه ؛ مقامُ مولانا جمالِ الملك وبهائه ؛ والباعث فى مَعْطفه أرْيحيّة النجابة وآزدهائه ؛ الأميرِ الأجلّ المعظم ، المكبَّرِ الهمام المكرم ؛ المباركِ الميمونِ السعيد ، الموفّق الرشيد ؛ المظفَّر المؤيّد ، المرفّع الممجّد ؛ ولىّ العهد ، وواسطةِ عقْد المجد ، والمُلْبَس سرابيلَ اليُمْن والسعد ؛ الواثقِ بالله ، المعتصِم به ،

أبي بكر ابن مولانا مجدِ الإسلام، وجمالِ الأنام، ومجاهدِ الدين، سيف أمير المؤمنين، المتوكّلِ على الله تعـالى أمير المسلمين . أبقاه الله وارداً من مَشارع التأييد أعذبَها، متخوِّلا من صُنْع الله الجميل مايستدّ أبعدَ الأمة وأقربَها، ممتدًا مدَ السعادة ماجلَتْ غرّةُ الفجرِ حِنْدِس الظلماء وغَيْهبَها . عبدُ بابه الأشرف، ومملوكُ إحسانه الأسْمَح الأذرَف، مسترقُّه الآوى إلى ظل سلطانِه الأمدّ الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص .

سلام الله الطيبُ الكريم وتحيّاته، يعتمد الواثقيَّ المعتصميَّ ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله الذى له الأمْرُ من قبْلُ ومن بعد ، والصلاةِ على سيدنا محمد نبيِّه الذى ترتَّبَتْ على اجتنابه الشقاوةُ ووجب باتباعه السـعد ، وعلى آله وصحبه الذين ناضلُوا عن ديانته حتّى وضح السَّنَنُ وبان القَصْد - والرضا عن خليفته وابن عمِّه الإمام العباسيّ أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور المستنصر بالله، وارثِ شرفه النبويّ، ومجدِه الهاشميّ ؛ بخصائصه التى لاتُخفى أنوارَها الأبكار(١)، ولا يَطمِس آثارها الحجر . وعن مولانا مجد الإسلام ، جمال الأنام، مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين، ذى العَزَمات التى لا تُغْنى غَناءَها الذُّبُل(٢) التى مَنْبِتها الخطّ، ولا القُضُب التى مَنْشؤها الهند . والدعاء لمَقـام الثّقة والاعتصام، ومَقرِّ الإحسان والإنعام، بالنصر الذى يؤازره الظَّفَر، ويظاهره العَضد .

فكتبه عبدُ المقام الواثقيّ المعتصميّ - كتب الله له تأييدًا يحفظ على الدين نظامَه، وتخليدا يرِثُ ليالىَ الدَّهر وأيامه - من إشْبِيلِيَة حرسها الله تعالى، وللبركات المتوكّليات والواثقيّات بها انثيالٌ كما تتابع القطر، وسطوعٌ كما ابتسم فى مطالعه الفجر، وتعهّد

(١) لعل الصواب "البكر" .

(٢) جمع الذابل ككتب وركع أنظر القاموس .

لا تزال تقرّ به العينُ وينشرح له الصدر؛ والخدمةُ اللازمةُ للمثابة العلية الواثقية المعتصمية ـ أعلى الله مكانها، وشيّد بعَضُده أركانها ـ فرضٌ لا يسعُ تأخيره، وحقٌّ لا يعلَق به تفريطُ المتقلّد له ولا تقصيرُه؛ ولازمٌ من اللوازم التى لا يُشْغَل بسواها سرُّ المملوك ولا ضميرُه؛ والله يُجِد من ذلكم على مايَسُوغُ به صفوُ المنّ ونَميرُه. وإن الخطاب الكريم الواثقى ـ شرّف الله منَازعه، ونوّر بأنوار السعادة مَطالِعَه؛ ورد على العبد مُشيدا بذكره، مُعْليا من قَدْره، مُسْمِيًا لرتبة فخره، متضمّنا من واسع الإنعام وغَمْره، مالو وُزِّع على العالَم لشمِلهم بأَسْره، وأغرقهم بفَيْض يسير من بحْره؛ فتناوله المملوكُ بيمين إجلالِه و إعظامِه، ووفَّى الواجبَ من لَثْمه واَستلامه، وألفى به رِيًّا ناقعًا لغَليل الشوق المبرّح إلى اجتلاء غُرّته الكريمة وأُوَامه؛ وجعل يتتبع سُطوره، ويستقرى فِقَره وشُذُوره، فلا يَقِف من ذلكم كلّه إلا على ما يملأ حَوْباءه جذَلا، ويخوّله الابتهاجَ غُنْما ونَفَلا، ويبوّئه أسنَى مَراتب التشريف قُننا وقُلَلا؛ وهو على ما حكمتْ به الأقضيةُ من تَحطه عن المَثابة الواثقيّة شرّفها الله وشُسُوعه، وإيواء مَغانى أُنسه لذلكم ورُجُوعه؛ لا يجد أُنسا إلا ما يتوالى قِبَلَه من متعهَّد اهتمامها، وتُهْديه إليه ألسنةُ أقلامها؛ فكلّما وفَدَ عليه من صحائفها المكرّمة وافِد، وورد من حضرتها المعظّمة وارد؛ فقد جدّد الزمانُ عنده يَدًا غَرًّا، وأطلع عليه بدرا؛ وأفاده من الابتهاج ما يَعْمُر الخَلَد، وينْشُر نسيمَ الاستبشار إذا سَكَن وركَد؛ وما ينفكّ على نَأْي المكان، وبُعْدِ الأوطان، يحافظ على رَسْمه من خِدَمها، ويؤدّى وظائف الشكر بجسيم مِنَحها وعميم نِعَمها؛ ويجعل على نفسه المتملّكة رقيبا من أن يُخِلّ فى سرّ أو جَهْر بعهد من عهودها أو ذِمّة من ذِمَمها؛ ومهما تجدّد صنع يتعين إهداؤه، ويجب قضاءُ الحق بالدلالة عليه وأداؤه؛ لم يَصْحَبْه فى المطالعة به توَان، ولم يَعْبُر فى جِلائه أوانا إلى أوان. وقد كان قدّم مُطالعاتِه قبلُ إلى الباب الواثقى

شرفه الله باسطًا لتفاصيل الأحوال ، وشارحًا لها على الاستيفاء والكمال ، ولم يتجدد بعـد ذلك إلا تمكُّنُ الرجاء فى فتح لَبْـلَةَ يسَّر الله مَرامها عن دُنُوّ بحول الله وقُرْب ، وأنطق لسانَ الحال بتيسير كلِّ عَصِيٍّ من مُحاولاتها وصَعْب . ولو أنَّ مكانا عضَّه الدهرُ من أنياب حَوادثه الجُونِ بما به عَضَّها ، وفَضَّ الحصارُ أقفالَها التى فَضَّها منه مافَضَّها ، لكان قد ذهب شميسُــه ، وخَفِىَ عن أن يُسْمَع حَسِيسُه ؛ لكن أبى الشقاءُ الغالبُ على أهلها إلا أن يَمُدّ عليهم أمَدَ العذاب ، ويُرْخِى لهم طِوَلَ المُهْلَة المُشْفِية بهم كلَّ يوم على مَهاوِى الخَسار والتَّباب ، حتى يبلُغَ الكتابُ فيهم أجلَه ، ويصلَ إلى الحـدّ الذى شاء الله أن يَصلَه ، فيأخُذَهم أخْذَ من عَمِىَ عن إدراك الحق بَصَرُه وبصيرتُه ، وخَبُث فى معاندته سرُّه وسريرتُه ؛ ويُرَجَّى أن الوقتَ فى ذلكم دانٍ بإمكان ، والله تعالى يُديم للمقام الواثقىّ ماعَوَّده من توالى السُّعود وٱطِّرادها ، وإصحاب الآمال وٱنقيادها ؛ وسلامُ الله الطيبُ يُراوحها ويُغاديها ، وتحياته ، ورحَماته الموصولةُ وبركاته .

الأســلوب الثــانى

(أن تفتتح المكاتبــة بالحَضْرة)

وتوصف ويُدْعى لهـا ، ثم يقع التخلُّص إلى المقصد ، ويُختَم بالدعاء والسلام .

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلى المتوكل بن هودٍ القائم بالدعوة العباسـية بالأندلُس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح ... ...[1] من الأندلس وقتلِ الثائر بها ، وهو :

---

(١) بياض بالأصل ولعله " بفتح المراد وهو حصن بقرطبة من الخ " كما يؤخذ من تضاعيف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد فى المراد) وفى معجم " ياقوت " المراد حصن قريب من قرطبة بالأندلس .

الحضرةُ العليةُ أبقىٰ اللهُ ظلَّ مُلكها علىٰ العباد، وعرَّفها من تأييده وإنجاده أفضلَ المعتاد، وجعل لها من الملجأ إليه والتوكلِ عليه أكثرَ الجموع وأكثفَ الأعداد، ولا زالت أحاديثُ نصرها سالمةَ المُتون صحيحةَ الإسناد، وصحائفُ فتوحها تجمعُ صلاحَ العباد، وتُطلِع صَباحَ البشائر من ليل المُراد؛ عبدُها ومملوكُها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريقَ التي يجب سلوكُها، فلان .

وبعد : فكتب العبد ـ كتب الله للمقام العلىّ المجاهدىّ المتوكّلىّ سعدا يردُّ الصِّعابَ ذُلُلا، ويسُدّ من المكاره سُبلا، وأمدّه بملائكةِ رسله جاعلُ الملائكةِ رُسُلا ـ من فلانة وبركاته مَرْوِية للظماء، وحركاتُه مسكِّنة للدَّهْماء، وآثارُه فى يومَىْ سِلْمه وحربه آثار الأشدّاء علىٰ الكُفّار والرُّحماء، والأرضُ بوُضُوح مُحَيّاه، وفتوح أسنّته وظُباه، تهتزُّ أعطافا، وتعتزُّ مَواسِطَ وأطرافا، وتبرُزُ فى أثوابها القُشُب فيزداد حُسْنها أضعافا، والأيامُ بالبشائر التى قصّتْ ختامَها عفوًا علىٰ قَدَر، وقضّتْ مسامَها صفوًا بلا كَدَر، لها أنفُ الشامخ تِيها، ووجهُ الضاحك المتهلّل إشادةً بحالها وتَنويها، ودلالةً علىٰ رُحْب مَجالها وتَنْبيها . والحمدُ لله حمدَ من عَرَف قـدرَ نَعْمائه فوفَّى حقَّ أسمائه تقديسًا وتنزيها . وإن الخطاب العلىّ الكريم وردَ راصفًا أجلَّ الدُّرر، واصفًا أجملَ الفتوح الغُرَر، رافلًا فى حُلَل الأَيْد والقَهْر، رافعًا مِنسأةَ الحوادث بإحدىٰ حسنات الدهر، فياله من كتاب! أُودع بدائعَ الكَلِم، وجوامعَ البيان الملتئِم المنتظِم، لو آستمدّ سناه أوّلُ الفَلَقَيْنِ لم يكُ كاذبا، ولو أُعيرَ محيّاه ثانى الشفقين كان عن ضوء النهار نائبا، ذكَّر بأيام الله المشهودة بالملائكة والرُّوح، ومدّ باعَ الكلام فى فتح الفُتُوح، وأطال ذُيولَ القول مِفتاحًا منه للصَّعْب الجَمُوح؛ فكان الغزيرَ الصيِّب، والكثيرَ الطيِّب؛ والمتّبَعَ إن مضىٰ بقلوب وأسماع، والمضاعَفَ حُسْنُه إن كُرِّر إلىٰ غير آنقطاع . كيف لا ؟ وقد بَشَّر خبرُه بالمُراد فى المُراد، وأوقع اليقينَ بما خَرَق

العاداتِ من الإسعافِ والإسعادِ، وكان من آحادِ الأخبار لا من أخبار الآحادِ؛ ومما اقتصّه ما جرىٰ من أوائل الحركة السعيده، واعترض من المَتاعِب الشديده ؛ وأن الشتاءَ كان فى ابتدائه ، والغيمَ ساحبٌ لِردائه ، ساكبٌ فضل أندائه . والمكارهُ فى طَيِّها النِّعم الجِسَام ، والنفوسُ الكِبارُ تتعَب فى مُرادِها الأجْسام ؛ ولذلك هانت علىٰ المَقَام العلى ـ أيده الله ـ تلك المَشَاق، ورجّى من عمله ونظره ماجَنىٰ من ثمرةِ العاق؛ فسار إليه بالجَحْفَل الأحْفَل، والعزيمة الزعيمة بفَضّ المُقْفَل،ورَضّ الأعلىٰ والأسـفَل ؛ وقد اعترّ بأجَلّ المدائن شانا ، وأوْثقِها بُنْيانا ، وأبعدها صِيتاً ومكانا ؛ وهى التى أعيَتْ رياضَتُها كلَّ رائض، وتخرتْ بكلّ قاعد بقُنُونِها[(١)] رابض، وجُمِع إليهـا مِنْ طَرد الآفاق، وأعداد الاجتماع والاتّفاق ؛ أتباعُ كلّ ناعق، وأشياعُ كل ماردٍ مارق، فاستحَلّوا الدماء ، ورَكِبُوها مَضَلّةً عَميْـاء ، وأدرك كلٌّ منهم مما شاء للإسلام ماشاء ؛ وعدوُّ الله يَقْتِل لهم فى الذّروة والغارب ، ويضرِبُ لهم سُكّانَ البلد ضَرْب الغرائب، حتّى أبادَ خَضْراءهم ، وجعلهم شَرَّ خَلَف فيمن وراءَهم ؛ غيرَ مُبالٍ بما احتقَبَ من الجَرَائر،واقترفَ من إباحة الحَرَائر؛ فاجترأ مدّة بالجلاء،وازداد إثْما بالإمْلاء؛ وحينئذ سمَتْ إليه عساكرُ الإسلام، وناولته بالموت الزُّؤام، ورأىٰ عِيانا ما كان يَطيرُ إليه قلْبُه لو رآه فى المَنَام؛ وتداولَتْه المطاولةُ المستدرِجه،والعاجلةُ المُزْعِجه؛ وفى كلّ ذاقَ عذابَ الهُون ، فأحسّ بقاصمة المُتُون وقاضِية المَنُون ؛ واقسمت شدّته إلىٰ المُهْلِكَيْن : خوفٍ وإعدام،واستكمَلت تسـعةَ أشهر وكان الفتحُ عندها لتمام ؛ وإنه للولد الذى هُنِّئ به الإسلام، وضَنّت بمثله الأيام، واستبشر بوجُوده

---

(١) القنة بالضم الجبــل الصغير أو الجبل السهل المنبسط علىٰ الأرض جمعه قنن وقنانــ وقنون أنظر القاموس .

الأنام ؛ فما أعلىٰ مقامه ! وأبهج يومَهُ وأسعَدَ عامه! ؛ ولا غَرْوَ أن تكون غُرَّته أبهىٰ الغُرَر، ومفتتحه مباركا كالبُشَر، وقد أسفر عن أيْمَنِ وجه النُّجْح ، وخرج من عموم الأيام بتخصُّص هذا الفتح ، وآنتقم اللهُ فيه من الشقيِّ الظالم، العظيمِ الجُرْأة علىٰ آرتكاب المَظَالم؛ فطاح بمُوبِق أعماله ، وعجَّل الله به إلىٰ ما أُعِدَ لأمثاله ؛ وكان دَمُه شَرَّ دمٍ أُرِيق، وأدِيمُه أخبَثَ أديمٍ لاقىٰ التمزيق .

والحمدُ لله الذى نصر الرايةَ العباسيَّة وأعلاها، وأظهر آيةَ عنايته وجَلَّاها ، وأسبغ نعمَه الجسيمةَ ووالاها . وحين ورد هذا النبأ العظيمُ [كان] أندىٰ من قَطْر النَّدىٰ علىٰ الأكباد ، وسَرىٰ فى البِلاد سَرَيانَ الأرواح فى الأجساد ؛ وكَلِفت به الأسماعُ والأسمار، وسَمَتْ به وإليه الأمصارُ والأبصار ؛ وآستقرَّ من آرتجاع البلد، وآنتزاع النفس الذاهبة إلىٰ جرى الأَبَد ، حُكْمان مدركهما الفِعلُ والإقرار ، وعملان تمَّ بهما المرادُ والآختيار؛ فرُفِعت الأدعيةُ إلىٰ سامعها، وغَصَّت الأندية بحاضِرى مجامعها ؛ وذاع بالبُشرىٰ فياحُسن ذائِعها وشائِعها ، وأذعنت الآمالُ لإدناء نازِحها وشاسعِها ؛ وأخذ العبد من المَسَرّة بحظِّ أخلص العبيد مَشْهَدا ومَغِيبا ، وأجمعِهم لمَعالى الحَدْ تطنيبا ، ولمعانِى الثناء والحمد تطيبيا؛ وجَدَّد من شُكر الواهب لجزيل هذه الهِبه ، والفاتح لأعظم المعاقل الأشبه (؟) مايستَغْرِق المُدَد، ولا يبْلُغ الأَمَد؛ وأنّى [لمثلى] أن يَصف البشرىٰ الواصله ، أو يُنْصِف المقالةَ المتطاوِله ؛ ولو حَلَب أشْطُر الإحسان، وجلب أبحُرَ البيان، وكيف والفِكْرُ قد قَعَد حَصِرا ، والمدىٰ لايؤاخذه التقدير قسرا، والقول لايجيب مُطوّلا ولا مُختصَرا؟ فحسْبُه دعاءٌ هُولَهُ رافع ، ولأوقاتِ الخَلَوات به قاطع ، وإلىٰ الله سبحانه فى قَبُوله ضارع ؛ والله يجيبُ فى المقام العلىِّ المتوكلىِّ أفضلَ دعاء الخلق ، ويضاعفُ له مع السابقين ثوابَ السَّبْق ، ويَجْزيه خيرَ الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق ، وهو تعالىٰ ينصُره يومَ الباس ، ويعصِمُه من الناس ، ويُبقِي رِفدَه للاكتساب ونُورَه للاقتباس ، ويعرِّفهُ فى كل ما يستنبِطُه من أصل التوكل صحّةَ القياس ، بمنه والسلام .

الاســـلوب الثـالث

(أن تفتَتح المكاتبةُ بأمَّا بعد ، ويتخلَّص إلىٰ المقصد ويختَم بما يناسب المقام)

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ المتوكِّل بن هُود المقدّم ذكره ، عن نفسه ، يهنّئه بوصول هديَّة الخليفة العباسىّ إليه من بَغْداد :

أما بعـد ، فكتب العبدُ ـ كتب الله للمقام العلىّ الناصرىّ المتوكّلىّ مجدًا يحُلّ الكَواكب ، وجَدًا يفُلّ الكتائب . من شاطِبةَ ، وبركاتُ دعوته السعيدة قد طبّقت البَسيطه ، وكاثَرتِ البحارَ المُحيطه ، وأنجزتْ للإسلام أفضلَ مَواعده ، وجدّدَتْ عهـدَه لأهل بيتِ النبوّةِ الرافعةِ لقواعده ، وفسَّحَت له مجَالَ البُشرىٰ ، وأطلعتْ عليـه أنوارَ العناية الكُبرىٰ ؛ فعـاد إلىٰ الوطَن ، ووجد حالَ السُّهد طعْمَ الوسَن ، وأورق عُودُه ، واتّسقتْ سُعُوده ، وعاد إلىٰ صِحّتـه بالنظر الإمامىّ الذى جاء يَعُوده . وحين صـدُور رسولِ دارِ السلام ، ومثَـابةِ أهل الإسلام ، ومقـعد الجلاله ، ومَصْـعَد إقرار الرساله ، ومعه الكتابُ الذى هو غريب ، أُنِسَ به الدّين الغريب ، وبَعيـدُ الدار نزَلَ به النصرُ القريب ، وآيةٌ بأدلّتها الصادقة لتبطيل الشُّبَه الآفكه ، وسكينةٌ من ربِّنا وبقيّةٌ مما ترك آلُ نبيِّنا تحملُه الملائكه ـ اطمأنَّت القلوب ، وحَصَل المطلوب ، ودرّت أخلافُ الإيناس ، وارتفع الخِلافُ بين الناس ، وعلِموا أن السالكَ قد أضاءتْ له المَحجّة ، والحقّ لايَعْدُو مَنْ بيـده الحُجّه ، وأن من أمَرتْه

الخلافةُ العبّاسيَّةُ فطاعتُه تجبُ قطعا، ومخالفتُه تحرُم شرعا، ولم يبقَ إلا أن يبِين للعِيان شخصُــه، ويرِدَ على الآذان نَصُّه، فيكون يومُه غُرَّةَ الليالى المعتكِرات، وعلَمَ الأيام المُنكَّرات، واليومَ الذى به تؤرّخ الأيامُ المستقبَله، وتُرْفَعُ فيه الأعمـال المتقبَّـله. وبإقبال الركاب السعيد إلى هذه يتنزل به من سَماء العلياء محكمٌ وحكمه، ويصلُ به إلى الأنام فضـلٌ من الله ونِعَـمه، ويُقتَضىٰ دينٌ على الأيام، لايبـقىٰ معه عسره، ويوجَدُ جبرٌ للإسـلام، لا يكون بعـده كَسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حَسْره.

الأســـــلوب الرابع

(أن تُفتَتح المكاتبة بالخطاب بلفظ «سيدى» أو «مولاى»
مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبدالله بنُ الخطيب وزيرُ ابن الأحمر صاحبِ الأندَلُس عن نفسه إلى السلطان أبى عِنَـان ابن السلطان أبى الحسن المَرِينىّ صاحب فاس، عند ورود كتابه إلى الأندَلُس بفتح تِلِمْسان، معرّضا بأنَّ صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبى الحسن بالأندَلُس، ما صورته :

مَوْلاىَ! فاتحَ الأقطار والأمصار، فائدةَ الأزمان والأعصار، أثيرَ هبَاتِ الله الآمنةَ من الاعتصار[1]، قُدوةَ أولى الأيدى والأبصار، ناصرَ الحق عنـدَ قعود الأنصـار، مستصرخَ الملك الغريب مِنْ وراء البِحَار، مصداقُ دعاءِ الأبِ المولىٰ فى الآصال والأسحار. أبقاكمُ الله! لاتقفُ إيالتُكم عندحدّ، ولا تُحصىٰ فتوحاتُ الله عليكم بعدُ؛ ولا يُفيق أعداؤُكُم من كدّ، مُيَسّرا على مَقامِكم الكريم ماعَسُر على كل أبٍ كريم وجَدّ.

(١) فى الأصل قصور وهو تصحيف والتصحيح من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ ص ٣٣ .

عبدُكم الذى خَلَص إبريزُ عبوديتّه لمُلْك مِلِكِكم المنصور، المعْترِفُ لأدنىٰ رحمةٍ من رَحَماتكم بالعَجْز عن شكرها والقُصُور، الداعى إلىٰ الله سبحانه أن يَقْصُر عليكم سعادةَ القُصُور، ويُذَلِّل بعز طاعتكم أنفَ الأسَد الهَصُور، ويُبْقِىَ الملك فى عَقِبكم إلىٰ يومِ يُنْفَخُ فى الصُّور . فلان .

من الضَّرِيح المقدّس: وهو الذى تعدّدتْ علىٰ المسلمين حقوقُه، وسطع نُورُه وتلألأ شُرُوقُه، وبلغ مجدُه السماءَ لمّا بسَقَتْ فروعه ورسَخَتْ عُروقُه، وعظُمَ بتبوُّئكم فخرُه فما فوقَ البسيطة فَخْر يفُوقه؛ حيثُ الجلالُ قد رسَتْ هِضابُه، والمُلْكُ قد سُتِرَتْ بأستار الكعبة الشريفةِ قِبابُه، والبيتُ العتيقُ قد أُلحِفت الملاحِد الإمامية(١) أثوابُه، والقرءان العزيزُ تُرَتَّل أحزابه، والعملُ الصالحُ يرتفعُ إلىٰ الله ثوابُه، والمستجيرُ يخفى باطنُه سؤاله فيَجْهَر بنَعْرة العزّ جوابُه، وقد تفيأ من أوراق الذكر الحكيم حديقه، ونحيلةً أنيقه، وحطَّ بجُودىّ الحقّ نفسا فى طُوفانِ الضُّرِّ غَرِيقه، واَلتحف برق الهيبةِ الذى لاتهتدى للنفسِ فيها إلا بهدايةِ الله طَرِيقه، واعتزَّ بعزِّ الله وقد توسَّط جيشَ الحرمةِ المَرِينيَّة حقِيقه، إذ جعل المولىٰ المقدّس المرحوم أبا الحسن مقدّمه وأباه وجدّه سقاه المولى الكريمُ بهذا المجْد سَيْب رُحْماه، وطنّب عليه من الرِّضا فُسْطاطا، وأعلىٰ به يَدَ العناية المَرِينيَّة اهتماماً واَغْتباطا، وحرّر له أحكامَ الحُرْمة نصًّا جلياً واَستنباطا، وضمِن له حُسْن العُقْبىٰ التزاما واَشتراطا، وقد عقَد البصرَ بطريق رحمتكم المنتظَرة المرتقبه، ومدّ اليَدَ إلىٰ اللطائف بشفاعتِكم التى تتكفَّل بعِتق المال كما تكفَّلتْ بعِتق الرَّقبه، وشرع فى المراح بميدان نِعَمكم بعد اقتحام هذه العَقَبه، لما شنفت الآذانَ البشرىٰ التى لم يبق طائرٌ إلا سجع بها وصَدَح، ولا شِهابُ دُجُنّةٍ إلا اقتبس من نُورها واَقتَدح، ولا صدرٌ إلا اَنشرح، ولا غُصنُ عِطْف إلا مَرِح، بُشرىٰ الفتح القريب،

(١) فى الريحانة الامامية . تأمل .

وخبرُ النَّصر الصحيح الحَسَن الغَرِيب ، ونَبأُ الصُّنع العجيب ، وهِدايةُ السميع المجيب : فتح تِلِمْسان الذى قلَّد المنابرَ عقودَ الابتهاج ، ووهب الإسلامَ مَنِيحةَ النصر غنيَّةً عن الهِياج ، وألحفَ الخَلْقَ ظِلًّا ممدُودا ، وفتح بابَ الحجّ وكان مسدُودا ، وأقرّ عُيونَ أولياء الله الذين يَذْكُرونَ اللهَ قِيامًا وقُعُودا ، وأضرع بسَيْفِ الحقّ جِباهًا أبيّةً وخُدُودا ، وملّككم حقّ أبيكم الذى أهانَ عليه الأموال ، وخاض من دُونه الأهوال ، وأخلَص فى الضَّراعة والسُّؤال ؛ من غير كدٍّ يغمِز عِطْفَ المَسَرّه ، ولا جَهْد يُكَدِّر صفْو النعم الثَّرّه ، ولا حَصْرٍ ينقُض به المَنْجنِيقُ ذُؤابَتَه ، ويُظْهِر بتكرُّر الركوع إنابتَه .

فالحمد لله الذى أقال العِثَار ، ونَظَم بدَعْوتِكم الانتشار ، وجعل مُلْككُم يجدِّدُ الآثار ويأخُذُ الثار . والعبدُ يهنِّئُ مَوْلاه ، بما أنعم اللهُ به عليه وأوْلاه ؛ وما أجْدَره بالشُّكر وأوْلاه ! فاذا أجال العبيدُ قِداحَ السُّرور فلِلْعبد المعَلَّى والرَّقيب ، وإذا استهمُوا حظُوظَ الجَذَل فلِيَ القِسمُ الوافرُ والنصيب ، وإذا اقتسَمُوا فريضةَ شكر الله تعالى فلِيَ الحظُّ والتعْصيب ؛ لتضاعُف أسباب العبودية قِبَلِي ، وترادُف النِّعم التى عجز عنها قولِي وعَمَلِي ، وتقاصَرَ فى ابتغاءِ مُكافأتِها وَجْدى وإن تطاول أمَلِي ؛ فمقامكم المقامُ الذى نَفَّس الكُرْبه ، وآنَس الغُرْبه ، ورعىٰ الوَسِيلةَ والقُرْبه ؛ وأنعَش الأرماق ، وفكّ الوَثاق ، [وأدرّ الأرزَاق ، وأخذ على الدَّهْر بالاستقالة بالعهد والميثاق] (١) وان لم يباشر العبدُ اليَدَ العالية بهذا الهناء ، ويَتَمثّلْ بين يَدِي الخلافة العظيمة السَّنا والسَّناء ، ويمُدّ بسبب البِدار إلىٰ تلك السماء ؛ فقد باشر به اليَدَ التى يَحِنُّ مولاى لتذكُّر تقبيلها ، ويُكَمِّلُ فروضَ المجد بتوفِيَة حقوقها الأبويّة وتكميلها ؛ ووقفت بين يدى مَلِكِ الملوك الذى أجال عليها القِداح ، ووصل فى طلبِ وِصالها المَساء بالصَّباح .

(١) الزيادة من الريحانة ج ٢ ص ٣٣ .

وكان فتحه إيَّاها أبا عُذْرةِ الأفتاح ؛ وقلتُ يهنيك يامولاى ردُّ ضالَّتك المَنْشُوده، وخبرُ لُقَطَتك المعرَفة المشهُودَه ؛ [ودالتك المودودة][1] فقد آستحقَّها وارثُك الأرضىٰ، وسيفُك الأمضىٰ ؛ وقاضى دَيْنك ، وقرّةُ عينِـك ؛ مستنقذُ دارِك من يَدِ غاصبها ، ورادُّ رتبتِك إلىٰ مَنَاصِبها، وعامِرُ المَثْوىٰ الكريم، وسِترُ الأهل والحَرِيم .

مولاىَ ! هذه تلمسانُ قد أطاعَتْ ، وأخبارُ الفتح علىٰ وَلَدِك الحبيبِ إليك قد شاعَتْ ، والأُمَمُ إلىٰ هَنَائه قد تداعَتْ ؛ وعدُوُّك وعدُوّه قد شَرّدَتْه المَخَافه ، وآنضافَ إلىٰ عَرَبِ الصحراء نخفضَتْه الإضافه ، وعن قريب تَحكُمُ فيه يَدُ آحتكامه ، وتُسْلمُه السلامةُ إلىٰ حِمامه ، فلتَطِبْ يا مولاىَ نَفْسُك ، وليستَبْشِرْ رَمْسُك ، فقد نَمَتْ بركَتُك وزكىٰ غَرْسُك . نسأل الله أن يُورِدَ علىٰ ضَرِيحك من أنبـاءِ نَصْرِه ماتُفتَح له أبوابُ السماء قَبُولا ، ويُرادِفُ إليك مَدَدا موصُولا ، وعَدَدا آخرتُه خيرٌلك من الأُولىٰ، ويَعْتَرِيه بركةُ رضاك ظَعْنا وحُلُولا ، ويُضْفِى عليه منه سِترا مسدُولا .

ولم يقنَع العبد بخدْمة النـثْر ، حتّى أجهد القريحةَ التى ركَضَها الدهرُ وأنْضاها ، وآستَشَـفَّها الحـادث الجَلَل وتَقاضَاها ، فَلَفَّق من خِدمة المنظوم ما يتغمَّد حلمكم تقصيرَه ، ويكون إغضاؤكم إذا لَقِىَ مَعَرّة العَتْب وليَّه ونَصيره ؛ وإحالة يامولاى علىٰ الله فى نفس جبَرها ، ووسيلةِ عرفها مجدُه فـا أنكرها ، وحرمةٍ بضَرِيح مولاىَ والده شَكَرها ؛ ويطَّلع العبد منه علىٰ كمال أمله ، ونُجح عمـله ؛ وتسويغ مقتَرَحه ، وتَميم مَطْمَحه ، إن شاء الله تعالىٰ :

[يا آبْنَ الخَلائِفِ ياسَمِىَّ محمّدٍ ۞ يامَنْ عُلاه ليس يَحْصُرُ حاصِرُ !
أبْشِرْ فانتَ مجـدِّدُ المُلْك الذى ۞ لَوْلاكَ أصـبحَ وهو رَسْمٌ دائِرُ !

(١) الزيادة من "الريحانة" ج ٢ ص ٣٣ .

مَنْ ذا يُعانِد منــك وارِثَهُ الذى * بُسُـعُوده فَلَكُ المشـيئةِ دائرُ!
ألقتْ إليكَ يَدُ الخِـلافةِ أمْرَها * إذ كنتَ أنتَ لهـا الولىُّ الناصرُ!
هـذا وبَيْنَكَ للصريحِ وبَيْنَها * حربٌ مُضَرَّسَـةٌ وبَحْـرٌ زاخرُ!
مَنْ كانَ هـذا الصُّنْعُ أوّلَ أمْرِه * حَسُنَتْ له العُـقْبىٰ وعَزَّ الآخرُ!
مَوْلاىَ عِنْدى فى عُلاكَ محبّـةٌ * واللهُ يعـلَمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ!
قلْـبِى يحَـدِّثُنى بأنَّـك جابرٌ * كَسْرِى وحظِّى منـك حَظٌّ وافرُ!
بِرّى وجودك قد حَطَطْتُ قَرِيحتِى * ووَسِـيلتى لعُلاكَ نُورٌ باهِـرُ!
وبذلتُ سَعْيِى واجتهادى مثلَ ما * يُلْقِىَ لمُلْكِكَ سيفُ أمرِك عامرُ!
وهو المُـوالىُّ الذى اقتحمَ الرَّدىٰ * وقضىٰ العزيمَـةَ وهو سَيْفٌ باتِرُ!
ووَلِىُّ جَدِّكَ فى الشَّدائدِ عِنـدَ مَا * خذَلَتْ عُـلاهُ قبائلٌ وعشائرُ!
فاستَهْدِ منـه النُّجْحَ واعلم أنّه * فى كلِّ مُعْضِـلةٍ طبيبٌ ماهرُ
إنْ كنتُ قد عَجَّلْتُ بعضَ مدائحِى * فهِىَ الرِّياضُ وللرِّياضِ بَواكرُ [(١)]

الطرف الرابـع عشر

(فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك وإليهم)

والرسمُ فيه أنه إن كان الجواب صادرًا عن مَلِك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع، وخطابُ المكتوب إليه بالكاف . وإن كان عن بعض أتباع الملِك إليـه ، فالتعبير عن المكتوب عنـه بالخادم، أو العبد، أو المملوك ونحو ذلك ، ومخاطبةُ الملك بما تليقُ به مخاطبـة الملوك . ثم الجوابُ تارةً يكون الابتداء [فيـه] بنفس ورود

(١) لم يذكر فى الأصل ما أشار اليه من النظم وقد عثرنا عليه فى "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء للفائدة فتنبه .

المكاتبة ، وقد تقدّم فى مثـل ذلك فى الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكاتبـة يبتدأ فيها بلفظ عُرِض . أما الأجوبة المتعلّقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض : وصل، أو ورد، أو نحو ذلك .

ثم هى علىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلىٰ غيرهم ،وفيه ثلاثُ جمل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك المَشرِق،وفيـــه أسلوبان)

الأســـلوبُ الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : « كتابُنا » و «وصل كتابك»)

ويذكر تاريخ الكتاب، ويشار إلىٰ ما فيه، ثم يؤتىٰ بالجواب إلىٰ آخره، ويختم باستماحة الرأى فى ذلك الأمر ؛ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة إلىٰ حاجب الحُجّاب أبى القاسم سـعدِ بن محمد ، وهو مقيم بنَصيبينَ علىٰ محاربة بادِ الكُردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مؤرّخا بيوم كذا، تذكر فيه ماجرىٰ عليه أمْرك فى الخدمة التى نِيطَتْ بِكفايَتِك وغَنائِك ، ووُكِلتْ إلىٰ تدبيرك ورأيك : من رد بادِ الكُردىّ عن الأعمال التى تطرّقها ، وحدّث نفسَـه بالتغلّب عليها ، وتصرُّفك فى ذلك علىٰ مُوجِبات الأوقات، والتردُّد بين أخينا وعُدّتنا أبى حَرْب زيادِ بنِ شهرا كويه وبينك من المكاتبات، وحُسْن بَلائك فى تخيُّفه، ومقاماتك فى حَصِّ جَناحه، وآثارك

فى الآنقضاض على فريق بعد فريق من أصحابه ؛ وآضطرارك إياه بذلك وبضُروب الرياضات التى آستعملتها، والسياسات التى سُسْت أمره بها، إلى أن نزل عن وُعُورة المعصية إلى سُهُولة الطاعة، وآنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهدايه ؛ وتراجع عن السَّوْم إلى الآقتصار وعن السَّرَف إلى الآقتصاد، وعن الإباء إلى الآنقياد ، وعن الآعتياص إلى الإذعان . وأن الأمر آستقر على أن قبلتَ منه الإنابه، وبذلتَ له فيما طَلَب الآستجابه، وآستُعيد إلى الطاعه، وآستضيف إلى الجماعه، وتصرَّف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تضمُّه الجمله ؛ وأُخذت عليه بذلك العُهُود المستحكمةُ والأيمان المغلَّظه، وجُددت له الولايةُ على الأعمال التى دخلتْ فى تقليده، وضربت عليها حدوده؛ وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أخينا وعُدّتنا أبى حَرب [زياد بن شهرا كويه] (١) مولى أميرالمؤمنين تَرِدُ علينا، وتصلُ إلينا، مشتملةً على كُتُبك إليه، ومطالعاتك إيَّاه؛ فنعْرِف من ذلك حُسنَ أثرك وحزم رأيك ، وسَداد قولك ، وصوابَ آعتمادك ؛ ووُقُوع مَضارِبك فى مَفاصلها، وإصابةَ مَراميك أغراضَها؛ وما عَدَوْتَ فى مذاهبك كلِّها، ومتقلَّباتك بأسْرها؛ المطابَقَةَ لإيثارنا ، والموافقةَ لما أُمرتَ به عنَّا ؛ ولا خلتْ كتبُ أخينا وعُدّتنا أبى حرب من شكرٍ لسَعْيك، وإحماد لأثرك، وثناءٍ جميل عليك، وتلويح وإفصاحٍ بالمناصحة الحقيقة بك ، والموالاةِ اللازمة لك ، والوفاءِ الذى لا يُستغرَب من مثلك، ولا يُستكثَرُ ممن حَلَّ فى المعرفة محلَّك ؛ ولئنْ كنت قصدْتَ فى كل نهج آستمررْت عليه ، ومَعْدِل عدلت إليه ؛ مكالَفَةَ هذا الرجل ومراغمتَه ، ومُصابرتَه ومنازلَته ، والتماسَ الظهور عليه فى جميع ما تراجعتماه من قول ، وتنازعتماه من حدّ ؛

(١) الزيادة من مختارات الصابى الخطية .

فقد آجتمع لك إلىٰ إحمادنا إيَّاك ، وآرتضائنا ما كان منك ، المِنَّةُ عليـه إذ سكَّنْت جاشَه ، وأزلْتَ آستيحاشَه ، وآستللته من دَنَس [لباس][1] المخالفه ، وكسوتَهُ من حُسْن شعار الطاعه ، وأطلت يَدَه بالولايه ، و بسطت لسانَهُ بالحُجّه ، وأوفيت به علىٰ مراتب نُظَرائِه ، ومَنازِل قُرَنائه ، حتّى هابُوه هيبةَ الوُلاه ، وآرتفع بَيْنَهم عن مطارح العُصَاه .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعُدّتنـا أبى حرب مشكورا ، وعلىٰ هـذا الرجل مانًّا وفى إصلاح ما أصلحْتَ من الأمر مُثَـابا مأجورا ، وإيّاه نسأل أن يُجْرِى علينـا عادتَه الجاريةَ فى إظهار راياتنا ، ونُصْرةِ أوليائنا ، والحكمِ لنا علىٰ أعدائنا ، وإنزالهم علىٰ إرادتنا ، طَوْعا أو كرها ، وسِلْمـا أو حربا ، فلا يخلو أحدٌ منهم أن تحيط لنا بعُنُقه رِبقةُ أسر ، أو مِنَّةُ عفو ، إنه جلَّ ثناؤه بذلك جدير ، وعليه قدير . ويجب أن تُنْفذَ إلىٰ حضرتنـا الوثيقةُ المكتتبةُ علىٰ بادِ الكردىّ إن كنت لم تُنْفِذها إلىٰ أوانِ وصول هذا الكتاب : لتكون فى خزائننا محفوظه ، وفى دواوِيننا منسوخه ، وأن تتصرّف فى أمر رسله وفى بقية [ان كانت بقيت من أمره[1]] علىٰ ما يرسُمُه لك عنا أخونا وعدّتنا أبو حرب ، فرأيُك فى العمل علىٰ ذلك ، وعلىٰ مطالعته بأخبارك وأحوالك ، وما يحتاج إلىٰ عمله من جهتك موفقا ، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر فى ترتيبه علىٰ نحو ما تقدّم فى الأسلوب الذى قبله .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة أيضا إلىٰ أبى العلاء عبيد الله آبن الفضل فى جوابِ كتابه الواردِ عليه بالظَّفَر بأهل الأقتباس ما صورتُه :

---

(١) الزيادة من "مختارات الصابى" .

وصل كتابك ـ أدام الله عزك ـ المؤرّخ بوقت الظهر من أمسنا وهو يوم كذا، تذكر ماسهّله الله لك، وأجراه على يدك، وبيمن تدبيرك، وبركة خدمتك: من الإيقاع بالعُصاة أهل الأقباس، وإذاقتهم وبالَ ما كانوا عليه: من خلع الطاعه، وشنّ الغارة واستباحة المحارم، وارتكاب العظائم؛ وإثخانك فيهم قتلا وأسرا، وتشريدا وتشتيتا؛ وفهمناه وحمدنا الله عليه، وشكرنا ماأولى فيه، وحَسُنَ منا موقعُ أثرك، وتضاعَف فيه جميلُ معتقَدنا فيك ولك؛ وارتضينا فعلَ الأولياء فى الخفوف إليه، والمناصحة فيه؛ وسبيلُكَ أن تبحثَ عن أموال هؤلاء القوم وثمّرها، وتستدركها وتحصّلها، وتكتُبَ بما يصح منها؛ وتتقدّم بقصّ أثرِ الهاربين حتّى تُلحِقهم بالهالكين، وتُشيع الرهبةَ فى سائر شِقّ الفُرات، وتتوخّى طوائف الأشرار والخُرّاب، ومُخيفى السبل والساعين فى الفساد بالتتبّع لهم ووضع اليد عليهم؛ فإنّ بحسب النّكاية فى أهل الجهل والدّعارة سُكونَ أهل السلامة والاستقامه؛ فرأيك فى العمل بذلك والمطالعة بما يوفّقك الله له مستأنفا من مثل هذا الفعل الرشيد، والمقام الحميد؛ وبسائر الأمور التى ترى عينها وتحتاج إلى معرفة مجاريها، موفّقا إن شاء الله تعالى والسلام .

الجملة الثانية

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مقَامَ الملوك الآن فمن بعدهم)

والذى وقفت عليه منه أسلوب واحد، وهو الافتتاح بلفظ: «وصل» .

كما كتب بعض كُتّاب الدولة الفاطمية عن بعض وزراء الحافظ إلى أمين الدولة زنكى كشنكين ماصورته:

وصل كتابك أيها الأمير الأجل الدالُّ على مصالحته، المُعربُ عن مناصحته، الشاهدُ له بمؤثِّل الحُظْوة والأَثَرة، والموضِّح من أفعاله وخِلاله مالم تزل قضيته مرتسمة فى النفوس مُصَوَّرة، وعرضنا ما اقترنَ به من مطالعة المَقام المقدَّس النبوىّ الحافظىّ ـ ضاعف الله أنواره، وشادَ مَنَاره، وأعز أشياعه وأنصاره ـ وشَفَعناه من الثناء على الأمير الاسفهسلار بما لم تزل عادتُنا جاريةً به مع مَنْ نعلم طاعتــه، وتحقَّق مشايعته، ونرى باطنه يضاهى ظاهره، وسِرَّه يوافِقُ علانيته؛ ووقفنا على ما أنهاه من حال الفَرَنج المشركين الملعونين، وما كان من نِعَم الله تعالى من الظَّفَر بهم، والإدالةِ منهم، والخَفْض من مَنَارهم، والتقويض لعُمَارهم؛ والإبادة لفارسهم وراجلهم، وإرشاد السيُوف والسِّهام إلى مَقَاتلهم؛ وتطهيرِ الأرض منهم بدمائهم. والإحاطة بهم عن أيمانهم وشمائلهم، ومن أمامهم وورائهم؛ فابتهجْنا بذلك الابتهاجَ الذى يوجبه التوحيد، وانتهى بنا السُّرورُ إلى الحدّ الذى ما عليه مَزيد. على أنّا كنا نَوَدّ أن يكون ذلك بصِفَاحنا وأسِنَّتنا، وأن يُثْبِته الله لنا فى صحيفتنا؛ وإنا لراجونَ من نِعَم الله عندنا، وإحسانه إلينا كما عوَّدنا، أن يكون من بقِىَ من المذكورين بنا مستأصَلا، ويكون أجر هذه الخاتمة لنا حاصلاً. وقد عزم الله لنا عند وقوفنا على كتابه، بما خرج به أمرنا إلى جميع مَنْ بأعمال الدولة الحافظيّة خلّد الله ملكها. بعيدها ودانيها، وقَصِيِّها ونائيها من العساكر المظفَّرة المؤيَّده، وقبائل العُرْبان المستخلَصه؛ وكافّة الطوائف على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها، وتفاوُتِ مَنَازلها، وتغايُرِ مراتبها، بأن يَنْفِروا خِفَافا وثِقَالا، ورُكْبانا ورجالا؛ بقوّتهــم ونَجْدتهم، ووُفُور عَدَدهم وعُدَّتهــم، وكثرة آلاتهم وأسلحتهم؛ وبالعَزَمات الماضيــة، والضمائر الخالصة، والنيّات المستقيمه، والعقائد المتَّفقه، وفسَحْنا للمتطوّعة أن يختلطوا بالمرتزقه، وأمرناهم بمَسِيرهم متتابعين، وتوجُّههم مترادفين؛ وأن يكونوا كتائبَ متناصره، وجحافلَ متواتره، وعساكر متواليه،

لاترىٰ الأرضُ منها إلىٰ العدوِّ خاليه ؛ ومن الله نطلبُ مادّةَ العون والإسعاد ، ونسأله توفيقًا لما يَقْضِى بتضاعفُ أجرنا فى العاجلة والمَعاد . وقد شكرْنا الأمير الاسفسهلاركونَ ما أنهاه سببا لهـذه الغنيمة المتوقَّعة من فضل الله وإحسانه ، والنُّصرة لدينه التى نؤملها من جزيل كرمه وآمتنانه ؛ وأضـفْنا ما آقتضته مطالعته من جذَلنـا وغِبْطتنا ، إلىٰ المستَقرّ عندنا من محبته لنا ، وإيثاره الذى لايُحْتاج فيه إلىٰ زيادةٍ علىٰ معرفتنا ؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالىٰ .

وكما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ صاحب مكةَ المشرفةِ ، جوابًا عن كتابٍ ورد منه عليه فى معنىٰ وُصُول غِلالٍ بعث بها إلىٰ مكة ماصورته :

وصـل كتابُك ، أيُّها الشريفُ مُعْرِبا عن المُشايَعة الشائعة أنباؤُها ، والمُخالَصة الخالصةِ أسرارها الوافرةِ أنصباؤُها ، وحسان الخلال ، التى آقتسم طرفَيِ الحمد إعادتُها وإبداؤُها ، ومكرُمات الآل ، التى تساوىٰ فى آقتناء المجد أبنـاؤها وآباؤُها ؛ وفضائلِ الإفضال ، التى لاتخِفُّ علىٰ غيرأهل العباءِ صلوات الله عليهم أعباؤُها . ونَشَر كتابُك من محاسنك ما آنطوىٰ ، ووردْنا منه منْهلا أروىٰ وارِدَه وآرتوىٰ ؛ ووقفْنا منه علىٰ أثرِفضل آشتمل علىٰ عين الكَرم وآحتوىٰ ، ووفقنا وإياه من الحمد مالا نُخالِفه نحنُ ولا هو مكانًا سُوىٰ ؛ فاقتضانا مزيدًا فى رفع قدره ، وآختصاصه من الإنعام بكلِّ غريبِ المَوْقع نَدْره ، وأصْرنا كتابَه إلىٰ مستقَرّ كاتبه من قلب الوُدّ وصَدْره ؛ وكيف لايكون ذلك وقد آشمخرّتْ لبيْته الأنساب ، وخرّتِ الأنْصاب ، وسجدتِ الرِّقاب ، ورُدّتْ له بعد ماتوارَتْ بالحِجاب ، وشَهِد بفضل توقيعهم الحربُ وبفضل ليلهم المِحْراب .

فأمّا ما أشار إليه من الشُّكرعلىٰ ماسُيِّر من الغَلّات التى كان الوعدُ بها علينا نَذْرا ، وروّحْنا بإرسالها قَلْبا وشَرَحْنا بتسييرها صَدْرا ؛ وأنّهـا حلّت رِبقة الجَدْب وفكّتْها ،

وجلتْ هَبْوَةَ القَحْط وكَفَّتْهـا ، وهوّنتْ مَصاعِبَ المَسَاغِب ، وخلقَتْ سـواحبَ السحائب ، وأطفأتْ ـ ولله الحمد ـ بِوَار[1] النَّوائب ؛ فقد سُرِرْنا بحسنتنا جعله الله ممن تَسُرّه الحسنه ، وقد نبّهنا من سنتِنا لأنْ نستَقْبِلَ بالحمد لولى السنه ؛ وقد قوىَ النية وقوّمها ، وآستزاد لهم بلسان الشكرِ الفصيح ، وتناوَلَ لهم بباع التلطُّف الفَسِيح ، وألقحَ لهم سحابَ محلّه منها مَحَلَّ مُلْقِحِها من الرِّيح ؛ وآقتضىٰ مايعرِضُه أن نخرج الأمرُ بأنْ يضاعَفَ المحمولُ فى كل عام ، ولا يُخَصَّ به خاصٌ دُونَ عام ؛ وأمَرْنا أن يوفَّر جَلَبُ الجُلّاب ، وتُوقَر ظهورُ الرِّكاب ، ليُجْمَع لحَرَم الشريف بين بِرّ البر والبحر ، وبين حَمْل البَطْن والظّهْر ، فتظَلُّ السنةُ وَدُودا وَلُودا ، ويُشاهَدُ المحلُّ الشريفُ وقد نأىٰ عنـه المَحْلُ شَرِيدا ، وتُحَطُّ القلوع عما يُحَطُّ عنه أمثالُهـا من السحائب ، وتستريح الأنفُس اللواغِب ، فأما ماألقاه إلىٰ رسوله ، فقد أُسْمِعَ ماأسنده إليه ، وأُعِيدَ بما يُعيده عليه ؛ وقد تكاثرت بوَلَاء الشريف الأشهاد ، فغَنِى عن الآستشهاد ، وأغنَتْه الحُظْوة بجميـل رأينا عمـا نأى أخذه لشُفْعة العطاء بل لشَفَاعة الآجتهاد ، إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثالثــــة

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الغَرْب)

وهى علىٰ النحو المتقدّم ، وربمـا صُدِّر بلفظ : «قد» ونحوها .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم فى جواب كتاب ورد عليـه بطاعة بلد .

قد وصل كتابكم ـ وصـل الله مَعُونتكم وكَلَاءتكم ـ تذكرون ماتقرّر عنـدكم هنالك من أحوال تلك الجهة ، وباشرتموه من أمورها ؛ وأنتم عندنا بمَحَلِّ الصِّـدْق ، ومكان الإيثار للحقّ . وقد رسمنا لكم أن تُثْبِتوا فى أهل تِلْكُم الجهاتِ كلّها حميدَ الرأى

(١) لعله أوار .

فيهم، وحسنَ القبول لإنابتهم، وقصدَ الرِّفق بخاصّتهم وعامّتهم؛ وأنّا قد تقبّلْنا أوْبتهم، وآغتفرْنا زلّتهم، وأولئكم المتشبّثون بسبب الذّمام، عرّفوهم أنكم رَغِبتم فى شُمول الصّفح عنهم، والإقالةِ لما كان منهم؛ فأسْعَفْنا رغبتَكم فيهم، وأدخلْناهم فى العفْو مع غيرهم؛ وبذَلْنا لهم الأمان، وأغْضينا عن جميع ما كان؛ فعرِّفوهم بهـذا كلّه، وأخبروهم عنّا بإعطاء التأمينِ لجميعهم وبذْله، وإن كان أطيبَ لنفوسهم أنْ يصِلَهم مكتوبٌ بذٰلك عرِّفتمونا، ووجّهْناه إليكم . وأقيموا أنتم هُنالكم أيّاما خلالَ ما يَصِـلكم من مُتناقِل الأحوال ما تُطالِعُون به، وتخاطَبُون بما تعتمِدُونه إن شاء الله تعالىٰ . أدام الله كرامتكم .

أشرتم فى خطابكم إلىٰ أنّ عندكم من تلك الأحوال ما تذكُرونه مشافَهةً، وربمـا يكون ذلك أمدا يبنىٰ عليه نظر، أو يتوجّه بحسبه عَمَل؛ فمن الجيِّد أن تكتُبوا بشرحه، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الضرب الثـانى

(الأجوبة الواردة علىٰ المـلوك)

وهى علىٰ نحو ماتقدّم فى الأجوبة الصادرة عن الملوك من الآبتـداء بلفظ : «وصل» إلا فى الخطاب، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ«الخادم أو المملوك أو العبـد» . ويخاطِبُ الملِكَ المكتوب إليه بمولانا أو مولانا الملِك أو نحو ذلك؛ وربما كتب بدَل وصلَ : ورد .

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى جواب كتاب ورد عليه مخبرا فيه بالحركة لِلقاء العدوّ ماصورتُه :

ورَدَ علىٰ المملوك ــ أدام الله أيّامَ المجلس العالى المَلَكِىّ الناصرىّ، ونصره علىٰ أعدائه، وملّكه أرضَـه بعَدْل حكم سمـائه، ولا أخلىٰ من نعمتىْ خيره ونَظَره قلوبَ وعيونَ

أوليائه، وأعزّ الإسلامَ ورفع عن أهله البَلْوىٰ بلوائه . الكتُبُ القديمة التى تسرّ الناظرين من شعارها الأصفر، وتبشّر الأولياءَ إن كانوا غائبين مع الغَيْب بأنّ حظّهم حاضر مع الحُضّر، وقد كانت الفترة قد طالتْ أيامُها، وآستطالتْ آلامُها، والطُّرُقات قد سبق إلى الأنفس إبهامُها .

فالحمدُ لله الذى أذهبَ عنّا الحزَن، وأوْلىٰ من النعمة ما آشترىٰ الحمدَ بلا ثمن؛ ذلكَ من فَضْلِ اللهِ علينا وعلىٰ الناسِ . ووَعْدُ [الله] سبحانه منتَظَر، إذ يقول فى كتابه : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحاتِ ليَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض كما آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وليُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى آرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ وصَدَق صلّى الله عليه وسلم فى قوله : "إنّ آختيارَ اللهِ للمؤمنِ خيرٌ من اختياره، وإنّ مواضِعَ الأمَل للعَبْد خيرٌ منها مواقعُ أقضيةِ اللهِ وأقدارِه" . فقد كانتْ حركةً آحتاجتْ إليها البلاد التى آنفصل عنها، والبلادُ التى قَدِم عليها . أما المصرية منها فبكونها علىٰ عِدَةٍ من تجدته آجلا، وأما الشامية فبكونها علىٰ ثقةٍ من نصره عاجلا ؛ فقد تماسكتْ من المسلمين الأرماق، وقد آنقطعت من المشركين الأعناق :

تُهابُ بك البِلادُ تحُلُّ فيها ✽ ولَوْلا اللَّيْثُ ماهِيبَ العَرِينُ!

وعرض المملوكُ ماوصل إليه من مكاتبات المولىٰ علىٰ العِلْمِ العادلىّ وأدركها تحصيلا، واحاط بها جملةً وتفصيلا ؛ والمولىٰ ــ خلّد الله ملكَه ــ فكلُّ ما أشار إليه من عزيمة أبداها، ونيـةٍ أمضاها، فهو الصوابُ الذى أوضح الله له مسالِكَه ، والتوفيقُ الذى قرّب الله عليه مَدارِكَه ؛ ومن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شىء، ومن استخاره بيّن له الرُّشْدَ من الغَىّ ؛ والله تعالىٰ يجعلُ له من كلِّ حادثةٍ نخوة(١)، ويكتبُ أجْرَه فى كلّ حركةٍ ونَفَس وخَطْوه . إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) النخوة العظمة .

القســـم الثانى

(المكاتباتُ الصادرةُ عنهم إلىٰ ملوك الكُفر، وفيه طرفان)

الطـــرف الأول

(فى الابتداءات، وفيـه ثلاثُ جمـل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بنى بُوَيه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفتتح المكاتبة بلفظ "كتابى أو كتابنا إلىٰ فلان" ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك ، ويختَمُ بقوله : فإن رأىٰ ذلك فعل إن شاء الله تعالىٰ .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن القائد أبى الفَوَارس ختور التركى المعـزى، إلىٰ وردس بن قُنْبَر المعروف بعسقلاروس .

[كتابى إلىٰ] ملك الروم الفاضل ،الجليل ،النبيل ،الخطير،أدام الله كفايته وسلامتَه، ونعمته وسعادته،وعافيته وحراسته. من الحضرة الجليلة بمدينة السلام لثمانِ ليالٍ خلَوْنَ من ذى الحجة سـنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وهو اليوم التـاسع من أذار ، عن شمول السلامه ، وعموم الأسـتقامه ، وصـلاح حالِى فى ظل الدولة المنصوره . والحمدُ لله رب العالمين وحده لاشريكَ له، وصلَّى الله علىٰ محمد وآله وسلم تسليما .

ووصل كتابُ مولانا ملكِ الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمَرْج لارضة بتاريخ التاسـع من حَزِيرَان، وفهمته وجلَّ عندى مَوْقِعُه، وعظُم فى نفسى خَطَرُه،

وَحمدتُ الله علىٰ ماشهِدَ به من انتظام أحواله، واطّراد أموره، وسألته أن يتمّ النعمة عليه، ويزيدَ فيها لديْه، ويُواصِل إحسانه إليه، ويُطيلَ مدّته، فى أتمّ رُشْد وهداية، وأرفع قدَم ومنْزلة، وأعلىٰ خطرٍ ورتبة، بمنّه وطَوْله، وجُوده ومَجْده.

فأما ماذكره سيدنا الملك الجليل: من مُقامه علىٰ العهد، وافتقاره إلىٰ الميل والوُدّ، فذاك يوجِبُ فضلَه البارع، وكرمه الشائع، وخلالَ الخير التى أهلّه الله لها، وخصّه الله بها، وبالله أحلف إنّنى ماخلَوْتُ منذ افترقنا من مطالَعَة أخباره، وتتبّع آثاره، واستعلام مجارى شُئُونه، والسرورِ بكل ماتمّ له ووصل إليه، حتّى كأننى حاضرٌ له، وضاربٌ بأوْفَر سهم فيه، بل مخصوصٌ بجميعه. والله يُجْريه علىٰ أحسن ماأولاه وعوّده، ولا يُخْليه من الصُّنْع الجميل فيما أعطاه وقلّده، برحمته.

وكنتُ قبل ذلك عند وُرُود رسولى فى الدَّفعة الأولىٰ علىٰ غاية الغمّ وشُغل القلب بسبب الغَدْر الذى لحِقه من عدوّه الذى أظفره الله به؛ وأنهيتُ ذلك فى وقته إلىٰ الملك السعيد الماضى، شرف الدوله، وزينِ المله، رضى الله عنه. فاشتغل قلبُه ــ رحمه الله ــ به، وعَمِل علىٰ إنفاذ العساكر لنُصْرته، ثم أتىٰ من قضاء الله فى أمره ماقد عَرَفه.

ولما انتصب فى المملكة مولانا السيدُ بهاءُ الدوله، وضياءُ المله ــ أطال الله بقاءه ــ شرحْتُ له ماجرىٰ قديمـا علىٰ سِياقته، ومَهّدت الحالَ عنده، ووجدتُه ــ أدام الله سلطانه ــ معتقِدا لسيدنا ملك الروم الجليل ــ أدام الله عزّه ــ أفضلَ اعتقاد، وسُر بمـا انتهتْ إليه أمورُه، وتنجّزت الكتبُ إلىٰ مُوصلها الرسول حفظه الله، وسَمِعت منه ماكان تحمّله عن سـيدنا ملك الروم أدام الله تأييـدَه، وأخرجت معه صاحبى أبا القاسم الحسين بن القاسم، وحمّلتهما جميعا مايُنْهِيانِه إليه فى سائر الأمور التى يرى عَرْضها ويحتاج إلىٰ معرفتها.

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل ـ أدام الله بركته ـ تعجيلَ ردّه إلىّ ، فانه ثقتى ، ومن أسكُنُ إليه فى أمورى ؛ وأن يتفضّلَ ويكلّفَنى حوائجه ومهمّاته ، وأمْرَه ونهيَه لأقوم فى ذلك بالحق الواجب له ، فان رأىٰ سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل ، الخطيرِ النبيل ، أن يعتمدنى من ذلك بما يتضاعف عليه شُكْرى ، وتجِلُّ النعمةُ فيه عندى ، ويشاكل الحالَ بينه وبينى ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفْتُ عليه من ذلك أُسلوب واحد : وهو الابتداء بـ«أما بعد» والخطابُ فيه بالمَلك ، والاختتامُ بالدعاء .

كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ بردويل أحد ملوك الفرَنج ، وهو يومئذ مستولٍ علىٰ بيت المَقْدس وما معه ، معزّيًا له فى أبيه ومهنّئًا له بجلوسه فى المُلْك بعده ، ماصورته :

أما بعد ـــ خصّ الله الملك المعظَّم حافظَ بيت المقدس بالجَدّ الصاعد ، والسّعد الساعد ، والحظّ الزائد ، والتوفيقِ الوارد ؛ وهنّاه من ملك قومه ماوُرِّثه ، وأحسن من هداه فيما أتىٰ به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوبَ الأصَادق (١) ، والنّعْيِ الذى وَددْنا أنّ قائله غيرُ صادق ؛ بالمَلِك العادل الأعزّ الذى لقّاه الله خيرَ مالَقّى مثله ، وبَلّغ الأرضَ سعادته كما بلّغه محلّه ؛ مُعزّ بما يجب فيه العَزاء ، ومتأسّـفٌ لفَقْده الذى عظُمت به الأرْزاء ؛ إلا أنّ الله سبحانه قد هوّن الحادث ، بأنْ جعل ولَدَهُ الوارث ، وأنسىٰ المُصاب ، بأن حفِظ به النّصاب ، ووهَبه

---

(١) جمع جمع لصديق مفرده أصدقاء .

النعمتين : المُلكَ والشَّبَاب ؛ فهنيئًا له ماحاز، وسَقْيًا لقبر والده الذى حَقَّ له الفداء لو جاز ؛ ورسولُنا الرئيسُ العميدُ مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العَزَاء من لسانه ، ووَصْف مانالنا من الوَحْشة لفِراق ذلك الصـديق وخُلُوّ مكانِه ؛ وكيف لا يستَوْحِشُ ربُّ الدار لفُرْقة جِيرانه . وقد آستفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووُدُّنا الذى هو ميراثُه عن والده من وِدَادنا ، فلْيَلْقَ التحيَّةَ بمثلها ، ولْيأتِ الحسـنةَ ليكون من أهلها ؛ ولْيَعْلَمْ أنّا له كما كنا لأبيـه : مودّةٌ صافيـه ، وعَقيدةٌ وافيـه ؛ ومحبّةٌ ثبَت عَقْـدُها فى الحيـاة والوَفَاه ، وسريرةٌ حَكمَتْ فى الدنيا بالمُوافاه ؛ مع مافى الدِّين من المخالَفَات . فليستَرْسِلْ إلينـا آسـترسالَ الواثِق الذى لايَخْجَل ، ولْيعتمِدْ علينا آعتمادَ الولد الذى لايحِملُ عن والده ماتحمَّل ؛ والله يُديم تعميره ، ويحرُسُ تأميره ؛ ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويُلهِمُه تصديقَ ظنِّ الصديق .

الجمـــلة الثـالثة

(فى الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغَرْب)

والرسم فيه أن تفتتَح المكاتَبةُ بلفظ : «كتابنا» والمخاطبةُ بنونِ الجمع عن المكتوب عنه وميم الجمع عن المكتوب إليه ، والآختتام بالسلام مع الدعاء بمـا يليق .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن أبى جَميـل زَيّان ، إلى ملك قَشْتالة من بلاد الأندلُس فى مُراوَدة الصُّلح :

كتابُنا إليكم ـ أسعدكم الله برضاه ، وأدام عِزّتكم وكرامَتكم بتقواه ـ من مُرْسِيَةَ ، ونحن نحمَدُ اللهَ الذى لاشىءَ كمثله ، ونلجأ إليه فى أمرِنا كُلِّه ، ونسأله أن يُوزِعَنا شكرَ إحسانه وفضلِه ـ وعندنا لجنابكم المُرَفَّع تكرِمةٌ نستَوْفيها ، ومبَرّةٌ تنتهى إلى الغاية فيها ، وعلِمنا

بمحلكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعى الزيادة من ذلكم ويقتضيها؛ وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صُنْعه فى انتظام الكلمة فى هذه البلاد، ما اكتنفته العصمه، وكملت به النعمة والمنه؛ وتيسر بمعونة الله فتحٌ أقر العيون، ورضيه الإسلام والمسلمون، وكانت مطالعتكم به مما آثرنا تقديمه، ورأينا أن نحفظ من الأسباب المرعيَّة على التفصيل والجملة [حديثه وقديمه] وحين ترجحت مخاطبتكم من هذا المكان، ومفاوضتكم فى هذا الشان؛ رأينا من تكملة المبرَّه، وتوفية العناية البرَّه؛ أن ننفذ إليكم من يشافهكم فى هذا المعنىٰ، ويذكر من قصدنا ماتولَع به وتُعنىٰ؛ وهو فلان فى ذكر السِّلْم ومحاولتها، مايتأدّى من قبله علىٰ الكمال بحول الله تعالىٰ. وإن رأيتم إذا انصرف من عندكم، أن توجهوا زيادة إلىٰ ماتُلقونه إليه من رجالكم وخاصتكم،فى معنىٰ هذا العهد وإحكامه، ومحاولته وإبرامه؛ فعلتم من ذلك مارقُب أثره، ونصرِفُ إليه من الشكر أوفاه وأوفره، إن شاء الله تعالىٰ: وهو الموفق لارب سواه، والسلام الأتمُّ عليكم كثيرا.

الطَّرَف الخامس عشر

(المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر فى الأجوبة [وهى] إما أن تصدَّر بما يصدَّر به الابتداء وقد تقدم، وإما أن تصدَّر بلفظ وصل أو ورد)

كما كتب بعض كُتَّاب الدولة الأيوبية عن الملك الجوَاد: أحد ملوكهم، فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، جوابَ كتابٍ ورد عليه من فرانك: أحد ملوك الفرنج فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة:

وردتِ المكاتبة الكريمةُ الصادرةُ عن المجلس العالى، المولى، الملك، الأجل، الأعز، الكبير، المؤيَّد، الخطير، العالم العامل، الظَّهير، العادلِ، الأوحدِ، المجتبىٰ، شمس الملة النَّصرانيـه، جلالِ الطائفة الصليبيه، عضـدِ الأمة الفرنجيه، فخرِ أبناء المعموديهٔ، عمدةِ الممـالك ضابط العساكر المسيحيه، قيصر المعظَّم فلان معزّ إمام روميه؛ ثبَّت الله لديه نعمه، وعزَّز موارد جوده وديمَه، وأمضىٰ صوارمَ عزائمـه وأعلىٰ هِمَمَه، ولا بَرِحتْ أنوار سعده، تتلالا، وأخبار مجده، تُبْسَط وتتعالىٰ، وسحابُ الألسنة الناطقة بحمده تستهلُّ[1] وتتوالىٰ؛ إلىٰ أن يتحلّىٰ جيـدُ الضُّحىٰ بعُقود الليـل، وتطلُعَ الشعرىٰ من مَطَالع سُهيل ـ بجدّد الثناءَ علىٰ جلاله، وأكَّد المديحَ لإحسانه وإفضاله؛ وأنفَسَ أسـبابَ المودَّة والحَصَافه، وشدّد أواخيَ الإخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بُوروده، وسُرّت القلوبُ بوُفوده؛ ووُقِف منه علىٰ الإحسان الذى نعرفه، ووُجد عِقـدُه مشتملاً علىٰ جواهر الوداد الذى نألفه؛ فشُكرُ الله علىٰ هـذه الأُلفة المنتظمه، والمحبَّة الصادقة المكرَّمه . والمجلس العـالى الملكُ الأجلُّ أعلىٰ الله قدره، ونشر بالخير ذكره، أولىٰ من أهدىٰ المسرّات، بوُرود المَرَاسم والحاجات، ووصَلَ الأنس بكريم المكاتبات، مضَمَّنةً السوانحَ والمُهِمَّات .

فأما ماذكره المقام العالى السلطانىّ المَلَكىّ الكاملىّ الناصرىّ ـ زاده الله شرفا وعلوّا ـ من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتَقَد فى صِدْق عهده، وخالص وُدّه؛ ولا زال ملكه عاليا، وشرفُه ناميا، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله تنهمل .

الفصـــــل الرابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية، على ما آستقرّ عليه الحالُ من ابتداء الدولة التركية و إلى زماننا على رأس الثمانمائة، مما أكثره مأخوذٌ من ترتيب الدَّوْلة الأيوبية التى هى أصل الدَّوْلة التركية، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى المكاتبات الصادرةِ عنهم إلى الخلفاء من بنى العبَّاس)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بنى العباس أنها على أساليب فى آبتداء المكاتبات : منها مايفتتح بآيةٍ من القرآن الكريم ثم بالسلام؛ ومنها مايفتتح بالسلام آبتداءً؛ ومنها ما يفتتح بالصلاة على الخليفة على مذهب من يرى جواز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذى ذكره المقرّ الشّهابىُّ بن فضل الله فى كتابه " التعريف بالمصطلح الشريف" مما الحال مستقرٌّ به أن المكاتبة إلى ديوان الخلافة الشريفة : «أدام اللهُ أيامَ الدِّيوانِ العزيز، المولوىّ، السيّدىّ، النبوىّ، الإمامىّ، الفلانىّ» ثم الدعاء المعطوف، والصدر بالتعظيم المألوف؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو : «أدام الله سلطان» و«خلد الله سلطان» أو «أيام» أوغير ذلك مما يقتضى العزَّ والدَّوام . وأن الصدر نحو : «العبد، أوالمملوك، أوالخادم، يقبّل الأرضَ أوالعَتَبات أومواطئَ المواقف» أو غير ذلك . وأنّ ختم الكتاب يكون تارةً بالدعاء، وتارةً بـ«طالع أوأنهى»

أو غيرهما ممـا فيه معنى الإنهاء . ويخاطَب الخليفةُ فى أثناء الكتاب بالديوان العزيز، وبالمواقف المقدّسة أو المشرّفة ، والأبواب الشريفة ، والبـاب العزيز، والمقـام الأشرف ، والجانب الأعلى أو الشريف . وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا ، ومَرّةً غير مجرّدة ، مع مراعاة المناسَبَة ، والتسديد والمقارَبة . وأن خطاب المكاتب عنه بحسَب من كُتِب عنه : فكتب بعضُ ملوك بنى أيوبَ بالديار الشامية «الخادم» ، وبعضهم «المملوك» وبعضهم «العبـد» وبعضهم «أقلّ الممـاليك» وبعضُهم «أقلّ العبيد» . وأن علاء الدين خُوارِزْم شاه : صاحب بلاد خُوارِزْم وما معها ، وآبنه جلال الدين كانا يكتبان «الخـادم المِطْواع» ، وأن أمّ جلال الدين كانت تكتب «الأَمَةُ الداعية» . قال : فى "التثقيف" : وعنوانه «الديوان العزيز» إلى آخر الألقاب ، ثم الدعاء يعنى من نِسْبة الصدر ، نحو «أدام الله أيامه وخلّد الله سلطانه» وما أشـبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه «الخادم» أو «المملوك» أو «العبد» . وكتب بعضهم «أقلّ الممـاليك» وبعضهم «أقلّ العبيـد» . يريد أنّ العلامة تكون مطابِقة لمـا يقع فى أثناء المكاتبة عن المكتوب إليـه من الخادم وغيره ممـا تقـدّم ذكره ، بحسَبِ ما يُؤْثِر الملك المكتوب عنه الخطابَ به عن نفسه .

وهذه عدّة صدور مختلفاتِ الآبتداءات منقولةٍ من التعريف وغيره .

أما قَطْع الورق الذى يكتب فيـه إلى الخليفة ، فقد تقدّم فى الكلام على مقادير قَطْع الورق فى المقالة الثالثة ، نقلا عن آبن عمر المدائنىّ فى "كتاب القـلم والدواة" أنه يكتب للخلفـاء فى قِرطاس من ثلُثَىْ طُومار ، وأن المـراد بالطُّومار الفَرْخة الكاملةُ ، وأن المراد الورق البغدادىّ ؛ وحينئذ فينبغى أن يُجْرَى الأمر على ذلك تعظيماً للخلافة .

صدر : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، ولا زالتْ سيوفُ أوليائه فى رقابِ أعدائه مُحكَّمه، وصُنوفُ الكفّار، فى أيدى عسكره الجَزارِ، بالنِّهاب مقسَّمه، وصفوفُ أهل الشرك مُزَلْزَلة بخوافق أعلامه المطهَّرة وسَنابِكِ جيادِه المطَهَّمه، ولا برِحَتْ ملائكة النصر من أمداده، وملوكُ العصر بيضَ الوجوهِ بتعظيمِ شِعار سَوَادِه .

الخادم ينتهبُ ثَرَى العتبات، الشريفة بالتقبيل، وينتهى فى قُصارَىٰ الطَّلبات، علىٰ الوقوف فى تلك الرُّبوع، ويكَلِّل رُبىٰ تلكَ الساحات، هو وكلُّ آبن سبيل بلالئ الدُّموع، خضوعًا فى ذلك المَوْقِف الذى تُسْكِر القلوبَ فيه الصُّدور، وتَلْصَق منه الترائبُ بالنُّحُور، ويُظهِر سِيمَا الجَلَالةِ فى الوجود، ويُفَـدِق علىٰ الأولياء فيُعْرَفُون بِسِيماهُمْ من أثَر السُّجود . ويُنْهِى أن وَلاءَه القديم، وبَلَاءَه العظيم، وأيَّامَه السالفه، وأفعالَه التالدةَ والطارفه، وسـوابقَ خِدَمه فى آمتثال الأوامرِ الشريفـةِ التى لم يزَلْ يتسارع إليها، ويُقَارع عليها، ويُصارِع غُلْبَ الأُسُود علىٰ تنفيذ مَرَاسِمها، وإقامة مَوَاسِمها، وإطارة صِيتها، ودوام تثبيتها، تحمِلُ الخادم علىٰ الآسترسال، وتُجْمِل له السؤال، والذى ينهيه كذا وكذا .

صدر آخر من "التعريف" : أدام الله سلطانَ الديوان العزيز، ولا زالت الخلائقُ بكَرَمه مُضَيَّفه [والكاتبُ فى هَجِير وَطيسه مصيَّفه](١) . والأبصار فى نَصْر أنصاره مصَنَّفه، والمواضى بأوامره فى قَبَضات عساكره مُصَرَّفه، والنقودُ إلا ماتشرَّفَ باسمه مُزَيَّفه، والقلوبُ فى صدُور الأعداء بخَواطِف رُعْبه مُسَيَّفه، والوعودُ إلا بما تُنْجِزُه مواهبُه مُسَوَّفه، والوغىٰ لاتُرىٰ إلا برماحه مثقَّفة، والسماءُ وإن علَتْ لاتكون

(١) الزيادة من "التعريف" .

إلا لأذيالِ سُيوفه مسحِّفه، والمَهابةُ بسَطاه إما لَمعاقل فاتحةٌ وإماً عماً يُطمَع أن تنالُه الأيدى منهـا مُحجفه، والأممُ على آختلافها تحتَ راياته المنصورة مقاتلةٌ وأخرى له مُخالِفه، والأعلام التى يَأوِى إليها الإسلامُ به جِوارَ الجوزاء مُخلِّفه، والأبطالُ لقتال الكفر ببوارق سُيوفه، قبلَ مَضايق صُفُوفه، ومَخانِق زُحُوفه مُخوِّفه.

الخادم يُقْبِل بوَلائه إلى ذلك الجَناب، ويقبِّـل الأرض وكتابهُ يُحسن المَناب، ويُقيل عثراتِه إذ كان به قد لاذَ، ويُقيم معاذيرَه إذ كان به قد عاذ، ويتسربَل بطاعته سرابيلَ تَقِيه إذا خاف من سِهام الدهر إلى مُهجته النَّفاذ، ويَصُول بانضمامه إلى تلك العِصابة المنصورةِ لا بمـا يُطبَع من الفُولاذ، ويُجِلُّ تلك المواقفَ المقدسةَ أن يبُـلَّ مواطِئَها بدمعه، وأن يَحُلُّ مواطِنها بقلبه قبل أن يُعاجل كلَّ عدوٍ بقَمْعه، ويَعُـدُّ ماهُدِى إليـه من الاعتصام بسببها سبباً لفوزه، ومُوجبا لمِلْك رقِّ عتقِ كلِّ عاصٍ وحَوْزه، وينهى كذا وكذا.

***

صدر آخر: خلَّد الله سلطان الديوان العزيز! ولا زالت أيامُه شامخةَ الذّوائب، شارخةَ الصِّـبا [حتى] حيثُ يلحقُ الشَّيبُ الشوائب، راسخـةَ الفَخار فى الظُّهور بالعجائب، نائحةً فى فَحْم الليل جَمْر الكتائب، صارخةً والرعدُ ترتعد فرائصُه بين السَّحائب، ناسخةً دولةَ كلِّ علياءَ بما تأتى به من الغرائب، وتَبذُلُه من الرَّغائب، فاسخةً عقدَ كلِّ خالعٍ يردُّه الله إليها ردَّةَ خائب، باذخةً على ماضى كلِّ زمانٍ ذاهبٍ من عُصور الخُلفاء الشرفاء وآئب، ماثلةً لِحلْدة كلِّ أَيمٍ (١) ظنَّ أنَّ فى أنياب رُمحه النَّوائب.

الخادم يقبِّـل العَتباتِ الشريفةَ ساجدًا بجبينه، وشاهدًا يستأديه له على يَمينه، وجاحدًا كلَّ وَلاء سوى وَلائه المعقود بيَمينه، وعاقدًا بشرف الانتساب إليه عَقْدَ دينه،

(١) الأيم ككيس والايم بالكسر الحية أنظر القاموس.

وحامدًا اللهَ الذى جعله [من](١) طاعةِ أميرِ المؤمنين عند حُسْن يَقينه، وعائدًا بأمله إلى كرم تُثْمر به الآمال، وتُقْمر به اللَّيالى لأنها شعارُه الذى تُضْرَب به الأمثال، وتُمْطِرُ به السُّحُب الجَهام فتُمْحىٰ بها آيةُ الإمحال . وينْهِى وُرودَ المِثال الشريف الذى طلَعَ نَيِّره فأنار، وسطَع متضادُّه فألَّف بين الليل والنهار، وأقبلَ فما رآه إلا كتّابَه الذى أُوتيه باليمين، وسحابةُ الذى أُعطيه ينْدىٰ منه الجبين، ونَصَره أكثرَ من الألوف، وأنْصَفه أعجلَ من السيوف، وزاحَمَ به الدهرَ فضلا عن الصُّفوف، وزارَ به الوَغىٰ لايَهابُها وخَطِّيَّاتُ(٢) القَنا وقُوف ؛ فتشرَّفَ به وطار بغير جَناح، وقاتَلَ بغير سلاح، وقرأه وباتَ قِرًى له فى السَّماح، وتسلَّمه كأنما تسنم به المَعاقِلَ وتسلَّمَ منه المِفْتاح .

❖

صدر آخر : خلَّد اللهُ أيامَ الديوان العزيزِ! ولا زالتْ سَطَواتُه تَجْحَد بُرعْبها الأبطالُ المدَجَّجة ، وتَخْمُد بفَيْضها النِّيرانُ المؤجَّجه، وتَحْمِلُ بركْزِ نفاذها إلى القلوب الرِّماحُ المُزَجَّجه، وتَخجَل معها بعوائد كَرَمها السحُبُ المثجَّجه، وتخِفُّ لديْها أوقارُ الجبال المُفَجَّجه، وتخِرُّ بل تخور خَوْفا أن ترقَّى إليها الأصواتُ المضَجَّجه، وتَغُصُّ بالغَرَق من خاطَرَ فى بحارها الملَجَّجه، وتحلِفُ بسلطانها للموتُ أشهىٰ من البقاء إلى طرائدِ سُيوفها المُهجَّجة، وتخلَّد النصرَ بحُجَجها القائمةِ على الحُصَاء المتحَجَّجه .

الخادمُ يقلِّب وجْهه فى سماء الفَخار بتقْبيل الأرض التى طالَتِ السماء، فأطالَتِ النَّماء، وفضَلت النُّجومَ اللَّوامع، وأُوتِيَتْ بمالكها ــ أعزَّ الله سلطانه ــ كَلِمَ الفضْل الجَوامع، وأحلَّت شَوامِخَ المجْد مَنْ حلَّها ، وأجلَّتْ قدْرَ من جدَّ فأجلَّها ، وأعطتْ مَفَاتيحَ الكُنوز كُنوزَ الشرف لمن قبَّلها كما يقبِّل الحجيجُ الحجَرَ ، أو أمَّلها كما يؤمِّلُ السارى طُلوعَ القمر؛ وينهى كذا وكذا .

---

(١) من من "التعريف" وهى لازمة لوضوح المعنىٰ .

(٢) فى التعريف "وخطار" وكل صحيح .

⁂

صدر آخر : قال فى "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام اللهُ أيام العدلِ والإحسان، والنِّعم الحِسان، والفضلِ المشكور بكلِّ لسان ، الأيَّامَ التى أشرقَ صَباحها السَّافر، وعمَّ سَماحُها الوافر، وآمَنَ بيُمْنها كلُّ مُسْلم ضُرب عليه سُرادقُ الليلِ الكافر، وعلَتْ شموسُها وقد جنحَتِ العُصور الذَّواهب، وقُدحتْ أشعَّتها فأضاءتْ بين لابَتَي الغَياهب، أيَّامَ الديوان [العزيز المولوىّ، السيدىّ، النبوى، الإمامىّ، الحاكمىّ،](١) لابَرِحتْ أيامُه مقَنَّنه ، وأحكامُه مقنَّنه ، ومُحبه على الظِّماءِ مجنَّنــه، وقُرْبُه بفقد ماحوَتْه مجنَّنه ، وحقائقُه غير مظنَّنه، وطرائقُه للخير مسنَّنه ، والخلائقُ تحتَ جناح رأفته ورُحْماه مكَنَّنه ؛ ولا زال ولاؤه ضميرَ من اعتقد، ومُميرَ من أخَذَ من الدهر ماانْتقد، ومُبيرَ الأُسود المتضائلة لديه كالنَّقد، ومُميرَ من تَنَبَّه وصَحِيحَ مَنْ رقَد ، ومُعيرَ البَرْقِ ندىٰ كَرَمه وقد وقَد ، ومُغيرَ متعالِي الصَّباح من راياته العالية بمـا عقَد، ومُجيرَ مَنْ لاذَ به حتَّى لايضُرُّه من فَقَد، ومُبيرَ عِداه بردَاه الذى إن تأخَّر إلىٰ حينٍ فقَدْ .

الخادمُ يَخْــدُم تلكَ العتبات الشريفةَ التى إن تاهَتْ علىٰ السماء فَمـا ، وإن دنَتْ للتقبيل فإن الثُّريَّا تودّ أن تكُونَ فَمـا، ويَنْهَب ترابَ تلك الأرض التى هى مَساجد ، ويُقَبِّــل ذلك البِساطَ الذى لامَوْضِعَ فيــه إلا مَكانُ لاثِمٍ أو ساجد ، ويتزَّهها عن سَواكِب دمعه : لأنَّ ذلك الحرَمَ [الآمن](١) لاتُطَلُّ فيه الدماء، ويُجِلُّها عن مواقع لَثْمه لأنها لا تَلْثَمُ السماء ، ويرفَع صالحَ الدعاء وإنمـا إلىٰ سمائها يرفَعُه، ويُنْهِي صادقَ الوَلاءِ وماثَمَّ من يَدْفَعُه، ويَدَّخِرُ من صحيح العُبُودِيَّة مايرجو أنه ينفَعُه، ويطالع العلومَ الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

*
* *

صدر آخر : أدام الله النعمة على الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نعمه فالنِّعم فى ضِمْنها ، وملأ الآمالَ منها وأفاض من أنوارها التى علم قَرْن الشمس أنه غير قِرْنها ، وأدال دولتَه التى نزل الخلقُ من جنّات عَدْلها جنّاتِ عَدْنها ؛ وأمضى سيوفَها التى تُعْرِب فيُعْرَف ضمير النصر فى لحنها ، وأعلى آراءها التى تاقى العُداة بدُرُوع يقينها ، وتلقى الغيوبَ بسَهْم ظنّها ، ولا زالت البشائر تتبارى إليه بُرُدُها ، ويضفو على أعطاف الإسلام بُرُدُها ، ولا برحت راياته سُوَيْدات قلوب العساكر ، وأجنحة الدعاء المحلِّق إلى أفق السماء من أُفُق المنابر ، وولاؤها السرّ المبْهمَ الذى هو مما تُبْلَى به السرائر . الخادم .....

*
* *

صدر آخر : أعلى الله الموحِّدين على المُلْحِدين ، وثبّت كلمةَ المتّقين على اليَقين ، بدوام أيّام الديوان العزيز ورَوّض بوِلاته كل ديوان ، ووَسَم بوَلائه كلَّ أوان ، وأنطق بحمده كلَّ لسان ، وألهم الخلقَ أن يُعَنْونُوا بطاعته صحائفَ الإيمان ، وأسعدهم بما يتناولونه فى الدنيا من كُتُب المِنَن وفى الآخرة من كُتُب الأمان ؛ فكلُّها طائرٌ فى العُنُق يكونُ بالطاعة قلائدَ بِرّ فى الأطواق ، وبالمعصيةِ جَوامِعَ أسْرٍ فى الأعناق .

ورد على المملوك كتابٌ إن لم يكُنْ أُنْزِل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم كتاب من السماء ، وإن لم تنزل ألفاظُه بالماء ، فهو من الذين أنزلَتْ ألفاظَ دعواتهم الماء ، وإن لم يكن كتابَ العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قِطٌّ عُجِّل له قبل يوم الحساب ؛ ولولا أن أُمَّ الكتاب أعقمتْ لكان ابنَ أمّ الكتاب ، وإنْ هو إلا طائر ألزم فى عُنقه وما وَكْر طائره إلا المحْراب .

✣

صدر آخر : أتمّ الله ما أنعم به على الديوانِ العزيزِ وعلى الخلْق، وأشرك فى هذه النِّعمـةِ أهلَ الغرب والشَّرق ، وميَّز الحظوظَ فيهـا بحَسَبِ درجات السَّبْق . فإنه ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أنفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقاتَلَ أُولَئِكَ أعظَمُ درجةً من الذين أنفقُوا من بَعْدُ وقاتَلُوا وكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾ والله لايُخلف موعده، والديوانُ العزيزُ لايُكدِّر مَوْرِدَه، ولا رَفَع عن أيدى الخَلْق يدَه، بل يجرى عليها ماضَمَّنه، ويمكّنها بما بَسَط لها فى الأرض ومكّنه، ويُرسِلُ عليها سحائبَ رحمتـه ، ويُنشِئُ منها ناشـئةَ نعمتِه، ويوجِّه إلى قِبْلَتها وجْهَ كلِّ أمَل، ويُفيض طُوفانَها فلايكون به للغليل قِبَل، ولا يأوى إلى حَصَاة قَلْبٍ فيعصمها ولو أنه جبَل .

قلت : ولم أقف على مكاتبة عن أحدٍ من ملوك الديار المصرية إلى أبواب الخلافة مُذْ صارت دارُ الخلافة بالديار المصرية . والظاهر أنه لم تَجْرِ مكاتبـةٌ عن السلطان إلى الخليفة، لأنّ الخليفةَ لايكاد يُفارق السـلطانَ سفَرا ولا حضَرا مفارقةً تُوجِب المكاتبةَ إليه، كما أشار إليه صاحب "التثقيف" . وقد لوّح فى "التعريف" إلى ذلك فقال : وأول مانبدأ بما يُكْتَب به إلى الأبواب الشريفة الخليفتية (كذا) زادها الله شَرفًا، جريًا على قديم العاده، ورجاءً لملاحظة السَّعاده .

وهذه نسـخةُ مكاتبةٍ من هذا النوع ممـا كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسفَ بن أيوب» رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغدادَ فى أيام الناصر لدين الله بخَبرِ ملِك الألمـان من الفرنْجة والقتال معه ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه ، يُوضِّح فى هذا الموضع بيانَ هذا الأسلوب، ويُغْنى عن مراجعة [كثير] من الأمثلة المذكورة فى المكاتبات إلى الخلفاء على ما تقدّم ، وهو :

أدام الله ظلَّ الديوان العزيز النبوىّ ، الإمامىّ ، الشريف الناصرىّ ، ومدّه على الأمة ظليلا ، وجعلَ الأنوارَ عليه دليلا ، وحاطَهُ بلُطفه وتقبَّل أعمالَهُ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها ، وأرْغَمَ أعداءه وكَبتها ، ومسَّها بعــذابٍ من عنده وسَحَتها ؛ ولا زالتْ رايتُه السوداءُ بيضاءَ الخبر ، محمرّةَ المَخْبَر فى العُداة مسْودّةَ الأثر .

ورد على الخــادم ما كُوتِب به من الديوان العزيزِ رائدًا فى استخلاصه ، مُبرِّهنا عن اختصاصه ، مُطْلِقا فى الشُّكر لِلسانه ، وفى الحَرْب لِعنانه ، ومقتَضيا لأُمْنيّةٍ كان يتهيَّبها ، ومُفيضًا لمَكْرُمة لو سمتْ نفسُه إليها كان يتهمها ؛ فللهِ هو ! من كتابٍ كأنّه سورةٌ وكُلُّ آيةٍ منه سَجْدة ، قابلَه بالخُشوع كأنما قلمُ الكِتَابِ القضيبُ وطِرسُه البُرْدة ، وتلاه على من قِبَلَه من الأولياء مسترْهِفًا به لعزائمهم ، مستجزِلًا به لمَغانمهم ، مستثبتًا به للازمِهم ، مستدْعِيا به الخدمةَ للَوَازِمهم ، مُرْهِفًا به ظُبَاهم فى القتال ، فاسِحًا به خُطَاهم يومَ النِّزال ، فأثَّر فيهم كالاقتداح فى الزَّنْد ، وكالانبجاس من الصَّلْد ، وكالاستلال من الغِمْد ، فشمَّر مَنْ كان قد أسْبَل ، وانتهى مَنْ كان قد أجْبَل ، وكأنَّمـا أُعطُوا كتابًا من الدَّهْر بالأَمَان ، أو سمِعُوا مناديًا يُنادى للإيمان ، وقالوا : سَمِعْنا وأطَعْنا ، وعلينا من الخِدْمة ما استطَعْنا ، هذا مع كونِهم أنضاءَ زُحوف ، وأشلاءَ حُتُوف ، وضَرائبَ سُيُوف ، قد وسمتْ وُجوهَهم علاماتُ الكِفَاح ، وأحالتْ عرضَهم أقلامُ الرِّماح ؛ صابرين مُصابِرين ، مكاثرين مكابِرين ، مُناضِلين مُناظِرين ؛ قد قامُوا عن المسلمين بمـا قَعَد عنه سائرُهم ، ونزلُوا بقارِعة القِرَاع فلا يَسِيرُ عنها سائرُهم ، وسَدّستْ كعوبُ الرِّماح أنملَهم ، وأثبتُوا فى معترَكِ الموتِ أرجُلَهم ، كلُّ ذلك طاعةً لله ولرسوله ولخليفتِهما ، وإذا رمَوْا فأصابُوا قالُوا ولٰكنّ الله رمى .

ومن خبَر الكفّار أنهم إلى الآن على عكّا يمدّهم البحرُ بمراكبَ أكثرَ عدّةً من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهــم أمرُّ من أُجَاجه ؛ قد تعاضدتْ ملوكُ الكُفر

على أن يُنهِضُوا إليهم من كلِّ فرقةٍ منهم طائفه، ويقلِّدوا لهم من كل قِرْن يُعجِز بالكرّة واصِـقَه؛ فاذا قتل المسلمون واحدًا فى البرِّ بعث البحرُ عوضَـه ألفا، وإذا ذهب بالقتل صِـنفٌ منهم أخلف بدَلَه صِنفًا؛ فالزّرْع أكثرُ من الحِـداد، والثمرةُ أنمى من الحَصَاد. وهـذا العدوّ المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زرّ عليـه من الخنادق أدراعا متينه، وآستجنّ من الجنويات بحُصُون حَصينه؛ مصْحِرًا ومُتَمنّعا، وحاسِرًا ومتدرّعا ومُواصِلًا ومُنْقطعا، وكُلَّما أخرج رَأسا قد قُطعت منـه رُءُوس، وكُلَّما كَشَف وجْها كُشِفت من غِطَاء أجسادها نُفُوس؛ فكم من يوم أرسَلُوا أعِنّة السوابق فَدَمُّوا عُقْبَى إرسالهـا، وكَمْ من ساعةٍ قَضُّوا فيهـا أقفالَ الخنادق فأفضى إليهم البَلاءُ عنـد فَضّ أقفالهـا، إلا أنَّ عددَهم الجمّ قد كاثَرَ القَتْل، ورقابَهم الغُلْبَ قد قطعت النَّصل لِشدّة ماقطَعها النصل. ومَنْ قِبَلَ الخـادم من الأولياءِ قد أثّرت المدّة الطويله، والكُلَف الثقيله، فى آستطاعَتِهم لا فى طاعتِهم، وفى أحوالهم لا فى شجـاعتهم؛ فالبرك قد أنضَوْه، والسّـلاح قد أحفَوْه، والدّرهمُ قد أفنَـوْه؛ وكلُّ من يَعْرِفهم من أهل المَعْرِفه، ويراهم بالعَيْن فمـا هُم مثلَ مَنْ يراهم بالصِّفَه؛ يناشِدُ اللهَ المُناشدةَ النبويّه، فى الصَّيحة البَـدْريه؛ أللهم إن تَهلِكْ هـذه العِصَابه، ويُخلِص الدعاء ويَرْجُو على يَدِ أمير المؤمنين الإجابه. هـذا والساحلُ قد تمـاسَكَ، وما تهالك؛ وتجلّد، وما تبلّد؛ وشجّعته مَواعِد النّجدة الخارجَه، وأسْلَتْه عن مصارع العِـدّةِ الدّارجه؛ فكيْفَ به إذا خرج داعيـةُ الألمـان، ومُلُوك الصُّلْبان؛ وجموعُ ماوراء البحر، وحُشُودُ أجناسِ الكُفْر؟ وقد حَرّم باباهم ـ لعنة الله عليهم وعليه ـ كلَّ مباح وآستخرج منهم كلَّ مذْخُور، وأغلق دُونَهم الكنائس، ولَبِس وألبَسهم الحِـدَاد، وحَكم عليهم أن لايزالُوا كذلك أو يستخلِصُوا المَقْبَرة، ويُعيدوا القُمامة. ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعمالَهم وقالَ لاغالِبَ لَكُمُ اليومَ من النَّاس وإنِّى جارٌ لَكُمْ ﴾.

اللهم أخفِرْ جواره، واصْرِف جَوْره، وأخلِف وَعْده، واكْسِر ضَمَانَه، وانْكُصه علىٰ عَقِبه، وعَجِّل فى الدنيا والآخرة منهم تَبابَه. ومابدَأْتنا به من نعمتك فلا تقطعْه، وما وهبْتَنا من نَصْرك فلا تَسْلُبْه، وما سترْتَه من عَجْزِنا فلا تَهْتِكْه. [و]فى دُون ما الدِّينُ مستقبِلُه، وعدوُّه خذله الله يؤمِّله، مايستفرِغُ عزائمَ الرجال، ويستنفِدُ خزائنَ الأموال، ويُوجب لإمام هذه الأمة أن يحفَظ عليها قِبْلتها، ويُزيحَ فى قتل عدُوّها علّتَها، ولولا أنَّ فى التصريح، مايعودُ علىٰ عدالته بالتَّجريح، لقال مايُبكى العينَ ويُنكى القلوب، وتَنْشَقُّ له المرائر وتُشَقُّ له الجُيُوب، ولكنَّه صابرٌ محتسِب، منتظرٌ لنصر الله مُرْتَقِب، قائمٌ من نَفْسه بما يجب، رَبِّ إنى لاأملك إلا نَفْسِى وأخى، وهاهو قد هاجَر إليك هجرةً يرجُوها عندك مقبوله، ووُلْدِى وقد أبرزتُ لعَدُوّك صَفَحاتِ وجوههم، وهانَ علىٰ محبوبُكَ بمكروهى فيهم ومكروهِهم. ونَقِف عندَ هذا الحدّ، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْد، وإن لم يشتَكِ الدِّينُ إلىٰ «ناصره» والحقُّ إلىٰ مَنْ قام بأوّلِه وإلىٰ اليوم الآخر يقُوم بآخِره، فإلىٰ مَنْ يُشْكىٰ البثّ، وعند من يتفرج بالنفْث؟، ومنفعةُ الغوث قبل العطَب، والنَّجاءِ قبل أن يَصِل الحِزامُ الطُّبْيَيْن، والبَلاغِ قبل أن يَصل السيلُ الزُّبىٰ.

فياعَصَبةَ محمد صلّى الله عليه وسلم اخْلُفُه فى أمّته بما تطمئن به مَضاجِعُه، ووَفُّوه الحقَّ فينا، فإنّا وإنَّ المسلمين عندك ودائعُه، وما مثَّل الخادمُ نفسَه فى هذا القول إلا بحالةِ مَنْ وقفَ بالباب ضارعا، وناجىٰ بالقول صادِعا، ولو رُفِعتْ عنه العوائقُ لهاجر، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مَسِيحَه بالداءِ الذى خامر، ولو أمِنَ عدوَّ الله أنْ يقول قَرَّ لسافر، وبعدُ ففيه وإن عَضَّ الزمانُ بقيه، وقِبَلَه وإن تدارَأت الشُّهَّاد ذَرِيَّه، فلا يَزالُ قائمًا حتّىٰ يُنْصر أو يُعْذَر، فلا يصل إلىٰ حُرَم ذرّيةِ أحمدَ صلّى الله عليه وسلم ومن ذُرّيةِ أيُوبَ واحدٌ يُذْكَر.

أنجز الله لأمير المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْره! وتمم مساعَدةَ دهره! وأصفىٰ موَارِدَ إحسانه! وأرسىٰ قواعد سلطانه! وحَفِظه وحفظ به فهو خَيْرٌ حافظا ، ونَصَره ونصر علىٰ يَدَيْه فهو أقوىٰ ناصرا، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم اعلم أن المقرّ الشِّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "تعريفه" أيضا أنَّ المكاتبة إلىٰ أبواب الخلافة من الملوك والسُّوقة لا تختلف ، بل تكونُ علىٰ الأُنْموذَج المقــدّم ذكره، واستلزم ذلك : بجَرىٰ علىٰ هــذا المصطَلَح فيما كَتب به إلىٰ الديوان العزيز الحاكمىّ، أحمدَ بنِ أبى الربيع سليمان : أحدِ الخلفاء العباسيِّين بالديار المصرية، عن رُماة البُنْدُق بالشام، جوابًا عمّـا ورد عليه من كتابهم ، وهو متكلِّمٌ علىٰ رُماة البندق يومئذ فى أمر ناصِرِ الدين بن الحِمْصىّ وهو أحدُ الرُّماة .

أدام اللهُ تعـالىٰ أيامَ الديوان العزيز، المولوىّ ، السيدىّ ، النبوىّ ، الإمامىّ ، الحاكمىّ ، ونَصَر به جمعَ الإيمـان ، وبَشَّر بأيامه الزمان ، ومتَّعه بالملك الذى لا يَنْبغى لأحد مِنْ بعــده بمـا وَرِثه من سُلَيمان ،ولا زال يَخْضَع لمَقَامه كلُّ جليل، ويُعْرَف لأيامه كلُّ وجه جَميـل، ويعترف لشَرَفه كلُّ معتَرِف بالتفضيـل، ويشهد بنَفَاذِ أوامره من ذَوِى نسبه الشريف كلُّ أخ وخليل، ولا كانَ إلَّا كرَمُهُ المأمول، ودعاؤه المقبول، وعَدُوّه المصرُوع ووليّـه المحمول ، ولابَرِحتْ طاعتهُ يُعْقَد عليها كلُّ جمع ، ومراسِمُهُ يُنْصت إليها كلُّ سَمْع ، وطوائفُ الذين كَذَبُوا عليه لا تُتْلىٰ عليهم آياتُه إلا تولَّوْا وأعينُهُمْ تَفِيض من الدَّمْع .

المـاليك يَقبّلُون الأرضَ بالأبواب العاليــة التى هى خُطَّة شَرَفهم ، ومكانُ تعبُّد القدماء منهم ومن سَـلَفِهم ، ويلُوذُون بذلك المَقَـام ، ويَعُوذون بذلك الحَرَم الذى

لا يبْعُد نسبهُ من البيت الحَرَام، ويؤمِّلون ذلك الكَرَم الذى مامنهم إلا مَنْ سَعِد به طائره، وجاءته به فى وَجْه الصَّباح أشائره، وفى وَجه العِشاء بشائرُه، فنالوا به أقصىٰ المَرَام، وقضَوْا به من العُمُر ما إذا قالوا : ياسَـعْدُ ! لايَعْنُون به إلا ذلك الإمام، وينتهُون إلىٰ ما ورد به المرسـومُ الشريفُ الذى ما من المَـاليك إلا مَنْ مَتَّ لديه بتقديم عُبوديَّتِـه ورِقِّه، وسارع إلىٰ طائِره الميمونِ وحمله بسَبْقِه، وفتحَ له عيْنَـه وظنَّ أنَّه حا كمٌ، وآمتثلوا أمْرَه وكيف لا تمتثل الرماةُ أمرَ الحا كِم ؟، ولاسيَّما آبنُ عمِّ سيدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الامامُ الحا كم، وأجَلُّوه عن رَفْعه علىٰ العين إذ كانت تلك بمنزلة الحاجب، وقدّموا إليـه خُفُوقَ قلوبِهم الطائرة وما علموا أنْ كانوا قاموا بالواجب، ووقفُوا علىٰ أحكامِ حا كمِه فمـا شكُّوا أنَّ زمان هـذا الفَنِّ بحياة ناصره فى بَغْدادَ قد عاد، وأنَّ مثاله المتمثّل فى سَواد الحَدَق ممـا حكتْه أيامُه العبّاسيَّةُ من شِـعَار السَّواد، وعلمُوا مارَسَم به فى معنىٰ محمدِ بن الحِمْصىِّ الذى ما نوَّرت الليـلةَ أكاريحُه، ولابَعُدتْ فى الإقعاد له تَوارِيخُه، بل أخمدَتْ دمُوعُ نَدَمه نيرانَه المشتعله، وأصبحَ به لايحمل القَوْسَ فى يده إلا أنه مَشْـغَله، وما كان أنهـاه الدِّيوان العزيز ممـا لم تذكر الخواطرُ الشريفـةُ بأنه قبة المُفـتَرِى ، وأنه صاحبُ القوْسِ إلا أن مالَهُ سعادةُ المشترى، وأنه موّه تمويهَ الجاحد، وتلوَّنَ مثلَ قَوْس قُزَحَ وإلا فقوسُ البندُق لونٌ واحد، وأدْلىٰ بغروره، وعَرَض المَحْضَر الذى حمله علىٰ تغريره، وذلك فى غَيْبة الأميرِ بهاء الدين أرسلان البُنْدُقْدارِ الحاكمى، الذى لو كان حاضرًا لكان حُجَّة عليه، ومؤكدًا لإبطال رَمْيـه وقوسِه وبُنْدُقه فى يدَيْه، لمـا تضمَّنه الخطُّ الشريف المقيِّد اللفظ المكتتبُ علىٰ المصطَلَح، الساحبُ ذيلَ فخاره علىٰ المقترَح، الذى هدىٰ إلىٰ الخير، وبدَا به ماوُهِب من الملك السليمانىِّ الذى أُوتِىَ من كلِّ شىءٍ وعُلِّم منطِق الطير، فإنَّه لم يكْتَب له إلا بأنْ يرمِىَ علىٰ الوجه المَرْضىِّ واستيفاء شروط البنـدق،

والخروج من جميع الأشكال عملا بقواعده ؛ ويُعلِم بأنه ما رعىٰ حقَّ قُدْمتــه ، ولا فعل فى الباب العزيز ما يجبُ من التحلِّى بشِعار الصِّدْق فى خِدْمته ، وأنه خالف عادةَ الأدَب ، وأخطأ فى الكلّ لكنه نَدَب ، وذلك بعد أن عَمِل له جميعُ رُماة البندق ، وسئِل فأجاب : بأنه سالمٌ من كل إشكال يُشْكِل ، وأنه بعد أن أُقْعِد رمىٰ وحَمَل وحُمِل ؛ فشهد عليــه السادةُ الأمراءُ ولاةُ العهد إخوة أمير المؤمنــين ومن حضر ، وكتبوا خطوطَهم فى المحضر ؛ وما حصل الآنَ عند عَرْض قصة المماليك بالمواقف المقدّسه ، ووضوح قضيته المدَنسه : من التعجُّب من آعتراف الممالِيك ، لِكونهم رمَوْا معــه بعد أن رأَوُا الخطَّ الشريفَ وهو لفظ مقيَّــد ، وأمرٌ أُيِّدَ به رأْىُ الإمام الحاكم بأمر الله المسترشد بالله والمؤيَّد ؛ وكُلُّ ماأمرَ به أميرُ المؤمنــين لامَعْدِل عن طُرُقه ، ولا جدالَ إلا به إذا أُلْزِم كلُّ أحد طائرَه فى عُنُقه ، وأمير المؤمنين بحر لايرد إلا من عِلمِه ، وهو الحاكمُ ولا رادَّ لحُكْمِه . وإنما آبن الجمصىّ المذكور عَدِم السَّداد ، وخالف جارىَ العادةِ فى الجِمِّص فإنه هو الذى سُلِق فى الآفتراء بألســنة حِدَاد ؛ ولم يُوقِف المماليكَ من الخط الشريف إلا علىٰ بعضه ، ولا أراهم من بَرْقه المتهلِّل غيرَ وَمْضــه ؛ والذى أوقفهم عليه منه أن يَرْمِى محمدُ بنُ الجمصىّ ويُرْمىٰ معه ، وكلمةُ أمير المؤمنين مستَمعه ، ومراسِيمُه متَّبَعه ؛ وإذا تقدم كان الناس تَبَعه . غير أن المذكور بَدَتْ منــه أمورٌ قطع بهـا الأميرُ صارمُ الدين صاروجا الحاكم البُنْدُقْدار فى حقه ، وأقعده عن قُدْمته التى كان يَمُتُّ فيها بسَبْقه ؛ وآنتقل عنه غلْمانُه ، وثقُل عليه زمانُه ؛ ونُودِى عليه فى جمعٍ كبيرٍ يزيد علىٰ تسعين قوسا ، وجُرِح بخطإ بُنْدُقه جرحا لايُوسىٰ ؛ ثم بعــد مدّة سنين توسَّل بولد الأمير المرحوم سيف الدين تنكز إلىٰ أبيه ، وتوصَّل به إلىٰ مَرَاميه ؛ فأمَرَ أن يُرْمى معه وهَدّد المخالفَ بالضرب ، ولم يَرْمِ معه أحدٌ برضاه إلا خَوْفَ أن تُوقَد نارُ الحرب ؛ فلما مضَت تلك الأيّام ، وآنقضَتْ

تلك الأحلام ، جمع مملوكُ الأبواب العالية الأميرُ علاءُ الدين بنُ الأبوبكرى الحاكم فى البندق الآنَ من رُماة البُنْدُق جمعا كبيرا ، واهتمّ به اهتماما كثيرا ، وذكر أمرَ المذكور، وأحضر محضَره المسطور ، ولم يكنْ عليه تعوِيل ، ولا فى حُكم الحاكم المتقدم تعليل ، ولا عِنْد هذا الحاكم الذى ادَّعىٰ له وادّعىٰ عنده تجوزُ الأباطيل ؛ وتحقّق أنّ الحقّ فيما حكم به عليه فتُبِع ، وترجح أن لايُقامَ منه من أُقعِد ولايُوصل منه ماقُطِع ؛ فنفّذ حكمُ الحاكم المتقدم، واستمرّ بقُعُوده المتحتّم ؛ ووافقه علىٰ هذا سائر الرُّماة بالبلاد الشامية وحُكّامها ، ومن يُرْجَع إليه فى الرِّماية وإحكامها ؛ وبطلَتْ قُدْمة المذكور التى ذهَبَ فيها عمرُه ضائعا، وزمانُه الذى لو اشتُرِيتْ منه ساعةٌ بالعُمُر لم يكن نافعا .

ولما ورد الآنَ هذا المرسومُ الشريفُ زاده الله شرفا قبّلوا الأرضَ لديه ، وأوقفوا عليه حاكِمهم المسمّى فوقَفَ له وعليه ؛ وجَمع له جمعا لم يَدَعْ فيه من الرُّماة معتَبَرا ، ولا من يُلقِم القوسَ وَتَرا ؛ ولا من إذا قعَد كالعين جرىٰ ماجرىٰ ؛ ثم قرأ عليهم ماتضمّن ، ودعَوْا لأمير المؤمنين ولم يَبْقَ منهم إلا مَنْ دعا أو أمّن ؛ وتضاعف سرورُهم بحكمه الذى رفع الخلَل ، وقطع الجدَل ، وقالوا : لاعَدِمْنا أيامَ هذا الحاكم الذى أنصفَ والإمامِ الذى عَدَل ؛ وبقِىَ ابنُ الحمصى مُثْله ، ونُودِى عليه إنّه من رمىٰ معه كان مخطِئًا مثلَه ، ووَقَرَتْ هذه المناداة فى كلّ مَسْمَع ، ووقّرت استقرارَ الفضل عليه المُجْمَع ؛ وذلك بما فُهِم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضى اللهُ به علىٰ لسان خليفته الحاكم والله أحكَمُ الحاكمين ، وطالعُوا بها وأنْهوا صورةَ الحال ، وجمعوا فى إمضائه الآمال . لا زالَتْ سعادةُ أمير المؤمنين منزّهة عن الشُّبَه ، آخذةً من خير الدارين كل اثنين فى وجه ، حتى تحصُل كلُّ رميةٍ من كَثَب ، ولا يرمِى فى كل

امنةٍ إلا كلُّ مصطحب ، ماغَبَّ فى السماء المِرْزَم ، ووقع العُقاب على ثَنِيَّـةِ يَقْرَع سِـنَّه ويتندَّم ، وعلا النَّسْرُ الطائرُ والواقـع على آثاره وسائرُ طيورِ النُّجوم والحُوَّم ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد ٱعترض فى " التثقيف " كلام المقـرّ الشهابى بن فضـل الله فى " التعريف " فقال : وفيما ذكره فى " التعريف " من التسوية فى المكاتبة بين الملوك والسُّوقة نظر . وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذى تجب مكاتبتهم به مايكاتب به المرءوسُ رئيسَه بحسَب ماتقتضيه الحال فى ٱبتداء المكاتبات من يُقَبِّل الأرض ، كما تكاتب الملوك ، بل هم بذلك أحقُّ وأجدر . ويكون الخطـاب لهم فى أثناء المكاتبة بمـا أشار إليه فى " التعريف " بالديوان العزيز، والمواقف المقدّسة أو المشرَّفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف، والجانب الأعلى، ومولانا أمير المؤمنين، ونحو ذلك بحسَب ماتقتضيه الحالُ على ماتقدّم ذكره .

الطـــرف الثانى

(فى المكاتبــة إلى وُلَاة العهد بالخلافة)

أما على المصطلح القـديم حين كانت المكاتبةُ إلى الخلفـاء « لفلان من فلان » فقـال فى "صـناعة الكُتَّاب" : ويكون التصـديرُ فى المكاتبة إلى وَلِىِّ العهد على ما تقـدّم فى المكاتبة إلى الخلفاء مع تغيير الأسمـاء ، غير أنه جعل الفرقَ بين الإمام وغيره ممن يكاتَب بالتصـدير أن يقال للإمام فى التصـدير مع السـلام : وبركاته ، فى أوّل الكتاب وآخره . ومَنْ سـوى الإمام تحذَف وبركاتُه من التصدير وتُثْبَت فى آخر الكتاب .

وقد تقدّم أنّ التصدير إلى الخليفة حينئذ كان " لعبد الله أبي فلان فلان أمير المؤمنين، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذى لا إله إلّا هو، وأسأله أن يصلّى على محمد عبده ورسوله . أما بعد، أطال الله بقاء أمير المؤمنين إلى آخره، ويختم بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " .

وحينئذ فتكون المكاتبة إلى ولىّ العهد على ما أشار إليه فى " صناعة الكُتّاب " من الابتداء بالتصدير مع تغيير الأسماء : " لعبد الله أبى فلان فلان ولىّ عهد المسلمين ، سلامٌ على ولىّ عهد المسلمين ؛ فإنى أحمد إليه الله الذى لا إله إلّا هو ، وأساله أن يصلّى على رسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعدُ : أطال الله بقاء ولىّ العهد ، ويختمه بقوله : والسلامُ على ولىّ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته" أو نحو ذلك .

وأما على المصطلح الذى حَدَث بعد ذلك، فقد ذكر المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" أن رسم المكاتَبة إلى ولىّ العهد بالخلافة : ضاعف اللهُ تعالى جَلَال الجانب الشريف ، المَوْلَوِىّ ، السيدىّ ، النَّبوىّ ، الفلانىّ ؛ ثم الدعاء المعطوف . وأبدل فى " التثقيف " لفظ الجانب بالجَنَاب . والخطابُ له بمولانا وسيدنا ولىّ العهد ونحو ذلك . والتعبير عن المكتوب عنه بـ«الخادمُ يقبل العتباتِ الشريفةَ أو اليدَ الشريفةَ» أو نحو ذلك . قال فى " التثقيف " : والعلامةُ إليه «الخادم» والعُنْوان « الجناب الشريف » وبقية الألقاب المذكورة إلى آخرها .

قال : وهو[1] أحسن من الجناب : لعدم اشتراك غيره معه فيه بخلاف الجناب . قال : وهذا أيضا على عادة من تقدّم من الملوك ، أما فى زماننا وقبله بمدّة مديدة،

(١) أى الجانب المذكور فى عبارة التعريف .

فلم يتفق وجودُ ولىّ عهـدٍ لخلافة ، وبتقدير وجوده فإذا لم يكُن الخليفـةُ يكاتَبُ فى هذه الأيام فكيف بولىّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردها فى "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجانب وأطلع مع وجود الشمس بَدْرَه التَّمام، وأحوجَ مع زاخر البحر منــه إلىٰ مَدَد الغَمَام، وقدّمه إمامًا علىٰ الناس وأطال بقـاء سيدنا أبيه الإمام ، ولا عُدِم منه مع نظر والده الشريف جميـلُ النظر ، ولا برِح صدْرَ دَسْته العلىّ إذا غابَ وثانِيَه إذا حضر، ولازال الزمانُ مختالًا من جُود وجودهما لاعرّف الله الأنامَ قدره إلا بالزَّهر والثَّمر، ولا زاد فيضُ كرمٍ إلا وهو من كَفِّ أبيه فاض أو مِنْ وَبْله العميم انْهَمَرْ .

الخادم يخدُم تلك العتباتِ الباذخةَ الشرف، الناسخةَ بما وجده من الخير فى تقبيلها قول من قال : لا خَيْرَ فى السَّرَف . وينهى ولَاءً ما عُقِد علىٰ مثله ضمير ، ولا انعقد شبيهه لولىِّ عهدٍ ولا أمير، وإخلاصه فى أنبائه أشرق منه علىٰ الجبين ، وأشرف فرآه فرضًا عليه فيما نطق به القرءانُ ورُقِمَ فى الكتاب المُبِين .

صدر آخر : أعز الله أنصارَ الجانب الشريف ، ولا حَجَب منه سِرَّ ذلك الجَلَال، ولا معنىٰ ذلك البدر المشرقِ منه فى صُورة الهلال، ولا فيضَ ذلك السحاب المُشْرَع منه هــذا الموردُ الزُّلال ، ولا تلكَ المآثرَ التى دلَّ عليهـا منه كَرَمُ الخِلال، ولا تلك الشجرة المفرّعة ولاما امتدّ منها به من الغُصْن الممتدّ الظلال، ولا ذلك الإمامَ الذى هو ولىُّ عهده وهو أعظم من الاستقلال .

الخادم يقبّل تلك اليد موفيًا لها بعهده [ومُصْفِيا منها لوِرْده][1] ومُضْفِيًا منها جَلَابِيبَ الشرف على عِطْفه، وحَسْبُه فَخَارا أن يُدْعَى فى ذلك المقام بعَبْده، ويترامى على تلك الأبواب، ويَلْثِمُ ذلك الثرى ويرجُو الثواب .

✣

صدر آخر : ولا زالتْ عهودُ وِلَايتـه منصوصه، وإيالتُـه بعُمُوم المصالح مَخْصُوصه، وصفوفُ جُيُوشـه كالبُنْيَان مَرْصُوصه، وقوادمُ أعدائه بالحَوالق مَحْصُوصه، وبدائع أنبائه فيما حَلَّقتْ إليه دعوتُه الشريفةُ مَقْصُوصه [والوُفُود فى أبوابه أجنحتها بالنَّدَى مَبْلُولة مقصوصة][1] .

الخادم يجدّد بتلك الأعتابِ خِدَمه، ويُزاحِمُ فى تلك الرِّحاب خَدَمَه، ويقف فى تلك الصُّفوف لا تُنْقَل عن الطاعة قَدَمُه، ويتمثّل بين تلك الوقوف ويتميز عليهم إذا ذُكِر فى السوابق قُدَمُه، ويُدْلِى بحُجَج سيوفه [التى أشهرها، وصروفه التى لاقَى أشهرَها، ومواقفه][1] التى ما أنكرها الديوانُ العزيزُ مُذْ أثبتَها، ولا حَطَّ رِماحَها مذ أنبتَها، ولا محا سطورها، مذ كتَبها، ليَغِيظ الأعداء ولا يشفى صدورها، منذ كبَتها؛ وينهى كذا وكذا .

✣

صدر آخر : ولا زالتْ مواعيدُ الظَّفَر له منصوصةً، ورءُوس مَنْ كفر بطوارقه مَرْضُوضه، وصحائفُ الأيام عمّا يُسَرُّ به الزمان فيه مَفْضُوضه، وجُفونُ عِدَاه ولو آتصلت بمُقَل النجوم مَغْضُوضه، وطوارقُ الأعداء التى تَجُنُّهم منه بسُيُوفه معضوضه .

الخادم يخدُم أرضَه المقدّسـةَ بترامى قُبَله، وتقليبِ وجْهـه إلى قِبَله، ويتطوّف بذلك الحَرَم، ويتطوّل من فَوَاضِـل ذلك الكَرَم؛ ويتطوّق بقـلائد تلك المِنَن،

(١) الزيادة "من التعريف" .

وفرائد تلك المواهب التى إن لم تكُنْ له وإلا فَمَنْ ؛ فإنه والله يشهدُ له لا يعتقد بعد ولاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيّم بأمور الدنيا والدِّين، عليه الصلاة والسلام إلَّا ولَاءها ، ولا يؤمِّل بعد تلك الآلاءِ إلَّا آلاءها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة المباركة لأمله إثمارا، ولا لليله إقمارا؛ ولا لأيّامه حافظا، ولا لحال إقدامه فى قَدَم صِدْقٍ ولائه لافِظا؛ قائما فى خِدَم هذه الدولة القاهرة يجْهَد فى منافعها [ويجِدُّ فى كَبْت مُدافعها] [(1)] ويدَّخِر شفاعتها العُظْمىٰ إذا جاءت كلُّ أمةٍ بشافعها، وينهى كذا وكذا .

الطـــرف الثالث

(من المصطلح المستقِرّ عليه الحال، فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية إلىٰ أهل المملكة: من مصر والشام والحجاز، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقْصِـــد الأوّل

(فى المكاتبات المفْرَدة ، وفيـــه مَسْلَكان)

المسْـــلَك الأوّل

(فى بيان رُتَب المكاتبات ورُتَب أهلها ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(المكاتَباتُ إلىٰ الملوك علىٰ ما كان عليه الحالُ فى الزمن المتقدّم ممـا لَعَلَّه يعودُ مثلُهُ ، وهى الدعاء للمقام ، وفيه مكاتبتان)

الأولىٰ — المكاتبة إلىٰ ولىّ العهد بالسلطنة [وهى] علىٰ ماذكره فى "التثقيف":

أعزّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المقام العالى ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الأَخَوِىّ ، أو الوَلَدِىّ ، إن كان أخًا أو ولَدا . ثم الدعاءُ اللائقُ به، ثم يقال : «أصدرناها إلىٰ المَقام العالى

(1) الزيادة من "التعريف".

ويطالع علمه الشريف » والعلامة «أخوه» سواء كان أخًا أو غير أخ، و « والده » إن كان والدا . ولم يذكُرْ تعريفَه، والذى يظهر أنه يكتب له «ولىّ العهد بالسلطنة الشريفة» . ولم يذكر قَطْع الورق لهـذه المكاتبة، والذى يظهر أنه فى قَطْع العـادة على قاعدة المكاتبات إلى أهل المملكة . قال فى "التثقيف" : ولعل هذه المكاتبة نظيرُ ما كُتب به إلى الملكِ الصالح علاءِ الدين علىّ ولدِ المنصور قلاوون : فإنه كان ولىّ عهد أبيه المذكور، تُوُفِّىَ فى حياته . ثم قال : ورأيت أمثلةً كثيرةً صـدرت عنه بخَلَاص الحقوق، وعلامته عليها «علىّ بن قلاوون» .

الثانية — المكاتَبةُ إلى صاحب حماةَ من بَقَايا الملوك الأيُّوبية قبل مصيرها نيابةً، وآخر من كان منهم فى الدولة الناصرية «محمدِ بنِ قلاوون» الملكُ الأفضلُ ناصرُ الدين محمد بن الملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل، لَمَّا صارتْ إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكاتبة إليـه على ما ذكره فى "التثقيف" فى قَطْع العادة : « أعز الله تعالى أنصارَ المَقَام الشريف، العـالى، السلطانى، المَلَكىّ، الأفضلِىّ، الناصرىّ، ونحوهما » . ثم الدعاء، وبعده «أصدرناها إلى المقام الشريف» والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب حماة» . قال فى "التثقيف" : ولم يَزَل الحالُ على ذلك إلى أنْ عُزِل عنها الأفضلُ المشار إليه بعد الأيام الشَّهِيدية الملكِ الصالح عمادالدين إسماعيل آبن السلطان الشهيد النـاصر محمد بن قلاوون، وآستقرّ بها بعـدَه نائبًا الأمير طغاى الحموىّ أمير مجلس كان، فبقيتْ نيابةً بعده إلى الآنَ .

الضـــرب الثانى

(المكاتبات إلىٰ مَنْ عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلامِ وغيرهم ممن جرت العادةُ بمكاتبته ، وفيه مهْيَعان)

المَهْيَـــع الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات ، وهى علىٰ عشر[1] درجات)

الدرجـــة الأولىٰ

(الدعاء للمقَرّ)

وصورته علىٰ ماذكره فى " التثقيف " : «أعزّ الله تعـالىٰ أنصارَ المقَرّ الكريم ، العـالى ، المَوْلوِىّ ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الزّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثاغِرىّ ، المرابطىّ ، المُمَهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظّهيرىّ ، العابدىّ ، النـاسِكىّ ، الأتابكىّ ، الكَفِيلىّ ، الفلانىّ ؛ مُعِزّ الإسلام والمسلمين ، سـيدِ أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، ملجَإ الفقراء والمساكين ، زعيمِ جُيوش الموحّدين ، أتابك العساكر ، ممهّد الدُّول ، مشيّد الممالك ، عِمادِ الملة ، عونِ الأمة ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، عضُد أميرِ المؤمنين» . ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب : مثل أن يقال : « ولا زال عَزْمُه مؤيّدا ، وعِزّه مؤبّدا ، وسعده علىٰ ممرّ الجديدين مُجَدّدا ؛ أصدرناها إلىٰ المقَرّ الكريم تُهْدى إليه من السلام أتَمّه ، ومن الثناء أعَمّه» . ثم يقال : «وتُبْدى لعلمه الكريم كذا وكذا ، ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه الكريمُ بكذا وكذا ، فيحيط علمه الكريمُ بذلك ، والله تعالىٰ يؤيّده بمَنّه وكرمه » .

---

(١) لم يذكر غير ثمان درجات .

الدرجـــة الثانيـــة

(الدعاء للجناب الكريم)

وصورته على ما أورده فى "التثقيف" عما آستقر عليه الحالُ «أعزّ الله تعالى نُصْرة الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِياثىّ ، المُثاغِرىّ ، المرابِطىّ ، المَهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيف الأمراء فى العالَمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحّدين ، سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل أن يقال : «ولا زالتْ عزائمهُ مؤيّده ، وأوامرُهُ السعيدةُ مسدّده ؛ صدرت هـذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهدِى إليه سـلامًا طيّبا ، وثناء مُطْنِبًا ؛ وتوضّح لعلمه الكريم كذا . ومرسومُنا للجناب الكريم أن يتقـدّم أمرُه الكريمُ بكذا وكذا ؛ فيحيط علمه الكريمُ بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنّه وكرمه» .

قلت : والذى فى "التعريف" : «أعزّ الله تعالى أنصارَ الجنَاب الكريم ، بإبدال نصرة بأنصار ، وآختلاف بعض الألقاب المتقدّمة» .

الدرجة الثالثـــة

(الدعاء للجناب العالى بمضاعَفَة النعمة)

وصورته على ما فى "التثقيف" : «ضاعفَ اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، العَوْنىّ ، الزّعيمىّ ، المَهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيف الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مُقَدّم العساكر ، ممهّد الدُّوَل ، مشيّد

الممالك، عماد الملة، عون الأمّة، ظهير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين».

ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل: «ولا زال قَدْرُه عاليا، ومَدْحه مُتواليا، وجِيدُ الدَّهر بمحاسنه حاليا؛ وتوضّح لعلمه الكريم كذا؛ ومرسومُنا للجناب العالى أن يتقدّم أمرُه الكريم بكذا؛ فيحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه».

الدرجة الرابعــــة

(الدعاء للجناب العالى بدوام النعمة)

وصورتها على ما أورده فى "التثقيف": «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيدىّ، الأوحدىّ، النّصيرىّ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ، الظَّهيرىّ، الفلانىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر، كَهْف المِلّة، ذُخْر الدّوْلة، عمادِ المملكة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، حُسامِ أمير المؤمنين» والدعاء والتصدير المناسب، مثل أن يقال: «ولا زال قدرُه رَفيعا، وعِزُّه مَنِيعا، و(1) مريعا. صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تهدى إليه سلاما طيبا، وثناء صيبا» ثم يقال: «وتوضّح لعلمه المبارك كذا، فيُحيط علمُه الكريم بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه».

(1) بياض بالأصل ولعله وجنابه مريعا.

الدرجة الخامسة

(الدعاء للمجلس بدوام النعمة)

ورسمها : « أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، العوْنىّ، الأوحدىّ، النَّصيرىّ، الهُمامى، المقدَّمىّ، الظهيرىّ، الفلانىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر، كَهْف الملة، ظهير الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين » ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل : « ولا زال عاليا قَدْرُه، نافذًا أمْرُه، جاريًا علىٰ الألسِنة حمدُه وشُكْرُه . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدى له سَلَاما، وثناءً بسّاما » ثم يقال : « وتوضح لعلمه المبارَك كذا . ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدَّمَ أمره المبارك بكذا، فيُحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه » .

الدرجة السادسة

(صدرتْ والعالى، ويعبَّر عنها بالسامىّ بالياء)

وصورتها علىٰ ما فى "التثقيف" : « صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، الذُّخْرىّ، النَّصيرىّ، الأوحدىّ، العوْنىّ، الهامىّ، المقدّمىّ، الظهيرىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام والمسلمين، شرف الأُمَراء المقدَّمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، مقدَّمِ العساكر، ذُخْر الدوله، كَهْفِ الملة، ظهير الملوك والسلاطين » ثم الدعاء المناسب، مثل : « أدامَ اللهُ سعادتَه، وأجزل من الخير بِرَّه وإفادَتَه، مُوضِّحةً لعلمه المبارَك كذا؛ ومرسومُنا للمجلس العالى أن يتقدّم بكذا، فيحيطُ علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه» .

الدرجة السابعـــة

(صدرت والسامى ، ويعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى ، الأميرىّ ، الأجلىّ ، الكبيرىّ ، العضدىّ ، الذُّخرىّ ، النصيرىّ ، الأوحدىّ ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضد الملوك والسلاطين » ثم الدعاء مثل : «أدام الله سعادتَه ، وأجزل من الخير عادتَه ؛ لتضمّن إعلامَه كذا ، ومرسومنا للمجلس السامى أن يتقدّمَ بكذا ، فليَعلمْ ذلك ويعتمده ، والله الموفّق بمنّه وكرمه» .

الدرجة الثامنـــة

«يعلمُ مجلِس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى ، المجاهِد ، المؤيَّد ؛ فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زَيْن المجاهدين ، عُدّة الملوك والسلاطين» والدعاء ، مثل : « أدامَ الله سعدَه ، وأنجح قصْدَه ؛ أنَّ الأمر كذا ، ومرسومنا له أن يتقدّم بكذا ، فليَعلمْ ذلك ويعتمِدْه ، والله الموفّق بمنّه وكرمه» .

قلت : وقد تقـدّم فى أوّل المكاتبات أنه يتعين أن يكون الدُّعاء للمكتوب إليـه مناسبا للحال ، مثل أن يكون موافقا لاسم المكتوب إليه أو لقبه أو وظيفته ، أو محلّ نيابته ، أو الأمرِ المكتوب بسببه : من استطلاع أمر ، واستِرْهاف عَزْم ، وفتح وظَفَر وبشارة وغيرها وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، وتقـدّم هُنَاك ذِكْرُ جملة من الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نُبْذَة من الأدعيـة والتصديرات اللائقة المتقدّمة ، ممـا يُدْعىٰ به للنوّاب ومَنْ فى معناهم ؛ ليقرُبَ تناوُلُه باقترانه بصور المكاتبات » .

الأدعية والصدور لنوّاب السلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالتْ كَفَالتُه تَبْسط المَعْدِله ، وعزائمُه على الإنصافِ والإسعافِ مُشتَمِله ، وتقدماتُه تُبَلِّغ كلَّ ذى قَصْدٍ أملَه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تهْدِى إليه من السلام أكمَلَه ، ومن الثناء الحَسَن أجزَلَه ، وتُبْدِى .

آخــر : ولا زالتِ الممالكُ كلُّها فى كَفَالته ، والمَسالكُ على آختلاف طُرُقها آيِلةً إلى إيالته ، والملائكُ محوّمةً على بنوده محتفّةً بهالَته ، والأرائكُ لاتُثنَى إلا على دَسْت فَخاره ولا تُعَـدّ إلا لجلالته . أصـدرناها إلى المقرّ الكريم تخصُّه بأفضـل السلام ، وأطيبِ الثناءِ المرقوم على أعلى الأعلام ، وتُبْدِى .

آخــر : ولا زالتْ كِفايةُ كَفَالته تَزيدُ على الآمال ، وتتقرّبُ إلى الله بصَلاح الأعمـال ، وتكفُل ما بين الجَنوب وأقصى الشَّمال . أصـدرناها إلى المقرّ الكريم وصـدْرُها بذِكْره منشرح ، وبِبِرّه فَرِح ، وبعُلُوّ قدره فى أيامنا الزاهرةِ يُسَرّ ويؤمَّل منه ما يَزِيد على أمل المقترِح ، وتبدى .

أدعيةٌ تصلُح لنائب الشام المحروس

و[لا زالتْ](١) الممالك [تؤيد] بعزمه ورأيه تأييدا ، والدول [تسدّد](١) بكفالته تسديدا و[تشيد](١) تشييدا . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلاما تضاعفُ أجزاؤُه ، وثناءً يُبهِج الخواطرَ سناؤُه ، وتُبْدِى لعلمه .

آخــر : ولا زالتِ النفوسُ بيُمْن كَفَالته فائقه ، والخواطِرُ فى محبّته متوافِقه ، والألسُنُ بشكر محاسنه ناطِقَه ، وقلوبُ الأعداء من بأسه ومَهَابته خافِقه . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيها المقام لتمام الكلام .

إلى المقرّ الكريم تُهدى إليه أنواعَ السلام المتناسبة وأجناسَــه المتناسقه ، وتُثنى على أوصافه التى أصبحتِ الأفواهُ فى ذكرها صادقه ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت عزائمُه مُرهَفة الحدّ ، وكفالتُه كفيلةً بنُجح القصد ، ومغانمُه فى سبيل الله تُعرِب عن الاجتهاد فى قهر الأعداء والجدّ . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهدى إليه سـلاماً يفوقُ شذاه العنبرَ والنّـدّ ، وثناءً مجاوزا أبدًا الحصرَ وأمدًا العدّ ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت قلوبُ أهل الإيمـان من كفالته مؤتلفه ، وفرقُ أهل (١) من بأسه وخوفه مختلفه ، وأحوالُ أهـلِ العناد بجميل تدبيره فى آستطلاعها واضحةً منكشفه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُثنى على همّته التى لم تزل على المصالح معتكفه ، وتُهدى إليه تحيةً شموسُها مشرقةً غيرُ منكسِفه ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت سعادتُه بحكم الأقدار دائمه ، والمعدَلةُ بجميل حلمه وصائب رأيه قائمه ، والعيونُ بيُمن كفالته فى مهاد أمنه نائمه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهدى إليه تحيةً طيّبةَ المَسْرى ، وثناءً حَسُنَ وصفًا وطاب ذِكرا ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زال النصرُ حليةَ أيامه ، وشامةَ شامه ، وغمـامةَ ما يحلّق على بلده المخضرّ من غمامِهْ . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسلامٍ لا يرضى حافرُ جواده الهلالَ نعلا ، ولا يحظى به إلا بلدُه ونخص منه الشرفَ الأعلى ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وسقى عهدُه العِهاد ، وشفى بعـدله العِباد ، وزانَ به حُسنَ بلده التى لم يُخلَقْ مثلُها فى البِلاد ، وهى إرمُ ذاتُ العِماد . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسلامٍ تُسَرّ به النفوس ، ويطوّق به فضلُه الجامع وتُحلّى به العروس ، وتبدى لعلمه .

(١) بياض بالاصل ولعله الكفر .

آخر : ووَقَىٰ بسُور جُيُوشه الممتنعةِ ضررَ الضَّرّاء، وكَسر بأُسُود جُنودِه ذِئابَ الأعداء الضّراء، وسبق دَهْماءَ الليل وشَهْباء النهار [وحمراءَ الشفَق](١) وصفْراء الأصيل وشَقْراء البَرق بسابقته الخَضْراء . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسَلامٍ يملأُ حَدَقَ حدائقه نُورا، وقلبَ عساكره سُرُورا .

أدعية وصدور

(تصلُح لكلٍّ من النائب الكافل ، ونائب الشام ، ومَنْ فى معناهما كالأتابك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووَصَل المسارّ بعلمه الذى لا يُنكَر ، وحِلْمه الذى يُشكَر ، وحكمه الذى يأمُرُ بالمعروف ويَنْهىٰ عن المُنكر . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسلام يُسْرِع إليه ، وثناء يَرِدُ منّا عليه ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولا زالتِ الدُّوَلُ برأيه مُقْبِلة السُّعود ، مترقِّيةً فى الصُّعود ، مملوءة الرِّحاب : تارةً تبعَثُ البُعوثَ وتارةً تفِد عليه الوفُود . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم تُهْدى إليه من السلام أشرقه نُجُوما ، ومن الثناء أغْدقَه غُيُوما ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولازالت الممالكُ بآرائه مُنيره ، و براياتِه لأعدائها وأعداءِ الله مُبيره ، وبُرُؤياه تتضاءلُ الشموسُ المُشْرِقة وتخجَلُ السُّحُب المَطيره . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدى إليه من السلام دُرَره ، ومن الثناء غُرَره ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولا برحتْ آراؤه كالنُّجوم بعيدةَ المَدىٰ ، قريبةَ الهُدىٰ ، متهلِّلة كالغمام : للأعداءِ منها الصَّواعقُ وللأولياء منها النَّدىٰ . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم بسلام حَسَن الافتتاح ، وثناءٍ كما نَظْم الوِشاح ، وتبدى لعلمه الكريم .

---

(١) الزيادة من "التعريف"

آخــــر : ولا بَرِحتْ آراؤه تُنير غَياهِبَ الخُطُوب، وعزائمُه تُثير سَنابِكَ الجياد للجهاد فتظْفَر من التأييد بكلِّ مطلوب ، وصوارِمُه تَفتِـك بالأعداء فتَهتِك منهم كلَّ سِتْرٍ محجوب . أصدرناها إلىٰ المَقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلامًا أزهىٰ من الزَّهَر ،وأبهىٰ من رَوْض وافىٰ نَضارته النظَر ، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولا برِح التأييدُ يصْحَب رايته ، والعزم يَخْدُم عَزْمَته ، والرُّعب يَؤُمُّ طليعته ،والظَّفَر يُحَكِّم فى العدوّ سيْفَه فلا يستَطِيعُ عاصى الحُصُون عِصْمَتَه . أصدرناها إلىٰ المقرّ الكريم تُكافِى بمزيد الشُّكْر هِمّتَـه ، وتُوافِى إليـه بثناء وافٍ يحسُـدُ المِسْكُ نَفْحَته ، وتنهى لعلمه .

آخــــر : ولا برِحتْ سـيُوفُه تَسِيل يوم الرَّوْع جداوِلُهـا ، وعزائمـه تَنْصر كتائبها و جحافِلُها ، ومنزلتُه علىٰ ممرّ الزمان بين السِّماكين منازِلُهـا . أصدرناها إلىٰ المقرّ الكريم تُثْنِي علىٰ محاسنه التى بَهرتْ أوصافُها ، وٱختالت فى مَلابس الحمدِ أعطافُها ؛ وتبدى لعلمه .

أدعية وصــــدور

(تصــلح لنائب حلب المحروســـة)

دعاء من ذلك : ولا زال يُعَـدّ ليومٍ تَشِيب منـه الوِلْدانُ ، ويُعَـدُّ دونه [كلُّ محارب][1] بَيْنه وبين الشَّهباء والمَيْدان ، ويعُمُّ حَلَبَ من حِلىٰ أيامه مالا يُفْقَد معه إلا ٱسمُ ٱبن حَمْدان .

فإن كان لقبُه سيفَ الدين ، قيـل « ويعُمُّ حلبَ من حلىٰ أيامه مالا يُفْقَد معه سيفُ الدِّين إن فُقِدَ سيفُ الدولة بنُ حَمْدان . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب

(١) الزيادة من "التعريف" .

الكريم تُهْدى إليه سلامًا مامرّ على روض إلا آنتهب طِيبَه نَهْبا، وثناءً تُعقَد له أعلامُه على كتيبته الشُّهْبا، و توضِّح لعلمه» .

آخــــر : وفَتح بسُيوفه الفتحَ الوَجِيز، وأحلّ عقائلَ المَعاقل منـه فى الكَنَف الحَرِيز، وأعادَ به رَوْنَق بلد ماجَفّتْ بها زُبْدة حَلَب وهو فيها العزيز . صدرت هذه المكاتبة إلى الجَناب الكريم بسلامٍ ذَهَبُه لايَذْهَب، وثناءٍ لاتصلُح لغير عَقِيلة الشهباء قلادةُ عنبره الأشهَب، و توضِّح لعلمه الكريم .

آخــــر : ولا زالت هِمَمُه مُطِلّة على النُّجوم فى منازلها، مُطاولةً للبروق بمَناصِلها، قائمةً فى مصالح الدوَل مَقـامَ جحافِلها . صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدى إليه سلامًا كالدُّرَر، وثناءً طويل الأوْضاحِ والغُرَر، وتبدى لعلمه .

آخــــر : وأمدَّه بَعونه، وجمَّله بصَوْنه، ولا زال رأيُه فى النقيضين: لهذا سببَ فنائه ولهذا علّةَ كَوْنه . صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم تُهْدى إليـه سلامًا رَطِيبا، وشُكْرا يكون على ماتُخفِى الصدورُ رَقِيبا، وتوضح لعلمه .

آخــــر : وأعلى له من الأقدار قَـدْرا ، وضاعف لَدَيْه من لَدُنْه سُرورا وبِشْرا، ولا أعدمَ الممالكَ من عزائمه تأييدًا ونَصْرا . صدرت هــذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدى إليـه سلاما يَفُوقُ الزَّهَر، ويسابِقُ فى سَيْره الشمسَ والقمَر؛ وتبدى لعلمه .

آخــــر : وخَصَّه بجميل المَناقب، ومنحه من المَزِيد علُوَّ المَراتب، وضاعف لدَيْه من الإيثار شريفَ المَواهب . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريمِ تُهْدى إليه سلامًا كَرُم وفُودُه، وثناءً حسُنَ وصفُه وعذُبَ وُرُوده، وتوضِّح لعلمه .

آخـــر : ولازالتِ الخواطرُ تَشهدُ منه صِدقَ المحبّة ، والنفوسُ تحقّق أنه قدجعل النصيحةَ لأيامنا الشريفة دَأْبه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهدِى إليه سلاما زاكيةً أقسامُه ، وثناءً كُلّ عِقدُه واتّسق نِظامُه ، وتوضح لعلمه الكريم .

آخـــر : وزاد عَزْمَه المباركَ تأييدا ، ومَنَح نِعمَه على ممرّ الأوقات مَزِيدا ، وجعل حظَّه من كلّ خير سَعيدا ، وسعدَه بتجديد الأيام جَديدا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهدِى إليه تحيةً حسُنَ إهداؤُها إليه ، وثناء يُبْهِج الخواطرَ ورُودُه عليه ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : وجعل السعدَ المؤبّد من مَغَانِمه ، وأقامه لإبقاء الخير فى معادِنه وإثباتِ العزّ فى معالمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهدِى إليه تحيةً طاب نَشْرُها العاطر ، وثناءً أبهجَ ذِكْرُه الخاطر ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال بالملائكة منصُورا ، وبمزِيد النِّعم مَسْرورا ، وبكلّ لسان موصوفًا مشكورا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهدِى إليه سلامًا يَضُوعُ نَشْرُه ، وثناءً يفُوح عِطْره ، وتوضح لعلمه .

دعاء وصـــــدر
(يصلح لنائب السلطنة بطرابُلُس)[(١)]

[وهو من هذه النِّسبة وما لايبعُد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيّامَه التى مارقّتْ على مثلها أسحار ، وعقَد فى مَناقبه العُقولَ التى تَحار ، وأخذ بنواصى الأعداء بيده لا تنأى بهم البَرارى المُقْفِرة ولا تحصّنُهم البِحار .

(١) ظهر من فحوى المقام أن هنا سقطا من قلم الناسخ ، وقد تداركناه من "التعريف" ووضعناه بين قوسين هكذا [ ] تمما للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام وفرت منه أسهمه التى يدرأ بها العدا فى نحرها، وثناء مطرب ترقص به الخيل فى أعنتها والسفن فى بحرها .

دعاء آخر وصدر

ولا زالت صفوفه تشد بنيان الحرب، وسيوفه تعد للقتل وإن قيل للضرب، وبجوفه تجر على بلد ما مثله فى شرق ولا حصل على غير المسمى منه غرب .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تهدى إليه سلاما يزيد أفقه تزيينا، وثناء يأتيه من فائق الدر بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصدر

(يصلح لنائب السلطنة بحماة)]

وأتم بخدمه كل مبره، وبهممه كل مسره، وصان ماوليه أن يكون به غير النهر «العاصى» أو ينسب إليه سوى البلد المعروف « معره » .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تهدى إليه سلاما تمسح أنديته بالسحائب، وثناء يأتى به حما حماة وقرونها المنشورة بألويته معقودة الذوائب .

[(١) دعاء آخر وصدر

وحمى حماه، وزان موكبه بأحسن حماه، وحسن كنائن سهامه التى لا يصلح لها غير بلده حماه] (١) .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تهدى إليه سلاما تحمله إليه الركائب السائره، وثناء تشرق منه الكواكب أضعاف ما تريه أفلاك الدواليب الدائره، وتوضح لعلمه .

(١) ما بين هذين القوسين [ ] تداركناه من التعريف لينتظم به الكلام فليتأمل .

دعاء وصـــــدر

(يصـــلح لنـائب صَـــفَد)

وشكَرِ هِمَمه التى وفَتْ ، وعزائمه التى كَفَتْ ، وأعلىٰ به بلدًا مُذْ وَلِيه قيل : صفَدُ قد صفَتْ . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلاماً لا تَزال شعائرُه تُقام ، وثناءً مُذْهَبٌ علىٰ بلده قيل : إنَّ هواءَها يَشْفِى الأسقام ، وتوضح لعلمه .

آخــر : ولازالت مَسَاعيه تسوقُ إليه الحُظُوظَ [البَطِيَّة][1] وتقدِّم له العَلْياءَ مثل المطِيَّة ، وتَهَنِّيه بما خُصَّ به من صَفَد وهى العَطِيه ؛ [صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلاما يحيِّيه فى محلِّه ، وثناءً يودع فى مَعْقِله الذى لا تصل أعلىٰ الشوامخ إلا إلىٰ ماسفَل من ظلِّه[1]] وتوضح لعلمه .

ادعية وصـــــدور

(تصلُح لكلٍّ من نُوَّاب طرابُلُس وحماةَ وصَفَد ومَنْ فى معناهم)

دعاء وصدر من ذلك : ولا بَرِح منصورَ العَزَمات ، مسدَّدًا فى الآراء والحَرَكات ، مشيِّدا قواعدَ الممالك بما لَهُ من جميل التقدمات . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الباب العالى تُهْدى إليه سلاما أرِجًا ، وثناءً بَهِجا ، وتوضح لعلمه .

آخــر : ولا زال سيفُه ماضِيا ، وجِيدُه حاليا ، وضِدُّه خاسِيا . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلاما ، وتسدِّد لرأيِه الصائبِ سِهاما ، وتوضح لعلمه .

---

(١) من التعريف .

آخــر : ولا زالت آراؤه سعيدَه ، وتأثيراتُه حَمِيده ، وسُـيوفُه لرقاب العِـدا مُبيده . صدرت هـذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سلامًا يتأرَّج ، وثناءً نَشره نَشْرُ الثوب المدبَّج ، وتوضح لعلمه .

آخــر : ولازالتْ آراؤه عاليه ، وأجيادُه حاليه ، ونِعَمُ الله عليه متواليه . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدى إليه السـلام التامّ ، والثناءَ الوافرَ الأقسام ، وتوضح لعلمه .

أدعية وصــــدور

(تصلح لنائب الكَرَك ومن فى معناه ممن رُتْبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيَّد عزمَه ، وأبَّد حَزْمه ، وفوّقَ إلى نحـر العِـدا سَهْمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدى إليه سـلاما ، وتُسَدِّد لرأيه الصائب سِهاما ، وتوضح لعلمه .

آخــر : ولا زال عاليا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمدُه وشُكْرُه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدى إليه سلاما ، وثناءً بَسّاما ، وتوضح لعلمه .

المَهْيَــع الثانى

(فى بيان مَرَاتب المكتوب إليهم من أهل المملكة ، وما يستحقه كلٌّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(أرباب السيوف، وهم على ثلاثة أقسام)

القســـم الأوّل

(من هو منهم بالديار المصرية ، وهم ستة أصــناف)

الصـــنف الأوّل

(نُوّاب السلطنة الشريفة، وهم أربعة نُوّاب)

الأوّل — النـائب الكافل : وهو نائبُ السلطنة الشريفة بالحَضْرة . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك فى المَقَالة الثانية أنه أعلى نُوّاب السلطان رتبةً . قال فى "التثقيف": وقلَّ أن يُكاتَب إلا إذا كان السلطان مسافرا فى غَزاةٍ أو سَرْحة للصــيد .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : أعزَّ الله تعالى أنصار الجناب الكريم على ما تقدّم فى الدرجة الثانية من الدّرجات العَشْر(١) . قال فى "التعريف" : وقد رأيت بعضَ الكُتّاب قد كتب فى ألقابه بعــد الأميرىّ «الآمرىّ» . قال : والكاتب المذكور كاتبٌ صالحٌ فى المعرفة وليس بحجّة، وكتابته الآمرىّ ليست بشىء، وإنما حمله عليها كثرة المَلَق . وقد نقل فى "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

(١) لم يتقدم الإئمسان فتنبه .

فى تعريفه « نائب السلطنة و كافل الممالك الشريفة الإسلامية » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذى أراه أن يُجْمَع ذكر النيابة والكَفَالة فى تقليده، فيقال : « أن يُقَلَّد نِيابةَ السلطنة المعظَّمة ، وكَفالةَ الممالك الشريفة الإسلامية » أو ما هذا معناه ، نحو : « وكفالة الممالك الشريفة : مِصْرا وشاما وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية » ونحو ذلك .

فأما فى تعريف الكتب ، فقد جرتْ عادة نُوّاب الشام أن تقتصر فى كُتُبها إليه علىٰ « كافل الممالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعَمْرى فى ذلك مَقْنَع وإنَّ فى الاقتصار عليها ما هو أكثرُ فخامة . وعليه عملُ أكثر الكُتَّاب بديوان مصر أيضا ، ويؤيِّده أنهم مقتصرون فيما يكتب باشارته علىٰ هذا التعريف ، فاعلم ذلك .

ورسمُ المكاتبة إليه علىٰ ما آستقر عليه الحالُ ، علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المَقرّ الكريم ، كما فى الدرجة الأُولىٰ من الدرجات العشر ، والعلامة إليه « أخوه » . وتعريفه : « كافلُ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ » . قال فى "التثقيف" : وإنما كُتِب له أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ ، وزيدت ألقابه علىٰ ما كانت عليه لمـّا كُتِب بذلك لنائب الشام فى وِلَاية بيدمر الخُوارِزْمىّ ، وكافل المملكة يومئذ الأمير مَنْجَك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكونَ نائبُ الشام مميَّزا علىٰ كافل السلطنة ، علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ مكاتبة نائب الشام .

قال فى "التعريف" : أما نائبُ الغَيْبة ، وهو الذى يُتْرَك إذا غاب السلطان والنائب الكافل وليس إلّا لإخماد الثوائر وخَلَاص الحقوق ، فحكمه كحكمه فى المكاتبة إليه .

الثانى — نائب ثغر الإسكندرية المحروس : وهو ممن آستُحدثت نيابتُه فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» عند طُروق العدو المخذول، فى سنة سبع وستين وسبعمائة من الفرنج المخذولين .

ورسم المكاتبة إليه : ضاعف الله تعالى نعمةَ الجَناب العالى، على ماتقدّم ذكره، إلا أنه لا يقال فى ألقابه « الكافلى » والعلامةُ الشريفة له « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس» .

وآعلم أن بالإسكندرية حاجباً يكاتَبُ عن الأبواب السلطانيــة . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه : «هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» إن كان طبلخاناه، و « يعلّمُ مجلس الأمير » إن كان عشرةً، والعلامة الشريفة له الاسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ بثغر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجه القبلى : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينةُ أُسْيوطَ ، وأنّ آستحداثَ نيابته كان فى الدولة الظاهرية « برقُوق» فى سنة ثمانين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليــه : « ضاعف اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى » على ما تقدّم ذكره . ولا يقال فيــه « الكافلى » أيضا ، والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلى» .

الرابع — نائب الوَجْه البحرى : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينة دَمَنْهور الوَحْش من أعمــال البحيرة، وأن نيابتَه آستُحدثتْ بعــد نيابة نائب الوجه القبلى، ولذلك لم يتعرّض له فى "التثقيف" .

ورسم المكاتبة إليه : «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى » كما فى نائب الوجه القبلى . والعلامةالشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوَجْه البحرى» .

الصنف الثانى

(الكُشّاف)

وقد تقدّم أنه كان قبل آستقرار نيابتَى الوجهين : القبلىّ والبحرىّ كاشفان بالوجهين المذكورين : كاشفٌ بالوجه القبلىّ ، وكاشفٌ بالوجه البحرىّ . فلما آستقرّ النيابتان ، آستقرّ بالفيّوم والبَهْنَساوية كاشفٌ ، وبالشرقية وما قاربها كاشفٌ ، وكل منهما أميرُ طبْلَخاناه .

ورسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما : « صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » والعلامةُ لكلٍّ منهما الاسم الشريف ، وتعريف كاشف الفيوم « الكاشفُ بالفيّوم والبهنساوية » وتعريف الآخر « الكاشف بالوجه البحرىّ » .

الصنف الثالث

(الوُلاة بالوجهين : القبلى والبحرىّ)

وكلٌّ من وُلاة الوجهين لا يخرج عن طبلخاناه أو عشرة وما فى معناها كالعشرين ونحوها .

فأما الوجهُ القبلى ، ففيه ستة وُلاة ، منهم ثلاثة طبلخاناه : وهم والى قُوص وإخْميم . ووالى الأُشْمُونَيْنِ . ووالى البَهْنَسا .

ومنهم ثلاثةٌ عشرات : وهم والى إلجيزيّة ، وكان قبل ذلك طَبْلَخاناه . ووالى إطْفِيح . ووالى مَنْفَلُوط . وكان قبل ذلك طبلخاناه ، وهو اليوم إمرةُ عشرين .

وأما الوجه البحرى ، ففيه سبعةُ ولاة : منهم ثلاثةٌ طبلخاناه . وهم والى الغربيّة . ووالى المَنُوفيَّة . ووالى الشَّرقيَّة . وكان بدمنهور والٍ طبلخاناه قبل آستقرارها نيابةً .

ومنهم أربعــةُ عشرات، وهم : والى قَلْيُوب . ووالى أُشْمُوم : وهى الدقهليّـة والمُرْتاحيّة . ووالى دِمْياطَ . ووالى قَطْيَا .

ورسم المكاتبــة إلىٰ كلٍّ من ولاة الطبلخاناه منهم : « هــذه المكاتبة إلى المجلس السامى » وإلىٰ كلٍّ من ولاة العشرات منهم « يعـلم مجلسُ الأمير » والعـلامة لكل من الطبلخاناه والعشرات الاسمُ الشريف، وتعريفُ كل منهم «والى فلانةَ» .

الصـــــنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدمة الذكر: لكَشْف الجسور وعمارتها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغِلَال)

قال فى "التثقيف": فمن كان منهم طبلخاناه، فرسم المكاتبة إليه السامىّ بالياء . ومن كان منهم عشرة ، فرسم المكاتبــة إليه السامى بغير ياء . والعلامةُ لجميع الاسم الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجَّه بسببها، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المِصْـــريّة)

وقد رتّبهم فى "التعريف" علىٰ أربع مراتبَ :

المرتبة الأولىٰ ــ مقدّمو الأُلُوف، وقد ذكر أنّ لكبارهم أسوةَ كبار النُّوّاب بالممالك الشامية، كالشام وحَلَبَ . ولأوسطهم [أسوةَ أوسطهم][1] كحَماةَ وطرابُلُس وصَفَد .

---

(١) الزيادة من "التعريف"، وهى ساقطة من قلم الناسخ .

ولأصغرهم أسوة أصغرِهم، كعَزَّة وحِمْص . ثم قال : فاعلم ذلك وقِسْ عليه. ثم قال بعد ذلك : والذى نقوله أن لكبار المقـدَّمين بالأبواب السلطانية «الجنَاب الكريم» [ثم الجناب العـالى] (١) ثم « المجلس العالى » . وهـذا علىٰ ما كان فى زمانه، أما علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ آخرًا ، فإنه يكون لكِبَارهم « المَقَرّ الكريم» كما يُكتَب للأتابك الآنَ ، ثم « الجناب الكريم » ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» .

المرتبة الثانية — الطَّبلخانات . قد ذكر أن منهم من يُكتَب له «المجلس العالى» كمن يكون معيَّنا للتَّقـدمة ، وله عدّة ثمـانين فارسًا أو سبعين فارسا أو نحو ذلك ، وكالمقرَّبين من الخـاصكِيَّة ، أو مَنْ له عَراقـةُ نَسَب كبقايا الملوك، أو أرباب وظائفَ جليلة: كحاجبٍ كبير، أو إستدَّار جليل، أومدبِّر دولة لم يصرَّح له بالوزارة، أودَوادار متصرِّف. ثم قال : وهؤلاء و إن كُتِب لهم بالمجلس العالى، فإنه يكتب لهم بغير آفتتاح بالدعاء، والكتابة لهم بالعالى علىٰ سبيل العرض لا الآستحقاق، و إلا فأجلّ رسم مكاتبةِ أمراء الطبلخاناه «السامىّ» بالياء و لجمهورهم «السامى» بغير ياء .

المرتبـة الثالثة — العشرات . وذكر أن لكل منهم «مجلس الأمير» ، ثم قال : فإن زِيد قدرُ أحدٍ لسببٍ مّا، كتب له « المجلس السامى » بغير الياء .

المرتبـة الرابعة — مقدّمو الجُنْد . وقد ذكر أن لهم أُسْوَة أمراء العشرات فى المكاتبة . ثم قال : وأما الجُنْد، فالأمير الأجلّ. وأما جُنْد الأمراء فالطَّواشى . وكأنه يريد ما إذا كُتِب بسببهم مكاتبةٌ أو كُتِب لأحد منهم توقيع ، وإلا فالجنـد لا يكاتَبُ أحدٌ منهم عن الأبواب السلطانية حتّى ولا نُوّاب القِلَاع بالشام، كما سيأتى ذكره هناك إن شاء الله تعالىٰ .

(١) الزيادة من "التعريف" .

الصـــنف السادس

(العُرْبانُ بالديار المصرية وبَرْقَــةَ)

وقد تقدّم الكلامُ عليـه مستوفًى فى الكلام علىٰ أنساب العرب ، فيما يحتاجُ إليه الكاتب فى المقالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التعريف" أن العرب بمصر فى الوجهين القبلىّ والبحرىّ جماعاتٌ كثيرةٌ وشعوبٌ وقبائلُ . ثم قال : ولكنهم علىٰ كثرة أموالهم[(١)] واتساع نطق جماعاتهم، ليسوا عند السلطان فى الذِّرْوة ولا السَّنام، إذ كانوا أهل حاضرةٍ وزَرْع، ليس منهم من يُنْجِد ولا يُتْهِم، ولا يُعْرِق ولا يُشْئِم، ولا يخرجون عن حدود الجُدْران، وعلىٰ كل حال « فالمَنْدَلُ الرطب فى أرجائه حَطَب » .

ثم قد قَسَّم منازلهم إلىٰ الوجه القبلىّ والوجه البحرى، وذكر أن بكل من الوجهين مَنْ يكاتَب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البَحْرىّ فعلىٰ ضربين :

الضـــرب الأول

(عرب البُحَيْرة)

قال فى "التعريف": وأمراؤهم عربُ الديارِ المصرية . قال : وهم أشبهُ القوم بالتخلّق بخَلَائق العرب فى الحَلّ والتّرحال، يُغْرِبون إلىٰ القَيْروان وقابِس، ويَفِدُون علىٰ الحضرة السلطانية وُفودَ أمثالهم من أُمَراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم فى زمانه، كانت فى محمد بن أبى سليمان وفائد بن مقـدّم . وقال : إنّ رسم المكاتبة إلىٰ كلّ منهما : « هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى ، الأمير» والعلامة السلطانية « أخوه » ولم يتعرّض لتعريفهما، والذى يظهر أن تعريف كلٍّ منهما اسمه .

---

(١) فى الاصل : أبدالهم ، وهو تصحيف والصحيح من "التعريف" .

أما بعده ، فقد تغيّرت تلك الأحوال ، وتناقصَتْ رتبةُ عرب البُحَيرة ، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال جَمَّة ، كان منهم فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» رِحَاب ، وموسىٰ بن خَضِر ، وأولاد بَدْران الغَرِيق ، ومن جرىٰ مجراهم ، ثم صار اليوم بها (١) بن رِحَاب ، وخضر بن موسىٰ .

الضـــرب الثانى

(عربُ الشَّرْقية)

وقد ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه منهم نَجْم بن هجل شيخ عائذ . وذكر أنه دون محمَّد بن أبى سليمان وفائد بن مقدّم : أميرَىْ عرب البُحَيرة . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه : «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيرت الأحوالُ بعد ذلك وصارت رياسةُ عرب الشرقية متداوَلةً فى جماعة ، إلىٰ أن كان منهم فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسىٰ أمير (١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أولا فى (١) ثم قُتِل بسيف السلطان فى الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وآستقرّ مكانه (٢)

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .

✥

وأما عرب الوجه القبلى ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه كان منهم فى زمانه نَفَرانِ : أحدُهما ناصر الدين عُمَرُ بن قَضْل . وذكر أن رسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» أيضا . وثانيهما سَمُرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمّ ، وشوكةٍ مُنْكِيَة ، يغزو الحبشة وأُمَمَ السُّودان ، ويأتى بالنِّهاب والسَّبايا ، وله أثرٌ محمود ، وفعل مأثور . وفد على السلطان وأكرم مَثْواه ، وعُقِد له لواءٌ وشُرِّف بالتشريف ، وقُلِّد ذلك ، وكتب إلى وُلَاة الوجه القبلى عن آخرهم وسائرِ العُرْبان به بمساعدته ومُعاضَدَته ، والركوب للغَزْو معه متى أراد . وكتب له منشورٌ بما يفتح من البلاد ، وتقليدٌ بإمرة العُرْبان القبلية مما يلى قُوصَ إلى حيثُ تصل غايتُه . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه "السامى الأمير" كمن تقدّم .

قلت : ثم كان بعد ذلك عدد من أمراء العربان ، كان آخِرَهم أبو بكر بن الأحدب . ثم لما انتقلت هوّارة إلى الوجه القبلى ، صارت الإمرةُ فيهم فى الصعيد الأدنى ، فى بنى غَرِيب ، وأميرهم الآن (١) وفى الصعيد الأعلى فى بنى عُمَر ، وأميرهم محمد بن عمر ، ورسم المكاتبة إلى كل منهما (٢)

---

(١) بياض بالاصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بيض لهذا كما بيض لما قبله انتظارا لوضع مثال المكاتبة الجارية فى زمانه فاخترمته المنية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عربُ بَرْقةَ ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه لم يبق منهم فى زمانه مَنْ يكاتَب إلا جَعْفرُ بنُ عمر، وأنه كان لايزال بين طاعةٍ وعِصْيان ، ومخاشَنة ولِيان ، وأن أمراء عرب البُحيرة كانتْ تُغْرِى به ، وتغيّر خاطر السلطان عليه ، وأنّ الجيوش كانت تمتد إليه ، وقلَّ أن ظَفِرتْ منه بطائل ، أو رجعت بمَغْنَم إن أصابتْه نوبةٌ من الدهر . وكان آخِرَ أمره أنه ركِب طريقَ الواحِ حتّى خرج من الفَيُّوم ، وطرقَ بابَ السلطان لائذًا بالعفو ، ولم يَسْبِق به خَبَر ، ولم يعلم السلطانُ به حتّى آستأذن المستأذنُ عليه وهو فى جملة الوُقوف بالباب ، فأُكْرِم أتمّ الكرامة ، وشُرِّف بأجل التشاريف ، وأقام مدّةً فى قِرىٰ الإحسان وإحسان القِرىٰ . وأهلُه لايعلمون بما جرىٰ ، ولا يعرفون أينَ يَمَّ ، ولا أىّ جهةٍ نَحا ، حتّى أتتهم وافدات البشائر . وقال له السلطان : لأىّ شىء ماأعلمتَ أهلَك بقصدك إلينا ؟ قال : خِفتُ أن يقولوا : يَقْتك بك السلطان ، فاتثبَّط . فآستحسن قولَه ، وأفاض عليه طَوْلَه ، ثم أعيد إلىٰ أهله ، فانقلب بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْه سوء ، ولا رَثىٰ له صاحب ، ولا شَمِت به عَدُو .

النـــــوع الثـــانى

(ممن يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأقلام ، وهــم علىٰ ضربيــن :)

الضرب الأوّل

(أرباب الدّواوينِ من الوُزَراء ومَنْ فى معناهم)

قال فى "التعريف" ولم تزل مكاتبةُ أجلّاء الوزراء بـ«المجلس العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية « الجناب العالى » . وكُتِبت بالشام للصاحب عزّ الدين

أبى يعلَى ، حمزةَ بنِ القلاقسى[(١)] رحمه الله ، بجَلالة قَدْره ، وسابقة خِدَمه ، وعنايةِ مَنْ كتب إليه بها . ثم قال : والذى آستقرّ عليه الحال للوزير بمصر « الجَناب » . أما من يَجرِى مَجرَى الوُزراء ولا صريحَ له بها : مثل ناظر الخاصّ ، وكاتب السِّر ، وناظر الجيش ، وناظر الدَّوْلة ، وكُتّاب الدَّسْت ، فـ«السامىّ » بالياء ، ومَنْ دون هؤلاء فبغير ياء ، ثم «مجلس القاضى أوالصَّدْر» .

قلت : وكأنه يريد ألقـاب هؤلاء فى الجُملة ، إما فى مكاتبةٍ تكتب بسبب أحد منهم ، وإما فى توقيع ونحوه يكتب لأحدهم ، وإلا فمَنْ ذكره من الأصاغر لايكاتَبُ عن الأبواب السلطانية عادةً . والذى صرح فى " التثقيف " بذكر المكاتبة إليه من هذا الضرب نفران :

الأوّل — كاتب السرّ إذا تخلّف عن الرِّكاب السلطانىّ لعارض . وذكر أن رسم المكاتبة إليه : « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره ، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة» .

الثانى — ناظرالخاصّ الشريف . وذكَرَ أن رسم المكاتبة إليه علىٰ ماآستقرّ عليه الحال فى أيّام آبن تقولا « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره ، والعلامة «الأسم» وتعريفه «ناظر الخواصّ الشريفة» .

قلت : ولم يتعرّض لمكاتبة الوزير ، إنما ذكر ألقابه فى الألقاب العامّة مما يكتب فى الولايات وغيرها ، ولا يُستغنىٰ عن ذكر المكاتبة إليه ، وقد تقدّم فى كلام صاحب "التعريف" أن الذى آستقر عليه الحال فى المكاتبة إليه «الجناب العالى» ولم يعيِّن صورة الدعاء له . والذى ذكره فى "التثقيف" فى ألقـابه أن الدعاء له «ضاعف الله

(١) فى "التعريف" القلانسى .

تعالىٰ نعمته » وحينئذ فتكون المكاتبة إليه إن كتب إليــه « ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» بالألقاب السابقة .

الضرب الثانى

(أرباب الوظائف الدينية والعلمــاء)

قد ذكر فى " التعريف " أن كلًّا من قُضاة القضــاة بمصر يكتب له « المجلس العالى» والمحتَسِب بها يُكتَب له «السامىّ» بالياء، ومَنْ دونَهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابرهم «السامى» بغير ياء ، ومَنْ دونَهم « مجلس القاضى » او «الشيخ» بحسَبِ مايليق به . وكأنه يريد مطلقَ الألقاب كما تقدّم فى غيره، وإلا فهؤلاء لايكاتَبُون عن الأبواب السلطانية. ولم يذكر فى "التثقيف" مكاتبةً لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوىٰ قاضى القُضاة تاج الدين الإخْنائى المــالكى، وقد حَجّ فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الناصرية «حسن» ، جوابًا عمــا ورد منه، وكتب له الدعاء و « المجلس العالى » . والعلامة الاسم . قال : وأما قاضى القضاة عزُّ الدين بن جمــاعةَ فإنه كان يحُجُّ ويجاور كثيرا ، ولكنى لم أره كتب له قطّ ، وأنا شاكٌ فى أمره .

قلت : رأيت فى " إيقاظ المتغفِّل " لابن المتوَّج ، أنه كتب إليــه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالىٰ أحكامَ المجلس العالى » ولم يتعرّض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاةِ الشافعيــة أو المــالكية بالديار المصرية » .

النـــــوع الثـالث

(ممن يُكاتَب عن الأبواب السلطانية ممّن بالديار المصريّة الخُوَنْدات
السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربه ممن تدْعُو الضرورةُ
إلى مكاتبته لسَفَره أو لسَـــفَر السلطان)

وقد ذكر فى "التثقيف" منهنّ جماعةً، نذكرهنّ ليكُنّ أُنموذَجا لمن يكون فى معناهُنّ .

الأولى — ابنة المقام الشريف الشهيد الناصرىّ «محمد بن قلاوون» لمّـا كانت بحلَب مع زوجها أبى بكر بن أرْغُون ، كتب إليها ما صورته : « الذى يحيط به علمُ الحُرْمة الشريفـة ، العالية ، المصونة ، الولَدية ، عصمة الدين ، جلال النساء ، شَرَف الخَوَاتين ، سليلة الملوك والسلاطين ، ضاعفَ الله تعالى جَلاَلها» والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيفيّة بحلَب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانيـة — طُغَاى زوجة المقـام الشريف الناصرىّ المشار إليـه ، المعروفة بأمّ أنُوك ، كتب إليها لـمـا توجّهت إلى الحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة ، العالية ، المعظّمة ، المحجّبة ، المَصُونة الكبرى خُوَنْد خاتون ، جلال النساء فى العالمين ، سيدة الخَوَاتين ، قرينة الملوك والسلاطين» . ثم الدعاء ، والعلامة الاسم الشريف ، وتعريفها «والدة المقرّ الكريم الولدىّ السيفىّ أنوك» : والأسطر على ما تقدّم فى المكاتبة السابقة .

الثالثـة — أخت المقام الشريف النـاصر حسن جهة الأمير طاز ، كتب لهـا لما كانت بالحجاز الشريف : «ضاعفَ الله تعالى جَلاَلَ الجهة الشريفة العالية الكريمة المحجّبة المصُونة الكبرى الخاتون ، جَلاَل النساء فى العالمين ، جميلة المحجّبات ، جليلة المَصُونات ، كريمة الملوك والسلاطين ، والعلامة «أخوها» .

الرابعة — الحاجَّة السِّتّ حَدَق . كُتِب لها وهى بالحجاز الشريف عن الناصر حسن: «ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهة الشريفة العالية الكبيرية المحجَّبية المصُونية الحاجِّيَّة الوالدية، جلال النساء فى العالمين، بركةِ الدولة، والدةِ الملوك والسلاطين». ثم الدعاء والعلامة الأسم الشريف؛ وتعريفها «الحاجَّة ست حدق» .

الخامسة — والدة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجُّهها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالبا ، فكان يمكن أن يُكْتَب لها بتقبيل اليد .

قلت : وصورة المكاتبة علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير : «ضاعف اللهُ تعالىٰ جلالَ حِجَاب الجهة الشريفة العالية الكبرىٰ ، المعظَّمة المحجَّبة العِصْمى الخاتُونى ، جلال النساء فى العالمين ، سيدةِ الخواتين ، جميلة المحجَّبات، جليلة المَصُونات، والدة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء، وكانت الكتابة لها فى ورق دِمَشْقِىّ فى قطع الفَرْخة بالطول كاملةً بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القســـم الثانى

(مَنْ يكاتَب بالممالك الشامية، وهم أربعة أنواع)

النـــوع الأوّل

(أربابُ السيوف من النوّاب الكُفّال وأتباعهم، وهى ثمانُ نيابات)

النيــــابة الأولىٰ

(نيابة دِمَشْق، المعبَّرُ عنها فى عُرْف الزمان بالمملكة الشامية)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية ضربان :

الضرب الأوّل

(مَنْ بمدينة دِمشـــق، وهم ثلاثة)

الأوّل — كافلُ السلطنة بها، وهو من أكابر مقدَّمى الألوف . وكان رسم المكاتبة إليه علىٰ ما أورده المَقَر الشِّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : «أعز الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم» . قال فى "التثقيف" : ولم تزل المكاتبةُ إليه كذلك من بعد الدولة الشَّهيدية الناصرية محمد بن قلاوون إلىٰ آخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وٱستقرّ الأميرُ بيدمر الخُوارِزْمى نائبَ السلطنة بها فى ولايته الثالثة، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فاستقرّ رسم المكاتبة إليه : «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» علىٰ الرسم المتقـدّم ، والعلامة الشريفة إليه «أخوه» وتعريفه «نائب السـلطنة الشريفـة بالشام المحروس» . قال فى "التثقيف" : «أو كافل المملكة الشاميـة المحروسة» ولا يقال فى نُعوته : كافل السلطنة .

الثانى — نائب قلعة دِمَشْق . ورسْمُ المكاتبة إليه « صـدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العـالى» علىٰ ماتقدّم رسمه . والعلامة « والده » . قال فى " التثقيف " : ثم آستقرّت المكاتبة إليه « السامىّ » بالياء : لأنه طبلخاناه ، والعلامة الشريفة له الأسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث — حاجب الحُجّـاب بها . ورسم المكاتبة إليـه : « أدام الله تعـالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقـدّم رسمُه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه «أمير حاجب بالشام المحروس» .

الضـــرب الثــانى

(مَنْ بأعمال دمشق من نُوّاب المُدُن والقِلاع ،وهم خمسة نوّاب)

الأول — نائب حِمْص ، قال فى " التثقيف " : كان يكتَبُ إليـه نظير نائب الكَرَك ، يعنى « أدام الله تعالىٰ نعـمةَ المجلس العالى» والعلامة الشريفة له «والده» لمّـا كان من مقـدّمى الألوف بالشام ، ثم آستقرّ من أمراء الطبلخاناه ، وآستقرّت مكاتبته « صـدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى» فيما أظن ؛ وقد تقدّم رسمها . والعلامة الشريفة له الأسم الشريف ، وتعريفه «النائب بحمص المحروسة» .

الثـانى — نائب الرَّحْبة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممـالك أنه كان من حقّها أن تكون من مضافات حَلَب . ورسم المكاتبة إليه « صـدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى» علىٰ ماتقدّم رسمُه . والعلامة الشريفة له «والده» وتعريفه «النائب بالرَّحْبة» .

الثـالث — نائبُ بَعْلَبَـكّ . قال فى "التثقيف" إن كان من أمراء الطبلخاناه فمكاتبته «صـدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» والعلامة له الأسم الشريف . وإن كان من العَشَرات ، فالمكاتبةُ إليـه « يعلَمُ مجلسُ الأمير » والعـلامة له الأسم الشريف وتعريفه « النائب ببَعْلَبَكّ المحروسة » .

الرابع — نائب مِصْياف . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك أنها كانتْ مُضافةً إلى طرابُلُس فى جمـلة قِلاع الدَّعْوة، ثم آستقرّت فى مُضافاتِ الشـام . ورسم المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبة إلى المجلس السـامى » والعلامة الشريفة له الأسم الشريف .

الخـامس — نائب القُـدْس الشريف . وهو ممن آستُحدِثتْ نيابتُـه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » فى سـنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت قبل ذلك ولايةً وهو طبلخاناه، وربما أُضِيف إليه نظرُ الحرمين : حَرَم القُدْس، وحَرَم الخليل عليه السلام . ورسم المكاتبة إليه « صـدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» . والعلامة « والده » وتعريفه «النائب بالقُدْس الشريف» .

قال فى "التثقيف" : وكان قد آستقرّ بأماكن تُذْكَر من البلاد الشامية نُوّاب، وآستقرّت مكاتبةُ كلٍّ منهم : إن كان مقـدّما « صدرتْ » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناه « السامىّ » بالياء والعلامة الأسم الشريف . وهى تَدْمُر، والسُّخْنةُ ، والقَرْيتان ، وسَلَمْيَـةُ . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن النُّوّاب بالقلاع الشاميّة جمـاعةٌ لم تجرِ لهم عادةٌ بمكاتبة عن المواقف الشريفة ، ولاتصدُر ولايتُهم من الأبواب الشريفة، بل نائبُ الشام مستقلٌّ بذلك . وهم، نائب عَجْلُونَ، ونائب صَرْخَد، ونائب الصُّبَيْبة، ونائب شَقِيف أَرْنُون .

قال : وممن كُتِب إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمالُ الدين يوسفُ شاه الأتابك بمِصْياف فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة علىٰ يَدِ نافع بن بَدْران . ورسم ما كتب به إليه «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى» وكُتِب فى ألقابه «الأتابِكى» وكتب تعريفُه «يُوسُف شاه الأتابك» . قال : والظاهر أن العلامة «والده» .

النيابة الثانية

(نيابة حَلَب)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(مَنْ بمدينة حَلَب ، وهم ثلاثة)

الأول — النائبُ بها . وهو من أكابر مقدَّمى الأُلُوف . ورسم المكاتبة إليه «أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم» علىٰ ما تقدّم رسمُه . والعلامةُ الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السَّلْطنة الشريفة بحلب المحروسة» .

الثانى — نائب القَلْعة بها . ورسمُ المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» علىٰ ما تقدّم رسمه . والعلامة له الاسم الشريف . وتعريفُه «نائب القلعة المنصورة بحَلَب المحروسة» .

الثالث — حاجب الحُجّاب بها . ورسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» . والعلامة «والده» وتعريفُه «أمير حاجب بحَلَب المحروسة» .

الضـــرب الثانى

(مَنْ بأعمال حَلَبَ من النوّاب ، وهم أحد وعشرون نائبا)

الأوّل — نائب البِيرة . ورسم المكاتبة إليـه «المجلس العـالى» . والعلامة الشريفة «والده» وتعريفه «النائب بالبِيرة المحروسة» .

الثـانى — نائبُ قلعةِ المسلمين المعروفةِ بقلعة الرُّوم . ورسم المكاتبة إليـه والعلامة كذلك[1] . وتعريفه «النائب بقلعة المسلمين المحروسة» .

الثـالث — نائب مَلَطْيَةَ[2] . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامةُ الشريفة كذلك، وتعريفه «النائب بمَلَطْيَةَ المحروسة» .

الرابـع — نائب طَرَسُوس . ورسمُ المكاتبة إليه «صـدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» وتعريفه «النائب بطَرَسُوسَ» .

الخامس — نائب أَذَنَةَ . ورسم المكاتبة إليـه والعلامة له كذلك ، وتعريفـه «النائب بأَذَنَةَ المحروسةِ» .

السادس — نائب الأَبُلُسْتَيْنِ . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامة الشريفةُ له كذلك ، وتعريفه «النائب بالأَبُلُسْتَيْنِ المحروسةِ» .

السابـع — نائب بَهَسْنَى . ورسم المكاتبة إليه «صـدرَتْ هـذه المكاتبة إلى المجلس الساميِ» والعلامة له «والده» وتعريفه «النائب بِبَهَسْنَى المحروسةِ» .

قال فى "التثقيف" : ولم يُعَلَّمْ لأحد من أرباب السيوف قديمـًا «والدُه» مع «السامىّ» بالياء غيره .

---

(١) أى «المجلس العالى» و «والده» مثل الذى قبله .

(٢) صوابه بهذا الضبط قال فى المعجم «والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء» . وقال فى القاموس «وتشديده لحن» .

الثامن — نائب آيَاس[1] . وهو المعبَّر عنه بنائب الفتوحات الجَاهَانِيَّة . قال في "التثقيف" : إن كان مقدّما فالمكاتبةُ إليه بنسبة مكاتبة نائب البِيرة ، فيكون رسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» والعلامة «والدُه» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامِى» والعلامة الاسم ، وتعريفه بكل حال «النائب بآيَاس[1]» أو «النائب بالفُتُوحات الجاهانيّة المحروسة» .

التاسع — نائب جَعْبَر . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" «هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الاسم ، وتعريفُه «النائب بقلعة جَعْبَر المحروسة» .

العاشر — نائب عَيْنتاب . ورسم المكاتبة إليه على ما في "التثقيف" «يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامةُ الاسم ، وتعريفُه «النائب بعَيْنتاب المحروسة» .

قال في "التثقيف" : ورأيت بخطّ القاضى ناصرِ الدين بن النَّشائى أن مكاتبته الاسمُ و«السامى» بغير ياء . ثم قال : وما تقدّم هو ما استقرّ عليه الحالُ آخرا . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أميرُ طبلخاناه ، وتعريفه «النائب بعَيْنتابَ» .

الحادى عشر — نائب دَرَنْدَة . قال في "التثقيف" : إن كان طَبْلَخاناه فـ«السامِى» بغير ياء ، وإن كان عشرةً فـ«مجْلِس الأمير» والعلامةُ الاسمُ بكل حالٍ ، وتعريفه «النائب بدَرَنْدَة» .

الثانى عَشَر — نائب القُصَيْر . قال في "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «يعلَمُ مجلِسُ الأمير» والعلامة الاسمُ ، وتعريفه «النائب بالقُصَيْر» .

(١) تقدم للمؤلف في ص ١٣٣ ج ٤ أن قال بفتح الهمزة الممدودة ، وقال صاحب القاموس «كسحاب» .

الثـالث عشر — نائب الرَّاوَنْدان . ورسم المكاتبة إليه كمثل نائب القُصَيْر ، وتعريفه « النائب بالرَّاوَنْدانِ » .

الرابع عشر — نائب الرُّهَا . قال فى "التثقيف" : جرتِ العادةُ أن يكون نائبُها طَبْلَخاناه ، فتكون مكاتبته « السامى » بغير ياء ، والعلامة الاسم . ثم قال : وقد آستقرّ فى الأيام المنصوريّة فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة مقدَّمَ ألف ، فقد يكتب إليه نظير نائب البِيرة وقلعةِ المسلمين ، يعنى فتكون مكاتبته «صدرتْ» و « العالى » . والعلامة « والدُه » وتعريفه بكل حال « النائب بالرُّهَا » .

الخامس عشر — نائب شَيْزَر . قد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبته «هذه المكاتبة إلى المجلس السامِى » فتكون العلامة الاسم ، وتعريفه « النائب بشَيْزَر» .

السادس عشر — نائب كَرْكَر . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التثقيف" « يعلم مجلِسُ الأمير» فتكون العلامة الاسم ، وتعريفُه « النائب بكَرْكَر» .

السـابع عشر — نائب الكَخْتا . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب بالكَخْتَا» .

الثـامن عشر — نائب بَغْرَاس . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب ببَغْرَاس » .

التـاسع عشر — نائب الشُّغْر وبَكَاس . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب بالشُّغْر وبكَاس » .

العشرون — نائب الدَّرْبَسَاك . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب بالدَّرْبَساك » .

الحادى والعشرون — نائب إسفَنْدَكار . ذكر فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه كذلك . ثم قال فى "التثقيف" لكنّى رأيتُ بخط القاضى ناصرِالدين بن النَّشائى أن مكاتبته الأسم و «السامى» بغير ياء، يعنى « هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامِى» . قال : وما يبعُدُ أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقِرّ عليه الحال ما تقدّم .

قلت : وقد ذكر فى "التثقيف" ستَّ قِلَاع آستجدّتْ مكاتبةُ نُوّابها بعد ذلك ، ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم : وهم نائب حَجَر شُغْلان ، ونائب كُومى ، ونائب قلعة كَوْلاك ، ونائب قلعة بَارِى كَرُوكَ ، آستجدّت مكاتبته فى سنة ستين وسبعمائة ، ونائب قلعة كاوَرًّا ، آستجدّت مكاتبتُه فى سنة تسع وستين وسبعمائة ، ونائب كِرْزَالَ ، آستجدّت مكاتبتُه فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم . والذى يظْهَر أن رسم المكاتبة إلىٰ كل منهم « يعلَمُ مجلسُ الأمير » والعلامة الأسم ، والتعريف «النائب بفُلانةَ » . وحينئذ فيكون المكاتبُون من نوّاب أعمال حلب سبعةً وعشرين نائبا .

النيابة الثالثة
(نيابة طرابُلُس)

والمكاتبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل
(من بمدينة طرابُلُس ، وهم آثنان)

الأوّل — نائبُ السلطنة بها، ورسمُ المكاتبة إليه : « ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمة الجناب العالى » علىٰ الرسم المتقدّم . والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة » .

الثانى — الحاجب بطَرَابُلُس . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ » و « العالى » . والعلامة «والدُه» وتعريفه «امير حاجب بطرابُلُس المحروسة». وليس بطرابُلُسَ قلعة فيكتب إلىٰ نائبها .

الضـــرب الثانى

(مَنْ بأعمـال طرابُلُس من النوّاب، وهم صنفان)

الصـــنف الأوّل

(نُوّاب قِلاع نَفْس طرابُلُس، وهم سبعة نُوّاب)

الأوّل — نائب اللّاذِقيّة . ورسم المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء . والعلامة الاسم ، وتعريفه « النائب باللّاذِقيّة » .

الثانى — نائبُ صَهْيُون . ورسم المكاتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه « النائب بصَهْيُونَ » .

الثالث — نائب حِصْن الأكْرادِ . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب بحِصْن الأكْرادِ » .

الرابع — نائب بَلاطُنُسَ . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب ببلاطُنُس » .

الخامس — نائب المَرْقَب . ورسم المكاتبة إليه كذلك .

السادس — نائب حِصْنِ عكّار . ورسم المكاتبة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب بحصن عكّار » .

الصنف الثانى

(نُوّاب قلاع الدّعْوة المضافة إلىٰ طرابُلُس)

وهى : قِلاعُ الإسماعيلية الذين يُسَمُّون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهادِيَة . وكانت سبعَ قلاع فأضيفَتْ مِضْياف منها إلىٰ دِمَشْق علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ، وبقى من مُضافات طرابُلُس ستُّ قلاع ، وهى الكَهْف ، والمَيْنَقَة ، والعُلَّيقة ، والقَدْمُوس ، والخَوَابى ، والرُّصافة . ومكاتبة كلٍّ منهم «يعلم مجلسُ الأمير» والعلامة الاسمُ . وتعريف كلٍّ منهم «النائبُ بفلانة» .

النيابة الرابعة

(نيابة حَمَاةَ)

والمكاتَبُون بها ضربٌ واحد بمدينة حماةَ خاصّةً ، وهما اثنان :

الأول — نائبُ السلطنة بها . وقد تقدّم فى أوائل هذا الطَّرَف أنها كانت بيد بَقايَا بنى أيُّوبَ ، يطلَقُ عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولَّوْنها من ملوكِ مصرَ إلى أن كان آخِرَهم الأفضلُ محمد بن المؤيَّد عمادِ الدين إسماعيل فى الدولة الناصرية محمد ابن قلاوون، ثم صارت نيابةً بعد ذلك يتداولها النوّاب نائباً بعد نائبٍ . ورسم المكاتبة إلىٰ نائبها « ضاعف الله تعالى نعمةَ الجناب العالى » والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفةِ بحماةَ المحروسة » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه « الحاجب بحماةَ المحروسة » .

قال فى " التثقيف " : ولم يكن بهـا قلعـةٌ فيُكْتَب إلىٰ نائبها . قلت : وليس بأعمالها نوّابٌ فيكتب إليهم إنمـا بها وُلاةٌ يكاتَبُون عن نُوّابها .

النيـابة الخامســـة

(نيابة صَــفَد)

والمكاتَبون بها ضَرْبٌ واحد أيضا، وهم مَنْ بالمدينة خاصَّةً وهم ثلاثة :

الأوّل ـــ نائبُ السلطنةِ بها . ورسمُ المكاتبة إليــه «ضـاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » . والعلامة «والده» . وتعريفه «نائب السلطنةِ الشريفةِ بصَــفَدَ المحروســةِ » .

الثـانى ـــ الحاجبُ بها . ورسم المكاتبة إليــه « صــدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» . والعلامةُ الاسمُ . وتعريفُه «الحاجب بصَفَدَ المحروسةِ» .

الثالث ـــ نائبُ القلعةِ بها . ورسم المكاتبــة إليه « هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «نائب القلعة المنصورةِ بصفَدَ المحروسة» .

قلت : ولم يكن بأعمالهـا نُوّاب فيكاتَبُون عن الأبواب السلطانية، بل بهـا وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها خاصّةً كما تقدّم فى حَمَاةَ .

النيابة السادسة
(نيابة غَزَّة)

والمكاتَبُون بها أيضا ضربٌ واحدٌ، وهم مَنْ بالمدينة خاصّةً ، وهما آثنان :

الأول — النائبُ بها . وقد تقدّم فى الكلام على المَسالك والممالك أنه إن آجتمع له البلادُ الساحليّةُ والجبليّة ، عُبِّر عنـه بنائب السلطنةِ ؛ وإن قَصر أمرُه على البلاد الساحلية فقط ، عُبِّر عنه بمقدّم العسكر وكان تحتَ أمرِ نائب دِمَشْقَ . وبكل حال فإن رسم المكاتبـة إليه « أدام الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» والعلامة «والدُه» . ثم إن أضيف له الجهتان قيل فى تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزّةَ » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه «يعلم مجلسُ الأمير» . والعلامة الأسم ، وتعريفه «الحاجبُ بغزّة المحروسة» .

قلت : وليس بعَمَلها نُوّاب ، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها أو مقدّمِ العسكر بها . إلا أنه قد آستُحدِث فى أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكاتَبةُ كاشـف الرَّمْلة ، وآستقرّت مكاتبته « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» . والعلامة الأسم ، وتعريفه «الكاشف بالرَّمْلة» .

النيابة السابعة
(نيابة الكَرَك)

والمكاتَبُون بها مَنْ بالمدينة خاصّةً، وهما آثنان:

الأول — نائبُ السلطنة بها . ورسم المكاتبة إليـه «أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى» . والعلامةُ والده» ، وتعريفه «نائبُ السلطنة الشريفة بالكَرَك» .

الثانى — والِى القلعـةِ بها . ورسمُ المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى » . والعلامة الأسمُ ، وتعريفه «والِى القلعةِ المنصورة بالكَرَك المحروس» .

قلت : ولم يكن بها حاجبٌ يكاتَبُ ولا بأعمالها نُوّاب، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن النائب بها خاصّةً .

النيـابة الثامنــــة
(نيـابة سِيسَ)

وقد تقـدّم فى الكلام على المَسَالك والممـالك أنها ممـا آسـتُجِدّ فتحُه فى الدولة الأشرفية « شـعبان بن حسين » . وقد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبةَ النائب بها كانتْ « ضـاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» كنائب طرابُلُس ومَنْ فى معناه . ثم قال : وقد صَحّ لى بعد هـذا أنه آستقرّتْ مكاتبتُه نظيرَ غَزّةَ . وهى « أدام الله تعـالى نعمةَ الجناب العالى» . والعلامة حينئـذ « والدُه » ، وتعريفه « مقـدّم العســكر المنصور بغزة» (١) وما ذكره آخرًا هو المستقِرّ عليه الحـالُ إلى آخر وقت . قال فى "التثقيف" : ولم أطّلِـع على مكاتبة الحاجِبِ بها . ثم قال : وما يبعُدُ أن يكون «مجلس الأمير» لأنه فيا أظنّ أميرُ عَشَرة . قال : وإن كان طبلخاناه، فالأسم و«السامى» بغير ياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائبُ قلعة كما ذكره فى الكلام على نُوّاب القِلاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما فى "التثقيف" ينبغى التّنبّـه لها .

(١) لعلها بسيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدةَ فيمَنْ عدا أكابرَ النوّاب : كنُوّاب القِلاع والحجاب ونحوهم أنَّ المكتوبَ إليه إن كان مقدّما فـ«والده» و «صدرت» و «العالى» . وإن كان طبلخاناه فالاسم و «السامى» بغير ياء . وإن كان عشرةً ، فالاسم و «مجلس الأمير» . وحينئذ فلا يتوقف مع المكاتبات السابقة ، بل يُنْظَر مَنْ هو مستقرّ فى ذلك الوقت ويكتَبُ إليه بما تقتضيه رتبتُه ، فإنه تارةً تكون عادةُ تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقرّ عشرةً وبالعكس ، وتارة تكون طبلْخاناه يستقرُّ فيها مقدّمُ ألف وبالعكس . والعبرة فى ذلك بحال مَنْ هو مستقرٌّ حالَ الكتابة ، خلا ماهو مستقِرّ من قديم الزمان لايتغيَّر مثل مكاتبة نائب بَهَسْنَى ونحوه .

وثانيهما — أنَّ نائب السلطنة بدِمَشْق ، ونائب السلطنة بحلَبَ ، ونائب السلطنة بطرابُلُس ، ونائب السلطنة بحَمَاةَ ، ونائب السلطنة بصَفَد ، ونائب السلطنة أو مقدّم العسكر بغَزَّة ، ونائب السلطنة بالكَرَك ، ونائب السلطنة بالقُدُس الشريف يكتب إليهم فى جليلِ كلِّ أمر وحقيره من المهمات السلطانية وخَلَاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نُوّاب القلاع والنُّوّاب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والحُجّاب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا فى المهمّات والأمور السلطانية : إما فى مثالٍ شريف مفردٍ لأحدهم ، أو فى مطْلَق شريفٍ عامّ لجميعهم أو لبعضهم ، وكذلك فى البُشْرىٰ بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلىٰ كلِّ واحد منهم مثالٌ بمفرده ، خلا الحُجّاب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النــــوع الثانى
(ممّن يكاتَبُ بالممالك الشاميّة أربابُ الأقلام، وهم صنفان)

الصـنفُ الأوّل
(أربابُ الوظائف الدّيوانيـة)

والذى يكاتَبُ منهم بالبلاد الشامية الوزيرُ بدِمَشْقَ ، أو ناظرُ النُّظّار القائمُ مقَامه ، حيث لم يُصَرّح له بالوِزَارة .

أما الوزير بدِمَشْـق ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه كُتِب للصاحب عِزّ الدين أبى يعلىٰ حمزةَ بن القلاقسىّ (١) «الجَنَاب» لجلالة قدره ، وسابقة خِدَمه ، وعنـاية مَنْ كَتَب إليه بذلك ، وأن الذى آستقرّ عليه الحال للوزير بالشام «المجلس العالى» بالدعاء . كما كُتِبَ للصاحب «أمين (٢) الدين» أمينِ الملك فى وزارته فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» «ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمة المجلس العالى، القاضى، الوزيرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، الأوحدىّ، القَوامىّ، النظامىّ، المدَبّرىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المشيرىّ، الفلانىّ؛ صلاح الإسلام والمسلمين، سيّد الوزراء فى العالمين، رئيس الأمراء، كبير الرؤساء، بقيّة الأصحاب، مَلاذِ الكُتّاب، عمـاد الملّة، خالصة الدوله، مُشير الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» . والدعاء، ثم «صدرتْ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «مدبّر الممالك الشريفةِ بالشام المحروس» .

قال : ولم يكتب لأحد بذلك بعدَهُ ولا قَبْلَه . ثم قال: وآستقرّ فى الدولة الناصرية حَسَنٍ، الصاحبُ فخرُ الدين بن قروينـة وزيرًا بالشام أيضا علىٰ قاعدة جدّه لأُمّه، أمين الدين المذكور. ولم أعلم ما كُوتِب به : هل كما كُتِب لجدّه المذكور أودُونَه؟ .

(١) فى "التعريف" القلانسىّ . (٢) ساقط من "التعريف" ولعله من الناسخ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة إليه «حرس الله تعالى مجدَ المجلس العالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوحدىّ ، الرئيسىّ ، الأثيرىّ ، القوامىّ ، النظامىّ ، المنفّذىّ ، المتصرّفىّ ، العلّامىّ ؛ مجدِ الإسلام والمسلمين ، سيّدِ الرؤساء فى العالمين ، أوحدِ الفضلاء ، جلالِ الكبراء ، حجّةِ الكتّاب ، صفوةِ الملوك والسلاطين ، خالصةِ أمير المؤمنين» . والدعاء ثم «صدرتْ» . والعلامة الاسم ، وتعريفُه «ناظر النُّظّار بالشام المحروس» .

قال فى "التثقيف" : وهذا هو الذى استقرّ عليه الحال إلى آخرِ وقت .

الصنف الثانى
(القضاةُ والعلماءُ)

قد ذكر فى "التعريف" : أن المكاتبةَ لقاضى القُضاة الشافعىّ بالشام بـ«المجلس العالى» ولم يذكُر صورتها . قال فى "التثقيف" : والذى كُوتِب به الشيخُ تقىُّ الدين السُّبكىّ رحمه الله ، وهو قاضِى القُضاة بالشام : «أعزّ الله تعالى أحكامَ المجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضلىّ ، الأكملىّ ، الأوحدىّ ، البليغىّ ، الفريدىّ ، المفيدىّ ، النجيدىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجّىّ ، المحققىّ ، الإمامىّ ، الأصيلىّ ، الموفّقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمالِ الإسلام والمسلمين ، شرفِ العلماء العاملين ، أوحدِ الفضلاء المُفيدين ، قُدوةِ البلغاء ، حجّةِ الأمة ، عُمْدةِ المحدّثين ، فخرِ المدرّسين ، مُفتِى المسلمين ، جلالِ الحُكّام ، حَكَمِ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين » . والدعاء ثم «صدرتْ هذه المكاتبةُ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفُه «قاضى القضاة بالشام المحروس» .

ثم ذكر فيما بعدُ أنه كان يُكْتَب فى نُعُوته : «صدْرُ الشام، معِزُّ السنة، مؤيِّد المِلَّة» قال فى "التثقيف" وكانت مكاتبتُـه «شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين» ، ولم يعيِّن مكانَها . قال : وكُتِب بذلك إلى ولده قاضى القُضاة تاج الدين السـبكىّ ، وهو قاضى القضاة بالشام غيرَ مرَّة . ثم زيد فى ألقاب أخيه الشيخ بهاء الدين عند آستقراره فى القضاء بالشام مكانَهُ بعد القاضوىّ «الشَّيْخى» وبعـد المحقِّقىّ «الوَرَعِىّ ، الخاشِعِىّ ، الناسِكىّ ، الإمامىّ ، العَلَّامىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ» . وزِيدفى تعريفه بعد جَلَال الحكام «بَرَكَةُ الدولة» .

النـــوع الثـالث

(ممن يكاتَب بالبلاد الشاميـة العُرْبان)

قد تقدّم فى الكلام على أنساب العَرَب فى المقالة الأولى، فيما يحتاجُ إليه الكاتبُ أنّ عرب الشام عِدّةُ بطون من عِدّة قبائل . وقد قال فى "التعريف" : إنهم جُلُّ القوم وعينُ الناس، لاعِنايةَ للملوك إلا بهم، ولا مُبالاة بغيرهم .

ونحن نذكر هنا ما يتعلّق بالمكاتبات إلى أمرائهم ومشايخِهم خاصّةً .

البطن الأوّل

(آلُ فَضْـــل من آل رَبيعـة)

وقد تقدّم أنهم من طَيِّئ ، من كَهْلانَ ، من العاربة . قال فى " التعريف " : وآلُ فضْل منهم همُ الذين فى نَحْر العدُوّ، ولهم العَديدُ الأكثر، والمالُ الأوْفَر . قال : وقد صاروا الآنَ أهـلَ بيتين : بيت مُهنّاً بن عيسى ، وبيت فَضْل بن عِيسى .

قال : وهم فى جِوَار الفُرَات . ولذلك يُضاعَف إكرامُهم ، وتُوَفَّر لهم الإقطاعاتُ وتُسْنىٰ . والإمرةُ الآنَ منهم فى بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ . وهو المعبَّر عنه بأمير آل فضل . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان فى زمانه قارا بن مهنا، ثم كان فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمدنعير بن حيار بن مُهَنَّا بن [عيسى بن مُهَنَّا(١) بن مانِع بن حَدِيثة ٱبن عُقْبة بن فَضْل بن رَبيعة] ، ثم ٱستقرّ بعده فى الدولة الناصرية «فرج» ٱبنه العجل ، وهو المستقرّ إلىٰ الآنَ .

قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبةِ إلىٰ الأمير منهم «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرِىّ» بألقابٍ جليلةٍ معظَّمة مفخَّمة . وذكر فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه «أدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ، الكبيرىّ، العالِمى، المجاهِدىّ ، المؤيَّدىّ، الأوحدى، النصيرىّ، العَوْنىّ، الهُمامىّ، المقدَّمىّ، الظهيرىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ، عزّ الإسلام والمسلمين ، شرفِ أُمَراء العُرْبان فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كَهْف المِلَّة، ذُخْر الدولة، عماد العَرَب ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، حُسامِ أمير المؤمنين » . ثم الدعاء و«صدرَتْ هذه المكاتبةُ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «فُلَان بن فلان» .

قال فى "التعريف" أما من هو نظيرُه أو مُدانيه وعَدَتْه الإمرةُ ، فرسمُ المكاتبة إليه : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» ومَن دونه «السامىّ الأميرىّ» . قال : ولكلّ هؤلاء العلامةُ الشريفة «أخوه» ولمَنْ دون هؤلاء «السامى الأمير» والعلامة الشريفة الأسمُ الشريف .

وقد ذكر فى "التثقيف" أسماءَ جماعةٍ من أكابر بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ، وبيت فَضْل بن عيسىٰ وذكر لكل منهم رسمَ مكاتبة .

(١) بياض بالأصل . والتصحيح مما تقدم للؤلف فى ج ٤ من هذا المطبوع ص ٢٠٨ .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأول منهم — عَسَّافُ بن مُهَنَّا . ورسم المكاتبة إليه : «هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِي، الأميرِ، الأجلِّ، الكبيرِ، الغـازى، المجاهِدِ، المؤيَّدِ، الأوحد، الأصيل؛ فلان الدين، مجدِ الإسلام، بهَاءِ الأنام، فَخْرِ القبائل، زَيْنِ العشائر، عماد الملوك والسلاطين» والدعاء ثم «صدرَتْ» والعلامة «والده» وتعريفه آسمه .

الثانى — عَنْقاء بنُ مهنَّا أخو عسَّاف . مثله فى المكاتبة علىٰ السواء .

الثالث — زامِلُ بن مُوسىٰ بن مُهنَّا ، « صـدرتْ » و«السامى» . والعـلامة «والده» وتعريفه آسمهُ .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْرٌ، مثل عَمَّيه : عَسَّاف وعَنْقاء .

الخامس — علىُّ بنُ سليمان بن مُهَنَّا . ذكر أنه كان يكاتَبُ بـ«السامىّ» بالياء . والعلامة الأسم . وذكر أنَّ أخاه عَوَّادا لم يُعْلَمْ أنه كُوتِب عن الأبواب السلطانية .

⁂

وأمَّا بيتُ فضل، فذكر منهم مُعَيْقِل بن فَضْـل ، وقال : إن رسمَ المكاتبة إليه « السامىّ» بالياء . والعلامة « والدُه » . ثم قال : ولم يكاتَب الآنَ من بَنى فَضْـل غيره ، فإن أخويه : سَيْفًا وأبا بكر كانا يُكاتَبانِ عن الأبواب الشريفة ، ثم تُوُفِّيَا إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ولم يَبْقَ من أكابر بنى فضـل غيْرُه هو وأولاد أخَوَيْه ، لكنهم لم يكاتَبُوا بشىء . فإن آتفق أن يكاتب أحدٌ من أولاد أخويه المذكورَيْنِ أو من أولاد مُهَنَّا ، مثل أولاد فَيَّاض ، وبقيـة أولاد حيار و رُمَيْثة بن عُمَر بن موسىٰ ونحوهم ، فأعلاهم الأسم و«السامى» بغير ياء، وأدناهم الأسم و«مجلسُ الأميرِ» .

البطن الثانى

(آلُ مِرا)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ أنساب العرب فيما يحتاج إليه الكاتب، فى المقالة الأُولىٰ، أنَّ مِرًا وفضلًا أخوان . قال فى "التعريف" : ومنازلهم بلاد حَوْران . وقد ذكر فى "التثقيف" أن الإمرةَ فى زمانه كانت مقسومةً نصفين بين عَنْقاء بن شَطِىٰ آبن عَمْرو بن نُونة ، وعَمِّهِ فضل بن عمرو بن نونة . ثم قال : ومكاتبةُ كلٍّ منهما «صدرتْ» و «السامى» . والعلامة «والدُه» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث

(آلُ علىٍّ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الأنساب أنهم من آلِ فضل . قال فى "التعريف" : وإنما نَزَلوا غُوطةَ دمشقَ حيثُ صارت الإمرةُ إلىٰ عيسىٰ بن مُهَنّاً ، وبقى عيسىٰ جارَ الفُرات فى تَلَاِبيب التّتار . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلىٰ أميرهم «صدرتْ هـذه المكاتَبةُ إلىٰ المجلس السـامىّ الأميرىّ» . والعلامةُ الشريفـة «أخُوه» . وقد ذكر فى "التثقيف" أن أميرهم فى زمانه كان عيسىٰ بنَ رَمْلَة بن جَمّاز . وقال : إن رسم المكاتبة إليه كما ذكر فى "التعريف" وهى : «صدرَتْ» و «السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابـــع

(بنو مَهْـــدِىّ)

وقد تقــدّمَ فى الكلام على الأنساب أنّ منازلهم البَلْقاءُ من مُضافات دِمَشْــقَ . قال فى " التعريف " : والإمرةُ فيهم فى أربعة ، رسمُ المكاتبةِ إلى كلّ منهم «مجلس الأمير» . وذكر فى " التثقيف " أنها كانت فى زمانه باسم عمرو بن ذؤيب(1) بن سعيد ابن محفُوظ العقيسى ، وسعيد بن نجــرى(2) بن حسن العقيسى ، وزامِل بن عُبَيْــد بن محفوظ العقيسى ، ومحمد بن عَبّاس بن قاسم بن محمد بن راشد العسرى . وأن مكاتبة كل منهــم « مجلس الأمير » كما تقدّم فى " التعريف " . ثم قال : ومَنْ كان معه نصفُ الإمرة منهم ، كانتْ مكاتبتُه الأسم و «السامى» بغير ياء ، وتعريفُ كلٍّ منهم «فلان بن فلان» .

البطن الخامس

(بنو عُقْبَـــةَ)

وقد تقدّم فى الكلام على الأنساب أن مَرْجِعَهم إلى جُذَام ، وأنّ منازلهم الكَرَك والشَّوْبك . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلى أميرهم مثلُ أميرِ آلِ مِرَا . وكذلك رسم المكاتبة إلى أقاربه كَرَسْم المكاتبة إلى أقارب أميرآلِ مِرَا أيضا ، فتكونُ مكاتبة أميرهم «صدرتْ » و «السامى» . ومكاتبة أعيان أقارِبه « السامى الأمير » ولمَنْ دُونَهم «مجلس الأمير» . وقد ذكر فى "التثقيف" أن إمرتهم فى زمانه كانت باسم خاطر بن أحمد بن شَطِىّ بن عبيد . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه الأسم و «السامىّ» بالياء ، وتعريفه «فلان بن فلان» ولم يتعرّض لأقربائه .

---

(1) فى ج ٤ ص ٢١٣ من هذا المطبوع «آبن ذئب بن محفوظ العنبسى» و يظهر أنها هى الصواب .

(2) الذى تقدّم هناك «بحرى» بالباء والحاء .

البطن السادس
(جَــرْم)

وقد تقــدّمَ فى الأنساب أن مَرْجِعَهم إلىٰ طَيِّئ ، وأنَّ منازلهم ببلاد غَزَّةَ . وقد ذكر فى "التعريف" أن إمْرَتَهم[1] فى زمانه كانت بٱسم فَضْل بن حجى . وذكر أن رسم المكاتبة إليه « مجلس الأمير » . والذى ذكره فى "التثقيف" أنّ لهم مُقدَّما لا أميرًا ، وأنه كان فى زمانه علىّ بن فضــل . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه الأسم و « السامى » بغير ياء . وهــذا عَجَبٌ فإنه إذا كان أميرا ورسمُ المكاتبة اليه « مجلس الأمير » فكيف يكون رسمُ المكاتبة إليه « السامِىَ » بغير ياء وهو مقــدّم ، والإمارة فوقَ التَّقْدمة بلا ريب .

قال فى "التعريف" : وأمابقيّة عربِ الشام، نحو زُبَيْد المَرْج، وزُبَيْد حَوْرانَ، وخالِدُ حِمْص، والمَشَارقة، وغَزِيَّة إذا أطاعوا ، وزُبَيْــد الأحلاف، فأجلُّ كبرائهم وأشياخهم من يُكْتَب له «مجالس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" نحوه، ثم قال : هذا إن ٱنفرد أحد منهم بالمكاتَبة، وإلا فالعادة أن يُكْتَب لكلِّ طائفــة من هؤلاء مطْلَقٌ شريف . ثم قال : علىٰ أنه لم تجر العادةُ بمكاتبــةِ أحدٍ من هؤلاء القبائل ، لاعلىٰ الأنفراد ولا علىٰ الأجتماع . وهــذا كلام متناقض، حيث يقول : إنَّ العادة أن يُكْتَب لكل طائفةٍ منهم مطْلَقٌ شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تجْرِ بمكاتبــة أحدٍ منهم لاعلىٰ الأنفراد ولا علىٰ الاجتماع .

قلت : وقد تقــدّم الكلام علىٰ أنساب[2] جميع هــذه البُطُون وأماكِنِها مستوفًى فى الكلامِ علىٰ الأنســاب فى المقالة الأولىٰ . ووقع بَسْطُ الكلام علىٰ ذلك وغــيره فى كتابنا المسمّى "نهاية الأَرَب فى معرفة قبائل العرب" .

(١) الذى فى التعريف "حى" ولكنها وردت فى نسختنا فى مواضع كثيرة "حجى" كما هنا ، انظر ج ٤ ص ٢١١ ، وكذلك وردت فى الضوء للؤلف أنظر ص ٣٢١ . (٢) تقدم فى ج ٤ من هذا المطبوع .

النـــوع الثالث

(ممن يكاتَبُ بالممالك الشاميّة، التُّرْكُمان)

قد تقـدّم ذكرُ نَسَبِ التُّرْكُمان فى الكلام على أنساب الأُمَم فى المقالة الأولى . وقد ذكر فى "التثقيف" أن التُّرْكُمان بهذه المملكة طوائفُ كثيرةٌ، وجماعة كبيرة . ثم قال: وغالبُهم لا يكتَبُ إليه إلا إذا ضمّهم مطالَقٌ شريف . فإن كتب إلى أحد من أعيانهم، كتب إليـه الاسم و«السامى» بغيرياء إن كان طبلخاناه، وإن كان عشرةً أو عشرين ، كتب إليـه الاسمُ و«مجلس الأمير» لا غيرُ، ثم أخلى بياضا متّسـعا ولم يصرح باسم أحد منهـم . ثم ذكر فى الكلام على تُرْكُمان البلاد الشرقية عِدّةَ طوائف ، عدمنهم الأوسرية ، وقال : هم تُرْكُمان حَلَبَ، والورسق . وقال : وهم تُرْكُمان طَرَسُوس ، ولم يتعرض لمواضِع غيرهم . وسيأتى كلامُه مستوفًى عند الكلام على تُرْكُمان البلاد الشرقية إن شاء الله تعالى .

النـــوع الرابع

(ممن يكاتَبُ بالممالك الشامية الأكرادُ)

وقد تقـدّم ذكر نَسَبهم فى الكلام على أنساب الأمم فى المقالة الأولى . وقد ذكر فى "التثقيف" أن بهذه المملكة منهم طوائفَ كثيرةً كالتُّرْكُمان، وأنّ غالبهم لا يكتب إليه إلا إذا ضمّهم مطالَقٌ شريف، وأنه إن كُتِب لأحد من أعيانهم، كُتِب له الاسم و«السامى» بغيرياء، إن كان طبلخاناه. وإن كان أميرَ عشرةٍ أو عشرين ، كتب إليه الاسم و«مجلس الأمير» كما تقدّم فى التُّرْكُمان من غير فرق .

القســـم الثالث

(من يكاتَبُ بالبلاد الحجازية ، والمعتبر فى المكاتَبين منهم ثلاثة)

الأول — أمــير مكّةَ المعظَّمة .

وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك ذكرُ أمرائها من ابتداء الإمْرة وهلُمّ جرًّا إلى زماننا، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد] (١) بن عَجْلان .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : «أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العَضُدىّ، النّصيرىّ ، الذُّخرىّ ، الغَوْثىّ ، المفيدىّ ، الأوحدىّ ، الظهيرىّ ، الزّعيمىّ ، الكافلىّ ، الشريفىّ ، الحسيبىّ ، النّسيبىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء فى العالمين ، جلال العِتْرة الطاهره ، كوكَبِ الأُسْرة الزاهره ؛ فرع الشجرة الزّكيّه ، طِرَازِ العِصابةِ العَلَويّه ؛ ظهيرِ الملوك والسلاطين ، نسيبِ أمير المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى بالسلام والثناء وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا » .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التثقيف" : «أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشريفىّ، الحَسيبىّ، النّسيبىّ، العالمىّ، المُجاهدىّ، المفيدىّ،الأوحدىّ،النصيرىّ، العوْنىّ،الهُمَامىّ، المقدّمىّ، الظّهيرىّ ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء الأشرافِ فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، كَهْفِ المِلّة ، عون الأمه ، فَخْر السُّلَالة الزاهره، زَيْنِ العترة

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما تقدم للمؤلف (أنظرج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهره، بهاء العصابة العلويّه، جمال الطائفة الهاشميّه، ظهير الملوك والسلاطين، نسيب أمير المؤمنين» ثم الدعاء و«صدرت» .

وهـذا دعاء وصـدر يليق به ذكره فى "التعريف" : «ولا زال حرمه أمينا، ومكانه مكينا، وشرفه يبيض[1] له بمجاورة الحجر الأسود عندالله وجها ويضىء جبينا . صدرت هـذه المكاتبة إلى المجلس العالى تحمل إليـه سلاما تميل به الركائب، وثناء تثنى على منكبه الحقائب، وشوقا أوسق قلبـه لمن نسكه مع الجنائب ، وتوضح لعلمه الكريم» .

صدر آخر : ومتّعه بجوار بيتـه الكريم ، وزاد بجميـل مساعيه شرف نسبه الصميم، وآنسه بقرب الحجر الأسود والركن والحطيم . صدرت هـذه المكاتبة إلى المجلس العالى تهدى إليه سلاما، وثناء تطيب به الصبا قبل أن تحمل شيحا أو خزامى، وتوضح لعلمه الكريم .

صدر آخر : وأراه مناسكه ، وآنس بالتقوى مسالكه ، وأشهد على عملـه الصالح بطحاءه وما ينزله [من] الملائكه . صدرت هذه المكاتبة بتحياتها المباركه ، وأثنيتها التى لا تزال إليه بها أفئدة من الناس سالكه، وتوضح لعلمه الكريم .

الثـانى ــ أمير المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد تقـدم فى الكلام على أمرائها فى المسالك والممالك من المقالة الثالثة أن إمارتها مستقرة فى بنى الحسين، وأنها الآن فى بنى جماز بن شيحة ، وأن جدهم كان

(١) فى التعريف "ينير" .

فقيهًا بالعراق ، فقدم على السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله ، فولّاه المدينةَ فاستقرّت فيها قدمُه ثم قَدَمُ بنيه ، وأنّ القائم بها الآنَ [ثابت بن جمّاز[1] ابن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحه بن نعير[1]] .

ورسمُ المكاتبة إليه كرسم المكاتبة إلى أمير مكةَ على الاختلاف السابق فى النقل عن " التعريف ، والتثقيف " . فقد ذكر كلٌّ منهما رسمَ المكاتبة إلى أمير مكة . ثم قال : ورسمُ المكاتبة إلى أمير المدينة كذلك .

وهذا صَدْر مكاتبة يليق به ، وهو : ولا زال فى جوار اللهِ ورسولِه ، ومَهْبِط الوَحْى ونُزُوله ، ومكانٍ يُرَدَّد فيه من أبويه الطاهرين بين حَيْدره وبَتُوله . صدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى بسلامٍ يَحْدُو رِكابَها ، وثناء يَزِينُ فى قُبَا قِبابَها ، وشوق إلى رؤيته فى الروضة التى طالمَا آستسقَى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سَحَابَها ، وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا .

⁂

صدر آخر : وزاده من الله ورسوله قُرْبا ، وأكّد له بحماية حَرَمه حُبًّا ، وأبهجه كُلَّما رأى جَدَّه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلًا وجالس صَحْبا . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى مطربةً بالسلام ، مُطْنِبة فى ثنائه المُفَصَّل النِّظام ، وتوضح لعلمه الكريم .

الثالث — النائب باليَنْبُع .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح مما تقدم فى ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام على أمراء المدينة المنورة .

وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنها فى بَنِى حَسَن (١) أيضا . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «هذه المكاتَبةُ إلى المجلس السامى الأمير» . والعلامة الاسم، وتعريفه «النائب بالينْبُع» .

أما سائر العُرْبان بالحِجاز فقد ذكر فى "التثقيف" أن لبَنِى حسن القُوّام بمكة «مجالس الأمراء» . والعلامة الاسم . ومَنْ عدا بنى حسن فقد ذكر فى "التعريف" أنهم على ضربين :

الضرب الأوّل — أهل الدَّرْبَيْنِ: المِصْرىّ والشامىّ . قال : وليس فيهم مَنْ هو فى عِيرٍ ولا نَفِير، ولا يَحُلّ فى ذِرْوة ولا غارِب ؛ وأجلّ من فيهم إذا كُتِب له «مجلس الأمير» كان كمن سُوِّر وطُوِّق، لابل طِيْلِس وتُوِّج .

الضرب الثانى — شُيوخ لام، وخالد، والمُنْتَفِق، وعائد الحِجاز . قال : وهؤلاء من كان منهم المشارَ إليه كُتِب إليه «صدرتْ هذه المكاتَبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ» والعلامة «أخوه» . ثم من يليهم بالسامى بغير ياء . ثم الأعيانُ من بقيتهم «مجلس الأمير» .

المَسْلك الثانى

(فى معرفة ترتيب المكاتَبات المقدّمة الذكر، وكيفية أوضاعها . وفيه مأخَذان)

المأخذ الأوّل — فى ترتيب مُتُون المكاتبات، ولا يكون إلا ابتداءً . أما الجواب فإنه لايتأتَّى فيها .

---

(١) أى كأمرة مكة .

ثم هى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل — ما يكتب فى خَلَاص الحُقُوق .

وهو ما يكتب فيـه لنُوّاب الإسكندرية ، ونائبِي الوجهين : القبلىّ والبَحْرىّ من الديار المصرية ، ووُلَاتِهما ، ونُوّاب الشام ، وحَلَب ، وطرابُلُس ، وحماةَ ، وصفدَ ، والكَرَك ، ومقدَّم العسكر بغزّة ، من الممالك الشامية علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبة أهل المملكة .

والرسمُ فى ذلك إذا كانت المكاتبةُ إلىٰ نائب الشام مثلًا ، بسبب قضيّة تتعلّق بالأمير الدَّوَادار أن يكتب : « أعزَّ الله تعالىٰ المقرَّ الكريم » إلىٰ آخر الألقاب والصدر ، ثم يكتب : «وتبدى لعلمه الكريم أن الجنابَ العالى» ويذكر ألقابَه إلىٰ آخرها « ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه عرّفنا كذا وكذا » . ويذكر ماقى قصته برُمَّته . ثم يكتب : « ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُهُ العالى بكذا كذا » ويأتى بما رُسِم له به إلىٰ آخره ، ثم يقول : « فيحيطُ علمُه بذلك » ويكمّل علىٰ ما تقدّم .

وإن كان المكتوب بسببه أميرَ عشرة مثلا ، كتب بدل « عرَّفنا » : « ذكر » .

وإن كان من آحاد الناس كتب بدل ذلك : «إن فلانا أنهىٰ» ويكمل علىٰ ما تقدّم .

وهذه نسخة مكاتبةٍ إلىٰ نائب الشام بسبب خَلَاص حقٍّ :

أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، العَوْنىّ ، المُثَاغرىّ ، المرابِطىّ ، الممهّدىّ ، المشيّدىّ ، الزّعيمى ، الظَّهِيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأتابِكىّ ، الكَفِيلىّ ، الفلانىّ ، معزّ الإسلام والمسلمين ، سيد أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، مَلْجإ الفقراء والمساكين ، أتابِكِ العساكر ، زعيم الموحّدين ، ممهّد الدول ، مشيّد الممالك ، عَوْن الأمه ، كهف

الملّه ، عماد الدوله ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، عَضُــد أمير المؤمنين ، ولا زال عاليًا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمْدُه وشُكْرُه .

أصدرناها إلى المقرّ العالى تُهْدِى إليه من السلام أتمّه ، ومن الثناء أعمّه ، وتُبْدِى لعلمه الكريم أنّ الجنابَ العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الغَوْثِىّ ، الغِياثىّ ، المرابِطىّ ، الممهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظّهيرىّ ، الزّعيمىّ ، المقدّمىّ ، الفلانىّ ؛ ظهيرَ الملوك والسلاطين ، سيفَ أمير المؤمنــين ؛ فلان رأسَ نَوْبة الظاهرىّ ضــاعف الله تعالى نعمتَه عرّفنا أنّ له دَعْوىً شرعيةً على أقوام بدِمَشْق المحروســة ، وهم فلان وفلان . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمْرُه العالى بحَمْلهم صُحبةَ فلان قاصــد المشار إليه ، إلى الأبواب الشريفة ، محتفظا بهم ، قولًا واحدًا ، وأمرًا جازما ، ليصل كلُّ ذى حقّ إلى حقه ، فيحيط علمُه بذلك ، والله تعالى يؤيّده بمنّــه وكرمه .

✦ ✦ ✦

آخــــر : وتبدى لعلمـــه الكريم أن المجلسَ السامىّ ، الأميرىّ ، الكبــيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخرىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ ؛ عمدةَ الملوك والسلاطين : فلان أدام الله ســعادته ، ذكر لنا أن الصَّدَقات الشريفةَ شمِلتْه بخَلَاص حقّه من فلان . وقد وَكّل فى ذلك المجلس السامىّ القضائىّ الأجَلّىّ فلان الدين . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقــدّم أمْرُه العالى بطَلَب الغريم المذكور ، وخَلَاص الحقّ منه بتَمــامه وكماله . وإن آمتنع عن ذلك يُحْمَل للأبواب الشريفة مع الوصيّة بوكيله فى ذلك ، فيُحيط علمُه بذلك .

* * *

آخــر : وتبـدى لعلمه الكريم أن الأمـير ، الأجلَّ، الكبيرَ ، فلان الدين، فلان الفلانى، أنهىٰ أنَّ بيده إقطاعًا بالحَلْقـة الشامية ، وأن الوزيرَ بالشام المحروس فى كلِّ وقت يتعرّضُ إلىٰ إقطاعه، ويأخذ المُوجَبَ المقرّر له بغير طَريق . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بطلب المباشرين ، والارتجاع عليهم بمـا آلتمسُوه من إقطاعه، علىٰ مايشهد به الدِّيوان المعمور، بتَمَـامِه وكماله ، ويستقرّ هـذا المثالُ الشريف بيـده بعد العمل به ، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ، والله تعـالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه .

* * *

آخـــر : وتبدى لعلمه الكريم أن فلانا الفلانىّ أنهىٰ أنّ شخصا يسمّى فلانا تزوج بأُخته، وهو مقيمٌ بالشام المحروس، وتُوفيت أختُه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، ووضَع الزوج المذكور يده علىٰ جميع مالها . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بخلاص الحق علىٰ حُكم الشرع الشريف مع الوَصِيَّة به، فيُحيط علمُه بذلك .

* * *

آخـــر : وتبدى لعلمه الكريم أن قِصَّةً رُفِعتْ إلىٰ أبوابنـا الشريفة بآسم تُجّار الفرَنج ، أنْهَوْا فيها أنهم يَبِيعون و يبتاعُون البضائعَ ،و يقومون بما عليهم من المُوجَب السلطانىّ . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه بخَلَاص حُقُوقهم ممن تتعيّن فى جهته علىٰ حُكم الحق ، وكَفِّ أسباب الضرر عنهم، ومنع من يتعرّضُ إليهم بغير حقٍّ ولا مستَنَد شرعىّ ، والوصية بهم ورعايتهم وملاحظتهم، فيحيط علمه بذلك .

الضـــرب الثـانى
(مايكتب من متعلقات البَرِيد فى الأمور السلطانية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(ما يُكتَب به ٱبتــداءً)

ويختلف الحـال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمرِ السلطان بفـعل شيء أو تركه أو الحركة فى شيء، كتب : « إنَّ المراسيم الشريفةَ ٱقتضتْ كذا وكذا» . أو «إن مَرَاسيمنا الشريفة ٱقتضت كذا» . أو «إن المرسومَ الشريف ٱقتضى كذا» . أو « إن مرسومَنَا الشريف ٱقتضى كذا » : فإن كان ذلك الأمرِ ممـا يَحتاج إلىٰ إدارة الرأى فيـه ، كُتِب : « إنَّ الرأىَ الشريف ٱقتضىٰ كذا » . أو « إنَّ آراءنا الشريفةَ ٱقتضت كذا» ، وما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ . وإن كان مقتضيه بلوغَ خبرٍ من حركة عدوٍّ أو ٱطّلاع علىٰ أمرٍ خفىٍّ، كتب : « إنه ٱتّصل بالمَسَامِع الشريفة كذا وكذا » . أو «إنه ٱتصــل بمَسَامعنا الشريفة كذا وكذا» . وإن كان بسبب طلبِ مالٍ أو جِبَايةِ خَرَاجٍ ونحو ذلك، كتب : «إنَّ لديوان خاصّنا الشريف فى الجهة الفلانية كذا» . أو «إنَّ لنا فى الجهة الفُلَانية كذا». ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السِّلْك، ثم يكتب : «ومرسُومنا للمَقرّ الكريم، أو لِلجَناب الكريم، أو الجَناب العالى » علىٰ حَسَب المكاتبة « أن يتقدّم أمره بكذا وكذا » علىٰ ما تَبْرُزُ به المراسيمُ السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلىٰ نائب الشام، يُنْسَج علىٰ مِنْوالهـا .

مكاتبةٌ — باستقرار نائبٍ فى نيابة بعض القلاع : وتبـدى لعلمه الكريم أن المراسيمَ الشريفــة ٱقتضَت ٱستقرارَ الأمير فلان الدين فلان فى النيابة الشريفــة

وجهزنا مرسومه (١) الشريفين علىٰ يد المتوجّه بهذا المثال الشريف الأمير الأجلّ فلان الدين فلان ، أعزه الله تعالىٰ . فيتقدّم المَقرّ الكريم بتجهيزه إلىٰ جهة قصده بما علىٰ يَدِه من ذلك ، وإذا عاد، يعيده إلىٰ الأبواب الشريفة مُكرَّما مَرْعِيًّا علىٰ عوائد همّته العلية ، فيُحيط علمُه بذلك .

✦ ✦ ✦

مكاتبة — بنقل نائبِ سلطنة من نيابةٍ إلىٰ نيابةٍ : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف اقتضىٰ نقلَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمِىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الغوثىّ ، الغياثىّ ، المقدَّمىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ فلان الظاهرىّ ، أعزّ الله نُصرتَه — من نيابة السلطنة الشريفةِ بطَرَابُلُس ، إلىٰ نيابةِ السلطنةِ الشريفة بحَلَبَ المحروسةِ . والجنابِ العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفلانىّ ، ظهيرِ الملوك والسلاطين فلان الظاهِرِىّ من نيابة السلطنة بصَفَدَ المحروسة ، إلىٰ نيابة السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة . والجنابِ العالى الفلانىّ الظاهرىّ من تَقْدِمة العسكر المنصور بغَزّةَ المحروسة ، إلىٰ نيابة السلطنة الشريفة بصَفَدَ المحروسة . وكتبنا لهم تقاليدَ شريفةً بذلك ، وجهَّزْنا إليهم تَشاريفَهم وهى واصلة عقيبها علىٰ يد متسَفِّريهم ؛ وجَهَّزنا الأميرَ الأجلَّ الأعز فلان الدين ، مؤتَمَنَ الملوك والسلاطين ؛ فلان الخاصكىّ الظاهرىّ أعزه الله تعالىٰ للبشارة للمشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظَّهم من هذه البُشْرىٰ ، وتُضاعَف أدعيتُهم بدوام أيامنا الشريفة ، وآثرنا إعلامَ المَقرّ الكريم بذلك : ليكون علىٰ خاطره ؛ والله تعالىٰ يؤيّده بمنّه وكرمه .

(١) بياض بالأصل ولعله "وجهزنا مرسومه وتشريفه الشريفين" الخ .

⁂

مكاتبة — بحمل شخص للأبواب السلطانية : وتُبْدِى لعلمه الكريم أن مرسومَنا الشريفَ اقتضىٰ تقدُّمَ المقر الكريم حال وُقوفه عليها، وقبـل وَضْعها من يده بطَلَب فلان الفلانى وفلان الفلانى ، وتجهيزهـا إلىٰ الأبوابِ الشريفـة فى أسْرَع وقت وأقربِه ، من غير فَتْرة ولا توانٍ . ونحن نُؤكد عليـه غايةَ التأكيد فى سُرْعة تجهيزهما إلى الأبواب الشريفة صحبةَ الأمير الأجل ، فلان الدين فلان، إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا بهما ، محترَزا عليهما ، ومرسومُنا للمقر الكريم أن يتقـدم أمرُه العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومُنا الشريف، والاهتمامِ بذلك، والاحتفالِ به، فيُحيط علمه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه .

⁂

مكاتبة — باستقرار بعض الأمراء بالقُدْس الشريف بَطَّالا : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف اقتضىٰ استقرار الأمير فلان أحسن الله تعـالىٰ عاقبته بالقُدْس الشريف مُقيمًا بهـا، وشَمِلته الصَّدَقات الشريفةُ أن[(١)] فلانة وفلانة باسمه ، بمقتضىٰ مرسومٍ شريف مجهَّز صُحبةَ متسَفِّره الأمير الأجلِّ الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البَرِيدى بالأبواب الشريفة، أعزَّه الله تعالىٰ، المتوجِّه بهذا المثال الشريف . ومرسومُنا للمَقَرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بإثبات المرسومِ الشريف المذكور بديوان الجُيُوش المنصورة بالشام المحروس علىٰ العـادة، وتجهيز البَرِيدىّ المذكور إلىٰ حدود الديار المصرية ، مُكْرَما مَرْعيًّا علىٰ العادة ، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

---

(١) بياض بالاصل ولعله "أن تقطع جهة فلانة" الخ .

* * *

مكاتبة — ببيع غلّة للديوان السلطانى : وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفة آقتضت تجهيز كذا وكذا إردبًّا من القمح من ديواننا المفْرد صُحبة فلان . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بطلَب فلانٍ الحاجبِ بالشام المحروس : ليتولّى بيعَ ذلك بسعْر الله تعالىٰ بمـا فيه الغِبْطة والمصلحةُ ، وتجهيزَ الثمن إلىٰ الأبواب الشريفة برسالةٍ دالّة علىٰ ذلك فى أسرع وقتٍ وأقربِهِ ، مع مُضاعفة الوصيّة بذلك والآحتفالِ به ، فيُحيط علمُه بذلك .

* * *

مكاتبة — وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفةَ آقتضتْ توجُّه الأمير الأجلّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان ، إستادار الأمير المرحوم فلان كان ، بسبب آستخراج الأموال وبيْع الغِلال والأصنافِ الدّيوانية المتحصّلة من القُرىٰ المستأجَرة ، المرتجَعة للورثة عن المشار إليه بمقتضىٰ التذْكرة المسطَّرة علىٰ يَده . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّمَ أمرُه بمساعدة المذكور وتقوية يَده علىٰ ماتضمّنته فصولُ التذْكرة ومراعاةِ أحواله ، وإزالةِ ضَرُوراته ، وخَلاص الحق منه ممن يتعيّنُ فى جِهَته ، ويشْمَله بنظره الكريم فيما تعلق بفصول التـذكرة . فإنّ تعلّقـاتِ الورثة المذكورين تحت نَظَرنا الشريف . فيبادر المقرّ الشريف إلىٰ ذلك وسرعةِ عَوْده بعد قضاء شُـغُله ، وتجهيز المتحدّث والمباشِرين للأبواب الشريفة ، وصُحْبتَهم حسابُهم عند نهاية فصولِ التّذْكرة المذكورة . ويقيمُ عنهـم من يعوضهم إلىٰ حينِ عودهم من الأبواب الشريفة علىٰ ماهو المعهود من همّته الكريمة وآحتفاله ، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بسبب طلب عِصِيّ الجواكين والكَرابيج والأكَر : وتبدى لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف اقتضى تجهيز عِصِيّ الجواكين والكَرابيج والأكَر إلى السِّلاح خاناه من الشام المحروس، على العادة فى كل سنةٍ سريعا، وآثرنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك كلّه على جارى العادة فى كلّ سنة ، والاهتمامِ بذلك ، والاحتفالِ به، بحيث لا يتأخّر ذلك غيرَ مسافة الطريق ؛ فإن الانتظار واقعٌ لذلك، وفى هِمّته الكريمة ما يُغْنِى عن بَسْط القول فى ذلك، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بسبب استقرار قاضٍ بدِمَشْق عوضَ مَنْ كان بها : وتبدى لعلمه الكريم أنّ الصدقاتِ الشريفةَ شَمِلت المجلسَ العالى، القضائىَّ، الكبيرىَّ، العالمىَّ، العلّامىَّ، الإمامىَّ، الفلانىّ، الفَريدىّ، المُفيدىّ، المَجيدىّ، الأَصيلىّ، العَريقىّ، الأثيلىّ، الأثيرىّ، الأوحدىّ، الخطيبىّ، الشّيخىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ جلالَ الإسلام والمسلمين، شرفَ العلماء العاملين، إمامَ البلغاء، خطيبَ الخُطَباء، شيخَ مشايخ العارفين، مَلاذَ المريدين، مُفْتِى الفِرَق، مُوضِّحَ الطُّرُق، لسانَ المتكلمين، مفيدَ الطالبين، حَكَمَ الملوك والسلاطين، ولىَّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ الشافعىّ . أعزّ الله تعالى أحكامَه — بتفويض قضاء قُضاة الشافعية بالشام المحروس إليه؛ عوضًا عمّن به، بحكم عَزْله مضافًا إلى خَطابة الجامع الأموىّ، ومشيخةِ الشُّيوخ بالشام المحروس . وكتبنا توقيعًا شريفا له بذلك، وجهّزناه إليه قَرِينَ تشريفٍ شريفٍ على يد فلان المتوجّه بهذا المثالِ الشريف . وآثرنا علمه الكريم بذلك، ليكونَ ذلك على خاطره الكريم . ومرسومُنا للمَقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفلانى فيما شَمِلَتْه به الصدَقاتُ الشريفةُ من ذلك كلّه ، وتقويةِ يده فى مباشرةِ ذلك والشّدِّ منه ، وتأييد أحكامه الشرعيةِ، وتنفيذ كلمته، ورعاية جانبه، وإكرامِهِ واحترامه، على عادة همَمِه الكريمة، وتقدِماته السعيدة ، فيُحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — بسببِ حملِ الثَّلج إلى الأبواب السلطانية : وتُبدى لعلمه الكريم أنَّ المرسومَ الشريف اقتضى تجهيزَ نَقَلات الثلج إلى الشَّرَابْ خاناه الشريفةِ على العادة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدم أمْرُه العالى بسُرْعة تجهيز النَّقْلة الأولى، بحيث لاتتأخرُ أكثرَ من مسافةِ الطريق على ماهو المعهود من همَّته العالية، وتقدِماته السعيدةِ . وقد جهَّزنا هذا المثالَ الشريف على يد الأمير الأجلّ فلان الدين فلان الفلانىّ، أعزه الله تعالى، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بتمكين شخص من الحُضور للأبواب السلطانية . وتبدى لعلمه الكريم أنّ فلانا كان قصدَ الاجتماعَ بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسُومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى بتمكينه من الحُضور إلى القاهرة المحروسة على خَيْله : ليجتمع بأهله وأقاربه . وقد جهَّزنا بهذا المثالِ الشريفِ فلانا البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بمنع العُرْبان من الدُّخول إلى البلاد قبل فَرَاغ الزَّرْع . وتبدى لعلمه الكريم أنّ المراسيمَ الشريفةَ اقتضت أنه لايدخُل أحدٌ من العُرْبان إلى البلاد الشامية

المحروسة : كبيرِهم وصغيرِهم، جليلِهم وحقيرِهم، إلى أن يُشال الزرعُ على العادة . ومتى ـ والعياذُ بالله ـ حصَل منهم مخالفةٌ لذلك، حلّ بهم من الانتقام الشريف مالا مَزِيدَ عليه . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى باعتماد ما اقتضتْه المراسيمُ الشريفةُ من ذلك، مع الاهتمام به، والاحتفال والاجتهاد فيه، قولًا واحدا، وأمرا جازما، على عادة همّته العالية، وتقدِماته المرضيّة، فيُحيط علمُه بذلك .

✣

مكاتبة ــ بحفظ السواحل : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومَنا الشريفَ اقتضى الاجتهادَ فى حفظ السواحل والموانى، والاهتمامَ بأمرها، وإقامةَ الأَيْزاك والأبْدال فى أوقاتها على العادة، وإلزامَ أربابها بمُواظبتها، وكذلك المنوّرون بالدَّيْدبانات والمَناظر والمَناور، فى الأماكنِ المعروفة، وتعهُّد أحوالها : بحيث تقومُ أحوالُها على أحسن العوائد وأكملها، ولا يقعُ على أحد دَرَكٌ بسببها . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك، مع مضاعفة الاحتفالِ بذلك والمبادرةِ إليه، حسَبَ ما اقتضته المراسيمُ الشريفةُ . وقد جهّزنا بهذا المِثالِ الشريف مجلسَ الأميرِ الأجلّ : فلان الدين فلان البَرِيدى، المقدّم بالأبواب الشريفة؛ فيتقدّمُ أمر المَقرّ العالى بتجهيزه إلى جِهةِ قَصْده بما على يده، وإعادته عند عوده إلى الأبواب الشريفة، على ما هو المعهود من همّته، فيحيط علمُه الكريمُ بذلك .

✣

مكاتبة ــ باستعمال قُماش . وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءَنا الشريفةَ اقتضت استعمالَ القماش الجارى به العادة برسم الركابخاناه، والإصطبلاتِ الشريفة، على ما استقرّ عليه الحال إلى آخر السنة الخالية والتى قبلها . وقد كُتبت تذكرةٌ شريفة

من ديوان آستيفاء الصُّحْبة الشريفة مفصَّلة بذلك ، وجهَّزناها قرينَ هذه المفاوضة لتُقرأ علىٰ مَسَامِعه الكريمة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بتأمُّلها، وبُروزُ أمره بطَلَب وزير المملكة الشريفة ، وناظر المُهمَّات الشريفة ، وآستعمال القُماش الذى تضمَّنته التذكرةُ الشريفة ، والاَهتمام بذلك ، والاَحتفال بسُرْعته . وقد آكتفينا بهِمَّة المقرّ الكريم عن تجهيز أميراخورية وأوجاقية من إصْطَبْلاتنا الشريفة لاَستعمال ذلك ، لأنَّ المهماتِ الشريفةَ تحت نظره الكريم ، فيصْرِف همَّته العالية إلىٰ الإسراع فى ذلك، والاَحتفال به والاَهتمام . وفى آهتمامه وتنفيذه لمراسمنا الشريفة مايُغْنِى عن التأكيد فى ذلك، فيُحيط علمُه بذلك .

✦ ✦ ✦

مكاتبة — بجواز . وتبدى لعلمه الكريم أنّ مرسومَنا الشريفَ آقتضىٰ تجهيز فلان البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة ، أعزّه الله تعالىٰ، إلىٰ جهة فلان بما علىٰ يَدِه وما صُحْبتَه . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى بإزاحة أعذارِه، وتجهيزِه إلىٰ المشار إليه فى أسرعِ وقتٍ وأقربِه . وإذا عاد يتقدّم بتجهيزه إلىٰ خدْمة الأبواب الشريفة علىٰ العادة فى ذلك، علىٰ عادة همّته العليَّه، وشِيَمِهِ المَرْضيَّه، فيحيط علمُه بذلك .

✦ ✦ ✦

مكاتبة — وتبدى لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف آقتضىٰ أن لا يُمكَّنَ أحدٌ من نَقْل سلاح ولا عُدَّةِ حربٍ إلىٰ جهة البلاد الرُّوميَّة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بأن لا يمكّن أحد من نَقْل سلاحٍ ولا عُدّةٍ إلىٰ جهة البلاد المذكورة، والاَحترازِ علىٰ ذلك كلَّ الاَحترازِ، فيحيط علمُه بذلك .

✣

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتصل بالمَسامع الشريفة أنّ غالبَ البلاد بالصَّفقة الفلانية محميَّة متجاهية على الكُشّاف والرَّعايا، و يُؤْوُون المفسدين . وأنّ يدَ الكُشّاف لاتصِلُ إلى هذه البلاد، ولا إلى النَّصَفة ممن بها من المفسدين . وحَصَل بذلك الضررُ للبلاد والعِبَاد . وآقتضىٰ الرأى الشريفُ الكَشْفَ عن هـذه البلاد وسائرِ الأعمال ، والمناداةَ فى البلاد بإبطال الحَمَاية والرِّعاية، والمساواةَ بين العبَاد فى سائر البـلاد بالعَدْل والإنصاف ، وكَفَّ أكُفِّ الظلم والعُدْوان . ومرسومُنـا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه الكريم بالمناداة فى سائر البِلَاد بإبطال الحَمَاية والرِّعاية ، والمساواةِ بين الخاصّ والعامّ، وتطهيرِ الأرض من المفسدين، وأن لايَحْمِىَ أحدٌ ببلد من البلاد . ومن تظاهر بحمايةٍ أو إيواءِ مفسِدٍ ببلد من البلاد، حَلّ مالُه ورُوحُه . والتأكيدِ على أهل البلاد فى ذلك ، والتشديدِ والفَحْص عمّن يَجاهرُ بذلك ورَدْعه ونَشْر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والاهتمام فى ذلك كلِّه، على عادة هِمَمِه الكريمة، وتَقَدماته السعيدة، فيحيط علمُه الكريم بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بالملائكة .

✣

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتّصل بمَسامعنا الشريفة أن فلانا تعرّضَ للجهة الفلانيّة الجارِيةِ فى ديوان خاصّـنا الشريف، وأخذ منهـا مبلَغَ كذا وكذا . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمرُه العالى بطلَبِ الغريم المذكور، وتجهيزه إلى الأبواب الشريفة، وإلزامه بمـا آستأداه من ذلك، محترزًا عليه مع مضاعفة الوصيّة بمباشِرى الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمُه بذلك .

الصنف الثانى

(مايكتب فى الجواب عمّا يرد من النوّاب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبته الكريمة » أو «مكاتبته» علىٰ قدر رتبته من ذلك «وردتْ علىٰ يَدِ فلان فوقَفْنا عليها وعلمنا ماتضمَّنته علىٰ الصُّورة التى شرحها» ثم يذكر ماينا سب الجواب فى ذلك من شكر الاهتمام أو غيره . ثم إن آشتملت علىٰ مقصَد واحد، أجابَ عنه .

وهذه مكاتبةٌ يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى : وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمة وردتْ علىٰ يد فلان فوقفْنا عليها ، وعلمنا ما أصدَرتَه من تجهيزه إلىٰ خِدْمة أبوابنا الشريفة بما علىٰ يَدِه من كُتّاب مخدومه . وقد وصل، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بما تضَمَّنه ، وأعَدْناه الآن بجوابه وبهذا الجواب الشريف ، فيحيط علمُه الكريم بذلك .

وإن آشتَملت المكاتبةُ المجابُ عنها علىٰ عدة فُصول ، أتىٰ علىٰ فُصولها فَصْلا فصلاً ، وربما قال : «فأماما أشار إليه من كذا» إذا كان علىّ الرتبة ، ككاتب الشام ونحوه ، «فقد علمناه» وصار علىٰ خاطرنا الشريف أو «فقد رَسَمْنا به» أو «فلم نَرْسُم به» . ونحو ذلك علىٰ مايقع به الجوابُ السلطانىّ فى الملَخَّص المكتوب عن مكاتبة المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبة من هذا النمط يُنْسَج علىٰ مِنْوالها ، وهى : وتبدى لعلمه الكريم ، أنَّ مكاتبَتَه الكريمةَ وردتْ علىٰ يد مملوكه الأميرِ الأجلّ فلان الدين فلان، أعزّه الله تعالىٰ ، فوقفْنا عليها ، وعلِمْنا ماتضمَّنته علىٰ الصورة التى شرحَهَا ، وشكرنا همّته العالية ، وتَقَدماته السعيدةَ ، ورأيَه السعيد، وآعتمادَه الحميد .

فأما ما أشار إليـه من وصوله ومَنْ صُحْبَته ، ونائبى السـلطنةِ الشريفة بطرابُلُس وصَفَدَ المحروستين ، إلىٰ مَلَطْيَة المحروسةِ فى التـاريخ الفلانى ، وتلَقِّى نائبَىِ الســلطنةِ الشريفة بحلَب وحمـاةَ المحروسـتين ، المَقرِّ الكريم ومَنْ معـه علىٰ ظاهر المدينـة المذكورة ، وآستمرار إقامتهم جميعًا بالمنْزلة المذكورة إلىٰ تسطير مكاتبته المشار إليها فى آنتظار من رُسم له بالحضور إليهم من عساكر القِلاع المنصورة وغيرهم ، من أمراء التُّرُكْمان والأكراد ومن معهم من أتبـاعهم وألْزامهم ، حَسَبَ ما آقتضـتْه المراسيمُ الشريفةُ فى المهمّ الشريف وما كُتِب به إلىٰ نائب طرابُلُس ، وإلىٰ قَرايوسُف النائب بالرُّها المحروسة : من الحضور إلىٰ المهمّ الشريف ، وإجابتهـما إلىٰ ذلك ؛ وكذلك ما كُتِب به إلىٰ الحاكم بسِيواس ، وإلىٰ أحمد بن طرغلى ، وما أجابا به من الحُضُور إلىٰ المهمّ الشريف ، والمتلقىٰ فى المكان الذى عيَّنه حاكمُ سيواس ، إلىٰ غير ذلك ممـا بَسَـط القولَ فيه [فقد علمناه](1) علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وتضـاعف شكرنا لهمّته العلية وتَقدّماته السعيدة .

وأمَّا ما أشار إليه من آعتماده ما بَرَزَتْ به المراسـيمُ الشريفةُ فى الجَوَاز الشريف الوارِدِ إليه علىٰ يَد مجلس الأمير الأجلّ فلان الدين فلان ، والمطلقِ الشريف المجهَّز علىٰ يده ، وآمتثالِ ماتحمَّله من المشافَهَة الشريفة ، وتقدُّمِه بجميع نُوّاب السلطنة الشريفة المكتوب إليهم ، وعَقْد المَشُورة معهم علىٰ آعتماد ما آقتضتْه المراسيمُ الشريفة ، وتعيين جاليش العســاكر المنصورة ونائبِ السلطنة الشريفة بطرابلس المحروســة ومَنْ معه من الأمراء المقدّمين وأتباعهم من دمشقَ وحلَب المحروستين ، ونائب السلطنة الشريفـة بحماة المحروسة ، ومن معـه من العساكر المنصورة ، وسَـيْرِهم فى التاريخ الفلانى ، وسـيره فى أثَرهم بمن بقِىَ معـه من العساكر المنصورة الشاميـة الحَلَبية ؛

(1) الزيادة يقتضيها تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم الناسخ .

وأن سيرهم على جهة بلد كذا على الصورة التى شرحها لما قصده من ذلك من المصلحة ؛ فقد علمنا ذلك على الصورة التى شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحُسْنَ فكرته الصحيحة .

وأمّا ما أشار إليه من أن نائب مَلَطْيَةَ جهّز الكتاب الواردَ عليه من آبن تمرلنك ، على يد قاصدٍ من جهة تلمان[1] باللسان الأعجمىّ ، وأنه عَرّبه وفَهِم مضمونَه وجهّزه ليُحيط العلومَ الشريفة بمضمونه ، وهى على الخواطر الشريفة ، فيكونُ ذلك على الخاطر الكريم ، وشكرنا همتَه العلية .

وأمّا ما أشار إليه من ورود كتاب تلمان[1] عليه ، وهديّته على يد قاصده ، وأنه لم يَقْبل هديّته وأعاد جوابَهُ ، فإنه إن كان مناصحًا فى الخدمة الشريفة وهو صادقٌ فى كلامه ، فيحضُرُ إلى المهمّ الشريف ، وما شرح فى هذا المعنى فقد علمناه على الصورة التى شرحها ، وشكرنا جميلَ آعتماده وسعيدَ رأيه . وكذلك أحاطت العلومُ الشريفةُ بما ذكره من أمر حاكم عرركبر(؟) وما شرحه فى ذلك ، فقد علمناه على الصُّورة التى شرحها .

وأما ما أشار إليه من أمرِ مَلَطْيَةَ المحروسةِ ، وأنها تحتاج إلى الفكر الشريف ، والنظر فى أحوالها وترتيبِ مصالحها ، و إقامة عسكر لرجال يحمُونها من طوارق الأعداء المخذولين : إلى غير ذلك مما شرحه فى هذا المعنى ، فقد علمناه على الصُّورة التى شرحها ، وبقِيَ ذلك على خواطرنا الشريفة . وعقِيبَها إن شاء الله تعالى تبرُز المراسيم الشريفةُ بما فيه المصلحة للبلد المذكور على أكمل ما يكون .

وقد آستَصْوَبوا رأىَ المقرّ الكريم فى هذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضرورىّ . وقد شكرنا للمقرّ الكريم جميلَ آعتماده ، وحسنَ رأيه ، وبَذْلَ همته وآجتهاده فى هذا

(١) كذا فى الأصل غير واضح .

المهمّ الشريف . والقصدُ منه الاستمرارُ على ماهو فيه من بَذْل الاجتهاد فى المهمّات الشريفة بقَلْبه وقالَبه، والعملِ على بياض وجهه عند الله تعالى، من الذَّبّ عن عباده وبِلاده، وبَذْل المالِ والرُّوح فى رضا الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلم فى ذلك، واستقرارِ خواطِرنا الشريفة بذلك . فإن المقرّ الكريم يعلم ما نحنُ مُثابرون عليه، ومُنْقادون إليه، من محبّة رضا الله تعالى فى النصيحة بصَلَاح العباد، وعِمَارة البلاد، وتَسْطيرِ ذلك فى صحائف حَسَنات الدهر بين يدي الله تعالى . والمقرُّ الكريمُ يعلم أن جُلّ اعتمادنا عليه فى أكابر دولتنا الشريفة . ونحن واثقونَ برأيه السديد فى حَرَكاته وسَكَناته فى المهمّات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قرّبْناه، ورَضِينا به لنا وعلينا، وكُلّما بلَغَنا عنه اعتمادٌ حسنٌ تتضاعَفُ منزلتُه عندنا . والآنَ فإنّ نوّاب السلطنة الشريفة وأمراءَ دولتنا كبيرَهُم وصغيرَهُم تحت أمره ومشورته، وما بَقِىَ مثلُ هذه الأيام المباركة والأوقات السعيدة، ولم يبقَ سِوى انتهاز الفُرَص، واغتنامِ أوقات السعادة، وهو الحاضِرُ والنائب عنّا فى كل ما يحصلُ من المصالح العائد نفعُها على البلاد والعباد . والمبادرةِ إلى عملها من غير مُعاودة الآراء الشريفة فى كل قضيّة تتّفق له ، فإن المسافةَ بيننا وبينه بعيدةٌ ، وتَضِيعُ المصلحةُ فى وصول الخطاب وعَوْدِ الجواب . وقد فوّضنا إليه الرأىَ فى ذلك، والعمل بما تقتضيه المصلحةُ الحاضرة، فى جليلِ الأمور ودقيقِها ، فيكون ذلك على خاطرِه الكريم، ويعملُ بمقتضاه . وقد أعدْنا مملوكه بهذا الجواب، فيُحيط علمُه بذلك .

⁂

وهذه نسخة مكاتبة فى معنى الرضا عن ابن دلغادر التُّرْكمانى وغير ذلك :

وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمةَ وردتْ على يدِ فلانالدين فلان مملوكه ، فوقفنا عليها وعلمنا ماتضمّنته .

فأما ماذكره فى معنىٰ آبن دلغادر، وتكرار كُتُبه بالتصريح والترامى عليـه فى سؤال الصـدقات الشريفة فى الرِّضا والعَفْو عنه ، فقد علمنا ذلك ، والذى نعرِّف به المقرّ الكريم أنا كنا رسَمْنا بأن لا يُكتبَ له جواب وردّ كتابه وقاصـده ؛ ولما تكرر آستشفاعه بالمقرّ الكريم ، ودخل دخُولَ الحَرِيم ، وعرفْنا أنه ضاقت عليـه الأرض برُحْبها وأخلص فى النّدم ، عطفت عليه الصدقاتُ الشريفةُ بالحُنُوّ والعفو كرامةً للمقرّ الكريم ، وإعلاءً لشانه ، ورفعاً لمكانتـه ومكانه . ورسمنـا للمقرّ الكريم أن يكاتِبَ المذكورَ بهذا المعنىٰ ، ويلتزم علىٰ نفسه العفوَ الشريفَ ،والصَّفْحَ المُنِيف ، وإيصالَ أنواع الخـير وفوقَ مافى خاطِرِه من الأمان علىٰ نفسـه وماله ، وغير ذلك . والذى نعرِّفه أنه كان جرىٰ علىٰ اللسان الشريف الحلِفُ أنه لابدّ من حضوره إلىٰ الأبواب الشريفة ودَوْس البِساط الشريف ، ولا بدّ من تحقيق ذلك لحصول البِرّ والخَلاص من الحَلِف الشريف ، وقيامِ النـامُوس عند القريب والبعيد : ليعلموا أنّ سـلطاننا غالبٌ علىٰ مَنْ تمرّد ، ومراحِمَنا شـاملة لمن يلتجئ إلىٰ حَرَم عَفْونا الشريف ، وأنه قريبٌ منـــه .

وأما ماذكره فى معنىٰ كَشْف الصَّفْقة الفلانية ، ووقوع الآختيارِ علىٰ فلان الدين فلان ، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من تقريره فى ذلك ، وبُروزِ المَراسيم الشريفة بكتابة مرسومه وتقرير غيره ، فقـد علمنا ذلك ورسَمْنا بتقريرِه (١) ، وكتبنا مرسـومَه الشريف ، وجهّزناه علىٰ يد فلانٍ العائدِ بهذا الجواب الشريف .

وأما ماذكره من جهة الزاوية المستجدّة بشَقْحَبَ وتجهيزِ قائمة متضمّنة بمـا تدعو الضرورةُ إليه من تقرير السِّماط وأرباب الوظائف ، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من كتابةِ مرسومٍ شريفٍ مربَّعٍ علىٰ حُكْمِها ، أو بما تقتضيه الآراءُ الشريفةُ من زيادةٍ أو نَقْص ، فقد علمنا ذلك ورسَمْنا به حسَبَ ما آقتضَتْه الآراءُ الشريفةُ (٢) : من آستقرار

(١) لعله وتقريره (٢) يظهر أن فى الكلام سقطا ولعله «وما عرضه علىٰ الآراء الشريفة من الخ» .

فلان الدين فلان فى الوِلَاية فى الثَّغْر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمْنـا به ، وكتبنا مرسومَه الشريف ، وجهّزناه علىٰ يد العائد بهذا الجوابِ الشريف . فالمقرُّ الكريم يوصِيه بحُسْن السِّيرة وتَرْك ما كان عليه .

وأما ماذكره من جهة خُفَارة الجهة الفلانية ، وما عرضه علىٰ الآراءِ الشريفة : من إمضاء القائمة المجهَّزة بأسماء مَنْ قرّره فى الخَفَر المذكور، فقد علمنا ذلك ورسْمنا بإمضائه حسَبَ ماقصده المقرُّ الكريم .

وأما ماذكره من جهة فلان المعتَقَل بقلعـة دِمَشْق ، ووقوفِ أولاده وعياله وشكواهم حالَهُم بعد كَشْف ما نُقِل عنه وعدمِ صحّته وما عرضه علىٰ الآراءِ الشريفة من الإفراج عنه ،فقد علمنا ذلك ورسْمنا به فيتقدّم أمر المقرِّ الكريم بالإفراج عنه .

وأما ماذكره فى معنىٰ ما ورد به كتَابُ النائبِ بالرَّحْبـة المحروسـة : من الأخبار والمتجدّدات، فقد علمناه وصار علىٰ خواطِرِنا الشريفة .

وأما ماذكره من وصول قاصِدَىْ حاكِم الدَّرْبَنْد وحاكم القُنَيطِرة بما علىٰ أيديهما وتجهيزِ ماورد معهما من الكُتُب وآستئذانِ الآراء الشريفة علىٰ مانعتمِدُه فى أمرهما وفيمن يحضر بعدهمـا ، فقد علمنا ذلك ، وكتبْنا الجوابَ عن ذلك ، وجهّزناه قرِينَ هذا الجوابِ الشريف ، فيتقدّم باعادتهما إلىٰ مُرسِلهما . وكذلك يفعَلُ فى كلّ من حضر من تلك النواحى إلا فى مهمّ شريفٍ علىٰ عوائد هِممه . وقدأعدنا مملوكَهُ إليه بهذا الجواب الشريف، فيُحيط علمُ المقرّ الكريم بذلك .

مكاتبة أخرىٰ — من هـذ النمط فى معنىٰ أمورٍ مختلفة . وتبدى لعلمه الكريم أنّ مكاتبته الكريمةَ وردتْ علىٰ يد المجلس السامىّ الأميرىّ فلان . فوقفْنا عليها وعلمْنا ماتضمّنته علىٰ الصُّورة التى شرحها .

فأما ما أشار إليه : من وصوله إلى دمشقَ المحروسةِ عائدًا من الأَغْوار السعيدة ، وأنه وجدها وسائرَ أعمالها وضواحِيها والسواحلَ والموَانى فى حِرْز الأمْن والسلامةِ ، فقد علمنا ذلك وحَمِدْنا الله تعالىٰ وشكرناه علىٰ ذلك .

وأما ما أشار إليه : من أنه جهَّز من متحصَّل دار الضرب السعيدة بدمشقَ المحروسة كذا وكذا مثقالا بمقتضى رسالة وما قَصَد من إعادة رَجْعةٍ شريفةٍ بذلك ، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور ، وكُتِب به رَجْعةٌ شريفة علىٰ العادة فى مثل ذلك ، وجُهِّزت علىٰ يدِ فلان المشار إليه ، فيكونُ ذلك علىٰ خاطرِه الكريم .

وأما ماذكره : من أمر النُّحَاس وقِلَّته من عدم وصول شىء منه ، وأنه لم يُوجَد منه بعد الجَهْد سِوىٰ مبلغ عشرين قِنْطارا عند الفرَنج ، وأمر الفُلُوس العُتُق وبقائها ، وكثرةِ الفلوس الجُدُد ، وقلّةِ وجُود الدِّرْهم والدِّينار ، وتوقُّف المَعَايش بسبب ذلك ، وما عرضه علىٰ الآراء الشريفة إن اقتضت الآراءُ الشريفةُ إبطال دار الضرب نحو شَهْرين إلىٰ أن يحضُر نحاسٌ يستعْمَل ، وتخِفَّ الفلوسُ ويستصرف ما فى أيْدى الناس ، فقد علمنا ذلك وأجبْنا سؤاله فيه . ومرسومُنا أن يَعْمَل فيه بما تكون [به] المصلحةُ عامَّةً للرعية ، وتَبْطيل دار الضرب مدّةً يراها المقرُّ الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمر الأمير فلان وما قصده من حُسْن النظر الشريف فى حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وصار ذلك علىٰ الخواطرِ الشريفة .

وأما ما أشار إليه : من أمر فلان ، وما اتّفق من الكَشْف عليه حسَبَ ما اقتضته المراسيم الشريفة ، وما ادَّعىَ عليه من كذا وكذا ، وما كُتِب عليه من المحاضر وتجهيزها إلىٰ الأبواب الشريفة ، وتجهيز المشار إليه إلىٰ الأبواب الشريفة صُحبةَ البَرِيدىّ المجهِّز

فى طلبه فى أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك على الصُّورة التى شرحها ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ به جملةً وتفصيلا ، و بما آشتملت عليه المحاضرُ المذكورة ، وبقى ذلك على الخواطر الشريفة ، وآقتضتِ الآراءُ الشريفة إعادتَهُ ومن معه لخَلَاص من شكاته عند المقرّ الكريم ، وقد أعدْناهم صُحبةَ من يَحْضُرِبهم إلى المقرّ الكريم ليُكْشَف عليه وتَنظُم المَحَاضر وتجهّز .

وأما ما أشار إليه من تجهيز (١) وتعريف الحِسْبة بالأسعار عن البرّ الفلانى على العادة فى ذلك إلى الأبواب الشريفة ، فقد علمنا ذلك ووصل ماجهّزه من ذلك ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بما آشتمل عليه ، وشكَرْنا همةَ المقرّ الكريم وسعيدَ تَقدِماته ، وجميلَ آعتماداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيُحيط علمهُ بذلك .

قلت : وعلى ذلك يُقاس مايُكتَب به إلى سائر النُّوّاب بالشام والديار المصرية فَمَنْ دُونَهم ممن جَرتِ العادة بمكاتبته من الأبواب السلطانية فى الأبتداء والجواب .

المأخــــذ الثانى

(فى مَعْرِفة أوضاع هـــذه المكاتبات)

أوّلُ مايجب من ذلك معرفة قَطْع الورق الذى يُكْتَب فيه . وقد سبق فى المقالة الثالثـة فى الكلام على قَطْع الورق بيانُ مقادير قَطْعه ، وأنّ من جملتها قَطْع العادة: وهو القَطْع الصغير . وفى هذا القطع تُكتَب عامّةُ المكاتبات المتقدّمة ، مما يكتب به لأرباب السُّيوف والأقلام بمصر والشـام على آختلاف مقاديرهم ، وتبايُنِ مَرَاتبهم

(١) بياض فى الأصل .

فى الرِّقعة والضِّعَة، خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِب إلىٰ والدة السلطان الأشرف « شعبان بن حسين » فى قطع الشامىّ الكاملِ . وقد تقدّم هناك أنَّ الكتابة فى قطع العادة جملةً تكون بقلَم الرِّقاع . فتكون كتابةُ جميع هذه المكاتبات به .

ثم أوّل مايكتُبُ الكاتب فى المكاتبة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكْتُب فى رأس الدَّرْج ، من وجه الوَصْل، من أوّله ، من الجانب الأيمن « إلىٰ فلان » . ويكتب علىٰ سَمْته فى الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » . ويكتب فى وسَطهما علىٰ سَمْتِهما التعريفَ بالعلامة التى تُكْتَب . فإن كانت العلامةُ الأسمَ، كتب «الأسمُ الشريفُ» . وإن كانت بالأخوّة، كُتِب «أخوه» . وإن كانت بالوالِدِية، كتب «والده» . ثم يَقلِب الدَّرْجَ فيكتُب علىٰ ظاهره عُنْوانَ المكاتبة فى أسفل ما كتب عليه فى رأس الورق باطنا من أوّل عرض الدَّرْج إلىٰ آخر ألقابِ المكتوبِ إليه . ويقلب الدعاء المبتدأ به فى المكاتبة ، فيدعُو له به فى آخر الألقاب . ثم يخلى بياضًا ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نيابةِ سلطنةٍ أو ولايةٍ أو آسم أو غير ذلك . وتكون الأسطر متقاربةً متلاصقةً .

فإن كان المكتوب إليه النائبَ الكافلَ مثلا، كتب فى العنوان : «المقرّ الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ» إلىٰ آخر ألقابه . فإذا آنتهى إلىٰ آخر الألقاب ، كتب « أعزّ الله تعالىٰ أنصاره » . ثم يترك بياضا ويكتب : « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» بحيث ينتهِى آخِر كتابة ذلك إلىٰ آخرِ السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافلَ السلطنة بالشام، كتب : «المقرّ الكريم» إلىٰ آخر الألقاب «أعزّ الله تعالىٰ أنصاره» ثم يَتْرُك البياضَ المذكور، ثم يكتب : « كافلُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس » .

وإن كان المكتوب إليه نائبَ السلطنة بحَلَب، كتب : « الجَنَاب الكريم » إلىٰ آخر ألقابه « أعز الله تعالىٰ نُصْرته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائبُ السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة» .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابُلُس ، أو نائب حَمَاة ، أو نائب صَفَد ، كتب : « الجناب العالى » إلىٰ آخر ألقابهم « ضاعف الله تعالىٰ نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصَفَد المحروسة » . وكذا فى البواقى بحسَبِ تعريف كلٍّ من المكتوب إليهم علىٰ ما مر ذكره فى مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له «المَقَرّ الكريم» ، أو « الجناب العالى » ، أو « المجلس العالى » مع الدعاء ، ترك من أعلىٰ الدرج ثلاثةَ أوصالٍ بياضا بالوصل المكتوب فى ظاهره العُنْوان ، ثم تكتب البسملة فى رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوبُ إليه ممن يُكْتَب له «المجلس العالى» مع «صدرتْ» فما دُونَ ذلك، تُرِك فى أعلىٰ الدرج وصلانِ بياضًا فقط . وتكتَبُ البسملة فى رأس الوصل الثالث، ثم يكتَبُ سطران من أول المكاتبة تحتَ البسملة علىٰ سَمْتها ملاصقًا لها، ثم يُخلَىٰ بيتُ العلامة بياضًا ويكتب السطر الثانى علىٰ رأس إصبع (١) أو نحوه من أسفل ذلك الوصل، ثم يكتب السطر الثالث فى الوصل الذى يليه علىٰ بُعْد ثلاثةِ أصابع معترضات من السطر الثانى، ويؤتىٰ علىٰ ذلك إلىٰ آخر المكاتبة .

(١) المراد علىٰ قدر إصبع .

وقد كانت أوصالُ الوَرَق فى الزمن المتقدم طويلةً : فكان يكْتَب فى كل وَصْل ثلاثةُ أسطر، وبين كلِّ سطرين أكثرُ من عَرْض ثلاثة أصابعَ . أما الآن ، فقصُرت الأوصال، وصار كلُّ وصل لايتسع فى الغالب أكثرَ من سطرين . فإذا آنتهى إلى آخر المكاتبة، أخلى بياضًا يسيرا، ثم كتب فى وَسَط الوصل : « إن شاء الله تعالى » ثم يكتب : « كتب فى كذا من شهر كذا » فى سطر، وتحته سنة كذا وكذا فى سطر تحته، بينهما قدرُ إصبعَيْنِ؛ ثم يكتب المستَنَد بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلقِّ كاتب السرّ كتب « حَسَب المرسومِ الشريف » . وعلى ذلك يجرى الحكم فى جميع مايُكْتَب فى البَرِيد، وهو المختصُّ بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلقِّ كاتب السّرّ أو أحد من كُتَّاب الدَّسْت، كتب : «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته « من دار العَدْل الشريف » فى سطر آخر . وإن كان بقِصَّة مشمولة بخطّ السلطان، كتب : «حَسَب الخطّ الشريف» بمقتضى أعلى ذلك . وإن كان بخطّ النائب الكافل ، كتب : « بالإشارةِ العاليـة الأميريَّة العاليـَّة الفلانية» فى سطر، وتحته فى سطر آخر « كافل الممالك الشريفةِ الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان بأمر الوزير ، كتب « بالإشارة العالية الأميريَّة الوزيرية الفلانية » فى سطر ، وتحته فى سطر آخر « مدبِّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشـارة العـالية الوزيريّة الصاحبيّة الفلانية ، مدبِّر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى» سطرين على نحو ما تقدم . وإن كان برسالة الدَّوَادار : فإن كان مقدَّم ألف ، كتب « برسالة الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفلانىّ » فى سطر، وفى سطر آخر تحته «الدَّاودَار الناصرىّ أو الظاهرىّ» ونحو ذلك «ضاعف اللهُ تعالى نعمتَه» . وإن كان طبلخاناه، كُتِب بدل الجنَاب «المجلس» ويدعوله «أدام الله تعالى

نعمته» . وإن كان بأمر الإستادار، كتب «بالإشارة العالية الأميرية الفلانية إستادار الفلانية أعلاها الله تعالى» . وإن كان من ديوان الجيوش المنصورة، كتب «حسب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته «من ديوان الجيوش المنصورة» فى سطر آخر . وإن كان من ديوان الخواص الشريفة، كتب «حسب المرسوم الشريف من ديوان الخواص الشريفة» على ماتقدم . وإن كان من الدولة الشريفة : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليل، كتب «حسب المرسوم الشريف من الدولة الشريفة» على نحو ماتقدم . وقد تقدم الكلام على المستندات فى الجملة، فى مقدمة الكتاب عند الكلام على ديوان الإنشاء .

المقصـــد الثانى

(فى المكاتبات العامة إلى أهل هذه المملكة : وهى المطلقات)

قال فى "التعريف" : وأقسامها لا تخرج عن ثمانية أقسام : إلى الوجه القبلى، وإلى الوجه البحرى، وإلى عامة الديار المصرية، وإلى بعض البلاد الشامية، وإلى البلاد المصرية والشامية، وإلى الممالك الإسلامية وما جاورها، وإلى بعض أولياء الدولة، كالأمراء بدمشق أو حلب، وإلى قبائل العرب، أو التركمان، أو الأكراد أو بعضهم .

قلت : والقاعدة فى المطلقات أنه إذا اجتمع فى المطلق كبار وصغار، يغلب حكم الأكبر منهم على الأصغر : تعظيما لأمر الأكابر . فإن كان فى المطلق من الألقاب ماتختص به الأكابر دون غيرهم، استوفى للكبير مايختص به من الألقاب وأتى بالقدر المشترك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها مايُختَم . قال فى "التعريف" : وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان فى سِرٍّ يُكتَم ولا يُرادُ إظهارُه إلا عند الوقوف عليه ، فيُختَم على عادة الكُتُب . وهذا يكون عنوانُه بظاهره كما فى غيره من المكاتبات المُفرَدة .

ومنها مالايُختَم ، وهو سائر المطلَقات . قال فى "التعريف" : وعُنوانُها (مخالف لعنوان)[1] الكُتُب المفردة للآحاد : فإنَّ تلك فى ظاهر الورَق ، وهذه فى باطن الورق ، فوقَ وصلين أو ثلاثة ، فوقَ البسملة . ويقال فيها : مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلى الوُلاة والنُّوّاب ، أو غير ذلك من نحو مافى الصدر ، فيضَمَّن العنوانُ ملخَّص مافيه . ثم يقال : على ماشُرِح فيه ، أو حسَبَ ما شُرِح فيه . ومن قاعدتها أن يصَرَّح بذكر المكتوب إليهم فى المطلَق ، بخلاف غيرها من المكاتبات المفرَدَة . قال فى " التعريف " : ثم بعد التعريف فى المطلَقات الدعاءُ ، ثم الإفضاء إلى الكلام ؛ وفى آخرها يتعيَّن أن يقال : «فليَعلَموا ذلك وليَعتَمِدُوه» .

وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(المطلقات المكبَّرة)

قال فى " التعريف " : وهى مايكتب إلى سائر النُّوّاب بالممالك الشريفة ، خلا سِيس فإنها مستَجدَّة ، غير أنه إن رُسِم باضافته إليهم ، فيحتاج إلى تحرير الحال فى أمره : هل يُكتَب له بعدَ نائب طَرَابُلُس أو بعد نائب صَفَدَ ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدَّم العسكر بغزَّة ، ولا نائب الكَرَك ، لأن رتبته فى المكاتبة أعلى منهما . فإنها نظيرُ مكاتبة نائب طرابُلُس وحماة وصفد .

(١) فى الاصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والتصحيح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا على ما كان الامر آستقرّ عليه من كونها نيابةً فى أوّل الامر ، أما بعد آستقرارها تَقْدِمةَ عسكر، فإنه يكون بعـد مقدّم العسكر بغَزّة : لأن كُلًّا منهما مقدّم عسكر ، ومقـدّم العسكر بغزّة أقدمُ من مقـدّم العسكر بسِيس . وأيضـا فإن غَزّة مضافةٌ إلى دِمشْق وسِيس مضافةٌ إلى حَلَب ، ودَمَشْقُ أكبرُ من حَلَب .

قال فى "التثقيف" : وصورةُ هذا المطْلَق أن يكتب فى الطُّرّة : «مثالٌ شريف مطْلَق إلى الجنابين الكريمين، العاليين، الأميريّين، الكافلَيْن، الفلانيين، نائبَيِ السلطنة الشريفة بالشام وحَلَب المحروستين، أعزّ الله تعالى نُصْرتهما، وإلى الجنابات العالية الأميريّة الفلانية أو الفلانىّ والفلانىّ» على الترتيب . ثم يقال : «نُوّاب السلطنة الشريفة بطَرَابُلُس وصَفَد وحَمَاة المحروسات . وإلى الجَناب العالى والمجلس العالى الأميرىّ الأميريّن الفلانيين أو الفـلانى والفلانى، مقـدّم العَسْكر المنصور بغَزّة المحروسة، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس، أدام الله تعالى نعمتَهما، بما رُسِم لهم به أن يتقـدّم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلى آخره . ثم يُخَلِّي بياضًا يسيرًا . ثم يكتب «على ماشُرح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضًا بالوصل الذى تُكْتَب فيه الطرّة . ثم تكتب البسملة فى أعلى الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره بإصبعين ماصورته : «أعزّ الله تعالى نُصْرة الجنابين الكريمين! وضاعفَ وأدام نعمة الجناب العالى، والمجلس العالى، الأميريّة، الكبيرية، العالمية، العادلية، المؤيّدية، الزعيمية، الغَوْثية، الغِياثية، المُثاغِريّة، المرابطيّة، المشيّدية، الظهيرية، الكافلية، الفلانية أو الفلانىّ والفلانى» إلى آخرهم : « أعِزّاء الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصار الغُزاة والمجاهدين، زُعَمـاء الجيوش، مقدّمى العساكر، ممهّدى الدُّوَل، مشيّدى الممالك، عمادات المِلّة، أعوان الأمة، ظهيرِى الملوك والسلاطين، سُيوف أمير المؤمنين، نُوّاب السـلطنة الشريفـة بالشام وحَلَب

وطَرابُلس وحَمـاةَ وصَـفَد المحروسات ، ومقـدّم العسكر المنصور بغزّة المحروسـة ، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ثم الدعاء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال : « صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى الجَنابين الكريمين والجَنابات العالية ، والمجلس العالى ، تُهْدِى إليهم من السلام كذا ، وتُوضِّح لعلمهم الكريم كذا وكذا ، فيُحيط علمُهم الكريمُ بذلك ، والله تعالى يؤيِّدهم بمنّه وكرمه » . وتكمّل بالمشيئة وما بعدها . والعلامة «أخوهم» . قال : فى "التثقيف" : وإن أضيف إليهم نائب سِيس (١) ... ... فى الطرّة والصدر حسب ما تقدّم ذكره .

قال فى "التثقيف" : ومما ينبَّه عليه أنه قد يُكْتَب تارة إلى بعض هؤلاء النوّاب ويُختَصر البعض ، بحَسَب ماتدعُو الحاجة إليـه ، فيُكْتَب كذلك ويختصر منـه من رُسِم باختصاره ، ويُذْكَر كلُّ واحد منهم فى محلّه ومرتبتـه على الصُّورة المتقدّمة من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذى لم يَزَل الحالُ مستقرًا عليه حين كانت مكاتبـةُ نائب الشام « الجناب الكريم » نظيرَ نائبِ حلَب . أما الآن حيث آستقرت مكاتبته «المقرّ الكريم» . فإنه لايليق أن يكتب لغيره بألقابه الخاصّة به . وإن آختُصِرت الألقابُ الخاصّةُ به كان فيـه نقصٌ لرتبته ، فيلزم من ذلك أن يكتب إليـه على آنفراده ، ويُكْتَب المطلَقُ لمَن رُسِم به ممّن عداه من النوّاب المذكورين .

قلت : وقد رأيت فى بعض الدساتير كتابة المطلقِ الشاملِ لكافل الشام وغيره من النوّاب بعد آستقرار مكاتبة نائبِ الشام بالمَقرّ الكريم على صورتين :

---

(١) بياض بالأصل ولعله يضاف ، أو أضيف فى الطرة الخ .

الصورة الأولىٰ — أن تُستوفىٰ ألقابُ المقرّ الكريم بدعائه ، ويؤتىٰ بألقابه الخاصّة به ، ثم يُعْطَف عليه الجنابُ الكريم ، والجنابات العالية ، والمجلس العالى ، بالألقاب المشتَرَكة ؛ ويميَّز مايمكن تمييزه منها ، ويكمّل علىٰ نحو ماتقـدم : وذلك بأن يكتب فى الطرّة «مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، أعزّ الله تعالىٰ أنصاره ، ونُوّابِ السلطنة الشريفـة بحَلَبَ ، وطرابُلُسَ ، وحماةَ ، وصَـفَدَ ، ضاعف الله تعالىٰ نعمتهم ، ومقدّمِ العسكر المنصور بغَزّةَ وسِيسَ المحروستين ، أدام الله تعـالىٰ نعمتهما بمـا رسم لهم به» إلىٰ آخره . ثم يُخْلِى ثلاثة أوصال ، علىٰ ماتقـدّم ، ويُكْتب تِلْوَ البسملة فى أوّل الوصـل الرابع : «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم العالى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأتابِكىّ ؛ ونُصرةَ الجناب الكريم ، وضاعف وأدام نعمة الجنـابات ، والمجالس العاليـة ، الأميريّة ، الكبيريّة ، العالمية ، العادلية ، المثاغِرِيّة ، المرابطيـة ، العَوْنية ، الذُّخْرية ، الغِياثيّة ، الممهِّدية ، المشيِّدية ، المقدَّمية ، الظهيرية ، الكافلية ، الفلانى والفلانى» إلىٰ آخرهم : «معِزّ وعزّ الإسلام والمسلمين ، سـيِّدى الأمراء فى العـالمين ، ناصِر ونُصْرة الغُزَاة والمجاهـدين ، زُعَماء الجيوش أتابك ومقـدّمى العساكر ، ممهِّدى الدول ، مشـيِّدى الممـالك ، أعوانِ الأمة ، كُهُوف الملة ، ظُهَراء الملوك والسلاطين ، عَضُد وسيوف أمير المؤمنين ، كافل السلطنة الشريفـة بالشام المحروس ، ونُوّاب السلطنة الشريفة بحلب ، وطرابُلُس ، وحماةَ ، ومقدّم العسكر بغزّة وسيس ؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ولا زال إلىٰ آخره . «أصـدرناها إلىٰ المقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية ، تُهدِى اليهم من السلام كذا ، ومن الثّناء كذا ، وتُبْدِى لعلمهـم الكريم كذا وكذا . ومرسومنا للمقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فيُحيط علمُهم بذلك» .

الصورة الثانية — أن تُكتَب الطرّة على ماتقدّم، ثم تكتبُ ألقابُ المقر إلى آخرها . ثم يقال : « وتبدى لعلمه الكريم وعلم الجناب الكريم والجنابات العالية والمجلس العالى الأميرية الكبيرية » إلى آخر الألقاب «أن الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا للمقر والجناب الكريمين والجنابات العالية والمجلس العالى أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيحيط علمهُم بذلك» والعلامةُ فى هذا المطلق « أخوهم » اعتبارا بالعلامة إلى كافل الشام ونائب السلطنة بحلَب .

الضرب الثانى

(المطلَقات المصغّرة)

وقد ذكر لها فى "التعريف" قواعدَ كليَّة، وأشار إلى اختلاف مقاصدها فى ضمن الكلام الجُمْلِى، فقال : وفى كلِّها يُكتَبُ : « مثالنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية ، الأمراء ، الأجلّاء ، الأكابر، المجاهدين، المؤيدين، الأنصار، الغُزاة ، الأنجاد ، الأمجاد ، أمجادِ الإسلام ، أشرافِ الأمراء ، أعوانِ الدولة ، عُدَد الملوك والسلاطين : الوُلاةِ، والنوّابِ، والشادّين، والمتصرّفين، بالوجه الفلانى، أو بالديار المصرية ، أو بالبلاد الشامية ، [أو بالبلاد الفلانية ، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية(١)] وسائر الممالك الاسلامية » . قال : وقد يزاد فى هذا لمقتضيه : «والثُّغور والحُصُون والأطراف المحروسة». قال : فإذا كان إلى الممالك الاسلامية ، قيل «بالديار المصرية، والبلاد الشامية، وسائر الممالك المحروسة ، وما جاورَها من البلاد الشّرقية، والممالك القانية». وقد تكون إلى جهة الرُّوم . فيقال : «وما جاورَها من البلاد الروميّة وماليها» . ثم عقّب ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلى بعض أولياء

---

(١) ساقط من قلم الناسخ والتصحيح من التعريف .

الدولة نظر : فإن كان إلىٰ عامّة أمراء دِمَشْق ، قيل : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجالس العالية الأمراء » . وبقيـة الألقاب من نِسْبة مايكتبُ للمجلس العـالى . فإذا آنتهىٰ إلىٰ أعضاد الملوك والسـلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويجوز إطلاق هـذا الافراد علىٰ الجمع](١) قال : جماعة الأمراء مقـدّمى الألوف ، وأمراء الطبلخاناه، وسائر [مجالس الأمراء](١) أمراء العَشَرات، ومقدّمى الحَلْقة المنصورة . وإن كان يُكتبُ إلىٰ حلَبَ أو غيرها من الممالك فبالسامية . وإن كان لأمراء العُرْبان أو التُّرْكُمان أو الأكراد، كُتِب علىٰ عادة المطلَقات بالسامية، وكتب بعد عُدَد الملوك والسلاطين «الجماعة الفلانية» أو غير ذلك مما يقتضى التعريفَ بمن كُتِب إليه .

أما فى "التثقيف" فقد رتَّب المطلقات المصَغَّرة علىٰ ستة أصناف :

الصنف الأول — المطلقات إلىٰ جميع نُوَّاب القلاع بالمملكة الشامية، أو بالمملكة الحَلبيَّـــة .

وصورة ما يكتب إليهم فى الطرَّة : « مثـالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ المجالس العالية والسامية الأميريَّة ، ومجالس الأمراء النُّوّاب بالقلاع الفُلَانية المحروسـة ، أدام الله تعالىٰ نعمتَهم بمـا رُسِم لهم به من كذا وكذا» إلىٰ آخره. ثم يقال : علىٰ ماشُرِح فيه ؛ ثم يُخْلىٰ وصْلَان بيـاضا بوصل الطرّة، ثم تكتب البسملة فى أعلىٰ الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعـد البسملة : « صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجالس العاليـة والسامية الأميريّة » وبقية ألقابهم . « ومجالِس الأمراء الأجِلّاء، الأكابر، المجاهدين، المؤيَّدين، الأنصار، أمجاد الإسـلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء فى العالمين، أنصار الغُزَاة والمجاهـدين، مقدّمى العساكر ، كُهُوف المِلّة ، أعوانِ الأمّة ، ظهيرى الملوك

(١) الزيادة من التعريف .

والسلاطين، النوّاب بالقِلاع المنصورة بالمملكة الفلانية المحروسة» . والدعاء إلى آخره «موضحة لعلمهم كذا وكذا . ومرسومُنا لمجالس العالية والسامية ، ومجالس الأُمَراء أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فيُحيطُ علمُهم بذلك . والله تعالى يؤيّدهم بمنّه وكرمه» والعلامة «والدهم» .

الصنف الثانى — المطْلَقات إلى أصاغر نوّاب القِلاع ، ممن يكتب إليه بالسامىّ بالياء، أو بالسامى بغير ياء، أو بمجلس الأمير .

وصورة مايكتَب إليهم فى الطرّة : «مثالٌ شريفٌ مطلَق إلى المجالس الساميّة، ومجالس الأمراء النوّاب بالقلاع الفلانية ، أو بولاية فلانة وفلانة ، أدام الله تعالى عُلُوّهم» بما رُسِم لهم به نظير ماتقدّم . وبعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس الساميّة، ومجالس الأمراء، الأجِلّاء، الأكابر، الغُزاة، المجاهدين، المؤيّدين، الأنصار ، أمجاد الإسلام ، أشراف الأمراء، زُيُون المجاهدين، عُمَد الملوك والسلاطين، أو عُدَد الملوك والسلاطين، النُوّاب بالقلاع الفلانية المحروسة» حَسَب ما كتب فى الطرّة ، والدعاء «يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسومنا لمجالس الساميّة ومجالس الأمراء أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فليعلموا ذلك ويعتَمِدُوه ويعملوا بحَسَبه، والله الموفق بمنّه وكرمه» والعلامةُ الاسم الشريف .

الصنف الثالث — المطلقات إلى عُرْبان الطاعة بالممالك الشاميّة .

والأمر فيه كما فى الصنف الذى قبله . قال فى "التثقيف" : فإن كان المطلَق إلى طائفة من العُرْبان ممن له عادةٌ بمكاتبة جليلة : بأن تكون العلامة «والده» أو نحو ذلك : كآل مُهَنّا، وآل فَضْل، وآل عَلِىّ، وآل مِرا، ونحوهم، فإنه تكونُ صورة مايكتب فى الطُرّة : «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى جماعة العُرْبان، آل فلان»

إلىٰ آخره . وفى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلىٰ كلّ واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء» وبقية الألقاب «الكُشَّاف(١) والوُلاة والنوّاب بالوجهين القبلى والبحرىّ» . ثم الدعاء . ثم يقال : «يتضمَّن إعلامهم كذا وكذا» . ثم البقية من نسبة ما تقدّم .

قال فى "التثقيف" : وغالبا يُفْرَد الوجه القبلىّ بمطلقٍ شريف ، والوجه البحرىّ بمطلقٍ شريفٍ . قال : وقد تضافُ إلىٰ الوجه البحرىّ الثُّغُور . فيقال : «الكُشَّاف والوُلَاة والنُّوّاب بالوجه البحرىّ والثُّغُور المحروسة» . قال : و إضافة الثُّغُور لاتقع إلا نادرا، لاسيمــا وقد صار ثغرُ الإسكندرية نيابةً لا ولايةً . ثم قال : وفى هــذا الوقت قد يتعذَّر إضافة نائب الوجه القبــلىّ مع الوُلَاة فى المطلق لارتفاع مكاتبته عنهم بدرجات، فيفْرَد بمثالٍ شريف، ويُكْتَب المطلق إلىٰ بقية الكُشَّاف والوُلَاة . ثم قال : هذا الذى يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم، بأن يكتب : «أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» إلىٰ آخره . ثم يقال : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى» إلىٰ آخره «وتُوضِّح لعلمه الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء» إلىٰ آخر ألقابهم «الوُلَاةِ بالوجه القبلى» أن الأمر كذا وكذا: ويكمل علىٰ ماتقدّم .

قال فى "التثقيف" : ومما جرَتِ العادةُ به أن يُكتَب مطلقٌ شريفٌ إلىٰ الأمراء بالمملكة الطرابُلُسِيَّة ، أو الحَمَوية ، أو الصَّفَدية وغيرها ، عنـد ولايةِ نائب السلطنة

(١) من هنا إلىٰ قوله بعد قال فى التثقيف ومما جرت العادة به الخ لايتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالممالك الشامية الذى هو موضوع الصنف الثالث كما لايخفى ، ولعله مقدم مما يأتى بعد فى الكلام علىٰ المطلقات بالديار المصرية فتنبه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ، فيكتب على هذا الحكم، ولكنه بعُنوانٍ بغير طُرّة .
قال : وصورته فى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية ، ومجالس الأمراء الأجلاّء الأكابر» إلى آخر الألقاب، والدعاء «يتضمن إعلامهم كذا وكذا» إلى آخره كما تقدم ،ولكنه لايصَرّح بذكر الوُلاة والنوّاب كما يصَرّح بذكر من يُكتَب إليه المطلقُ فى غير هذه الحالة . والعنوان : « المجالس السامية ومجالس الأمراء الأجلاّء الأكابر» إلى آخر الألقاب والنُّعوت جميعها ، والدعاء ، والتعريف «أمراء الطبلْخانات والعَشَرات بطرابلس المحروسة، أو بحماة، أو بصَفَد، أو بغزّة . قال : أما مملكتا الشام وحلب ، فإنه لم تجر العادةُ بكتابة مطلق بولاية نائبهما، بل يكتب إلى أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكَرَك : فإنه يكتب إلى والى القلعة به بمثل ذلك . وكذلك يكتب إلى الحاجب بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيئان يجب التنبه لهما .

أحدهما كلُّ ما كان من ألقاب المطلَقات بصيغة الجمع وهو (١) كأعضاد، فإنه يجوز فيه الإفراد فيقال : فيه عَضُد، وهذا مما نَبَّه عليه فى "التعريف" فى الكلام على المطلقات .

الثانى . قال فى "التثقيف" : فإن قلت : لأىّ شىء تُذْكَر أسماء الوُلاة والنُّوّاب والعُرْبان وغيرهم فى الصَّدْر بعد تمام النُّعوت وقبل الدعاء، ولا تُكتَب فى صدر المطلقات إلى الأمراء بالممالك المتقدّمة الذكر عند ولاية النائب بها أو غيره ؟

(١) بياض بالأصل . ولعله وهو فى الأصل مصدر كأعضاد الخ كما تقدم مثله للؤلف فى الألقاب مرارا، فتنبه .

فالجواب أن ذلك فى صدر المثال الشريف هو التعريفُ الذى من عادته أن يكون فى العُنْوان ولا يُستغنَىٰ عنــه فهو قائم مَقامَه، حيث لاعُنْوان لذلك المطلَق ، إنمـا هو بطرّة لاغير ، ولهـا عُنْوانات ، والتعريف مـذكورٌ فيهـا فلا حاجة إلىٰ ذكره فى الصدر . ثم قال : ومن الجمـاعة من يُنازع فى ذلك ، ويدّعى أنّ ذلك فى الطرّة كافٍ ومغْنٍ عن ذكره فى الصدر، وقائمٌ مقام التعريف فى العُنْوان . ثم قال : وهو خطأ، وليس بشىء . والأصح ماقلناه .

[الصـنف] (١) الرابع — قال فى "التثقيف" : إذا كان المطلق فى أمر يتعلّق بالديار المصرية والبـلاد الشامية، تكون صـورتُه « إلىٰ الكُشّاف والوُلاة والنوّاب والشادّين والمتصرفين بالطُّرقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة، ٱختُصِر منه ذكر الطرقات المصرية» .

[الصنف] (١) الخامس — ذكر فى "التعريف" أنه يقال فى آخر المطلقات بعـدَ فلْيَعْلَموا ذلك ويعتمِدُوه : «بعد الخط الشريف» . قال فى "التثقيف" ولعل هذا كان فى الزمن الذى كان هو مباشرا فيه، أما الآنَ فإنه لم تجر بذلك عادةٌ، ولم يكتب ذلك فى مطلق شريف مكبَّرٍ ولا غيره أصلا .

[الصنف] (١) السادس — ذكر فى "التثقيف" أنه رأىٰ بخط القاضى ناصر الدين آبن النّشائى أنه كتب مطلقا إلىٰ المجاهدين بمِصْـياف ؛ يعنى الفِـداوية صورته : « يعـلَم كُلُّ واقف علىٰ مثالنا هـذا من المقدّمين الأجلاء الغُزاة المجـاهدين المؤيَّدين الأنصار، الأتابِك فلان والأتابِك فلان جماعة المجاهدين» ثم الدعاء .

(١) زدنا هذا اللفظ توضيحا للقام وتميا لمقسم الكلام .

الضـــرب الثـانى

(من المطلقـات ، البَرالغ)

بالباء الموحدة والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة جمع بَرْلَغ[(١)] ، وهى لفظة تركيـة معناها المرسوم ؛ وعليهـا جرىٰ عُرْف كُتَّاب بلاد الشرق ، وقلّ أن تُكْتَب بالديار المصرية ، ولذلك لم يتعرَّض لها فى "التعريف" ولا فى "التثقيف" : وهذه صورة بَرْلَغ شريف رأيتهـا فى تذكرة المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله فى الجزء السادس والأربعين منها ، بخط أخيه المَقَرّ العلائىّ بن فضل الله رحمهما الله تعـالىٰ ؛ كُتب فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» . فى عاشر شهر رجب الفَرْد سنة تسع وعشرين وسبعمائة لتمربُغَا، الرسولِ الواصل إلىٰ الديار المصرية، عن القانِ أبى سعيدٍ صاحب مملكة إيران بالإكرام والمسامحة بمـا يلزمه . وصورته فى أوّل الدرج .

مثـالٌ شريفٌ مطلق إلىٰ كافّة من يصل إليه ، ويقف عليـه ، لمجلس السامىّ الأميرىّ السيفىّ تمربغا الرسول ، بالطَّرْخانيَّة ، وتمكينِ أصحابه من التردُّد إلىٰ الممـالك الشريفة الإسلامية ، وإكرامِ حاشيتهم وتسهيل مَطْلَبهم ، ومسامحتهم فى البيع والشِّراء بمـا طُلِب من الحقوق علىٰ اختلافها ، وتحذيرِ من سَمِـع هذه المراسيمَ المطاعة ثم أقْدم علىٰ خلافها . وبعد البسملة :

الحمد لله الذى بسط أيدينَا الشريفةَ بالجُود ، ونَصَب أبوابَنَا الشريفة كعبةً تَهوِى إليها أفئدةُ الوُفُود ، وأطاب مَناهِلَها لـكافّة الأُمَم لتتَنَابَهَا فى الصُّدُور والوُرُود .

نحمَدُه علىٰ نعمه التى كَمْ بلَّغَتْ راجيًا مايرجُوه ، ونشهد أن لاإلٰهَ إلا الله وحدَهُ لاشريك له شهادةً تبيضُّ بهـا الوُجوه ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسوله الذى نَدَب

(١) كتب بهامش الأصـل ما نصه «لو لم يقيـده بالباء الموحدة لكان أولى على مالا يخفى» ومراده أنه بالمثناة التحتية كما تقدم .

إلى مكارم الأخلاق بقوله : «إذا أتاكُم كَرِيمُ قومٍ فأكرِموه» ؛ صلى الله عليه صلاةً تزيد من يَقْرُن الثناء بهاتكريما، ثم على آله وصحبه وسلَّم تسليما .

وبعد : فإنه لما حضر المجلسُ السامىُّ الأميرىّ، الأسفَهْسَلارىّ، السَّيفىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ناصحُ الدولتين، ثقةُ المملكتَيْن، فخرُ الخواصّ المقرَّبين ، عضدُ الملوك والسلاطين ، تمربغا الرسول ـ أنجح الله تعالى مَسَاعيه، وأوجب الرعاية لمن يُرَاعيه ـ إلى أبوابنا الشريفة ونُورُ ولائه يَسْعَى بين يديه، وإخلاصُ نيَّته يَظْهر عليه ، بلَّغ إلينا ماأرسل فيه عن الحضرة الشريفة العالية ، السلطانيةِ، العالميةِ، العادليَّة، الشاهنشاهية، القانيةِّ، الأوحدية، الوَلَدية، العزيزية، المعظَّمية، المَلِكية، العلائيـة، أبى سعيد بَهادِر خان ـ زِيدتْ عظمتُـه ـ وظهر لنا من كمال صِـفاته ما رمى البدْرَ التمام بنَقْصه ، ومن حسن تأتِّيـه فى خدمة من أرسـله مايُعْرَف به أنه أرسل حكيما ولم يُوصِّه ، وعَرَضَ على نظرنا الشريف البرلغ الشريف المكتتَب له عن الحضرة الشريفة، السلطان الأعظم، الولد العزيز المعظَّم، الملك بو سعيد ، أعز الله تعالى شأنه بالطَّرخانيّة ، وما نبَّه عليـه من مكانته العليه ، ورقَّه مطالبه من تأكيد الوصيّه، ثم رَغِب إلينا فى الكتابة على حُكْمه إلى كافَّة الممالك، وأن يُسطَّر له منها صحائفُ حَسَـنات تقضى بها الملوكُ وترضى بها المَلاَئك، فأجْرَتْه مراحمنا الشريفـةُ على كرمها المُعْتاد ، وأجارته نِعَمُنا الجزيلةُ وجاورتْه حيث سار من الأرض أو أقام من البِلاد، وأجابت صدقاتُنا الشريفة بتحقيق المأمول، وأكرمت كتابَهُ بمـا يستحق أن يكرم به كتابُ الرَّسول . ومرسومُنا إلى كلِّ واقف عليه من النُّوّاب والوُلاة والشادِّين والمتصرفين والمبـاشرين والمتحدِّثين وبقية الحكام أجمعين إلى كافة الممالك الشريفة الإسلامية شرقًا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا، أيدهم الله بالتوفيق، ويَسّر لهم الطريق، وجعل حُسْن تلقّيهم الوفودَ يأتى بهم من كلِّ فَجٍّ عَمِيق، أن يُجْرى

الأمير الكبير المقرّب تمريغا الرسول على ما ألِفَه فى أبوابنا الشريفة من كَرَم إكرامه، وفارقنا عليه من توقير جانبه وتَوفير آحترامه، ويُفْسَح لكلّ من يصل من جهَته فى التردُّد إلى هذه المَمالك الشريفه، والتردِّى بملابس النِّعم المُطيفه، وأن تُضاعف له الإعانة والعِنَايه، والمُراعاة والرِّعايه؛ ولا يُطْلَب أحد منهم فى البيع والشِّراء، والأَخْذ والعطاء، بشىء من المقَرَّرات الدِّيوانيه، والمُوجَبات السلطانيه؛ ولا يُؤْخَذ منهم عليها شىءٌ سواء كان قليلًا أو كثيرا، جليلًا أو حَقيرا؛ ولا يَتأوَّلُ عليهم أحدٌ فى هذا المرسوم الشريف، ولا يتعدّى حكمَه فى تصرُّف ولا تَصريف؛ بل يقف كلُّ واقف عليه عنده، ويعمَلُ به فى اليوم وما بعدَه، ويلحَظُ منه على مَن خالفه سيفًا مسلولًا وعلى مَنْ تجاوز حَدّه؛ فنحن نحذّر ونُنْذِر من سَطَواتنا الشريفة من سمعه ثم زاغ قلبُه عنه، أو مَنْ بلغه من لايفهم مضمونَه ثم لايسأل عمّا هو فرُبَّ حامل كلامٍ إلى مَنْ هو أوعى منه؛ فلتكُنْ عيونُهم له مُراعِيَه، ومسامعُهم منصتةً إلى سماعه بأُذُنٍ واعيه؛ والاعتماد على الخطّ الشريف أعلاه الله تعالى وشرّفه .

المقْصــــد الثالث

(من المكاتبات، فى أوراق الجَوَاز وبطَائق الحَمَام، وفيه جملتان)

الجمـلة الأولى

(فى أوراق الجَــوَاز)

وهى المعبَّر عنه فى زماننا بأوراق الطَّريق . قال فى "التثقيف" : تكون ورقةُ الطريق فى ثلاثةِ أوصال فى قَطْع العادة، يُكْتَب فى أعلاها سطرٌ واحدٌ، صورته : « ورقةُ طريقٍ على يد فلان بن فلان الفلانى » لاغير . ثم يُخْلَى بيتُ العلامة تقديرَ شبر، ويكْتَب فى بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثانى بأربعة أصابع مطبوقةٍ بغير

بسملة : « رُسِم بالأمر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ المَلكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه ، وأنفــذه وصَرّفه ـ أنْ يمكّن فلان الفلانىّ » . وتُذْكر ألقابه إن كان أميرا ، أومتعمّما كبيرا ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسَب ما يقتضيه الحـال « من التوجه إلىٰ جهة قَصْـده والعَوْد . ويحمل علىٰ فرسٍ واحدٍ أو أكثر من خيـل البريد المنصور من مَرْكزٍ إلىٰ مَرْكزٍ علىٰ العادة متوجّها وعائدا » فإن كان متميز المقـدار كُتِب : « و يعـامَلُ بالإكرام والاحترام ، والرِّعاية الوافرة الأقسام ؛ فليُعْتَمد ذلك ويُعْمَلْ بحسبه ، من غير عُدُول عنه بعـد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه » . قال : وما تقدّم من كتابة أنه يمكّن من التوجُّه والعَوْد ، هو فيما إذا كان عائدًا و رُسِم بتمكينـه من العَوْد ، وإلا فيكتَب « أنـ يمكّن من التوجُّه إلىٰ جهة قَصْده » . فإن كان قد حضر إلىٰ الأبواب وهو عائدٌ ، فالأحسن أن يكتب فيـه « أن يمكّنَ من العود إلىٰ جِهَة قصده » . وكذا « ويعامل بالإكرام والاحترام » لايكتَبُ إلا لأمير ، أوذى قَدْر كبير . فإن كان غيْره ، كتب [بَدَ]له « مع الوصيَّة به ورِعَايته » ونحو ذلك . و إن رسم له بنفقة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : « ويُصْرَف له من النَّفـقة فى كلِّ يومٍ كذا وكذا دِرْهـما » خلا الأماكن المرسوم بإبطالهـا . وذلك أن بالطُّرقات أماكن لا يُصْرَف فيها شىء الآنَ ، فيُحتاجُ إلىٰ أن تُسْتثنىٰ ، وكانت قبل ذلك تُعيَّنـ ، وهى : بُلْبَيْس ، وطَفِيس ، وأَرْبَدُ وغيرها . ثم كثُرت عن التَّعْداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : وممـا ينبّه عليه أن صاحب ورقة الطريق إنْ كانـ من ممـاليك النّواب أو رُسُل أحدٍ من أكابر البلاد ، ذكر فيه بعد ذكر مايليق به من الألقاب : «فلانٌ مملوكُ فلان أو رسول فلان» . وتُذْكَر ألقاب مخدومه التى كوتب بها آختصـارا . والا تذكر[(1)] نعوته علىٰ يدِ من رسم بنفيه ،

(١) كذا فى الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلىٰ يد منْ ، و إن رسم بنفيه كتب الخ تأمل .

كتب : «أنْ يمكَّن الأميرُ فلان الدين فلان من التوجُّه صُحبةَ فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة، أو أحد النقباء بالباب الشريف ليوصِّله إلىٰ المكان الفلانى، ويحمل علىٰ كذا وكذا فرسًا من خيل البريد المنصور» إن كان قد رُسم له بشىءٍ من خيل البريد «ويحمل البَريدىُّ علىٰ كذا من خيل البريد المنصور» أو «ويحمل النقيبُ علىٰ فرس واحدٍ من خيل الكِراء من ولاية إلىٰ ولاية علىٰ العادة فى ذلك، ويمكّن البَريدىّ إن كان بَريديًا أو النقيبُ إن كان نقيبًا من العود إلىٰ الباب الشريف» . ثم يكمل بنسبة ماتقدّم . وإذا فرغ من صورته، كتب بعد ذلك «إن شاء الله تعالىٰ» ، ثم التاريخ والمستَنَد علىٰ العـادة .

قال : فى "التثقيف" : والمستَنَد فى أوراق الطريق أحدُ ثلاثة أمور : إماخطُّ كاتب السر، وهو الغـالب . أو رسالةُ الدَّوادَار، وهو كثير أيضا . أو إشارةُ نائبِ السلطان إن كان ثَمَّ نائب، وهو نادر . فإن كان بخطِّ كاتب السر، كُتِب علىٰ الهامش من الجانب الأيمن سَطْر واحد يكون آخره يقابل السـطرَ الأوّل الذى هو رُسِم بالأمر الشريف ، وهو « حَسَبَ المرسـوم الشريف » . وكذا إن كان بإشـارةِ النائب، كُتِب سطران علىٰ الهامش المذكور آخرهـا أيضا يقابل أوّل السطر الأوّل « بالإشـارة العـالية » كما تقدّم فى الكلام علىٰ المستَنَدات فى المقالة الثانية (1) . قال : وفى هاتين لايُكتَب فى ذيلهما بعد التاريخ سِوىٰ الحَسْبَلَة لاغير . وإن كان برسالة الدَّوادار ، كتب علىٰ الهـامش «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط ، وكُتِب تحت التاريخ سطران هما «رسالةُ المجلس العالى الأميرىّ الفلانىّ فلان الدَّوادار المنصورىّ أدام الله تعالىٰ نعمته» ، ثم الحَسْبَلَة .

(1) صوابه الثالثة . والذى تقدم فى ج ٦ ص ٢٦٤ «فيكتب» ـــ بالاشارة العالية الأميرية الكبيرية الكافلية، كافل الممالك الشريفة الاسلامية أعلاها الله تعالىٰ ـــ سطرين ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانيـــة .

الجمـــلة الثانية

(فى نُسَخ البطائق، وهى على ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن تكون البِطاقةُ بعلامةٍ شريفة)

قال فى " التثقيف " : وتكونُ نحوَ ثُلُثَى وَصْل من ورق البَطائق . قال : وصورتها أن يكتب فى رأس الورق المـذكور فى الوسط سَواءً « الاسمُ الشريف » وتحتَـه مُلْصَـقا به من غير بياض سطرٌ واحدٌ كامل من يمين الورق بغـير هامش بمـا يأتى ذكره . ثم يُخلَى بيتُ العلامة تقـديرَ أربعة أصابع مطبوقة، ثم تُكتَب تتمّةُ الكلام أسطرا متلاصقة بنسبة الأوّل، بغير هامش أصلا إلى آخره . والذى يكتب من يمين الورق . «الله الهادى . سُرِّح الطائرُ الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالى فى الساعة الفلانية من اليوم الفلانىّ من الشهر الفلانىّ من سنة كذا وكذا، إلى المجلس الكريم، أو السـامى ، الأمير فلان وَالِى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعْلمه أنّ الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا له أنْ يتقـدّم بكذا وكذا ، فلْيَعْـلمْ ذلك ويعتمِدْه ، والله الموفّق بمنّـه وكرمـه إن شاء الله تعـالى، حَسْبنا الله ونعم الوكيل » . والمستندُ لهـا « حَسَبَ المرسومِ الشريف» .

الضرب الثانى

(أن تكون بغير علامـــة)

وصورتهـا أن يكتب فى رأس الورقة فى الوسط موضعَ الاسم : «الله الهـادى بكرمه » ، والأســطر متلاصقةٌ بغـير هامش، ولا يُخلَى فيها بيتُ علامة . وصورة

مايكتب فيها : «المرسوم بالأمر الشريف ، العالى، المولوِى، السلطانى، المَلَكِى، الفلانى، الفلانى، أعلاه الله تعالىٰ وصرَّفه ـ أن يُسَرَّح هذا الطائر الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى وقتِ كذا وكذا» . ويكمِّل علىٰ حَسَب ماتقدم «والله الموفق ، حَسَبَ المرسوم الشريف ،إن شاء الله تعالىٰ» . قال فى "التثقيف" : وقد يقتضى الحالُ نقلَها من مكان إلىٰ مكان آخَرَ، مثل أن تنقل من بلبيس إلىٰ قطْيا، فيكتب بعد ذكر المرسوم به : «ويتقدَّمَ بنقل هذه البِطاقةِ إلىٰ فلانٍ الفلانى ليعتمدَ مضمُونَها ويعمَلَ بحسَبِها» . فإن كانت منقولة إلىٰ مكانٍ ثالثٍ، كتب بعد ذلك : «ثم ينقُلُها إلىٰ فلان ليعتمدَ مضمونَها أيضا ويعملَ بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمده» . والتتمة حَسَب ماتقدم .

الطــــرف الثــالث

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الإسلام ،ومن آنطوتْ عليه ممالكُهم ممَّن دُونَهم من الملوك والحُكّام المنفردين ببعض البُلْدان، والأمراءِ والوزراءِ وسائرِ مَن ضمَّه نِطاقُ كلِّ مملكةٍ من تلك الممالك، ممَّن جرتِ العادةُ بمكاتبته عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ممن هو مستمِرُّ المكاتبة أو زالت مكاتبته بزواله :ليُقاس عليه مَنْ لعله يظْهر مَظْهره)

وآعلم أن كُتّاب الديار المصرية يُراعُون فى المكاتبة إلىٰ كلِّ مملكةٍ صورةَ المكاتبة الواردة عن تلك المملكةِ فى غالب حالها : فى الآبتداء والخِطاب والآختتامِ وغيرذلك.

وفيه أربعة مقاصد :

المقصـــد الأوّل

(فى المكاتبات إلى عُظَماء ملوك الشّرق، ومَنِ آنطوت عليه كلُّ مملكة من ممالكهم، ممن جرتِ العادةُ بمكاتبته، وفيه أربعة مهَايِع)

المَهْيَـــع الأوّل

(فى المكاتبة إلى الملوك والحُكّام، ومَنْ جرى مَجْراهم بمملكة إيرانَ، وهْى مملكةُ الأكاسرةِ الصائرةُ إلى بيت هُولاكُو من بنى جنكزخان)

وقد تقدّم فى المقالة الثالثة فى الكلام على المسالك والممالك ذكرُ حدودِ هذه المملكة وقواعِدها ومُدُنها ، وإلى من تُنْسَب ، ومَنْ ملكها جاهليّـةً وإسلامًا إلى زماننا . والمقصودُ هنا ذكرُ المكاتَبات فقط ، ويشتمل المقصود منها على ثلاث جُمَل .

الجمـــلة الأولى

(فى رسم المكاتبة إلى قانِها الأعظم الجامع لحُدُودها، على ما كان الأمرُ عليه من مَبْدَإ ملك بيتِ هُولاكُو وإلى آخر دولة أبى سعيد، وله حالتان)

الحـالة الأولى — ما كان الأمر عليه فى رَسْم المكاتبة فى أوائل الدولة التُّركية ، والعداوةُ بعدُ قائمةٌ بين ملوك الديار المصرية وبين مُلوكها . وفيه أسلوبان

الأسلوب الأوّل — أن يُكْتَب تحتَ البسملةِ من الجانب الأيمن «بقُوّة الله تعالى» ويكون "بقوة الله" سطرا و«تعالى» سطرا، ثم يكتب من الجانب الأيسر: «بإقبال دولة السلطانِ الملك الفلانى» . ويكون « بإقبال دولة» سطرا، وباقى الكلام سطرا ثانيا . ثم يكتب تحتَ ذلك «كلام فلان» سطرا ثانيا « إلى السلطان فلان سطرا ثالثا » . ثم يُؤتَى ببَعْديّة وخُطْبة ، ويُؤتَى بالمقصود .

وطريقُهم فيه علىٰ التكلُّم عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ، والخطابِ لسلطان إيران بميم الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم فى جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِب به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحبِ الديار المصرية ، فى جوابِ كتابٍ ورد عن السلطان أحمدَ القانِ بإيران فى زمانه . يذكر فيه أنَّه أسلم ، إذ كان أوّل من أسلم من مُلوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبير كان قد عَزَم علىٰ دخول ممالك الديار المصرية قبل موْته ، وأنه منَع ذلك ، وأنه لايحب المسارعة إلىٰ القتال ، وأن المشير بذلك الشيخُ عبدُ الرحمن : أحد صُلَحاء بلادهم ، وأنه حَرَّم علىٰ عساكره الغاراتِ علىٰ البلاد ، وتعرَّض فيه إلىٰ أمرِ الجَواسيس ، وأشار إلىٰ أنَّ الاتّفاقَ فيه صلاحُ العالَمَ ، وأشار إلىٰ أشياءَ حَمَّلها لرُسُله يذكرونها مُشافهةً ، ووقع الجواب عن جميع ذلك علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكُتُب الواردة علىٰ الديار المصرية .

وكُتِب بخط ناصرِ الدين شافع بن علىّ بن عباس : أحد كُتّاب الإنشاء ، فى رمضان سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة . والتكلُّم بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدّم فى الأسلوب الأوّل ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوّة الله تعالى — باقبال دولة السلطان الملك المنصور

كلام قلاوون

إلىٰ السلطان أحمد

أما بعدَ حمدِ الله الذى أوْضح بنا ولنا الحَقَّ منهاجا ، وجاءَ بجاء نصرُ الله والفتحُ ودخَل الناسُ فى دينِ اللهِ أفْواجا ، والصلاةِ علىٰ سيدنا ونبيِّنا محمد الذى فَضَّله الله

علىٰ كلِّ نبيٍّ نجّى به أمته وعلىٰ كل نبيٍّ ناجا، صلاةً تُنير مادجًا ؛ فقد وصل الكتابُ الكريم، المتلقّ بالتكريم، المشتملُ علىٰ النَّبأ العظيم ؛ من دُخُوله فى الدِّين ، وخُروجِه عمن سلفَ من العشيرةِ الأقربين ؛ ولما فُتِح هذا الكتاب بهذا الخبر العلَم المُغْرِ ، والحديثِ الذى صَحّح عند أهل الإسلام إسلامَه وأصحُّ الحديث ماروِى عن مسلم ، توجَّهت الوجوهُ بالدعاء إلىٰ الله سبحانه فى أن يُثبّته علىٰ ذلك بالقول الثابت ، وأن يُنبِت حَبَّ حُبِّ هـذا الدين فى قلبه كما أنبتَ أحْسَن النَّبْت من أخشن المَنابت ؛ وحصل التأمُّلُ للفصل المبتدإ بذكره من حديثِ إخلاصه فى أول عُنْفُوان الصِّبا إلىٰ الإقرار بالوَحْدانيه ، ودُخُوله فى المِلَّة المحمديه ، بالقول والعمل والنيَّه ؛ فالحمدُ لله علىٰ أنْ شرح صدْرَه للإسلام ، وألهمه شريفَ هذا الإلهـام ؛ فحمِدْنا اللهَ علىٰ أنْ جعلَنا من السابقين إلىٰ هـذا المَقَالِ والمقام ، وثبّتَ أقدامنا فى كلِّ موقِف ٱجتهاد وجِهاد تتزلزل دُونَه الأقدام .

وأمّا إفضاءُ النَّوْبة فى المُلْك وميراثُهُ بعد والده وأخيه الكبيرِ إليه ، وإفاضةُ جَلابِيبِ هذه النعمةِ العظيمة عليه ، وتوقُّله للأسِرَّة التى طَهَّرها اللهُ بإيمانه ، وأظهرها بسُلْطانه ؛ فلقد أورثها اللهُ مَن ٱصطفاه من عباده ، وصَدَّق المبشَّرات من كرامة أولياءِ الله وعُبّاده .

وأمّا حكايةُ الإخْوان والأمراء الكبارِ ومقدّمِي العساكر و زُعمـاء البلاد فى مجمع قوريلتـاى الذى ينقدح فيـه زَنْدُ الآراء ، وأن كلمتهم ٱتفقت علىٰ ماسبقتْ به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلىٰ هـذا الجانب ، وأنه قد فكَّر فيما ٱجتمعت عليـه آراؤهم ، وٱنتهتْ إليه أهواؤهم ، فوجده مخالفًا لما فى ضميره : إذ قَصْـدُه الصَّلاح ، ورأيُهُ الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك النائره ، وسكّن تلك الثائره ؛ فهذا فعل المَلِك المتقِى ، المُشْفِق من قومه علىٰ مَنْ بَقِى ، المفكِّر فى العواقب ، بالرأى الثاقب ؛ وإلا فلو تُرِكوا

وآراءَهم حتى تحملهم الغِرّه ، لكانت تكون هذه هى الكَرّه ؛ لكن هو كمن خاف مَقامَ ربه ونَهىٰ النفس عن الهَوىٰ، فلم يوافق قولَ مَنْ ضَلَّ ولا فِعْلَ مَنْ غوىٰ .

وأما القول منـه إنه لايُحِبُّ المسارعه ، إلىٰ المُقارعه ؛ إلا بعد إيضاح المَحجّه ، وتَرْكيب الحُجّه ؛ فبانتظامه فى سلك الإيمـان صارت مَحجّتنا وحجتـه مترَكّبه ، علىٰ مَنْ غَدَت طواغيتُه عن سلوك هـذه المحجّة مُتَنكّبه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ والناسَ كافّةً قد علموا أنّ قيامَنا إنما هو لنُصْرة هذه الملة ، وجِهادَنا واجتهادنا إنما هو لله ؛ وحيثُ قد دخل معنـا فى الدِّين هـذا الدُّخُول ، فقـد ذهبت الأحقادُ وزالت الذُّحُول ، وبارتفاع المُنافَره ، تحصُـل المُظَافره ؛ فالإيمـان كالبُنْيان يَشُدّ بعضُه ببعض ، ومن أقام مَنارَه فله أهلٌ بأهل فى كل مكان وجِيران بجيران بكلّ أرض .

وأما ترتيبُ هذه الفوائد الجمّة علىٰ إذْكار شيخ الإسلام قُدْوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله تعـالىٰ من بركاته ، فلم يُرلولىٍّ قبْـلَه كرامةٌ كهذه الكرامه ، والرَّجاءُ ببركته وبركة الصالحين أن تُصْبح كُلّ دارِ إسلام دارَ إقامه ؛ حتىّ تتمّ شرائطُ الإيمان ، ويعودَ شَمْلُ الإسلام مجتمعًا كأحسنِ ما كان ، ولا يُنْكَرلمن بكرامته آبتداءُ هذا التمكين فى الوُجُود ، أنّ كلّ حقّ ببركته إلىٰ نِصَابه يَعُود .

وأما إنفاذُ أقضىٰ القُضاة قُطْبِ الملة والدين ، والأتابك بَهاءِ الدين ، الموثوق بنقلهما فى إبلاغ رسائلِ هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كلَّ قولٍ حسنٍ من أحوال أحواله ، وخَطَرات خاطره ، ومسطَّرات ناظِرِه ، ومن كلّ مايُشْكَر ويُحْمَد ، ويُعَنْعَن حديثُهما فيه عن مُسْنَد أحمد .

وأما الإشارة إلىٰ أنّ النُّفُوس إن(١) كانت تتطلّع فى إقامة دليل ، تستحكم [به] دواعى الودّ الجميـل ، فلينظُر إلىٰ ماظهر من مآثرِه ، فى موارد الأمر ومَصَادره : من العَدْل

(١) لعل زيادة "إن" من قلم الناسخ

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدم بإصلاح الأوقات ، فهذه صفاتُ من يُريد لمُلكه الدوام ؛ فلما مَلَك عدل،ولم يلتفتْ إلىٰ لَوْم مَنْ عدا ولا لَوْم من عَذَل. علىٰ أنها وإنْ كانت من الأفعال الحسنه ، والمَثُوباتِ التى تستنطق بالدعاء الألسنه؛ فهى واجبات تؤدّى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو عليه يقتصر، أوله يدّخر؛ إنما يفتخر الملكُ العظيم بأن يُعطِىَ ممالكَ وأقاليمَ وحُصُون ، أو يَبْذُل فى تشييد مُلْكه أعزّ مَصُون .

وأما تحريمُه علىٰ العساكر والقَراغُولات والشحانى بالأطراف التعرّضَ إلىٰ أحد بالأذى، و [تحتيم] إصفاء مَوَارد الواردين والصادرين من القذىٰ؛ فمن حين بلغنا تقدّمه بذلك تقدّمنا أيضا بمثله إلىٰ سائر النُّوّاب، بالرَّحْبة وحَلَب وعَيْنتاب؛ وتقدّمنا إلىٰ مقدّم العساكر بأطراف تلك الممالك، بمثل ذلك ؛ وإذا اتّحد الإيمان، وانعقدت الأيمان ؛ تحتّمَ إحكام هذه الأحكام، وترتّب عليه جميعُ الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أُمسِك وأُطْلِق وأنَّ بسبب من تَزيّا من الجواسيس بزىّ الفقراء قُتِل جماعةٌ من الفقراء الصُّلَحاء رجمًا بالظن، فهذا باب من ذلك الجانب ستَرُوه ، وإلىٰ الأطّلاع علىٰ الأمور صَوَّروه؛ فظفِر النوّابُ منهم بجماعةٍ فرفع عنهم السيف، ولم يكشف ماغَطّته خرقة الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلىٰ أن فى آتفاق الكلمة يكونُ صَلَاحُ العالم، وينتظم شملُ بنى آدم ؛ فلا رادَّ لمن طرَق بابَ الاتّحاد ، ومن جَنَح للسَّلم فما جارَ ولاحاد ؛ ومن ثنىٰ عِنانَه عن المكالحه، كمن يُريد المصالحة لمصالحه؛ والصُّلح وإن كان سيدَ الأحكام فلا بدّ من أمورٍ تُبنىٰ عليها قواعده ، وتُعلَمُ من مدلولها فوائده؛ فإن الأمور المسطورةَ فى كتابه عن كلّيات لازمة ينعم بها كلُّ معنًى معلوم إن تهيأ صلح أو لم،وثَمّ أمورٌ لابدّأن تُحكَم، وفى سلكها عقودُ العهود تُنْظَم ؛ قد تحمّلها لسانُ المشافهَة التى إذا أُوردتْ أقبلتْ

من معنىٰ دُخوله فى الدين ، وآنتظام عِقْـده بسلك المؤمنين ؛ وما بَسَطه من عَدْل وإحسان ، وسـيرة مشهورة بكلِّ لسان ، فالمِنَّة لله فى ذلك فلا يَشِيبُها منه بامْتِنان ؛ وقد أنزل اللهُ تعالىٰ علىٰ رسُوله صلَّ الله عليـه وسلم فى حَقِّ من آمتَنَّ بإسلامه : ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَدَاكُمْ للإيمـان﴾ .

ومن المشافَهَة أنه قد أعطاه الله من العَطَاء ما أغناه به عن آمتدادِ الطَّرْف إلىٰ ما فى يدِ غيره من أرض ومال ، فإن حصَلت الرغبةُ فى الآتفاق علىٰ ذلك فالأَمْنُ حاصل ؛ فالجواب أنَّ ثَمَّ أمورا متىٰ حصَلَت عليهـا الموافقه ، تَمَّت المُصاحبة والمُصادَقه ؛ ورأىٰ اللهُ تعـالىٰ والناسُ كيف يكون إذلالُ مُعادِينا ، وإعزازُ مُصافِينا ؛ فكم من صاحبٍ وُجِد حيثُ لا يُوجَد الأبُ والأخُ والقرَابه ، وما تَمَّ أمرُ الدين المحمـدىّ وآستحكم فى صدر الإسلام إلا بمُظافرة الصَّحَابه ؛ فإن كانت له رَغْبَـةٌ مصروفة إلىٰ الآتحاد ، وحُسنِ الوِدَاد ، وجميلِ الآعتضاد ، وكَبْت الأعداء والأضْداد ، والاستناد إلىٰ من يشْتَدّ به الأَزْر عند الآستناد ، فقد فُهِم المراد .

ومن المشافَهَة إذا كانتْ رغبَتُنا غيرَ ممتدّة إلىٰ ما فى يده من أرض ومال ، فلا حاجةَ إلىٰ إنفاذ المُغِيرِين الذين يُؤْذون المسلمين بغـير فائدةٍ تعودُ ؛ فالجواب أنه لو كُفَّ كَفُّ العُدْوان من هُنالك ، وخُلِّ لملوك المسلمين ما لهم من ممَالِك ، سكَنت الدَّهْماء ، وحُقِنت الدِّماء ؛ وما أحقَّـه بأن لا يَنْهى عن خلق ويأتى مِثْـلَه ، ولا يأمُرَ بشىء وينسىٰ فِعْله ؛ وقنغرطاب بالرُّوم الآنَ ، وبين بلاد فى أيديكم خراجُها يُجْبىٰ إليكم ، فقد سَفَكَ فيها وقَتَـك ، وسبىٰ وهَتَـك ، وباع الأحرار ، وأبىٰ إلا التمـادِى علىٰ ذلك والإصْرار .

ومن المشافهة أنه إن حصَل التصميم علىٰ أن لا تُبْطَل هذه الإغارات ، ولا يُقْتَصر عن هـذه الإثارات ، فتُعَيِّن مكانا يكون فيه اللِّقاء ، ويُعطِى اللهُ النصرَ لمن يشاء ؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى آتفق فيها ملتقَى الجمعين مَرّةً ومرةً ومرةً قد عاقَ مواردَها من سلَفَ من أولئك القوم ، وخافَ أن يُعاودها فيعاوِدهُ مَصْرَعُ ذلك اليوم؛ ووقتُ اللّقاء علمه عند الله لا يُقدَّر، وما النصر إلا من عندالله لمن أقدر لالمن قدر؛ وما نحن ممن ينتظر فَلْته ، ولا ممَّن له إلىٰ غير ذلك لَفْته ، وما أمرُ ساعةِ النصر إلّا كالساعة التى لاتأتِى إلا بَغْته ؛ والله تعالىٰ الموفِّق لما فيه صَلاحُ هذه الأمه ، والقادر علىٰ إتمـام كلّ خير ونعمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ . مُستَهَلّ شهر رمضان المعظم قدره ، سنة إحدىٰ وثمـانين وستمائة . الحمدُ لله وحده ، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه . حسبنا الله ونِعْم الوكيل .

الأسلوب الثـانى

(أن يُكْتَب تحتَ البسملة علىٰ حِيَال وَسَطها « بقوّة الله تعـالىٰ ومَيَامِين المـلة المحمدية »)

ويكون « بقوة الله تعالىٰ » سطرا . و « مَيَامين الملة المحمدية » سطرا ثانيـا . ثم يؤتىٰ ببعديّة وخُطْبة مختَصَرة ؛ ثم يُكْتَب سطران ببياض من الجانبين ، فيهما : « بإقبال دولةِ السلطان الملِك الفلانى ، كلام فلان بن فلان » . ويكون السطر الأوّل « بإقبال دولة السلطان الملِك » وباقى الكلام فى السطر الثانى . ثم يقال : « فليَعْـلَم السلطان فلان» . ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره .

وهـذه نسخةُ كتاب من إنشاء القـاضى علاءِ الدين علىّ بنِ فَتْح الدين محمد بن محيى الدين بن عبـد الظاهر ، صاحبِ ديوان الإنشـاء بالديار المصرية فى جواب كتابٍ ورَدَ عن السلطان محمود غازَان ، القان بمَمْلكة إيرانَ ، يذكُر فيه أنّ جماعةً من عساكر البلاد الشاميّـة أغارُوا علىٰ ماردِين ، وأن الحميّةَ آقتضت الرُكوبَ فى مُقابَلة

ذلك . وذكر أنه قدّم الرسُلَ بالإنذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا على تماديهم فى غيّهم؛ ويذكر فيه نُصرتَه على العساكر الإسلامية فى المرّة السابقة . ويذكر فيه أنه أقام بأطراف البلاد، ولم يدْخُلها خوفَ التخريب والفساد . ويذكر فيه جمعَ العساكر وتهيئةَ المجانيق وغير ذلك من آلة القتال . ويذكر أنه إذا لم تجرِ مُوجبات الصلح كانتْ دماءُ المسلمين مطلولةً؛ ويذكر إرسال رُسُله بكتابه ويلتمس التُّحف والهَدايا، مما كُتِب به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى المحرّم سنة إحدى وسبعمائة وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقُوّة الله تعالى

ومَيامين المِلّة المحمدية

أمّا بعد حمدِ الله الذى جعلنا من السابِقين الأوّلين ، الهادِين المهتَدين ، التابعين لسُنّة سيد المرسلين ، بإحسانٍ إلى يوم الدين ، والصلاةِ والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصَحْبه الذين فَضّل الله مَنْ سبق منهم إلى الإيمان فى كتابه المكنون . فقال سبحانه وتعالى : ﴿ والسّابِقُون السابقُون أُولئِك المُقَرَّبُون ﴾ .

بإقبال دولةِ السلطان الملك

الناصر كلام محمد بن قلاوون .

فليَعلَم السلطانُ المعظَّم محمود غازان أنّ كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام ، ورعَيْنا له حقّ القصد فتلقيناه منّا بسلام ، وتأمّلناه تأمُّل المتفهِّم لدقائقه، المستكْشف عن حقائقه، فألفيناه قد تضمّن مُؤاخَذات بأمورهم بالمؤاخَذة

عليها أخرىٰ، معتذرا فى التعدّى بما جعله ذُنوبا لبعض طالبَ بها الكُلّ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ﴾ .

أمّا حديثُ مَنْ أغار علىٰ ماردِينَ من رِجالة بلادنا المتطرِّفة وما نسبُوه إليهم من الأمور البَديعــه، والآثام الشّنيعه ؛ وقولُهم : إنهم أَنِفُوا من تهجُّمهم، وغارُوا من تَقَحُّمهم، وآقتضت الحمِيّةُ رُكُوبَهم فى مقابلة ذلك، فقد تلمَّحْنا هذه الصورةَ التى أقامُوها عُذْرا فى العُدْوان، وجعلُوها سبباً إلىٰ ما آرتكبوه من طُغْيان ؛ والجواب عن ذلك أنّ الغاراتِ من الطَّرَفين[و]لم يَحْصُل من المُهادَنة والموادَعة مايَكُفُّ يدَنا الممتدّه، ولا يُفَتِّرُ هِمَمها المستعدّه ؛ وقد كان آباؤُكم وأجدادُكم علىٰ ما علمتم من الكُفْر والشّقاق، وعدمِ المُصافاة للإسلام والوِفَاق ؛ ولم يزل مَلِكُ ماردِينَ ورعيّتُه منقذين ما يصدر من الأذىٰ للبلاد والعباد عنهم ، متولّين كِبْرَنكرهم ؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وحيث جعلتم هـذا ذَنْبا للحميَّة الجاهليّه، وحاملاً علىٰ الآنتصار الذى زعمتم أنّ هِمَّتكم به مَليّه ؛ فقد كان هذا القصدُ الذى آدّعيتمُوه يتمُّ بالآنتقام من أهـل تلك الأطراف التى أوجبَ ذلك فعلُها، والآقتصارِ علىٰ أخذ الثار ممن ثار، آتباعا لقوله تعالىٰ:﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ لا أن تقصِدُوا الإسلام بالجموع الملفّقة علىٰ آختـلاف الأديان، وتطَـئُوا البِقاعَ الطاهرةَ بعَبَدة الصُّلْبان ؛ وتنتهكُوا حرمــةَ البيت المقـدّس الذى هو ثانى بيتِ الله الحَرَام ، وشـقيقُ مسجد رسول الله عليه الصلاةُ والسلام، وإنِ آحتججتم بأنّ زمامَ تلك الغارة بيدنا، وسبب تعـدّيهم من سُنّتنا ؛ فقد أوضحنا الجوابَ عن ذلك ، وأنّ عدم الصُّـلْح والموادَعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما آدّعَوْه من سُلوك سَنَن المرسلين ، وآقتفاءِ آثار المتقدّمين ، فى إنفاذ الرُّسُل أوّلا، فقد تلمحنا هذه الصُّوره، وفهِمْنا ماأوردُوه من الآيات المسطُوره، والجواب

عن ذلك أنّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وصلُوا إلينا إلا وقد دنَتِ الخِيامُ من الخِيام، وناضلتِ السهامُ السِّهام، وشارفَ القومُ القومَ، ولم يَبْقَ للّقاء إلا يومٌ أو بعضُ يوم، وأُشْرِعت الأسِنَّةُ من الجانبَيْن، ورأى كلٌّ خصْمَه رأْيَ العين، وما نحن ممن لاحَتْ له رَغْبَةُ راغبٍ فتشاغَلَ عنها، ولا ممن يُسالَمُ فيقابِلُ ذلك بجفْوة النِّفار، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. كيف والكتاب بعُنْوانه! وأميرُ المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه يقول: «ما أَضْمَرَ إنسانٌ شيْئا إلا ظَهَر فى صَفَحاتِ وَجْهِه وفَلَتاتِ لِسانِه». ولو كان حضور هٰؤلاء الرسُل والسُّيوفُ وادعةٌ فى أغمادها، والأسِنَّة مستكِنّة فى أعوادها، والسِّهامُ غيرُ مفوّقه، والأعِنّة غير مُطْلَقه، لسمِعْنا خِطابَهم، وأعَدْنا جوابهم.

وأما ما أطلَقُوا به لسانَ قلَمِهم، وأبْدَوْه من غِليظ كَلِمهم، فى قولهم: فصبرْنا علىٰ تَمادِيكم فى غَيِّكم، وإخْلادكم إلىٰ بَغْيِكم، فأىُّ صَبْرٍ ممن أرسل عِنانه إلىٰ المكالَفَه، قبل إرسال رُسُل المصالَحه، وجاسَ خِلالَ الدِّيار، قبل مازَعَمه من الإعْذار والإنْذار؟ وإذا فكَّروا فى هـذه الأسباب، ونظروا ما صـدَر عنهم منْ خِطاب، علموا العُذْر فى تأخير الجواب، وما يتذَكَّرُ إلا أُولُوا الألباب.

وأمّا ما تَبَجَّحُوا به ممـا اعتقَدُوه من نُصْره، وظنُّوه من أنّ الله جعل لهم علىٰ حِزْبه الغـالبِ فى كلِّ كرّة الكَرّه، فلو تأمّلوا ما ظنُّوه ربما لوجَدُوه هو الخُسْران المبين، ولو أنْعَمُوا النظرَ فى ذلك لمـا كانُوا به مفتخِرين، ولَتحقَّقُوا أنّ الذى اتّفق لهم كان غُرْمًا لا غُنْمًا، وتدبَّروا معنىٰ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. ولم يخْفَ عنهم ما نالتْه السيوفُ الإسلامية منهم، وقد رأَوْا عَزْم مَنْ حضر من عساكرنا التى لو كانتْ مجتمعةً عنـد اللّقـاء ماظهر خَبَرٌ عنهـم؛ فإنا كُنّا فى مُفْتَتَح مُلْكنا، ومبتدإ أَمْرِنا، حلَلْنا بالشام للنظر فى امور البلاد والعِباد. فلما تحقَّقْنا خبركم، وقَفَوْنا أثَرَكم؛

بادرْنا نقُدّ أديمَ الأرض سَيْرا ، وأسرعنا لندفعَ عن المسلمين ضَررا وضَيْرا ، ونؤدّى من الجهاد السنَّةَ والفَرْض ، ونعملَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰواتُ والأَرْضُ ﴾ . فاتفق اللّقاءُ بمن حضرمن عساكرنا المنصوره ، وُثوقا بقوله تعالىٰ : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَه ﴾ . وإلا فأكابرُكم يعلمُون وقائعَ الجُيُوش الإسلاميَّـة التى كم وَطِئتْ مَوْطِئـا يَغِيظ الكُفَّار فكُتِب لها عملٌ صالح ، وسارتْ فى سبيل الله ففَتَح عليها أبوابَ المَناجِح ، وتعدّدتْ أيامُ نُصْرتِها التى لو دقَّقتم الفكرَ فيها لا زالَت ماحصَـل عندكم من لَبْس ، ولَمَّـا قَـدَرتم أن تُنْكِروها وفى تَعَبٍ من يُنْكِر ضوْءَ الشمس ، وما زالَ الله نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النصير ، وإذا راجَعْتُموهم قَصُّوا عليكم نَبَأَ الاستظهار ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبِير ، وما زالت تتَّفق الوقائع بين المُلُوك والحُرُوب ، وتجرِى المواقفُ التى هى بتقـدير الله فلا فَخْرَ فيهـا للغالب ولا عارَ علىٰ المغلُوب ، وكم من ملِكٍ آستُظْهِر عليـه ثم نُصِر ، وعاوَدَه التأييدُ فجُبِر بعد ما كُسِر ، خصوصا ملوكَ هـذا الدِّين ، فإنَّ الله تعالىٰ تكفَّل لهم بحُسْن العُقْبىٰ فقال تعالىٰ : ﴿ والعاقبةُ للمتّقين ﴾ .

وأما إقامتُهُـم الحجةَ علينا ، ونِسْبتُهم التفريطَ إلينا ، فى كوننا لم نُسَيِّر إليهم رسولًا عند ماحَلُّوا بدمشق ، فنحن عنـد ماوصلْنا إلىٰ الديار المصرية لم نَزِد علىٰ أنِ آعتدْنا وجمعْنا جُيوشَـنا من كل مكان ، وبذلْنا فى الاستعدادِ غايةَ الجُهْـد والإمكان ، وأنفقْنا جزيلَ الأموال فى العساكر والجحافل ، ووثِقْنا بحُسْن الخلَف لقوله تعـالىٰ : ﴿ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِل ﴾ . ولَمَّـا خرجنا من الديار المصرية ، بلغَنا خروجُ الملك من البلاد ، لأمرٍ حال بينَه وبينَ المُراد ، فتوقَّفْنا عن المسير توقُّفَ من أغنىٰ رُعْبُه عن حثّ الركاب ، وتَثَبَّتْنا تثبُّتَ الراسيات ﴿ وتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب ﴾ . وبعثنا طائفةً من العساكر

لمقاتلة من أقام بالبلاد فما لاحَ لنا منهم بارقٌ ولا ظهر، وتقدّمتُ فتخطّفت من حملَه على التأخّر الغَرر، ووصلتُ إلى الفُرات فما وقفتُ للقوم على أثر.

وأما قولهم : إننا ألقينا فى قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعدُ يتلقّونا على حلب أو الفُرات، وأنهم جمعوا العساكر ورحَلوا إلى الفُرات وإلى حلب مرتقبين؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتُهم جزَمْنا، وعلى لقائهم عزَمْنا، وخرجْنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابنُ عم سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم الواجبُ الطاعة على كُلّ مُسْلِم، المفترَضُ المبايعةِ والمتابعةِ على كل منازِع ومسَلِّم؛ طائعين لله ولرسوله فى أداء مُفْتَرَض الجهاد، باذلين فى القيام بما أمرنا الله تعالى غايةَ الاجتهاد؛ عالمين بأنه لا يتِمّ أمرُ دينٍ ولا دُنْيا إلا بمشايعته، ومَنْ والاه فقد حَفظه الله تعالى وتولّاه، ومَنْ عانده أو عاند مَنْ أقامه فقد أذلّه الله؛ فحينَ وصَلْنا إلى البلاد الشامية تقدّمت عساكرُنا تملأ السّهل والجبَل، وتُبَلّغ بقوة الله تعالى فى النصر الرّجاءَ والأمل؛ ووصلتْ أوائلُها إلى أطراف حماةَ وتلك النواحى فلم يُقدِم أحدٌ منهم عليها، ولا جَسَر أن يَمُدّ حتّى ولا الطَّرْفَ إليها؛ فلم نزل مقيمين حتّى بلَغنا رجوعُ الملك إلى البلاد، وإخلافُه مَوْعِدَ اللقاء والله لا يُخلف الميعاد، فعُدْنا لاستعداد جُيُوشنا التى لم تزل تَنْدَفع فى طاعتنا اندفاعَ السيل، عاملين بقوله تعالى ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ ما ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخَيْل ﴾ .

وأمّا ماجعلوه عذْرا فى الإقامة بأطراف البلاد وعدَمِ الإقْدام عليها، وأنهم لو فعلُوا ذلك ودخلُوا بجُيوشهم ربما أخربَ البلادَ مرورُها، وبإقامتهم فسدتْ أمورُها؛ فقد فُهِم هذا المقصود. ومتى أَلِفَت العبادُ والبلادُ منهم هذا الإشفاق؟ ومتى اتّصفَتْ جيوشُهم بهذه الأخلاق؟ وهاآثارُهم موجودةٌ على مُلْك آل سَلْجُوق وما تعرّضوا

لدارٍ ولا جار ، ولا عَفَوْا أثرًا من الآثار ، ولا حَصَل لمسلم منهم ضَرر ، ولا أُوذِىَ فى وِرْدٍ ولا صَدَر ، وكان أحدُهم يشترِى قُوتَه بدِرْهمه ودِيناره ، ويأبىٰ أن تمتدَّ إلىٰ أحدٍ من المسلمين يدُ إضراره ، هـذه سُنَّةُ أهل الإسلام ، وفعلُ مَنْ يُرِيد لملكه الدوام .

وأما ما أَرْعَدُوا به وأبْرَقوا ، وأرسلُوا به عِنان قلمِهم وأطْلَقوا ، وما أبدَوْا من الأهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلىٰ غير ذلك مما ذكره من التهويل ، فالله تعالىٰ يقول : ﴿ الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيمانًا وقالوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل ﴾ .

وأما قولهم : وإلا فدماءُ المسلمين مَطْلُوله ، فما كانَ أغْناهم عن هذا الخِطَاب ، وأوْلاهم بأنْ لايصدُرَ إليهم عن ذلك جوَاب ، ومَنْ قصدَ الصُّلْح والإصْلاح ، كيف يقول هذا القولَ الذى عليه فيه من جهةِ الله تعالىٰ ومن جهةِ رسوله أىُّ جُناح ؟ وكيف يُضْمِر هذه النيه ، ويتبجَّحُ بهذه الطويَّه ؟ ولم يخْفَ مواقِعَ زَلَلِ هذا القول وخَلَلِه ، والنبى صلّى الله عليه وسلم يقول : " نِيَّـةُ المَرْءِ أبْلَغُ من عَمَله " وبأىّ طريق تُهْدَر دماءُ المسلمين التى من تَعَرَّضَ إليها يكون اللهُ له فى الدنيا والآخرة مطالبا وغَرِيما ، ومؤاخِذًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا متعمّدًا فَجَزاؤُه جَهَنَّمُ خالِدًا فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذابًا عَظِيمًا ﴾ ؟ وإذا كانَ الأمْرُ كذلك فالبُشْرىٰ لأهل الإسلامِ بما نحن عليه من الهِمَم المصروفة إلىٰ الاستعْداد ، وجمع العساكر التى تكونُ لها الملائكةُ الكرامُ إن شاء الله تعالىٰ من الأنْجاد ، والاستكثارِ من الجُيوش الإسلاميةِ المتوفِّرة العَدَد ، المتكاثِرة المَدَد ، الموعُودةِ بالنصر الذى يحُفُّها فى الظَّعْن والإقامه ، الواثقةِ [به](1) من قوله صلّى الله عليه وسلم : "لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتى ظاهِرِينَ

(1) أى بالنصر وزدنا الجار والمجرور لاقتضاء الكلام إياه .

على عَدُوِّهِمْ إلى يوم القِيَامه" . المبلِّغةِ فى نَصر دين الله آمالا، المستعدّة لإجابة داعى الله إذا قال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا ﴾ .

وأما رُسُلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووَفَدُوا علينا، وأكرمْنا وِفَادتهم، وعَزَّزْنا لأجل مُرْسِلهم من الإقبال مادَّتَهم، وسمِعْنا خِطابَهم، وأعدْنا عليهم جوابَهم؛ هـذا مع كوننا لم يخْفَ علينا انحطاطُ قَدْرِهم، ولا ضَعْفُ أمرِهم، وأنهم مادُفِعوا لأفواه الخُطُوب، إلا لِمَا ارتكبوه من ذُنُوب، وما كان ينبغى أن يُرسَلَ مثلُ هؤلاء لمثلِنا من مثله، ولا يُنتدَبَ لمثل هذا الأمرِ المهمِّ إلا من يُجْمَع على فَصل خطابه وفضْله .

وأما ما التمسوه من الهَـدايا والتُّحَف، فلو قدّموا من هَدَايَاهم حسـنةً لعوّضناهم بأحسن منها، ولو أتحفُونا بتُحْفَة، لقابلناها بأجلِّ عوضٍ عنها . وقد كان عمُّهم الملك أحمدُ راسَـلَ والدنا الشهيد، وناجَى بالهَدَايا والتُّحف من مكانٍ بعيـد، وتقرّب إلى قَلْبه بحُسْن الخطاب، فأحسن له الجوَاب، وأتى البُيوتَ من أبوابها بحُسْن الأدَب، وتمسّك من الملاطَفَة بأقوى سبَب .

والآنَ فحيثُ انتهتِ الأجوبة إلى حدّها، وأدركتِ الأنَفةُ من مقابلة ذلك الخطاب غايةَ قَصْدها، فنقول : إذا جنَح الملك للسّـلْم جنَحْنا لهـا، وإذا دخل فى المِلَّة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله تعـالى به مجتنبا ما عنه نهى، وانتظم فى سِلْك الإيمـان، وتمسك بمُوجَباته تمسُّك المتشرّف بدُخُوله فيه لا المنّان، وتجنّب التشبُّه بمن قال الله تعـالى فى حقهم : ﴿ قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْـلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أنْ هَدَاكُمْ للإيمـان ﴾ . وطابق فعلُه قولَه، ورفَضَ الكُفّارَ الذين لا يحلُّ له أن يتّخذهم حَوْله، وأرسَل إلينا رسولاً من جهتـه يرتّل آياتِ الصلح ترتيلا، ويَرُوقُ خطابُه وجوابُه حتى يتلُو كلُّ أحد عنـد عوده : ﴿ ياليْتنِي اتّخذْتُ مع الرّسُولِ سَبِيلا ﴾ .

صارت حجّتنا وحجّته مركبةً على مَنْ خالف ذلك ، وكلمتُنا وكلمتُه قامعةً اهلَ الشرك في سائر الممالك ، ومظافرتُنا له تُكْسِب الكافرين هوانا ، والشاهـدُ لمصافاتنا مُفادُ قوله تعالى : ﴿ واذْكُروا نِعمةَ اللهِ عليكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّف بيْنَ قُلوبِكُمْ فأصْبحْتُمْ بِنِعْمتِهِ إخْوانا ﴾ . وينتظِمُ إن شاء الله تعالى شمْلُ المصالح أحسنَ انتظام، ويحصُلُ التمسـك من الموادَعة والمظافَرة بعُرْوةٍ لا انفصال لهـا ولا انفِصام ، وتستقِرُّ قواعدُ الصُّلح على ما يُرضى اللهَ تعالى ورسولَه عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحـالة الثانيــــة

(ما كان عليه رسمُ المكاتبةِ فى الدولة الناصريةِ "محمد بن قلاوون" إلى أبى سعيد بهادرخان بن خدابندا : آخرِ ملوك بنى هُولاكُو، ملك إيران)

قال فى "التعريف" : وهو كتاب يكتب فى قَطْع البغدادىّ الكامل؛ يبتدأ فيه بعـد البسملة وسطر من الخُطْبة الغراء[1] المكتتبة بالذهب المزمَّك ، بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات ؛ ثم تكمَّل الخطبة وتفتتح ببعْـديَّة إلى أن تُساق الألقاب ، وهى : « الحضرةُ الشريفـةُ ، العالية ، السـلطانية ، الأعظميَّة ، الشاهنشاهيَّة ، الأوحدية ، الأخَويَّة ، القانية ، الفلانية» من غير أن يخلط فيها « المَلَكيَّة » لهَوانها عليهم وانحطاطها لديهم ثم يدعَى له بالأدعيــة المعظَّمة المفخَّمة الملوكية : من إعزاز السلطان ونَصر الأعوان ، وخُلود الأيام ، ونَشْر الأعلام ، وتأييـد الجُنود ، وتكثير الوفود . وغير ذلك ممـا يجرى هذا المجرى . ثم يقال ما فيه التلويحُ والتصريحُ بدوام الوِداد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصْف الأشـواق ، وكثْرة الأتواق ، وما هو من هـذه

(١) فى التعريف ص ٤٤ "بالطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يؤتىٰ علىٰ المَقَاصد، ويختَمُ بدعاء جليل، وتستعْرَض المواسيم[1] والخِدَم، ويُوصَف التطلع إليها، ويُظْهر التهافُتُ عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطغراه [وعنوانه][2] بالذهب المزمَّك، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من آسِم جليـل ، وكلِّ ذى شأن نبيل : من آسم الله تعـالىٰ، أو لنبينا صلّى الله عليه وسـلم، أو لأحدٍ من الأنبياء ، أو الملائكةِ عليهم السـلام، أو ذكرِ دين الإسلام، أو ذكر سلطاننا، أو السلطانِ المكتوب إليه، أو ماهو متعلِّق بهما. مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كلُّ هذا يكتب بالذهب، وما سواه يُكْتَب بالسَّواد .

فأما العنوان ، فهو بهذه الألقاب إلىٰ أن ينتهى إلىٰ اللَّقَب الخاص ، ثم يُدْعىٰ له بدعوة أو آثنتين، نحو : «أعزَّ الله سلطانها، وأعلىٰ شانها» أو نحو ذلك . ثم يسمَّى آسمُ السلطان المكتوب إليه، ثم يقال «خان» كما كنا نكتب، فنقول : « بو سعيد بَهَـادِرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطَمَغات عليها ألقاب سلطانـنا، تكون علىٰ الأوصال، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أول وَصْل، ثم علىٰ اليسار فى ثانِى وَصْل، ثم علىٰ هـذا النمط إلىٰ أن ينتهىَ فى الآخر إلىٰ اليمين . ولا يطَمَّغ علىٰ الطرّة البيضاء . والكاتب يخلى لمواضع الطمغة مواضعَ الكتابة، تارة يَمْنة، وتارةً يَسْرة .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" وبيّنه ، فقال : والمكاتبة إليه فى عَرْض البَغْدادىّ الكامل، والطرَّة ثلاثة أوصال، والبسملة ذهبٌ مزمَّك بألفاتٍ طِوَال بالمِسْطَرة بخطِّ الذهب، ثم الخطبـة، وأولها « الحمد لله » والسطرُ الذى يلى البسملة الشريفة

---

(١) فى التعريف ص ٤٥ "الخواج" .

(٢) الزيادة من التعريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بقيّة السطور التى من أوّل السطر الثالث إلىٰ آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضعُ بيت العلامة الشريفة) طُرّةُ ذهب بالألقاب الشريفة ، ثم بعــد هذين السطرين الملاصقين للطُّرّة المذكورة بقيّةُ السطور بهامش جيّد فى يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكملة إلىٰ آخر الورق ، لا يخلى فيهــا للطّمْغة مكان . وبعدَ الخطبة ما يناسب الابتداء إن كان ، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهى : «الحضرة ، الشريفة ، العالية ، السلطانية ، الأعظميّة ، العالمية ، العادلية ، الأكمليّة ، القانيّة ، الشاهنشاهية ، الولَديّة ، العزيزية ، المَلَكية ، الفلانية» . ثم الدعاء . وفى أثناء خطابه «الحضرة الشريفة» تارة ، وتارة « الحضرة العاليــة » والدعاء فى أوساطه نحو «زِيدتْ عظمتُه ، ودامت معْدَلتــه ، وأعلىٰ الله مقامه ، وأعزّ الله شانه» . والخطبة جميعها بالذهب المُزَمّك . وبعدها بالأسود خلا ذكر اللهِ تعالىٰ أو رســولِه صلّى الله عليه وسـلم ، أو ماأضيف إليهما ، أو مايُعظَّم ذكره : كالحق والعدل وأمثالهما ، أو كلّ لقب أو نعت ، أو كلمة مضافة إلىٰ المكتوب عنــه أو المكتوبِ إليــه ، أو ضمـير فيهما ، فإنه بالذّهب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفى آخرها الدعاء له من غير توقُّف .

قال : وكان قد آستقرّ من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يمين السطرين : الثانى والثالث ، وهو مما يلى بيت العلامة « المُشْتاق محمد» . ثم قال : ورأيت بخط القاضى المرحوم ناصر الدين بن النّشائى أنّ ذلك نظـيرُ الكتاب الوارد منه فى رجب ســنة تسع وعشرين وسبعمائة . ثم قال : وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثة أمور زائدة [1] التنبيه عليها .

---

(١) بياض بالأصل ولعله لابد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفُه فى العُنوان . فيكتب بعد ذكر الاسم «خان» . فيقال : «بُو سعيد بَهادِرْخان» .

ثانيها — أنه تستعمل الطَّمَغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لايكتب فى ألقابه «المَلَكية» . وذكر أنه لَم يكتب لأحد بهذه المكاتبة بعد السلطان أبى سعيد، خلا ماذكر القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أنه كتب نظير ذلك بعد أبى سعيد لطغاى تمرخان . قال : ولو كتب بالمُغْلية كتب فى القطع المذكور . أما الملطفات، ففى قطْع الثلث .

وهذه نسخة مكاتبة كتب بها المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلىٰ السلطان أبى سعيد بَهادِرخان المقدّم ذكره، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَلَنا بنِعْمته إخْوانا، وجمَعَنا علىٰ طاعته أصولًا لاتتفرّق أغصانا؛ نَحمده علىٰ ماأولانا ، ونشكُرُه علىٰ ماوَلَّانا ، ونرغَبُ إليه فى مزيد ألطافه التى شَمِلت أقصانا وأدْنانا، ونشهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وحده لاشريكَ له ، شهادةً كالشمس لاتدَع فى الأرض مكانا ، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى شيَّد بِنَا لشريعته أركانا ، وشدّ بعْضَنا ببعض لنكونَ كما شبَّهَنا به بنانا أو بنيانا ، صلىّ الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لاتتَوانىٰ ، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد : فإن من أعظم المُبْهِجات لدَيْنا، المُنْهِجات لطريق السُّرور إلينا، المُلْهِجات بوصفِ أكرمِ وارد علينا، هو الكتَابُ الشريف، بل السَّحاب المُطيف، بل البحرُ الذى يَقْذِفُ دُرَرا، ويقُصُّ عن السحاب أثرا، ويَرْفَع سَرَرا، ويُطْلِع قمَرا، ويطولُ أوضاحًا وغُررا، ويحدِّث عن العجائب خبَرا، بل ينشُر الروضَ حبرا، ويهُبُّ الرياح

سَحَرا، ويَبْرق ذهبهُ المموّهُ آصالاً وبُكَرا، الصادرُ عن الحضرة الشريفة العالية السلطانيه، الأعظمية، العالميّة، العادلية، الشاهنشاهية، الأخَوِيّة، القانيّه، زادها الله شرفا، وأدام بها تُحَفا، وصاغ بها لكلّ سمع شنفا، وأيّدها بزائد مزيده حتّى تقول : حَسْبي وكفىٰ؛ فإنه وصلَ صُحْبَةَ المجلس السامى الأمير، الكبير، المقرَّب، المجتبىٰ، المرتضىٰ، المختار، شرفِ الدين، مجدِ الإسلام، زينِ الأنام، جمال المقرّبين، مرتضىٰ الملوك والسلاطين، الحاجّ أحمد الأشقر، والشوقُ إليه شديد، والتطلّع إليه كمثل العيد، فقرّبناه إلينا نجيا، وتلقّينا منه مَهْـدِيا، وكأنّ السماء ألقتْ منه حُليا، أو أقلّت كوكبا دُرّيا، أو مدّت من المَجَرّة دَرَجا، وعطفَت من مُهَنّـدات البُروق خُلُجا، وقدّتْ من سَوَاد القلوب شَطْر كلّ سطر فيها، وأغارتْ مُقْلَةَ كلّ رِيم قام بسَوَاد ناظِره يُفَدّيها، وسرَّحْنا منه الحَدَق فى حَدَائق، وتَفَحّنا به لمحاسِنِ حقائق، وٱستطْلَعْنا به شُموسَ الأَفتقاد، وٱطّلعْنا منـه علىٰ نُفُوس نفائسِ الوِدَاد، وصادف مِنّا قلبا صادِياً إلىٰ مايروقُ من أخباره، وشـوقًا إلىٰ مايهُبُّ من نَسيم دِياره، وتطَلّعْنا إلىٰ مَنْ يَرِد من رُسُـله الكرام، ويقُصّ علينا مالا يُستقْصىٰ من مواقع الغَمَام، وعلِمْنا منه ومِمّا ذكره المقرّبُ الحـاجُّ شرفُ الدين أحمدُ ماللحضرة الشريفة عليه من نعمة يلتحف بمَلَابِسها، ويقتطف من مَغَارِسها، وتُجرِى فى السَّـيف رَوْنقا، وتزيّن بالكواكب أُفُقا، وتجرّ علىٰ الكُثْبان من الشُّموس رِداءً مُحلّقا . وأحضَرْنا الحـاجّ شرفَ الدين أحمدَ بين أيدينا الشريفه، وشَملناه بحُسْن مُلاحظَتِنا التى زادتْ تشريفَه، وكان حُضُوره وركابُنا الشريف يهيجانِ الصيد المحمود، ونحن نَلْهَج بذكره عند ٱنتهاز كل فُرْصة فى الصُّيود، وما حصلنا فيه علىٰ لَذّة ظَفَر إلا وتمنّينا أنْ يكونَ له فيها مشاركةُ شُهود، أو أن يكون حاضرا يرىٰ كيف يُسَهِّل اللهُ لنا بلوغَ كلّ مقصود، وخرج معنا إلىٰ المَصايِد، وتفرّجَ علىٰ الصائد، ورأىٰ ماحَفَّ بموكبنا المنصور من ذوات الوَبَر

والجَناح، وما سُخِّر لنا من جِياد الخيول من الرِّياح، فشاهد ما أوتينا من المُلك السُّليماني في سُرْعة السير، واختلافَ ما جُمِع لنا من الإنس والوحْش والطَّير، واستغرقتْ أوقاتُنا الشريفةُ في السؤال عن مِزاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرور المستديم، والتأييد الذي انقلب به أولياؤه بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يَمْسَسْهم سُوءٌ واتَّبَعُوا رضوانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عظيم، وتجدّدت المَسَرّات، بهذه البشائر المُسِرّات[1]، وأضفْنا هذه النعمةَ إلى ما نحمدُ اللهَ عليه مما أيّدَنا به من النصر والظَّفر والتأييد، والنعم التي توالَتْ إلينا ونحن نرجُو المَزِيد، ونُضاعفُ الحمدَ والشكرَ لله على هذه المواهب التي أطافَتْ بنا بِطاقاتها الثمينة، وأنارت في آفاقنا أقمارُها المُبِينه، وشمِلَتْ ملوكَ الإسلام نعمُها من كل جانب، وأشرقتْ شموسُها حتّى ملأتْ بأنوارها المَشارقَ والمَغارب .

وأما ما أتحَفتَ به من البلكات الشريفة فقد وصلتْ، وتُقُبِّلتْ وقُبِّلتْ، وأُكْرِمت لأن مُهْدِيَها كريم، وأُعْظِمت لأنها تُحْفَةٌ من عظيم؛ وأثنينا عليه بما طاب، وشكرَ بحرُنا الزاخرُ جُودَ أخيه السَّحاب .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضي تجهيزة من الملاكين والسوقات فقد رسَمْنا بالانتهاء إليه، لأنه لا فرقَ بينَنا وبينَ أخينا فيما يخصُّ مراسِمَنا جميعًا عليه؛ وقد جُهِّز من الملاكين والطين المختوم ما أمكنَ الآن، ومنه ما كُنّا رسَمْنا باستعماله من البلكات باسمه الشريف وتأخر؛ فلما فرَغ جُهِّز معه، وبعد هذا تُجَهَّز من يتوجّه إلى حضرته العالية ليجدّد عَهْدا، ويؤدّي إليه وُدّا، وما يتأخر إلا ريثَما تَجلَّى السُّحُب المتواليه، ويمكنُ التوصُّل سالما إلى حَضْرته العاليه .

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أسرّه بمعنى أفرحه كما حكاه ابن سيده في تفسير المثل «كل مجر بالخلاء مسر» انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هــذا : فهو أنّ الحاج أحمد أحضر إلينا ورقةً كريمه ، بل دُرّةً يتيمه ، بخط يد الحضرة الشريفة فأُعْجِبْنا بهـا ، ووجدْناها فى غاية الحُسْن التى لا يعدّ زَهْر الرياض لها مُشْبِها ، وما رأينا مثلَ ما كُتب فيها ، كأنّ السماء قد نظَّمت فى سُطورها النجومَ الزُّهْر من دَرَارِيها ؛ فأكرِمْ بيدٍ كتبَتْ سطورا آعترف بها الرُّمْح للقلم ! وآستمدّ السَّحابُ من طُروسها الكَرَم ! وجرتْ بجامدِ ذهبٍ وسائلِ دم ، وتنافستْ علىٰ إثباتها صحائفُه وأقلامُه ودُوِيُّه والجوّ والبُروقُ والدِّيَم ، وطلعتْ منها تَباشيرُ النَّجاح ، وتحاسدَ عليهـا مِسْكُ الليل وكافُورُ الصَّباح ، وآتفقتْ علىٰ معنًى واحد وقد تنوَّعت قسما ، وأشرقَتْ فتمنَّت السماءُ أن تكون لهـا صحيفةً والبرقُ قلَما ، فأرخصتْ قدرَ ياقوت فى التقليب ، وحسَّنَتْ بمحاسنها هِجْرانَ حبيب ؛ لقد أُوتِيَتْ من الخطّ غايةَ الكمال ، و بسطَتْ يدَ آبن هلال فيه عن فَمِ آبنِ هلال ، فأما الوَلِيُّ فإنّه من أوليائهـا ، وأنواؤه ممـا فاض من إنائهـا ؛ طالمَـا حدَّق إليه أبو علىٍّ فآختطف برقُه أباه مُقْله ، وفَطِن آبنُ أسد أنه لو أدركه أبُوه لنَسِى شِبْله ، فسبحانَ من صرّف فى يمينه القلَم بل الأقاليم ، ووهبه من أفضل كلِّ شىء ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾

وقد أُعيد المقرّبُ شرفُ الدين أحمدُ ، وحَمَل من المشافهَات الشريفة ما تُفَضُّ علىٰ أخينا عقودُه ، وتُفاض برودُه ، والحضْرةُ الشريفةُ لاتقطع أخبارَها عنّـا التى تَسُرّ بأنبـائه ، وتَسيرُ بنجُوم سمائه ، لازالت مناقبُه مسمُوعه ، والقلوبُ علىٰ مايجمع كلمةَ الإيمانِ مجموعه . إن شاء الله تعالىٰ .

تنبيه — أما الملطَّفات التى كانت تُكتَب إلىٰ هذا القان ، فقد ذكر فى "التثقيف" أنها فى قَطْع الثلث ، وكذا مايكتَب به بالمُغْلَ ، فإنه يكون فى القَطْع المذكور أيضا .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات إلىٰ مَنْ ملك تَوْرِيز وبَغدادَ بعد موتِ أبى سعيد)

قد تقدّم أنه ملك تَوْرِيزَ وبغدادَ بعد السلطان أبى سعيد (موسىٰ خان) ثم محمدٌ بن عدجى[1]، ثم الشيخُ حَسَن الكبير، ثم ٱبنه الشيخُ أُوَيس، ثم ٱبنُه حسن، ثم أخوه أحمد . ومنه ٱنتزعها تمرلنك . وذكر فى "التثقيف" أنّه ملك بعد أبى سعيد أرفاخان، ثم موسىٰ خان، ثم طغاى تمرخان، بعد أنْ ذكر أنه لم يُكْتَب إلى أحدٍ بعد أبى سعيد بالمكاتبة المتقدّمة . ثم قال: ورأيت بخط القاضى ناصر الدّين بن النّشائى أن مكاتبة طغاى تمرخان كانت نظير مكاتبة أبى سعيد . ثم قال: وهذا يدل علىٰ أنه لم يكاتَبْ بذلك بعد أبى سعيد غير طغاى تمرخان المذكور .

قلت : وقد وقفت علىٰ مكاتَبَة عن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلىٰ موسىٰ خان المقدّم ذكره من إنشاء المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله، فيما ذكره صاحب "الدُّرّ الملتقط" جوابًا عن كتابٍ ورد منه يذكُر فيه النُّصرة علىٰ عدوّله ، والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا . بَدَأ فيها بعد الآفتتاح بآيةٍ من القرءان الكريم فى معنىٰ النصر بقوله :

«إلىٰ الحضرة الشريفة» إلىٰ آخر الألقاب المناسبة «من أخيه ومحبه»، ثم خطبة بعد ذلك مفتتحة بـ «الحمد لله» . ثم «وبعد ، فقد ورد الكتاب الشريف» . والخطاب بـ «الحضرة الشريفة» . والآختتام بالدعاء . ولاخفاءَ فى أن هذه نحو المكاتبة إلى أبى سعيد، لكنى لم أقف علىٰ مقدار قَطْع الورق فيها، ولاصورة الكتاب . وهذه نسختها :

(١) كذا فى الأصل هنا وتقدم فى ج ٤ ص ٤٢٤ (غبرجى) .

﴿وقالُوا الحَمْدُ لله الَّذى أذْهَبَ عنّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكُور﴾. ﴿ويومئذٍ يفرحُ المُؤمنُونَ بنَصْرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وهو العَزيزُ الرحيم﴾.

إلى الحَضرة الشريفة العاليــة ، السلطانيّــة ، الأعظميّة ، العــالميّة ، العادليّة ، الأوْحديّة ، الشاهنشاهيّــة ، القانيّــة ، الأَخَوية ، الأخ العزيز ، الكبير ، المعظَّم ، موسٰى خان ، أعزّ الله سلطانه ، وثبّت بسعادة مُلْكه أوطانَه . مِنْ أخيه ومحبّــه ، المخلِص فى حُبّه ، الصادقِ المودّةِ له فى بُعْده وقُرْبه .

الحمــدُ لله الذى أيّدَ الإسلامَ بنصره ، وضيّق علىٰ أعدائه مجالَ حَصْره ، وجدّد بتأييده فى زمانه ماتحلّىٰ به أعطافُ عَصْره . نحمَـدُه عن الدِّين الحنيفِ على نُصْرة أضاء لهـا الوُجودُ بأسْره ، وأوقعتْ كلَّ خارجٍ(١) علىٰ الدِّين والمُلْك فى قبْضة أَسْره ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُخلِص قائلُها غايةَ اجتهاده ، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى جاهدَ فى الله حقَّ جِهاده ، صلّىٰ الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَستقِلُّ ببشائرها أعباءَ عِباده ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعد ، فقد ورد الكتابُ الشريفُ من الحضرة الشريفة العاليــة ، السلطانيّة ، القانيّــة ، أخينا وولدنا العزيز ، المؤيَّد بالنصر على الأعداء والفتح الوَجيز ؛ لا زالتْ دولتُه الشريفة دائمةَ الإقبــال ، متزيِّدةً تزيُّدَ الهــلال ، علىٰ يد المجلِسَيْن الساميَيْن ، الأميرين ، الكبيرَيْن ، عضُدَى الملوك والسلاطين : "دلنجى ، وكراى" أدام الله تعالىٰ عزَّتهما — بالبِشائر بنُصْرة الإسلام ، وتأييد أخينا علىٰ عدُوِّه الخارج(١) علىٰ الدِّين والمُلْك . وحَمِدنا اللهَ تعالىٰ علىٰ هذه النُّصره ، وتضاعفتْ بها المَسَرّه ، ونحن كُنّا خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلاميّة ، لنَتَساعدَ كلُّنا علىٰ نُصْرة الإسلام . وما تأخَّرنا

(١) فى الأصل "خارجى" .

إلا لمّا جاءتْ إلينا مماري(؟) الأخبار وما كنا تحقّقناها ثم تحقّقنا بحمد الله تعالى هذه الأخبار، وضربْنا لها البشائر فى سائر الأقطار، وعرَفنا بها عنايةَ الله تعالى بأخذ المسلمين بنَواصى الكُفّار، وقيام الجناب الكريم العالى الأميرِ الكبيرِ التُّوبْن العادل المعظّم على باشا، أعزّ الله تعالى نُصرتَه فى إعادة الحقّ إلى أهله، وصَبْره على ما سبقَ به كلَّ أحد إلى جميل فِعْله، واجتهادِه فى هذا الأمر الاجتهادَ الذى ما كان يُطْلب إلا من مثله؛ وكذلك الجناباتُ العاليةُ الأمراءُ التُّوبْنات الأكابِر، زِيدتْ سعادتُهم! فإنّهم سارعُوا إلى ما كان يجب ويتعين عليهم فى خدْمة سلطانه، ومن هو أحقّ بهم وأولىٰ من عظيم عظم قانهم؛ وما من الأمير التُّوبْن العادل على باشا وبقيةِ الأمراءِ الأكابر إلا مَنْ قام بما كان عليه من العُهود، وبذل اجتهادَه حتّى حصل بحمد الله المقصود؛ وما قصّروا فى قيامهم حتّى تسلم المستحقُّ حقَّه وميراثَه وما هو أحقُّ به وأوْلىٰ. وهم ـ جزاهم الله الخيرَ ـ قد عمِلُوا ما يجب عليهم، وبقِىَ ما يجب على الحضرة الشريفة من الإحسان إليهم.

وأما قولُ الحضرة الشريفة: إنه مثلُ ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعزُّ من الولد، وكلُّ أحدٍ منّا لأخيه فى الاتّفاق على المَصالح الإسلامية عَضُد ويَدٌ، وذُخْر وسَنَد؛ وقد سبَق من تآلُف القلوب ما اشتدّت به الآنَ أواخيه، وأضحىٰ له منّا شفقةُ الوالدِ على الولَد وتوقيرُ الأخ لأخيه؛ وقد أعدنا رسُلَه الكرام وحمّلناهم مشافهةً ووصيةً للحضرة الشريفة فى أمورٍ تقتضيها مصْلحتُه، فإنه عندنا أعزُّ من الولَد. وما القَصْد إلّا الاتفاقُ على مصالح الإسلام، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوِئام]، فيُديم المواصلةَ بكُتبُه وأخباره السارّه، والله تعالى يديم مَسارّه ويضاعف مَبارّه؛ إن شاء الله تعالى.

ولم أقِفْ لهذه المكاتبة على قَطْع ورق، والظاهر أنها فى قَطْع النصف لما سيأتى أنه الذى عليه الحال فى مكاتبة صاحب بَغْداد وتَوْرِيز، فيما بعدُ إنْ شاء الله تعالى.

وآعلم أن صاحب "التثقيف" قد ذكر أن المكاتبة إلى الشيخ أُوَيْس : صاحب بغدادَ وتَوْرِيز، وآبنه حسَنٍ بعده فى ورَق قَطْع النصف . ورسمها : «أعزّ الله تعالى أنصارَ المَقام الشريف العالى، الكبيرىّ، السلطانىّ، العالِمىّ، العادِلىّ، المجاهِدىّ، المؤيدىّ، المرابِطىّ، المنصورىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» بلقب السلطنة «الفلانىّ» بلقبه الخاص . والدعاء بما يناسبه « أصدرْناها إلى المقام الشريف تُهْدِى وتبدى » و «القصد من المقام الشريف». ويختم بدعاء يناسب، مثل: «أعزّ الله أنصاره» ونحو ذلك . ومخاطبته بـ«المقام الشريف» . والعنوان «المقام الشريف» إلى آخر الألقاب المذكورة. والدعاء «أعز اللهُ تعالى أنصاره» . وتعريفه "فلان بهادرخان" مثل أن يقال : « الشيخ حَسَن بَهادرخان » . والعلامة إليه « أخوه » . قال فى "التثقيف": وكان الشيخ أُوَيْس المذكور عند آستقراره بتَوْرِيز وبغدادَ يكتب له «المقام العالى» ، ثم كُتِب له بعد ذلك «المقام الشريف» .

وهذه نسخةُ مكاتبة كُتِب بها إلى الشيخ أُوَيْس المقدّم ذكره، جوابًا عن كتاب ورد منه، من إنشاء القاضى تقِىّ الدين آبن ناظر الجيش ، حينَ كان يُكْتَب إليه « المقام العالى » لآبتداء أمره، على ماتقدّم، وهى :

أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام العالى، إلى آخر ألقابه، ولا زال المُلْك زاهرًا زاهيًا بشَرَف سلطانه، والفَلَكُ يجْرِى بإعزاز قَدْره، و إحراز نَصْره، مدى زمانه، والفتك منه بالأعداءِ يسُرّ الأولياءَ من أهل مَوَدّته وإخوانه، وسِلْك جواهر عِقْد وَلائه منظَّمامن الإخلاص بجُمانه، ولا بَرِح مؤيَّدا بأنصار الإسلام وأعوانِه، مُجدِّدا سعدُه الذى يبلِّغه جميلَ أوْطاره فى جميع أوْطانه .

أصدرناها إلى المقام العالى تصِفُ مالدينا من المحبّة التى ظهر دليلُها بواضح بُرْهانه، وتَبُثُّ إلينا أنباء مكنون المودّة التى تَغْنىٰ عن صريح القول وتِبْيانه ، وتُبْـدِى لعلمه

الكريم أن كتابه الكريم ورد على يد فلان رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه؛ وعلمنا ماتضمنه من محبته وموالاته، ومخالصته ومصافاته؛ وما آشتمل عليه ضميره من صحيح الوداد، وصريح الآتحاد، وجميل الآعتقاد، وجزيل المخالصة التى يتم بها الأمل والمراد . وأن المقام العالى جهز رسوله المشار إليه ليوضح إلينا ماهو عليه من ذلك، وينهى إلينا أسباب الآئتلاف التى عمرت أرجاء الجهتين هنا وهنالك ، ويبدى ماتحمله عنه من المشافهات، وتفهمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطنا علماً بذلك ووصل رسوله المذكور، وتمثل بمواقف سلطاننا المنصور؛ وشمله إقبالنا الشريف، وإنعامنا المطيف، وسمعنا جميع كلامه، وما تحمله من المشافهة الكريمة من عالى مقامه؛ وشكرنا محبة المقام العالى ووده الجميل ، وأثنينا على موالاته التى لا تميد عنها ولا تميل، وآبتهجنا بسلامة مقامه الجليل . وقد أعدنا فلانا رسوله المذكور بهذا الجواب الشريف، إلى المقام العالى أعز الله أنصاره، فيتحف بمكاتباته ومهماته ، والله تعالى يمده بالتأييد فى حركاته وسكناته ، ويعز نصره ويزيد فى حياته .

⁂

أما المنفرد بتوريز خاصة، فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة إلى الأشرف (آبن علاء الدين تمرتاش) الذى كان قدوثب على تبريز خاصة فملكها، فى قطع الثلث بقلم التوقيعات «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى الأميرى الكبيرى» وبقية الألقاب والنعوت، ومنها النوينى . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى وتوضح» والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الأشرف بن تمرتاش » .

ثم ذكر أن أخى جق الذى وثب عليه وقتله وآستولى على تبريز بعده آستقرت مكاتبته كذلك، وأنه كان يكتب فى تعريفه «أخى» لا غير . ثم قال : وقد ماتا وبطل ذلك .

(أبو بكر بن خَوَاجا على شاه) وزير صاحب تِبْرِيزَ «الأسمُ» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخواجا المرحوم على شاه . قال فى "التثقيف" : ولم أعلَمْ وُزُرَ فى زَمَن مَنْ من المتولِّين

(عُمَر بك)(١) أحد أمراء الأشرف بن تمرتاش صاحب تِبْرِيز فى قَطْع الثلث ، الدعاء و « العالى » والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى "التثقيف" : وهذا ممن بطل حكمه بزوال مخدومه .

الجملة الثالثة

(فى رسم المكاتبة إلى مَن انطوتْ عليه مملكةُ إيران، ممن جَرَت عادتُه بالمكاتبة عن الأبواب السلطانية، فى أيام السلطان أبى سعيد فَمَنْ بعده، وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاول

(كُفَّال المملكة بحضرة القان ، وهم على ضربين)

الضرب الاول

(كُفَّال المملكة بالحَضْرة فى زمن القانات العِظام كأبى سعيد ومَنْ قبله من ملوكهم حينَ كانتِ المملكة على أتم الأُبَّهة وأعلى الترتيب)

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثالثة أنَّ القائمَ بتدبير العسكر لهذه الدولة حين كانتْ قائمةً على نمط القانيَّة المتقدم إلى آخر زمَنِ أبى سعيد أربعةُ أمراءَ، يعبَّر عنهم بأُمراء الألُوس، ويعبَّر عن أكبرهم بِبكْلارى بك بمعنى أمير الأمراء. وربما أُطلِق عليه أمير الألُوس أيضا. والقائمُ بتدبير الأمور العامَّة هو الوزير.

(١) يظهر قياسا على ماقبله أنه سقط هنا من قلم الناسخ شىء نحو والمكاتبة ضاعف الله الخ. ثم الدعاء والعالى الخ .

فأما الأمراءُ المذكورون ، فقد كان كلٌّ من الأمراء الأربعة والوزير يكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية . وقد ذكر فى "التعريف" أن المكاتبة إلىٰ بكلارى بك فى قَطْع النصف : « أعزَّ الله تعالىٰ نَصْرَ المقرّ الكريم » . وإلىٰ الثلاثة الذين دُونَه فى قطع الثلث : « أدامَ الله تعالىٰ نَصْرَ الجناب الكريم » . وأنَّهُ يقال لكلٍّ من الأربعة «النُّوِيْنِىّ» . ثم قال : ومثلُ هذا مكاتبة أرتنا بالرُّوم ، وأمير التُّومان بديار بَكْر : من سُوناى وبنيه وكذلك سائرُ الامراء النُّوِيْنات : وهم أمراءُ التَّوامين .

والذى ذكره فى " التثقيف " أن المكاتبة إلىٰ الشيخ حسن الكبير أمير الأُلُوس كانت علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحال إلىٰ حين وفاتِه ببغدادَ فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات : «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيَّدىّ ، الزَّعيمىّ ، العَوْنِىّ ، الغِيَاثِىّ ، المُثاغرىّ ، المُرابِطىّ ، المُمَهِّدىّ ، المُشَيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، النُّوِيْنِىّ ، القلانىّ : عونِ الإسلام والمسلمين ، سيِّدِ الأمراء فى العالمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جُيوش الموحِّدين ، مُمَهِّد الدُّوَل ، عمادِ الملة ، عَوْنِ الأمة ، كافى الدولة القانيَّة ، كافِل المملكة الشَّرقيه ، آمِرِ التَّوامين ، أمير الأُلُوس ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، عضُدِ أمير المؤمنين» . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدَرْناها إلىٰ الجناب الكريم » و « تبدى » و « القَصْد من الجناب الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه «الشَّيخ حسن أُلُوس بك» .

قال فى " التثقيف " : ولما تُوفِّىَ الشيخُ حسنٌ المذكور إلىٰ رحمة الله تعالىٰ لم يَقُمْ غيره مكانَهُ فيما أظُن ، ولا كُوتِبَ أحدٌ بعده بهذه المكاتبة . قال : والنُّوِيْنِىّ فى ألقاب هؤلاء بدل «الكافِلىّ» فى ألقاب النُّوَّاب ، يعنى بالمملكة المِصْرِيَّة والشاميَّة . ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمَل دائماً لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعْمَل الكافلىّ أصلاً .

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو «الكافِلِىّ» فى الألقاب التى أوردها فى المكاتبة إلى الشيخ حَسَن الكبير .

وأما الوزير بهـذه المملكة فقد ذكر فى "التعريف" أن رسمَ المكاتَبة إليه فى قطع الثلث « ضاعفَ اللهُ تعالى نِعمةَ المجلس العالى الأَميرىّ الوزيرىّ » على عادة المكاتبات إلى الوزراء بألقاب الوِزَارة . قال : فإن لم تكُنْ له إمْرة ، فيقال له «الوَزِيرىّ» ولا يُقال له «الصاحِبىّ» لهَوَانها لديْهم . ولم يتعرّض فى "التثقيف" إلى المكاتبة إلى وزير هـذه المملكة ، ولا إلى الأُمراءِ الثلاثة الباقين من أُمراء الأُلُوس ، بل عدَل عن ذلك إلى المكاتبة إلى الوزير ببلاد أَزْبَك . وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد مُحِيتْ رسومُ تلك المملكة ، وعفَتْ آثارها بزَوال ترتيبِ المملكة بموتِ السلطان أبى سعيد : آخر ملوك بنى جنكزخان بهذه المملكة . وإنما ذكرْنا ذلك حِفْظًا لما كان الأمرُ عليه : لاحتمال طُرُوِّ مثل ذلك فيما بعد ، فيُنْسَج ما يأتى على مِنْوال مامضى ، ويُجْرىٰ فى المستقبل على مِنْهاج الماضى ؛ فالأمور ترتفِعُ ثم تنخفض ، وربما انخفَضَتْ ثم ارتفعت . والله تعالى يقول : ﴿ وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ الناس ﴾ .

الضرب الثانى

(كُفَّالُ المملكة بالحضْرة بعد موت أبى سعيد)

قد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً : منهم محمدٌ الكازَرُونىُّ وزكَرِيَّا وزيرَا الشيخ أُوَيْس . وقد ذكر أنَّ رسم المكاتبة إلى كلٍّ منهما فى قَطْع العادة « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىِّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، الأوْحدىّ، المقدَّمىّ، المُنْتَخَبِىّ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بهاءِ الأنام، شرفِ الرؤساء، أوحدِ الأعيان، صَفْوة الملوك

والسلاطين» . ثم الدعاء . والعلامة « الأسمُ الشريف » وتعريفُـه «فلان وزير الشيخ أُوَيْس بَهادِرْخان» .

ومنهم ـ الطَّواشى مَرْجان، نائبُ القان أُوَيْس ببغداد، ولقبه أمينُ الدين بالِس. ورسم المكاتبة إليه «والده» و«السامى» بالياء . وتعريفه «خَوَاجا مَرْجان» .

ومنهم ـ محمدقَلْتان، نائب الشيخ أُوَيْس أيضا . وذكر أنَّ رسمَ المكاتبة إليه مثل المكاتبـة إلىٰ مَرْجان . والعلامة « الأسمُ الشريف » . وتعريفه : «قَلْتان نائب الشيخ أُوَيْس» .

قلت : فإن آتفق أنْ أُقيم لصاحب بغدادَ: كأحمد بن أُوَيْس ومن فى معناه مثلُ هؤلاء ، كانت المكاتبـةُ إلىٰ كلِّ منهم نظيرَ مثله من المذكورين بحسَب مايقتضيه الحالُ .

الصـــنف الثـانى

(ممَّن جرَتِ العادة بمكاتبته بمملكة إيرانَ عن الأبواب السلطانية، صِغَارُ الملوك المنفردين ببعض البُلْدان، والحُكَّامُ بها ممن هو بمَمْلكة إيران)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنَّ مملكة إيرانَ تشتمِلُ علىٰ عِدّة من الأقاليم داخلةً فى حدودها، منتظمةً فى سِلْكها. وقد ذكر فى "التعريف" جملةً من المكاتبات عن الأبواب السُّلْطانية إلىٰ بعض هؤلاء الملوك . وخالفه فى " التثقيف" فى بعض المواضع وزاد عليـه عِدّةَ مكاتبـات . وها أنا أذكُر ما ذكراه من ذلك ، وأزيد ما آتّفق زيادتهُ مميِّزا لكلِّ إقليم من أقاليم هـذه المملكة بمَنْ فيه من المُلُوك والحُكّام ومَنْ جرىٰ مجراهم .

فممّن جرتِ العادةُ بمكاتبته من الملوك والحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة، ممـا بين دِجْلة والفُرات من ديار بكر وربيعة ومُضَر وغيرها على ماتقدم ذكره فى المسالك والممـالك فى المقالة الثانية

صاحبُ ماردِينَ — وقد تقدم فى المَسالك والمَمَالك أنها مدينةٌ ذاتُ قَلعة حَصِينة بديار بَكْر من هذه الجزيرة، وأنها بيد بَقَايَا بنى أُرْتُق[1] المستقِلّين بمُلْكها من قديم الزمان وإلى الآنَ .

ورسمُ المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «اعزّ الله تعالى نُصْرة المقرّ الكريم العالى، الكبيرىّ المَلكى الفلانىّ الفلانى» يعنى باللّقب الملوكى، واللّقب المضاف إلى الدين، مثل «الصّالحى الشّمْسى» وما أشبه ذلك . ثم الدعاء . قال فى "التثقيف" : ثم يقال : «أصدرناها إلى المَقرّ الكريم»، «وتُبْدِى لعلمه الكريم» . «فيتقدّم أمره الكريم» . ويُختم بمـا صورته «فيُحيط علمُه الكريم بذلك» . والدعاء . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «صاحب ماردِينَ» . وورقُه قَطْع العادة . ثم قال : ويتعيّن أن تكون ألقابُه إلى آخر اللقب الملوكىّ سَطْرَيْن سواءً ، وأن يكون لقبُـه العادىّ كالفَخْرىّ مثلا أوّل السطر الثالث .

وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثةَ صُـدُور لمكاتبة تتعلّق بصاحبها فى زمانه ، وهو «الصالح شمس الدّين صالح» .

أحدها — ولا زالَ مَلِكا تاجُه المَدَائح، ومِنهاجه المَنائح، وطريقتُه إذا وُصِفتْ قيل : هذه طريقةُ الملِك الصالح. أصدرْناها إليه وشكْرُها تَسُوقه إليه حُداةُ الركائب، وتشوقُ منـه إلى لقـاء الحَبائب ، وتُثْنِى على مَكارمه التى كلّما أقْلعتْ منهـا سحائبُ أعقبَتْ بسحائب، وتُوضّح للعلم الكريم .

(١) هو بهذا الضبط كما فى ص ٨٦ ج ١ من تاريخ ابن خلكان .

الثانى — ولا زالت شمسه فى قُبّة فلكها ، وسماءُ ممالكه مملوءة حرسًا شديدًا وشُهبا بملكها ، ونعمه تتعب البحار إذا وقفت فى طريقها ، والغمائم إذا جازت فى مَسْلكها . أصدرناها إليه والسلامُ متنوّع على كرمه، متضوّع بأطيب من أنفاس المسك فى نِعَمه، متسرّع إليه تَسرُّع مواهبِه إلى وُفود حرمه. وتوضّح للعلم الكريم .

الثالث — ولا زالت العُفاة تلتحف بنَعمائه، وتنتجع مساقطَ أنوائه، وتستضيء منه بأشرق شمسٍ طلعت من المُلك فى سمائه ؛ أصدرناها وثناؤها يسابق عجلا، ومدائحها تُجيد مترويا ومُرتجلا ، وشكرها لو وُضع مع الجواهر لأقام عُذْرَ الياقوت إذا اكتسى خدُّه الحمرةَ تخجلا، وتوضّح للعلم الكريم .

قلت : وعلى نمط هذه الصدور يجرى الكاتبُ فيما يكتُبه إلى صاحبها مناسبا لحاله ولقبه بحسَبِ مايقتضيه الحال من المُناسبات .

وهذه نسخة كتاب ، كُتب به إلى الملك "الصالح شرف الدين محمود بن الصالح[(١)] صالح" ، جواباً عما ورد به كتابُه : من وفاةِ والده المنصور أحمد . نقلتها من مجموع بخطّ القاضى تقىّ الدين ابن ناظر الجيش وهو :

أعزّ الله تعالى نُصرةَ المقرّ الكريم، الى آخر ألقابه — ولا زال المُلك باقيا فى بيته الكريم، والفَلَك جاريا بإظهار شرفه العَميم ؛ وأعظمَ له الأجر فى أكرم مَلِك انتقل إلى جنّات النعيم، وهنّاه بما أورثه من ذلك المحلّ الأسنى الذى هو الأولى فيه بالتقديم؛ وضاعفَ لسلطانه الصالح عُلوّ جدّه، بما منحه من مُلكه الموروث عن المنصور أبيه والصالح جَدّه، وبما خصّه من إقبالنا الشريف و إحساننا المستديم . أصدرناها مُعْربةً عن الوُدّ الثابت الصّميم، مهنّئة له بقيامه بأمور مملكته التى تجمّلت بمحمود صفاته

(١) هو على مايؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح فنسبه إلى جدّه .

ومَنْ سلَفَ من أسلافه فى الحديث والقديم ، مُبدِيَةً لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمه ، ومُخاطَبَته التى فَضَحتْ من الدُّرِّ نَظيمه ، وردَتْ علىٰ أبوابنا الشريفة علىٰ يدِ فلان فأقبلْنا عليها ، وألفتنا وجهَ الكرامة إليها ، وعلمنا ماتضمَّنته من آستمْساك المقرّ الكريم بأسباب الوِدَاد ، وآقتفائه فى ذلك سبيلَ الآباءِ والأجْداد ، وماشرَحه فى معنىٰ ماقدّره الله تعالىٰ من وَفاة والده طابَ ثَراه ، مستمرًا علىٰ الإخلاص فى الطاعة الذى لم يكن شانَهُ شينٌ ولا آعتراه ، وأنه مضىٰ ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ إلىٰ الجنة وقد خَلَّف من خَلَّفه ، وآرتضىٰ بما نال من الرِّضا عما قدّمه من العمل الصالح وأسْلَفه ، وماأبداه : من أنه إن آقتضت مراسمُنا الشريفة وآراؤنا العاليةُ أن يقومَ مقامه ، ويَرْعىٰ فى حقوقه ومَصالح تلك المملكة ذِمامه ، فتَرْسُمُ بإجرائه علىٰ السُّنَّة المعتاده ، من إحسانِ بيتنا الشريف الذى بَدَأ به وأعاده ، وإلا فتبرُزُ الأوامرُ الشريفة بمَنْ يَسُدُّ آختلالها ، ويُسَدّد أحوالها ، ويَشيِّدُ مَبانيها ويُصْلِح أعمالها ، ليقصدَ المَقامَ الشريف بأبوابنا الشريفة سالكًا سبيلَ الطاعة المُبين ، منتظمًا فى سِلْك أوليائنا المُقرّبين ، إلىٰ غير ذلك مما حَمَّله لأستاد داره من مشافهته ، وجميلِ مقاصده ووافرِ محبَّته وطاعته ؛ وقد أحطْنا علمًا بذلك وسمعنا المشافَهةَ المذكوره ، وشكرْنا محبَّته المأثوره ، وإخلاصه فى الخِدْمة الشريفه ، وجميلَ الموالاة التى تمنَحُه تكريمَه وتَشريفَه ، وآستمْساكه بسُنَّة آبائه الكِرام ، وآجتهادَه فى المُناصحة والطاعة التى لاتُسامىٰ من مثله ولا تُسام ؛ ونحن نُعرّف المقرَّ الكريم أنَّ محلَّه ومحلَّ بيته الكريم لم يزَلْ لدينا رفيعًا مِقدارُه ، عاليًا مَنارُه ، وأن مكانَتَه من خواطرنا الشريفة متمكّنه ، ومنْزلَته قد صحَّت أحاديثُها المعنْعَنه ، وهو الأحقُّ بمحلِّ مُلْكه ، والأولىٰ بأن يكون من نظام عُقودِ مُلوكه واسطةَ سِلْكه ، وقد آقتضت آراؤنا العاليةُ أن يقومَ مَقام والده المرحوم ، ويحُلَّ محلَّ هذه السلطنة ليعْلوَ قدْرُه بإقبالنا الشريف علىٰ زُهْرِ النُّجوم ، وليَجلِسْ بمكانه ، وليَبْسُط

المَعْدِلة لتكونَ حليـةَ زمانه، وليستنصرْ علىٰ أعدائنا وأعدائه بأنصار المَلك وأعوانه، وليستقرَّ على ماهو عليه مِن المحافَظة على الوِداد، وليستمسِكْ بعُرَىٰ الإخلاص المبرَّإ من شوائب الانتقاد، وليقتَفِ فى ذلك سبيلَ سَلَفه الكريم، وليُواصِـلْ بمكاتباته وأخبارِه علىٰ سَنَنِهم القَويم؛ وقد أعدنا إستاد داره بهذا الجواب الشريف إليه .

وآعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنّ ممن يكتَبُ إليـه عن الأبواب السلطانية من أتباع صاحب مارِدِينَ نائبُه، وذكر أنه كان آسمه فى زمنه «بَهادِر» . وأن رسم المكاتبـة إليه الأسمُ والسامى بغير ياء؛ وكذلك نائبُ الصالحيَّـة من عَمل ماردِينَ؛ وأنّ رسمَ المكاتبة إليه الأسمُ و «مجلس الأمير» . فليَجْرِ الكاتب علىٰ سَنَن ذلك إن آحتيج إلىٰ مكاتبتهما .

صاحب حِصْن كَيْفَا — وهى مدينةٌ من دِيار بكر من بِلاد الجَزيرة، بين دِجْلةَ والفُرات . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن صاحبها من بقَايا الملوك الأيوبيَّة، وممن تنظُر إليه ملوكُ مصرَ بعين الإجلال : لمكان وَلَائهم القديم لهم، وآستمرار الوداد الآنَ بينهم .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «أدام اللهُ نعمةَ المَجْلس العـالى، المَلَكى، الفلانى» باللَّقَب الملوكى «العالِمىّ، العادِلىّ، المجاهِـدىّ، المؤيَّدىّ، المرابطىّ، المُثاغرىّ، الأوحدىّ، الأَصيلىّ، الفلانى» باللقب المتعارَف «عِزّ الإسلام والمسلمين، بقيّة الملوك والسلاطين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، زَعيم جُيوش الموحِّدين، شَرَف الدُّوَل، ذُخْرِ الممالك، خليلِ أمير المؤمنين» . ورُبَّما قيل : «عَضُد أمير المؤمنين» إذا صُغِّر .

وذكر فى "التثقيف" مايخالِفُ فى بعض ذلك، فقـال : إنّ مكاتبته : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابِطىّ،

المثاغرىّ، الأوحدىّ، الفلانىّ» باللّقب الملوكىّ واللّقب المتعارف . «عزّ الإسلام والمسلمين، زعيم جيوش الموحّدين. ذُخْر الملة، سليل الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين» . ثم الدعاء . «صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى . "والعلامة" أخوه» وتعريفه «صاحب حِصْن كَيْفا» . قال : والكتابة إليه فى قطع العادة .

وقد ذكر فى "التعريف" صُدورا لمكاتبته .

صدر : وٱستعادَ به من الدّهر من عُهود سلفه ماتسلّف، وحاز له من مَوارِيث المُلْك أكثر مما خَلّىٰ له أوّلُه وماخَلّف، وحطّ للرحال فى حِصْن كَيْفا به علىٰ مَلِك : أما المستجيرُ به فيتحصّن وأما فضلُه فلا يُكيَّف، وأعان السحابَ الذى كَلَّ عن مجاراته ويَجْرى هو ولا يتكلف . أُصدِرتْ هذه المكاتبةُ إليه ونَوْءُها يَصُوب، ولألاؤها تَشُقّ به الظلماءُ الجُيوب، وشاؤُها على حُسْن بَلائه فى طاعة ربّه يقول له : صَبْرا صبْرًا كما تعوّدتم يا آلَ أيّوب .

صدر آخر : وشَدّ به بقيّةَ البيت ، وحَيَّا طَلَله البالى وأحيا رسْمَه المَيْت، وذَكّر به من زمان سَلَفه القديم مالا يُعْرَف فيه هَيْت، وأبقىٰ منه مَلِكا من بنى أيّوب لا يَثْنِى وعْدَه اللَّىُّ ولا يقال فيه لَيْت ، ونَوّر الملك بغرّته لا بما قَرَع السمْعَ عن الشَّمَع وورَدَ المصابيحَ من الزَّيْت، وحَفِظ منه جَوادا لو عينه[1] أخُوه السَّحابُ علىٰ السَّبْق، لقال له : هَيْهاتَ كم خَلّفْتَ مثلك خَلْفى وخَلّيْت . أُصدِرتْ هذه المكاتبةُ إليه، أعزّ الله جانبه والتحيّاتُ موشّحةٌ بنُطُقها، مصبّحةٌ لسَجاياه الكريمة بخُلُقها، ساحبةٌ إليه ذَيْل خُيَلائها : لأنها إذا ٱختالَتْ به تختال، وبسَبَبه علىٰ السُّرور تختال .

ملوك كِيلان — قال فى " التعريف " : وهم جماعةٌ كلٌّ منهم مستقلٌّ بنَفْسه ، منفردٌ بمُلْكه، علىٰ ضِيق بلادهم وقُرْب مجاورةِ بعضهم من بعض . وقد

(١) كذا بالأصل، وفى التعريف "عتبه" والاولى عاتبه أنظر كتب اللغة .

تقدم الكلامُ على بلادهم فى المسالك والممالك . قال فى "التعريف" : ورُسُلهم قليلة، وكُتُبهم أقلُّ من القليل .

ورسمُ المكاتبة إلى كلٍّ منهم على ماذكره فى "التعريف" نحوُ مايُكتَب إلى صاحب حِصْن كَيْفا . يعنى يُكتَب لكلٍّ منهم : « أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى المَلَكى الفلانى » إلى آخر ما تقدّم هُناك . قال فى "التعريف" : إلا صاحب يُومِنْ فإنه يُكتَب له بـ«الجناب» . وهو مثلهم فى بقيّة الألقاب . قال فى "التثقيف" : لم أرَ لهم مكاتبةً ، ولا كُتِب لهم فى مدّة مباشرتى بديوان الإنشاء الشريف شئٌ ، غير أنى رأيت بخطِّ المولى القاضى المرحوم زين الدين خَضِر ، أنه كتب أمثلةً شريفةً إلى جماعة ، منهم «حَرَم الدين» . بيُومِنْ ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهابُ الدين أنّ مكاتبته أعلى مكاتباتهم ، وأنه يُكتَب إليه «الجناب» . قال : ومايَبْعُدُ أن الجماعة الذين كُتِبَ إليهم على ما ذكر القاضى زينُ الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كَيْلان . ثم عدّد مَنْ كُتِب إليه منهم فقال : وهم نُوباذ شاه ، وسالوك ولده ، فى قَطْع العادة .

ورسم المكاتبة إليهما : «خلَّد الله تعالى سعادةَ الجَنابين الكريمين ، العاليين ، الكبيريَّيْن ، العادليَّين ، المجاهديَّيْن ، المرابطيين ، المُلكيين : الشَّرفىّ والسَّيفىّ» . والدعاء . والعلامة «أخوهما» . والعُنوان سطران . وتعريفهما : نُوباذ شاه وسالُوك ولده صاحبا كوحسفا (؟) .

ناصر الدّين بَهلَوَانُ ، وشَرَفُ الدين شَرَف الدولة صاحبا لاهجان مثلُ ذلك سواءً .

فلَكُ الدين صاحب دشْتَ كذلك .

حُسَام الدين صاحب يُومِن كذلك . ثم قال نقلا عن ابن الزِّبْنى خَضِر أيضا : وقيل إنّ حُسام الدين هـذا كان صاحب يُومِن، وصاحبُها الآنَ أخُوه علىٰ ماذكره محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكِّيلانى حين كَتَب إليهم .

قلت : وهٰؤلاء هم ملوك كِيْلان ، وهذه مدُنُهم علىٰ ما تقدّم فى المسالك والممالك . والعَجَب كيف وقع الشّك فى ذلك من صاحب "التثقيف" حتّى قال : وما يَبْعُد . وأما التسويةُ فى الآخرين صاحب يُومِنْ وغيره ، فيجوز أنّ قدْره آنحطّ بعـد زمن صاحب "التعريف" أو جَهِل الكاتب الثانى مِقدارَه .

صاحب هَرَاة — وهى مدينة من خُرَاسانَ . قال فى "التعريف" : ولا يَجْرِى علىٰ الألْسُن الآنَ إلا صاحب هَرِىٰ . قال : وكان مِلكُها الملِكَ غياثَ الدين . ولم أسمع أعجمياً يقول إلا قِيَاس الدين . وكان مَلِكا جليلا نَبِيلا مفخّما معظّما، له مكانةٌ عند الملوك الهُولاكوهِيّة ،ومنزلةٌ رفيعة عليّه . وكان بينه وبين النُّوِيْن جُوبان مودّةٌ أكيدة وصـداقةٌ عظيمة ؛ فلما دارتْ به دوائرُ الزمان وأفضتْ به الحال إلىٰ الهَرَب ، لجأ إلىٰ صاحب هَرِىٰ هذا، على أنه يُسَهِّل له الوُصُولَ إلىٰ صاحب الهند، أو إلىٰ مَلك ماوراء النهر، فأجابه وأنزله ، وبسَـطَ أمَلَه ؛ وأسرّ له الخِداع حتّى آطمأنّ إليه ، فأصـعَدَه إلىٰ قَلْعته ليُضيفه ، فصَعِد ومعه آبنُه جلوقان ، وهو آبنه من خُونْدة بنت السلطان خدابَنْدا، وجُلُوقان هذا هو الذى أجيب إلىٰ تزويجه ببنت السلطان الملك النـاصر، وعلىٰ هذا تمّتْ قواعدُ الصُّلح . وبنىٰ جُوبانُ أمْرَه علىٰ أنه بعدَ التزويج يأخذ له مُلكَ بيتِ هُولاكو بِشُبْهة أنه آبن بنْت خدابندا؛ وأنه لم يَبْقَ بعد أبى سعيد من يَرِث المُلْك سِواه . ثم يستضيف له مُلكَ مصر والشام بشُبْهة أنّ بنتَ صاحب مصر هى التى تَرِث المُلْك من أبيها، فحالت المَنَايا دُون الأمانِى .

وحالَ صُعودِ جُوبان وآبنه جلوقان القلعة أمسكهما غياثُ الدّين وخنقهما ليتّخذ وجها بذلك عند أبى سعيد ،وبعث بذلك إلىٰ أبى سعيد، فشكَرله إمساكَهما، وانكر عليه التعجيلَ فى قتلهما ، فاعتذر بأنّى لو لم أقتُلهما لم آمَن آستعدادَ مَنْ معهما لمحاصرتى ، فقبِل عُذْره، وطلب منه إبهامَ[1] جُوبانَ ليَعْرِف أنه قد قتله ، وكان فيه زيادةُ سِلعة ظاهرة يُعرف بها ؛ فجهّزه إليه فأكرم رُسُلَه وبعث إليه بالخِلَع ؛ وأمر بإصبَع جُوبان فطِيف بها فى الممالك . ثم سألتْ بغدادُ خاتُون بنتُ جُوبان : آمرأةُ أبى سعيد، وكان شديد الكَلَف بها، فى نقل أجسادهما فنُقلتْ ؛ فعقَدتْ لهما المآتِمَ ؛ ثم أمرتْ بحملهما إلىٰ مكّة المعظّمة ، ثم إلىٰ المدينة المشرّفة ليُدْفَنا فى التربة الجُوبانيّة التى كان جُوبانُ أعدّها لدَفْنه فى حال حياته ، فمُكّنت من ذلك إلا من الدّفْن فإنهما دُفِنا بالبَقِيع . ثم حَضَر غياثُ الدين حضرةَ أبى سعيد ، فأكْرِم وأُعطِىَ العطايا السنيّة ، ثم لم يلبَثْ أن مات وولى آبنُه . قال : ولم يكن صاحبُ هذه المملكة ممن يكاتَب عن السلطان حتّى كانت واقعةُ جُوبان فكُتِب إليه .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" : «أعزّ الله تعالىٰ نَصْر المقَرّ الكريم، العالى، العالمىّ، العادِلىّ، المجاهدىّ، المؤيّدىّ، المرابطىّ، المُثاغِرِىّ، الأوحدىّ المَلك الفلانىّ ، شَرَف الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين» . قال فى "التثقيف" : ولم أطّلِعْ علىٰ مايكتب إليه سوىٰ ماذكره القاضى شهابُ الدّين بعد واقعة جُوبان . قال : والذى يظهر لى أنه لم يكاتَبْ بعد ذلك هو ولا مَنْ قام مَقامه: لأنه لم تكن له مكاتبة مشهورةٌ متداوَلَة بين الموالى الجماعة ، ولا كتب إليه فى مدّة مباشرتى شىء . علىٰ أنّ القاضىَ شهابَ الدين لم يذكر تعريفه

---

(١) أى أصبعه الابهام .

الحكام بهـــذه المملكة

(مَنْ جرتِ العادةُ بمكاتبته من الحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة من هذه المملكة)

الحاكمُ بشِمْشاطَ — وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسـالك والممـالك أنّها بلدةٌ من ديار مُضَر بين آمِد وخَرْتَ بِرْتَ . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليـه «السامى» بالياء . والعلامة الاسمُ . وتعريفه «الحاكم بشِمْشَاط» .

الحاكم بميّافارِقينَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدة دِيارِ بَكْر . قال : فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء . والعلامة الاسم . وتعريفه « الحاكم بميّافارِقِينَ » .

الحاكم بِحِيزانَ — وقد تقدّم فى المسالك والممـالك أنها مدينة من ديارِ بكر . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامةُ الاسم . وتعريفه « الحاكم بحِيزان » وهو معدود فى "التثقيف" فى جُمْلة الأكراد .

الحاكم بجزيرة ٱبن عُمَر — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ صغيرةٌ علىٰ دِجْلة من غربيها . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامى» باليـاء . والعلامةُ له الاسم . وتعريفه « الحاكم بجزيرة ٱبن عُمَر » . وذكره فى "التثقيف" فى جملة الأكراد، وقال : كان بها عِزُّ الدين أحمد اليخشى . وذكر أن رسم المكاتبة إليه الاسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» . وٱسـتقرّ بعد وفاته ولدُه عيسىٰ ، وورد كتابه فى صَفَر سـنة أربع وستين وسبعمائة ، أخبر فيه بوفاة والده وٱستقرارِه مكانَهُ . علىٰ أنه قد ذُكِر معبرًا عنه بصاحب الجزيرة ، وسماه بكلمش . وذكر أن المكاتبة إليه الاسم و «السامى» بغير ياء .

الحاكم بسِنْجار — وقد تقدّم فى المسالك والممـالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة . قال فى "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخُو الحاكم بها مرسومٌ شريف بأن يكون

نائبًا بها حَسَب سؤاله فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة . قال : وكانت المكاتبةُ إليه أوّلا الأسم و « مجلس الأمير » وكُتِب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتَلّ أعْفَر — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قَلْعةٌ بين سِنْجار والمَوْصل . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة له الأسم وتعريفه « الحاكم بتَلّ أعْفَر » .

الحاكم بالمَوْصل — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلاد الجزيرة كلّها فى القديم حيث كانت بيد الجَرامِقَة . قال فى "التثقيف" : والمكاتبةُ إليه فى قَطْع العادة الأسم ، و «صدرتْ» و «السامى» . وتعريفه «الحاكم بالمَوْصل» . ورأيت فى بعض الدساتير أن العلامة آستقرتْ له «والده» عند آستقراره نائبَ السلطنة بها .

الحاكم بالحَدِيثة — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلْدة على الفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الأسم و «السامىّ» بالياء . وتعريفُه « الحاكم بالحَدِيثة » . وهى غير حَدِيثة المَوْصل . وهى بلدةٌ شرقىّ دِجْلة تُعَدّ فى بلاد العراق .

الحاكم بعَانَةَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلدةٌ صغيرة على جزيرة فى وَسَط الفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و « السامىّ » بالياء . وتعريفهُ « الحاكمُ بعانَةَ » . ورأيتُ فى بعض الدساتير أنّ المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتِكْرِيت[1] — وفى "التثقيف" صاحب تِكْرِيت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من آخر مُدُن الجزيرة بين دِجلةَ والفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ الحاكم بالمَوْصل ، فتكون فى قَطْع العادة . والعلامةُ الأسم . وتعريفُه « الحاكم بتكْرِيت » .

(١) فى معجم ياقوت بفتح التاء والعامة يكسرونها .

الحاكم بقَلْعة كُشَاف — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها فى الجَنُوب عن المَوْصِل بين الزَّابِ والشَّطّ، وأنه عدّها فى "تقويم البُلْدان" من بلاد الجزيرة مرّةً، ومن عِراق العجم أُخرى. وأنه أوردها فى "التثقيف" بإثبات الألف واللام. قال فى "التثقيف": ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ حاكمَىْ عانةَ والحَدِيثة، فتكون المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء. ورأيتُ فى بعض الدساتير أن المكاتبة إليــه «السامى» بغير ياء. وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف».

الحاكم بإِسْعِرْد — وهى سِعِرْتُ. قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينــةٌ من ديار رَبِيعة. قال فى "التثقيف": ورسم المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير». وحينئذ فتكون فى قَطْع العادة. والعلامةُ الاْسم. وتعريفه «الحاكم بإسْعِرْد».

صاحب حَانِى — ويقال لها حَنَا. وهى مدينــةٌ من ديار بكر. وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ صاحبها تاجُ الدين. ورسمُ المكاتبة إليه الاْسم «والسامى» بغير ياء.

من جرتِ العادة بالمكاتبة إليه

بالجانب المختصّ ببنى جنكزخان من بلاد الرُّوم من مارِية وما معها

أَرْتَنَا، الذى كان قائما بهذه البلاد عن بَنِى هُولاكُو من التَّتر. ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث: «ضاعف الله تعالى نِعْمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العَوْنىّ، الزَّعيمىّ، المُمهّدىّ، المشيّدىّ، الظَّهيرىّ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سيّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، كهف المِلّة، ذُخْر الدولة، ظَهِير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين». والدعاء والسلام. والعلامة «أخوه».

وذكر فى "التثقيف" أنه كتب إلى ولده محمد بعده كذلك فى قطع الورق والمكاتبة والعلامة . وأنه كتب إلى على بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا فى العَلامة فانها آستقرت له «والدُه» وكُتب تعريفه : «على بك آبن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد العراق

الحاكم بهيتَ — وعَبَّر عنه فى "التعريف" بصاحب هِيت . وقد تقدم فى المسالك والممالك أنها شمَالىّ الفُرات من أعمال بَغْداد . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه الأسمُ و «السامىّ» بالياء ، وتعريفُه «الحاكم بهيتَ» .

الحاكم بالقُنَيْطِرة — وقد تقدم فى المسالك والممالك أنها بَلْدة بالقُرْب من مَرْسَى الحِلَّة . قال فى "التثقيف" : والمكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامةُ الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بالقُنَيْطِرة» . ثم قال : وآخر ما آستقرّت مكاتبتُه عليه «السامى» بغير ياء . وعَبَّر عنه فى موضع آخر «بابراهيم صاحب القُنَيْطِرة» . وذكر أن المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» . وأن تعريفه آسمه خاصّةً .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد الجَبَل "وهى عراق العجم"

الحاكم بإِرْبِل — وعبَّر عنه فى "التثقيف" بصاحب إرْبِل . قال فى "التثقيف" : كان بها الشريفُ علاء الدين على الدلقندى ، ثم آستقرّ بها الشريفُ يحيىَ ، ثم آستقرّ بها علىّ ولَدُه . قال : والمستقرّ بها الآنَ على ماتحرّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أسدُ الدين أسد . ورسمُ المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفُهُ «الحاكم بإِرْبِل» .

صاحب قاشان — وسمّاها فى "التثقيف" قَيْشان. ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء .

صاحب باب الحديد — المعروفة عنـد الترك تِمُرْ قابُو . وهى باب الأبواب . قال فى "التثقيف": كان بها كاوُوس، وكتب إليه جوابٌ فى ثانى عشر ربيع الأوّل سنة اثنتين وستين وسبعمائة أويس (١) فى قَطْع الثلث ، والدعاء والعالى . وتعريفه اسمُه لا غيرُ .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ، ببلاد فارِس

الحاكم بشِيرازَ — وقد تقـدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلادِ فارس . قال فى "التثقيف": والمستقرّ بها على ماتحرّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، شاه شُجاع، أخو شاه ولى . وذكر أنه لم يُكْتَب إليـه فى مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء، ولا وقف على مكاتبةٍ إليـه . ثم قال : غيرَ أنه يمكن أن تكون المكاتبةُ إليـه نظيرَ المكاتبـة إلى الأشرف تمرتاش المستولى على تِبْرِيز؛ فإنه قال : إنّ شـيرازَ قدرُ تِبْرِيز ونظيرُها. فعلى هذا يكون رسمُ المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث: «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ، الكبيرىّ» وبقيّة الألقاب والنُّعوت. ويكون فيها «النُّوِيْنِىّ» كما فى مكاتبة المستولِى على تِبْرِيزَ .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كِرْمانَ

صاحب هُرْمُز — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنّ قاعدةَ كِرْمان القديمة السِّيرَجان وأن هُرْمُزَ فُرْضـة كِرْمان ، وأنها خرَّبها التتر عند خُروجهم على تلك البـلاد بكَثْرة الغارات ، وانتقل معظمُ أهلها إلى جزيرةٍ بجُحَيْرة ببحر فارس على القُرْب منها تسـمّى وَزَرُون (٢). وقد كُتِب إلى صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" ابن الظاهر

(١) كذا فى الأصل ولعله زائد من قلم الناسخ (٢) هى بهذا الضبط فى الأصل ولم تذكر فى المعجم ولا فى التقويم

بَرْقُوق فى سنة ثلاث عشرةَ وثمانمائة مفاتحةً فى قطع (١)

من جرتِ العادةُ بمكاتبته من بلاد إِرْمِينِيَةَ وأرّان وأذْرَبِيجانَ

النائب بخِلَاطَ من أرْمِينِيَةَ — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها كانت قاعدةَ بلاد الكُرْج . قال فى "التثقيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، واسْمه أبو بكر بن أحمد بن أزبك . ثم قال : ورسمُ المكاتبة إليه الأسْمُ و «السامىّ» بالياء ؛ فيكون فى قَطْع العادة . وتعريفه «النائب بخلَاطَ» .

الحاكم بحِصْن أرْزَنَ — وهى أرْزَنُ الرُّوم . قال فى " التثقيف ": وهو ـ علىٰ ما اتّضح آخِرا فى رمضانَ سنةَ ستٍّ وسبعين وسبعمائة ـ علاءُ الدين علىّ بن قَرَا . وردت مكاتبته أن صاحب حِصْن كَيْفَا آبنُ خاله . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما فى " التثقيف " مثلُ صاحب حِصْن كَيْفَا من غير زيادة ولا نَقْص . علىٰ أنه فى " التعريف " قد ذكر أنّ المكاتبة إليه «السامىُّ» بالياء . قال فى " التثقيف ": والصحيح ماتقدّم، فإنى كتبتُ إليه بهذه المكاتبة مَرّات، وهو المتداوَلُ بين المَوالى الجماعةِ إلىٰ آخرِ وقت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها فى آخِرِ بلاد الرُّوم من جهة الشرق .

صاحب بِدْلِيسَ — قد ذكر فى "التعريف" أنه كان فى زمانه الأمير شرفَ الدين أبو بكر. وقال: إنه يُتّهم بمذهب النُّصَيريّة. ثم قال: وبلده صغيرٌ، ودَخْله يسير، وعمله

(١) بياض بالأصل مقدار أربعة سطور .

ضيّق . وهو طريقُ المارّة وقُصّادِ الابواب السلطانية إلىٰ الأردو إذا لم يكن بالعراق له خِدْمة مشكوره. وعدّه فى "التثقيف" فى جملة الأكراد . قال فى "التعريف": ورسمُ المكاتبة إليه : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ » أسوةَ الامراء . وذكر فى "التثقيف" أنه كان بها ضياءُ الدين أبو الفَوَارس الروشكى أخو الغرس بالو، وأن المكاتبة إليه الاسم و«السامىّ» بالياء، وتعريفه «صاحب بِدْلِيسَ» . وأنه آستقرّ بعده ولده الرحاح، وكوتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

صاحب مُوقانَ — وهى مُوغانُ . وسمّاها فى "التثقيف" ميوغان . قال فى "التثقيف" : وكان بها محمدُ شاه بن أميرشاه، وكتب إليه مستجدًّا فى سنة سبع وستين وسبعمائة «السامى» بغير ياء .

النائب بحَرْتَ بِرْتَ — وهى حصنُ زِياد . ذكره فى "التثقيف" من جملة تُرْكُمان البلاد الشرقية، وذكر أنّ آسمه يومئذ باليس، وأن رسم المكاتبة إليه الاسم و «السامىّ» بالياء . وتعريفه آسمه، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلىٰ صاحب خَرْتَ بِرْتَ قبله . ثم ذكر أنه رأىٰ بخط القاضى شِهابِ الدين بن الصَّفَدىّ أنه آستقرّ بها علاءُ الدين آبنُ خالد المليكشى بعد حُسَام الدين خَرْبَنْدَة، وأن مكاتبته «السامىّ» بالياء .

الصـــنف الثالث

(ممن يكاتب بهذه المملكة العُرْبان، وهم : عبادة وخَفَاجة)

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أنسـاب العرب أن نسبهما فى عامر بن صَعْصَعة من قَيْس عَيْلان . وأجلُّ من يكتب إليه منهم رسمُه «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى الأمير» . علىٰ أنّ صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يَطّلع علىٰ مكاتبةٍ إليهم .

الصنف الرابع
(ممن يكاتب بهذه المملكة التُّرْكُمان)

قال فى " التثقيف " : والأكابر فى البلاد الشرقية الذين يُكْتَب إليهم من هذه الطائفة مفردا قليلٌ . أما بقيّتهم من تُرْكُمان الطاعة الشريفة، فقد يُكْتَب إليهم عند المهمّات مُطْلَقاتٌ شريفة، ثم ذكر جماعةً ممن يكتب إليه على ٱنفراده، ولم يعيِّن لأحد منهم بلدا ولا رياسة قومٍ معروفين . وها أنا أذكرهم على ماذكرهم : ليقاس عليهم لدى تحقُّق مَقَامهم .

ومنهم – مُراد خَوَاجا . ورسم المكاتبة إليه الأسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه ٱسمه .

ومنهم – باكيش الكبير ٱبن أخى تُوزْطُوغان . ورسمُ المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه ٱسمُه .

ومنهم – زَيْن الْمُلْك تُوزْطُوغان . ورسم المكاتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «مُقدَّم التُّرْكُمان بالبلاد الشرقية » .

ومنهم – على بن إينَال التُّرْكُمانىّ من الطائفة البُوزقية . ورسم المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء وتعريفه ٱسمه .

ومنهم – يعقوب بن علِي شَار . ورسم المكاتبة إليه الأسم و « السامىّ » بالياء . وتعريفُه ٱسمه . قال فى " التثقيف " : وقد ذكر القاضى ناصرُ الدين بن النَّشائى أنه كتب إليه كذلك فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة .

ومنهم – سالمُ الدُّلكرىّ ، ورسم المكاتبة إليه الأسم و «السامىّ» بالياء، وتعريفُه ٱسمـه .

واعلم أنه قد تقــدم فى الكلام على تُركُمان البلاد الشامية نقلا عن " التثقيف " أن من طوائف التُّركُمان الذين هم تحتَ الطاعة مَنْ لم يُكْتَب إليـه بعدُ ؛ بل إذا كتِبَ فى مهمٍّ شريف، كتِب إلى كلِّ طائفـة منهم أو إلى سائر الطوائف مطلقٌ شريف . وعدّ منهم طوائفَ :

الأولى — البُوزقية : جماعة ابن دلغادر وابن إينال المقدم ذكره .

الثانيـة — أولاد رمضان : الأمريَّة .

الثالثـة — الأوشَرِيَّة : تُركُمان حلَبَ .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكرىّ .

الخامسة — الخَرْبَنْدَلِيَّة : جماعة مصطفى .

السادسة — الأغاجِريَّة .

السابعة — الوَرَسق : تُركْمان طَرَسُوس .

الثامنـة — القنقيَّة .

التاسعة — البابَنْدرِيَّة : وهم التقيبيَّة(١) .

العاشرة — البكْرِلِيَّة(٢) : أولاد طشحون .

الحاديةَ عشرةَ — البَيَاضِيَّة .

ثم قال : وثَمَّ جمائعُ كثيرة لايمكن استيعابُهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شىءٌ بهذه البلاد ، فحكمه ماتقدم فى الكلام على تُركُمان البلاد الشامية .

(١) فى الضوء ص ٣٢٧ وهم من القنيعية .
(٢) فى الضوء ص ٣٢٧ البلولية وأولاد طسحون .

الصنف الخامس

(ممن يكاتب بهذه المملكة الأكرادُ)

وقد تقدّم الكلامُ على طوائفهم ومنازلهم من بلاد الجبال من عِراق العَجَم . قال فى "التعريف" : وهم خلائقُ لا يُحْصَوْن ، ولولا أن سيفَ الفتنة بينهم يستحصدُ قائمهم ، ويُنَبِّه نائمهم ، لفاضوا على البلاد ، واستضافوا إليهم الطارفَ والتلاد ؛ ولكنهم رُمُوا بشَتَات الرأى وتفرّق الكلمة ، لا يزال بينهم سيفٌ مسلُول ، ودمٌ مطلول ، وعَقْد نِظامٍ محلول ، وطرفُ باكيةٍ بالدماء مبْلُول . وهم على ضربين :

الضرب الأوّل

(المنسوب منهم إلى بلادٍ ومقرّاتٍ معروفة)

قال فى "التعريف" : ولهم رأسان كلٌّ منهما رجل جليل ، ولكلٍّ منهما عدد غير قليل .

أحدهما — صاحبُ جُولَمَرك ، من جبال الأكراد من عِراق العَجَم . قال فى "التعريف" : وهو الكبير منهما الذى تتّفق طوائفُ الأكراد مع آختلافها على تعظيمه ، والإشارة بأنّه فيهم الملكُ المُطاع والقائدُ المتّبع . وهو صاحب مملكةٍ متسعةٍ ومُدُنٍ وقِلاع وحُصون ، وله قبائلُ وعشائرُ وأنفار . قال : وهم يُنْسَبُون إلى عُتْبة آبن أبى سفيانَ بن حرب بنِ أُميّةَ بن عبدِ شمْس بن عبْد منَاف . ثم قال : وكانت الإمرةُ قد آنتهت فيهم إلى أسد الدّين موسى بن مُجَلّى بن موسى بن منكلان . وكان رجلا كريما عظيما نَهّابا وَهّابا ، تُجِلّه ملوكُ الممالك الجليلة ، وتعظّمه حُكّام الأردو وصاحبُ مصر . وإشارتُه مقبولة عند الجميع . وإذا آقتتلَتْ طائفتان من الأكراد فتقدّم إليهما بالكَفّ كفُّوا ، وسمعُوا له سمعَ [مُرَاعٍ لا سمع] (١) مُطيع . وذكر أن القائم

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

فيهم إذ ذاك من بَنِيه الملكُ عمادُ الدين مجلّى : وهو رجل يحبُّ اهلَ العلم والفضل، ويُحِلُّ منهم عنده مَنْ أتاه أعظمَ محل . وقد مضىٰ القول علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك، من المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبة إليه «أدام الله تعالىٰ نعمة المجلس العالى الأميرى» والألقاب التامة الكاملة .

الثانى — صاحب عقرشوش من بلاد الجزيرة . قال فى "التعريف" : ومُلوكها الآنَ من أولاد المبارِزكَك . قال : وكان مبارزُ الدين كَكُ هذا رجلا شجاعًا كريما تَغْلِبُ عليه [غرائب من](١) الهوس . فيدّعِى أنّه ولىٌّ من الأولياء يقبل النُّذور . وكانت تُنْذَر له النذورُ تقرُّبًا إليه(٢)، فإذا أتاه النذرُ أضاف إليه مثلَه(١)[من ماله] وتصدّق بهما جميعا . قال : وأهل هذا البيت يدَّعُون عَراقةَ الأصل فى الإمرة وقِدمَ السُّؤدَد والحِشْمة . ويقولون إنهم عُقِدت لهم ألويةُ الإمارة وتسلَّمُوا أزِمّةَ هذه البلاد وتسنَّمُوا صَهواتِ الصَّياصى بمناشير الخُلَفاء، وأنهم كانُوا لهمْ أهلَ وفَاء . ولهم فى هذا حكاياتٌ كثيره ، وأخبارٌ مأثوره، وهم أهل نَعْم ورَفَاهية ونِعْمة ظاهره، وعِزّة فاخره، وأَدُرٍ مُزَخْرفه، ورياض مُفَوّفه ، وخيول مسوَّمه ، وجَوارحَ معلَّمه، وخَدَم وغِلْمان ، وجَوارٍ حِسان ، ومعَازِف وقِيَان، وسِماط ممدود وخُوَان(٣) . قال : وموقع بلادِهم من أطرافِ بلادِنا قَرِيب، والمدْعوّ منهم من الرَّحْبة وماجاورها يكادُ يُجِيب . ثم قال : وملُوكُنا تشْكُر لهم إخلاصَ نَصِيحه، وصفاءَ سريرةٍ صحيحه . وذكر أن القائم فيهم فى زمانه شجاعُ الدين ابن الأمير نجم الدين خَضِر بن المبارِزكَكْ ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) فى التعريف زيادة (بما تنفق عليه لا اعتقادا فيه فيسر بذلك) .

(٣) فى التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة واخوان) .

لم يبلغْ مبلغَ أبيه، بل لا يُقارِب به ولا يُدانِيه[١]، على أنه قد ملَك مُلْكَه، ونَظَّم سِلْكَه. وقد تقدّم الكلام على ذلك أيضا فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية.

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" مثل صاحب جُولَمَرْك، وهى: «أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ». وذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة كانت إلى خَضِر بنِ المبارِزكَكْ «صدرت» و «العالى». والعلامة «أخوه». وتعريفه «خَضِر بن المبارِزكَك». مع عدم تعريجه على ما فى "التعريف" جملة.

وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً سِوى مَنْ تقدّم ممن هم منهم بالجزيرة، كالحاكم بجزيرة ابن عمر، والحاكم بحانى، وصاحب عقرشوش. ولم يذكر بلاد من ذكره منهم ممن يأتى ذكره منهم ومَنْ كان بكل بلد منهم من أكابرهم وحُكّامهم؛ ورَسْم المكاتبة إليهم على ما ذكره، وهم قسمان:

القسم الأوّل — من عُلِمت المكاتبة إليه، وهم:

صاحبُ بَرْخُو — وهو يومئذ أمير حُسَينُ بنُ الملك أسد. ورسم المكاتبة إليه الأسم و «السامىّ» بالياء.

صاحب البلهتيّة — قال: وكان بها شمسُ الدين بن البيليق، ثم استقرّ بعده أخوه أحمدُ. ورسم المكاتبة إليه الأسمُ و «السامىّ» بالياء أيضا.

صاحب الدَّرْبَنْده — وهو سيف الدين أصبر بن أَزْشير الحسينانى. ورسم المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء. وتعريفه «أمير أَزْشير الحسينانى صاحب الدَّرْبَنْده».

صاحب كَرْمَلِيس — وهو سحب[٢] مسعود. ورسم المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء.

---

(١) فى التعريف ولا أظنه يقاربه الخ.

(٢) لعله وهو المعروف بجت مسعود.

صاحب العِمَاديَّة — عِماد الدين إسماعيلُ بن عليّ بن موسى . ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغيرياء . وتعريفه « صاحب قلْعة العِمَادية » . وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجُولَمْرِكية . قال فى "التثقيف" وكان بها أولادُ الحاجىّ بن عُمَر، وردت مطالعتُه كذلك «الحاجىّ بن عمر صاحب العِمَادية» فى سنة أربعين وسبعمائة .

صاحب مازكرد — حسَنُ بن إسماعيل . ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغيرياء .

صاحب رنْدشْت — بجبال همَذَانَ وشَهرزُور . وهو عبدُ الله بن حُسام الدين رَسْلان . ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغيرياء .

صاحب جُرْذَقِيلَ — بهاءُ الدين عمرُ بن إبراهيم الهكَّارىّ . ورسمُ المكاتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغيرياء .

صاحب سكَراك — كُرْجى بك . ورسمُ المكاتبةِ إليه « مجلس الأمير » . والعلامة الأسم .

صاحب ملس(١) — سلطان شاه . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير » . والعلامةُ الأسم .

صاحب شكوش — أمير أحمد . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير » . والعلامةُ الأسمُ .

صاحب جُرْموك — «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الأسمُ الشريف .

---

(١) كذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليها كما لم نعثر على كثير غيرها من هذه الاسماء، ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بَهْرَمان — عبد الصمد . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير » . والعلامةُ الاسم .

صاحب حِصْن أرّان — وهو حِصْن الملك — شُجاع الدين خَضِر بن عيسىٰ الشهرىّ . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» والعلامةُ الاسم .

القسم الثانى — من ذكره فى التثقيف ولم يذكر مكاتبتَه وقال : إنه وقف عليه كذلك ، وهم :

صاحب خُفْتِيَان — تاجُ الدين أخُو باشَاك .

صاحب سُوبَخَ — أمير عيسىٰ بن بَاشَاك .

صاحب أكريستا — مَلِك بن بَاشَاك .

صاحب يزاكرد — بَهاء الدين الزّرزارِىّ .

صاحب زابٌ — فخر الدّين عثمان الزّابى .

صاحب العرسه (١) — شمسُ الدين بن بَهاء الدّين .

صاحب الدَّرْبَنْدات القَرَابلية — علىّ بن كَراق ، تعريفُهُ «صاحب دَرْبَنْد القَرَابِلىّ» .

صاحب قلعة الجَبَلَيْنِ — حُسامُ الدين بنُ تاج الدين العامِلىّ .

صاحب سِيدكان — أمير علىّ بن حسام الدين الزَّرْزارىّ .

صاحب هَرُورَ — بَهاءُ الدّين حَسَنُ بن عِمَاد الدين .

صاحب رَمَادَان — أميرُ عبد الله الكُرْكانىّ .

صاحب الشَّعْبانِيَّة — حُسام الدين أمير مرى السبينى .

---

(١) كذا فى الأصل بغير نقط .

صاحب نمريه — بهاء الدين .

صاحب سياح — سُنْقُر .

صاحب المحمدية — الشيخ محمد .

صاحب كُرليك — .

الضـــرب الثانى
(من لم يُصَـــرَّح له بمكان)

وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً ممن كان فى الزمن المتقـدّم، وصرَّح بذكر المكاتَبة إليهـم، فذكر منهـم أبُو بكر بن المبارِز كَتْبُ الاسمُ و « السامى » بغير ياء، وتعريفه آسمه .

مبارِزُ الدين عبد العزيز أخوه مثلُهُ .

علىٌّ وعمر ولدا آبن روحى(١) خليل بن روحى(١)، ورسم المكاتبة إلى كلٍّ منهما الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

خالدٌ المليكشِى كذلك .

أولاده : محمودٌ وأحمد «مجلس الأمير» .

بهَاء الدين بن الغِرْس بألُو ـ الأسم و «السامى» بغير ياء .

عبد الله الشَّهْرىّ ـ الأسم و «السامى» بغير ياء .

شجاعُ الدين خَضِر بن عِيسىٰ الشَّهرى أخو عبدالله الشَّهرىّ ـ الأسم و «السامى» بغـــير ياء .

---

(١) كذا بالاهمال ولم نعثر عليه بعد البحث .

مبارز بن عيسىٰ بن حسن السلارى ـ الأسم و « السامى » بغير ياء . قال فى " التثقيف " : ومكاتبته مستجدّة فى العشر الأوّل من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

خَضِر بن محمد المكّارىّ ـ الأسم و «السامى» بغير ياء . قال : وهو مستجِدّ المكاتبة أيضا فى العَشْر الآخِر من صَفَر سنة تسع وستين وسبعمائة .

قلت : فإن آتّفق المكاتبة إلىٰ أحد من هؤلاء المجهولى الكتابة أو غيرهم من الأكراد كُتِب له علىٰ قدر مقداره بالنسبة إلىٰ من عُلِمتِ المكاتبة إليه .

قال فى " التعريف " هنا : ومما يُنَبَّه عليه أنّ فى طُرُق المارّين، ومسالكِ المسافرين، من بلادنا إلىٰ خُراسانَ ومنها إلينا يظهر فى بعض الأحيان أهلُ فساد يعمِدُون إلىٰ عميد يقدّمونه عليهم فيقطعون السُّبُل ، ويُخيفون الطُّرُق ، وتطير سمعةُ عميدهم ، وتنتشر فى قريبهم وبعيدهم ؛ فيكاتَبُ ذلك العميدُ من أبواب الملوك ، ويُضطَرُّ إليه لفتح الطريق بالسُّلوك ، ويكون من غير بَيْتِ الإمْرة ، ورُبَّما هوىٰ نجمُه ، فانقطع بانقطاع عُمْرِه آسمُه ، مثل الجلوك الخارج بطريق خُراسانَ ، والغِرْس بالو الخارج فيما يقارب بلاد شَهْرَزُور ، ومثلُ الخارجين علىٰ دَرْبَنْد القرابلى . قال : وهؤلاء وأمثالهم يَطْلُعون طُلُوع الكَمْأة لاأصلٌ ممتدّ، ولا فَرْع مشتدّ، فهؤلاء لايعرف لأحد منهم رُتْبة محفوظة ، ولا قانونٌ فى رسم المكاتبة معروف ؛ وإنما الشأن فيما يكتب إلىٰ هؤلاء بحَسَبِ الاحتياج وقَدْرِ مايُعْرَف لهم من آشتدادِ الساعد، وعَدَد المُساعد . قال : ولقد كتبنا إلىٰ كلٍّ من الجلوك والغِرْس بالو ، بالسامىّ بالياء ، وجُهِّزت إليهما الخِلَعُ وأُتحِفا بالتُّحَف .

الصـــــنف السادس

(ممن يكاتَب بمملكة إيران أربابُ الأقلام)

ذكر فى "التثقيف" أنه كُتِب إلىٰ مَجْد الدين أخى الوزير غِيَاث الدين: «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الصاحِبىّ، الأجلىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الكافِلىّ، المـاجدىّ، الزَّينىّ، الأَميرىّ، الأَوحدىّ، المعظّمىّ، الذُّخرىّ، المجاهدىّ».

قال فى "التثقيف": هذا ماوجدته بخطّ القاضى ناصر الدين بن النشائى؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه. وكُتِب إلىٰ علَاء الدين صاحب الديوان مثلُه. والعلامة إليـه «أخوه». قال فى "التثقيف": هكذا وجدْتُه فى خطّ ابن النَّشائىّ ولم يذكر تعريفَه.

الوزيرُ شمس الدين — قال فى "التثقيف": نقلتُ من خطّ القاضى شهابِ الدين ابن الخَضر أن مكاتبَته فى قطْع العادة الأسم و «السامىّ الأميرىّ الشريفىّ الحسيبىّ النسيبىّ». وبقية الألقاب. ولم يُكْتَبْ له «الصاحبىّ» ولا «الوزيرىّ». قال: ولم يذكر شيئًا غير هـذا. ثم قال: ولا أعلم لمن وُزِّر المذكورُ، ولا من أىّ بلاد الشرق.

ضياءُ الدين صاحبُ الديوان — المكاتبة إليه حسَبَ مانقله فى "التثقيف" عن خط ابن الخَضر أيضا الأسمُ و «السامى الأميرُ الأجلُّ». وذكر أنه كُتِب إليـه علىٰ يد سراج الدين قاضى قَيْسارِيَّةَ. قال فى "التثقيف": وعلىٰ هذا أنَّ ضِياء الدين هذا من أهل المملكة الرُّومية.

مُعين الدين صاحبُ الديوان — مثلُه.

الصـــنف السابع
(ممن يكاتَب بمملكة إيرانَ أكابر المشايخ والصُّلَحاء)

قد ذكر فى " التثقيف " ممن كُوتِب من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم ليُقاس عليهم، ولِئلَّا يهمَل شىءٌ مما أورده فى التثقيف .

الأوّل ــ شمسُ الدين الطُّوطىّ . قال فى " التثقيف " : وهو فيما أظُنُّ ممن كان يُكْتَب إليه قديما، ولم يُكْتَب إليه بعد ذلك . قال: ورسمُ المكاتبة إليه حسَبَ مانقلته من خط القاضى ناصر الدين بن النَّشائى : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الشَّيْخىّ، الأجلِّ، العالمىّ، العاملىّ، الكاملىّ، الفاضلىّ، الزاهـدىّ، الوَرَعىّ، العابِدىّ، الخاشـعىّ، الناسكىّ، القُدْوىّ، الأوحدىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسـلام، صدرِ الأنام، بقيةِ السَّلَف الكِرام، فخرِ العلماء، أوْحدِ الكبراء، زينِ الزُّهَّاد، عِمَاد العُبَّاد، قدوةِ المتورعين، ذُخْرِ الدُّول، ركن الملوك والسلاطين» . والدعاء «وتَصف لعلمه المبارك» . والعلامةُ الأسم . قال فى "التثقيف" : هذا صورةُ ماوجدتُه من غير زيادة . ولم يذكر تعريفَه ولا محـلَّه من البلاد . قال : وقد كُتِب فى نعوته : «ركن الملوك والسلاطين» . وهو غريبٌ لأنه خلافُ ماجرتْ به العادة .

الثـانى ــ الشيخ غِياث الكَجَجى بِتَبْريز . ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره المشارُ إليه : «أعادَ الله تعالى من بركة المجلِس السامىّ الشيخىّ» . وبقية الألقاب «الغِيَاثى» وتكملة النعوت بما يناسب . والعلامةُ الأسم، وتعريفُه «محمد الكَجَجانىّ» .

الثـالث ــ الشيخُ حسنُ بنُ عبد القادر الجِيْلانىّ . وكان من المناصحين الذين يُكْتَب إليهم قديما . قال فى " التثقيف " : ورسمُ المكاتبة إليه الأسم و«السامىّ» بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : «الشيخُ العالمُ العاملُ القدوةُ المرشدُ فلان الدين» .

قلت : هذا ذُهُول منه، وإلا فمقتضىٰ هذه الألقابِ المجرّدةِ عن الياء أن تكون الكتابةُ إليه «السامى» بغير ياء .

الصـــنف الثامن

(ممن يكاتَب بمملكة إيران النّساء)

وقد ذكر فى " التثقيف " المكاتبةَ إلىٰ أربع منهنّ[(١)] :

الأولىٰ — دلّ شاد زَوج الشيخ حسن الكبير . كُتِب إليها فى قَطْع العادة : « أدام الله تعالىٰ صَوْنَ الجهة المحجّبة، المصونةِ، العِصْميّة، الخاتُونيّة، المعظّمية، سيدةِ الخواتين، زِينةِ نساء العالمين ، جميلةِ المحجّبات، جليلةِ المَصُونات ،قرينةِ نُوَيْنِ الملوك والسلاطين » . والدعاء، والعلامة « أخوها » . وتعريفها « الخاتون المعظمة دل شاد» .

الثانيــة — كامش والدة بولاد مثلها ، غير أنّ العلامة الأسم ، وتعريفها ٱسمُها المــذكور .

الثالثــة — زوجة أملكان ٱبن الشيخ حسن الكبير علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحال عند ما كتِب جوابها علىٰ يد رسولهـا فى ذى القَعْدة ســنةَ أربعين وسبعمائة مثل دلشاد، والعلامة «والدها» . وتعريفها سلطان بَختى .

المهيـــــع الثانى

من المكاتبة إلىٰ الملوك

(مملكةُ تُورَانَ ، وهى مملكةُ الخاقانيّةُ)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية نَقْلا عن المقرّ الشّهابىّ ٱبنِ فَضْل الله فى كتابه " التعريف " أنّ هذه المملكةَ من نَهْر بلْخ إلىٰ مَطْلَع الشمس

(١) لم يذكر الرابعة فى الأصل .

علىٰ سَمْت الوَسَط، فما أخَذَ عنها جنوبًا كان بلادَ السِّنْد، ثم الهِنْد؛ وما أخذ عنها شمالًا كان بلاد الخَفْجاج وهى طائفة القَبْجاق، وبلادَ الصَّقْلَب، والجهارُكس، والرُّوس، والمَاجار، وما جاوَرَهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال. فيدْخُل فى هذه المملكة ممالكُ كثيرةٌ وبلادٌ واسعة، وأعمال شاسعةٌ، وأممٌ مختلفة لا تكادُ تُحصىٰ؛ تشتمل علىٰ بلاد غَزْنَة، والبامِيَان، والغُور، وخُوارِزْم، ودَشْت القَبْجاق، وما وراء النهر: نحو بُخَارا، وسَمَرْقَنْد، والصُّغْد، والخُوجَنْد. وبلاد تُرْكُسْتان، وأُشْرُوسَنَة، وفَرْغانةُ. وبلاد صاغُون، وطَرَاز، وصربوم. وبلاد الخطا نحو بشمالق والمالق إلىٰ قَرَاقُوم، وما وراء ذلك من بلاد الصِّين وصِين الصِّين؛ فإنها كانت فى القديم بيد فرَاسْياب، بن شنك، بن رُسْتُم، بن تُرْك، بن كُومَر، ٱبن يافث، بن نُوح عليه السلام. وهو ملكُ الترك فى زمانِ موسىٰ عليه السلام، علىٰ خلافٍ فى نسبه سبقَ هُناك. وأنها الآنَ بيد بنى جنكزخان من ولد طُوجى خان ٱبن جنكزخان.

ثم هذه المملكةُ بيد ثلاثةِ ملوكٍ عِظام من بنى جنكزخان.

الأوّل — صاحبُ خُوارِزْم ودَشْت القَبْجاق. وتُعرَف فى القديم بمملكة صاحب السَّرير، ثم عُرِفت فى الدولة الجنكزخانِيَّة ببَيْت بَرَكَة، نسبةً إلىٰ بَرَكَة ٱبن طُوجى خان بن جنكزخان. وقاعدتُها مدينة السَّرَاى (١) وهى مدينةٌ علىٰ نهر إتِل، بناها بركَةُ بن طُوجى خان المقدّم ذكره. وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ المسالك والممالك.

ثم فيها جملتان:

(١) هى مدينة الصراى بالصاد المهملة المتقدمة فى ج ٤ ص ٤٥٧.

الجمـلة الأولى

(في رسم المكاتبـة إلى قانهـا القائم بها)

قال في "التعريف": وكان صاحبُها في الأيام الناصريّة، (يعني محمد بن قلاوون) «أزْبَك خان» . وقد خطبَ إليه السلطانُ فزوّجه بنتا تَقرُّباً إليـه . قال : ومازال بين مُلوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديمُ اتّحاد، وصِدْقُ وِداد، من أوّل أيام الظاهر بيبَرْس وإلى آخر وقتٍ . ثم قال : والملكُ الآنَ فيهم [في أولاد أزبك](1): إما تنى بك، وإما جانى بك، وأظُنُّها في تنى بك . وقد تقدّم أن المَلِك بعد أزبك كان جانِي بك لا تنى بك، على خلافِ ماظنه في التعريف .

ورسم المكاتبـة إلى قانها الجامع لحـدودها قال في "التعريف" : والأغلبُ أن يُكتَب إليه بالمُغلّ . وذلك مما كان يتولّاه ايتمش المحمّدى، وطايربُغَا الناصرى، وإرغدلق التَّرجُمان . ثم صار يتولّاه قُوصُون الساق . ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن القاضى علاءِ الدين بن فضل الله أنه كتب له مسوّدة على أن تكتب له بالعربيّ ثم بطل وكُتِب بالمُغلى . قال : فإن كتب له بالعربى ، فرسْمُ المكاتبة إليه مايكتب إلى صاحب إيرانَ .

وقد تقـدّم نقلا عن " التعريف " انه يكتب في قَطْع البَغـدادىّ الكامل ، يبتدأ فيه بعـد البسملة وسطر من الخطبـة المكتتبة بالذهب المُزَمَّك - بألقـاب سـلطاننا على عادة الطُّغراوات ، ثم تكمل الخطبـة ، ويفتتح ببعدية إلى أن تساق الألقاب، وهى: «الحضرةُ الشريفةُ، العالية، السلطانية، الأعظميّةُ، الشاهنشاهيّةُ، الأوْحَدية، الأخَوِية، القانية . ولايخلِطُ فيها «المَلَكيّة» لهَوانها عليهم . ثم يُدْعَى له بالأدعية المعظّمة المفخّمة الملوكية : من إعزازِ السلطان ، ونَصْر الأعوان، وخُلُود

(1) الزيادة من "التعريف" .

الأيام، ورفع الأعلام، وتأييد الجنود، وتكثير البنود، وما يجرى هذا المجرى. ثم يؤتى بذكر دوام الوداد والشوق، ثم يذكر القصد، ثم يختم بدعاء جليل وتستعرض المراسيم ويوصف التطلع إليها والتهافت عليها.

قال فى "التثقيف": وكان يكتب إلى أزبك فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» فى ورق عرض البغدادى الكامل. وبعد البسملة الشريفة سطران هكذا:

بقوة الله تعالى

وميامن الملة المحمدية

ثم يخلى موضع بيت العلامة، ثم تكتب الألقاب السلطانية، وهى: «السلطان الأعظم» وبقية الالقاب الشريفة على العادة حسب ما يأتى ذكره. ثم بعد الحمدلة وخطبة مختصرة جدًّا: «فقد صدرت هذه [المكاتبة] إلى الحضرة الشريفة العالية، حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشفيق، العالم، العادل، القان الأعظم، الأوحد، شاهنشاه، الملك، أزبك إل خان، سلطان الإسلام والمسلمين، أوحد الملوك والسلاطين، عمدة الملك، سلطان المغل والقبجاق والترك، جمال ملوك الزمان، ركن بيت جنكزخان، معز طغاج، صاحب التخت والتاج، عضد المتقين، ذخر المؤمنين. والدعاء بما يناسبه. «فإننا نخصه بالسلام واستعلام أخباره ونفاوض علمه الشريف». قال: والكتابة بالذهب والأسود حسب ماتقدم فى المكاتبة إلى أبى سعيد، وكذا العنوان. ثم قال: ولم يكاتب أحد بعده بنظير ذلك. وكان قد ورد على الأبواب الشريفة فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كتاب جانى بك ابن أزبك، وكتب إليه الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده، وهو فى ورق دون البغدادى بثلاث أصابع مطبوقة، والافتتاح بخطبة مناسبة مكتتبة بالذهب جميعها، ثم أما بعد

بالأسود خَلَا ماتقدّم ذكره فى مكاتبةِ أبى سعيد. والعُنْوان بالذهب. والذى كُتب إليه من الألقاب: «الحضرةُ الشريفةُ، العاليةُ، السلطانيّةُ، الأعظميّةُ، العالمية، العادليّة، الأكملية، القانيّــة، الأخويّة، العزيزية، المَلكيّة، الشرفيّة زيدت عظمتها».

قال: ولمــا كان فى العشر الآخر من ربيع الأول سنةَ ست وسبعين وسبعمائة، رسم لى بالكتابة إلىٰ القان محمدٍ ببلاد أزبك، وهو القــائمُ مَقام أزبك علىٰ ماقيل، علىٰ يد رُسُل الأبواب الشريفة، بالسلام والمودّة وٱستعلامِ الأخبار ونحو ذلك فكتبْتُ إليه فى عَرْض البغدادىّ الكامل حسَبَ مارُسِم به، بخطبة مختَصَرة بالذهب، والبقيّة بالأسود والذهب علىٰ ما تقدّم ذكْرُه فى مكاتبــة القان أبى سعيد. وكُتِب له من الألقاب بعد المراجعة: «المَقام العالى، السلطانىّ، الكبيرىّ، المَلكىّ، الأكرمىّ، الأعْدَلىّ، الشمْسىّ، شمسُ الدنيا والدين، مؤيّد الغُزاة والمجاهدين، قاتلُ الكَفَرة والمشركين، ولىُّ أمير المؤمنين خُلِّدت سلطنته». والعنوان بالذهب بغير تعريف. وعلم له فى بيت العلامة الشريفة بالمَغْرة العراقيّة «المُشْتاق شعبان».

وهذه نسخةُ ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة.

الحمد لله الذى وهَبنا مُلْكا دانتْ له ملوكُ الأقطار، وٱزدانَتِ الأَسِرّةُ والتِّيجان بمـا له من عظمة وفَخَار، وأذْعنتِ العظماءُ لعِزّة سلطانه الذى شَمِل الأولياءَ وقَصَم الأعداءَ ببِرّه الجابر وقهرِه الجَبّــار، وقاد الجيوشَ إلىٰ أن فتح اللهُ علىٰ يديه الشريفتين معاقلَ الكُفّار، بأمره الجارى علىٰ الرِّقاب وعسكره الجَرّار، ومَنَحه خدمةَ الحرمين الشريفين اللذين لم يزَلْ لهما منه الٱنتصابُ وبهما له الٱنتصار. نحمده على أنْ جعل مملكتنا الشريفة هى مَحَلّ الإمامة العباسية فلا جُحودَ ولا إنكار، ومرتبَتَنا المنيفة بمـا عَهِد به إلينــا أميرُ المؤمنين إلىٰ قيــام الساعة عليّةَ المِقْدار، ونشكره علىٰ أنْ أورثَــا مُلْكَ أسلافنا الشُّهداءِ فأقرّ العيونَ وسرّ الأسرار، وجعل الســلطنةَ المعظمة فى بيتنا المكرّم تنتقلُ

تتقّل البُدور فى بُروجِها إلا أنهـا آمنةٌ من السَّرار . ونشهد ان لا إلٰه إلا اللهُ وحده لاشريك له شهادة لم تزل قائمين بنُصْرتها، قانتين بالإخلاص فى كلمتها . لُنعَدَّ بذلك من الأبرار ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله المؤيَّدُ بملائكته، المخصوصُ بنبوّته ورسالته، الذى عَظَّم الله قدرَه علىٰ سائر الرُّسُل كما جاءت النصوصُ والأخبار. صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أُولى الفضل الدار، صلاةً دائمةً باقية بدوام الليل والنهار، وسَلَّم.

أما بعد ، فإنَّ قلوبَ الأولياء و إن تنائتِ الأجسامُ متعارفةٌ بالآئتلاف، متقاربةٌ علىٰ بُعْد الديار حيثُ لاتناكُرَ بينهـا ولا آختلاف، لاسيَّما ملوكُ الإسلام، الذين هم متّحدون بالمُصافاة والآستِسْلام ، فإن سرائرهم لم تزل متدانيَه ، وضمائرهم متكافيه ؛ هذا والمحبَّةُ لبيته[1] الكريم قديمه، والمودَّة بين الأسلاف لم تزل مستديمه؛ فلم نكُنْ وَرِثْنا ذلك عن كَلالَه ، بل تَبِعنا فيه سبيلَ السلف الصالح علىٰ أحسنِ حاله : لمـا هو محكَم من عقود الآتِّحاد والوَلَاء ، حيثُ المحبةُ فى الآباء صِلَةٌ فى الأبناء ، وكان لنا مدَّةٌ مديدةٌ وقد تأخرتْ رسلُنا عن حَضْرته ولم تصدر من جهتنا الشريفـة ، كذلك ولا وردت رسل من جهته ؛ ولم يَشْغَلْنا عن ذلك إلا مواقعـةُ الفرنج المخذُولين أعداء الدين ، ومقارَعتُهم فى سائر السَّواحل بشدّةِ البأس والتَّمْكين ؛ إلىٰ أن أمكنَ اللهُ عز وجلَّ من نَواصيهم وصَياصِيهم بنَصْرٍ من عنده ، كما قال تعالىٰ : ﴿وكانَ حقًّا علينا نَصْرُ المُومنين﴾.

والآنَ فقد صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المقام العالى السلطانى — وبقيةُ الألقاب والنُّعوت إلىٰ آخرها حسب ماتقدّم ذكره — تخُصُّ مقامه بسلامٍ أرقَّ من النَّسيم، وألطَف مِزاجًا من التَّسْنيم ، وثناءٍ قد أزْرىٰ نَشْرُه بالعَبِير، وسَرىٰ بِشْره فغدتْ تتهلَّل به الأسَارير. وتُبْدى لعلم المقام العالى زيدتْ معدلته أنه لمـا يبلغنا من عدل الحضرة الشريفه ، و إنصافه للرَّعايا وتأمين سُبُل الجَوْر المُخيفه ، وسُلوكه سَنَنَ الإحسـان ،

(١) لم يتقدم فى الكلام ما يعود عليه الضمير .

وتأكُّدِ عقُود المحبة علىٰ عادة مَنْ سلَفَ فى سالف الزمان ؛ قصَدْنا مفاتحته بهـذه المكاتَبه، واردنا بُداءَته بهذه المُخاطَبه، ليعلَمَ مانحن عليه من صَحيح الوِداد ، وأكيد الاتّحاد، وجميلِ الاعتقاد، وحُسنِ المُوالاة الخالصة من شَوائب الانتقاد، وجَهّزنا بها رُسُلَنا فلان وفلان ومَنْ معهما نستَدْعِى وُدَّه، ونستدْنِى وَلَاءه الذى أحكم عَقْدَه، لتأكُّد المصافاة بين هاتين الدَّولتين، والمخالصة من كِلتا الجهتين، والمُوالاةِ بين المملكتَيْن؛ ويأمر المقامُ العالى لازال عاليا بتَرَدُّد التُّجّار من تِلْكُم الديار، والمواصلة بالأخبار علىٰ حسب الاختِيار، ومتابعةِ الرُّسُل والقُصّاد ، علىٰ أجمل وجهٍ معتاد .

وقد وجّهنا إلىٰ المقام العالى أعلىٰ الله شأنه صحبةَ رسُلنا المذكورين من الأقمشة السَّكَندرى وغيرها علىٰ سبيل الهَدِيَّه ، والمَواهبِ السنِيَّه، ماتضمّنتْه الورقة المجهّزة طَيَّها ؛ فليأْمرِ المقام العالى دامت معْدلَته بتسليم ذلك، وبتَيَقّنْ وفُورَ المحبة من سلطاننا المـالك، وتأكُّدَ أسبابِ المودّة علىٰ أجمل المَسالك ، والله تعالىٰ يجمّل ببقاء سُلْطانه مُلْكَ الممـالك، ويديم عدْلَه المبسوطَ علىٰ الأولياء ويَرْمِى ببأسـه الأعداءَ فى مهاوِى المَهالك، ويخلّد مُلكَه الذى تفتخِرُ بالملك من مقامه العالى السُّرُر والأرائك ؛ بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم أنّ صاحب " التثقيف " قد ذكر أن المكتوب إليه بهـذه المكاتبة هو القائم مقام أزْبك، وأن اسْمه محمد، وأن المكاتبة إليه كانتْ فى سنة ستّ وسبعين وسبعمائة . وقد تقدّم ذكْرُ من وَلِىَ هذه المملكةَ بعد أزْبك ولم يكن فيهم من اسْمه محمد . وقد كان القائمُ بهذه المملكة فى سنة ستّ وسبعين المذكورة اسْمه " أرُص " وهو الذى انتزع المملكة من أيبك خان المقدّم ذكره ؛ وأصله من خُوارزْم علىٰ ماتقدّم ذكْره فى الكلام علىٰ المسالك والممالك، فيحتمل أن يكون اسْمُه محمـد وأرُص لقَب

عليه، كما كان خَدَابَنْدا والدُ أبي سعيد من ملوك إيران، آسْمُه محمد، ولقبه خَدَابَنْدا .
والأمر في ذلك راجع إلى النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : وقد كُتِب في الدولة الناصرية "فرج" بن الظاهر برقوق، للقان القائم بها في سنة آثْنَتَي عشرةَ وثمانمائةٍ في قَطْع البغدادىّ الكاملِ من الورق المِصْرىّ المعمولِ على هيئة البغدادىّ، آبتُدِئَ فيه بعد خمسة اوصالِ بياضٍ بالبسملة في أعلى الوَصْل السادس، ببياضٍ من جانبيها عرضِ إصبعين من كل جهة، والسطر الثانى على سَمْته في آخِرِ الوَصْل، بخلوّ بياض من الجانبين بقَدْر السطر الأوّل، والطُّغْراة بينهما بألقاب سلطاننا على العادة ، مكتوبةٌ بالذهب بالقلم المحقّق مزمَّك بالسواد ، بأعلى الطُّغْراة قدرُ عَرْض ثلاثة أصابع بياضًا، ومثل ذلك من أسفلها، وباقى السُّطور بهامش من الجانب الأيمن على العادة، وبين كلِّ سطرين قدرُنصف ذراع بذراع القُماش القاهِرىّ، والأسماءُ المعظَّمة : من آسم الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلم، وآسِم سلطاننا والسلطان المكتوب إليه ، والضمير العائد على واحد منهما بالذّهب المزمَّك كما تقدّم تقريره في الكلام على مكاتبة صاحبِ إيرانَ في القديم .

وهذه نسخة مما أنشأتُه، كتِبتْ بإشارة المَقر العالى الفتحىّ : صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف وهى :

الحمد لله مؤيِّد سلطاننا «الناصر» بعزيز نَصْره، ورافعِ قدْرِ مَقامنا الشريف بإعلاء مَناره وإعظام ذِكْره، ومُشَيِّد أركان مُلْكنا الشامخ بإسعاد جَدّه العالى والله غالبٌ على أمره . نحمَدُه على ماجَنَّب من مَواقع الحَرَج، وجعل أُمُورَ رعايانا بمَعْدَلتنا الشريفة بعد الضِّيق إلى فَرَجْ ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثها عظماءُ الملوكِ كابرًا عن كابر، ويتناقَلُها منهم الخلَفُ بعد السَّلَف فيُسْنِدها الناصرُ عن

الظاهر ، ونشهد أنَّ سيدَنا محمدا عبدُه ورسوله أفضلُ نبيّ جمع بعُموم دَعْوته مفتَرِقَ الأُمم، ووفَّق بحَنِيفيّ مِلَّته بين أقْيَال العَرَب وأَسَاوِرَة العَجَم، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آخىٰ بينهم فسَنَّ المُؤاخاه، ونَقَّى من غَلِّ الضَّغائن صُدورَهم ففازُوا بأكمل المُصافاة وأتمّ المُوافاه، صلاةً تَسِير بفضلها الرَّكائب، وتترنَّم بذكرها الحُداة فتَعُمّ نَفَحاتُها المَشارقَ والمَغارِب، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فإنَّ الأرواحَ إذا تمازجتْ تناجتْ بالضَّمائر، والقلوبَ إذا تآلفت آكتفَتْ بشَواهِد الحَالِ عن إبْراز مافى السَّرائر، والأجسادَ إذا تباعَدتْ تعلَّلتْ بالمكاتَبات فى بُلُوغ الأوْطار، والدِّيارَ إذا تناءَتِ آكتفَتْ بالمُراسَلة عن تَقارُب الدَّار، والمودَّة إذا صفَتْ لايُؤَثِّر فيها البِعاد، والمحبَّة إذا صدَقَتْ لاتزال كلَّ يومٍ فى آزْدِياد، (والأُذْن تَعْشَق قَبْلَ العينِ أحْيانا)، والوصفُ يُحرِّك من الشَّوْق أغصانًا وأفْنانا .

هذا وإنَّ أحقَّ ما آتَّخذَتْه الملوك ذَرِيعةً لدَواعى الآبْتِهاج، وأهمَّ ما آهتمَّ به مُتَخَتِّت بتَخْت أو مُتوَّجٌ بتاج، إحياءُ مَذاهب الملوكِ السالفةِ فى الوِداد، وآقتفاءُ آثارِهم الجميلة فى مَوارِد المكاتَبات على التَّنائى والبِعاد، ومن ثَم صدرتْ هذه المكاتَبةُ إلى المقام العالى، السلطانىّ، الكبيرىّ، الأخوىّ، الفلانىّ، ركنِ المِلَّة الإسلاميـَّـه، عمـادِ المملكة الجنكزخانيَّه، ذَخيرةِ الدين، خليلِ أمير المؤمنين ـ زِيدتْ عظَمتُه، ودامَتْ مَعْدَلتُه ـ تَخُصُّه بسلامٍ تَهُبُّ به الجَنُوب فتؤثِّر به فى الشَّمال القَبُول، وتَخُصُّ به إلى السَّراى سُراها ليكونَ لها ببَيْت بركَةٍ أشرفُ قَدَم وأكْرمُ وُصُول، وتمدُّ على خُوارِزْم والدَّشْت فَضْلَ رُواقه المَدِيد، وتَنْشُر على مملكة السَّرير لواءَه فيعم مابين جَيْحُون وطرنا (١) ويشمل مابين الخطَا (٢) والباب الحَدِيد، وتُناجى علمَه الشريفَ بأنه غيرُ خافٍ عن شريف مَقامه

(١) لعله طنا . أوطرلو .

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر كما تقدم ضبطه كذلك فى ج ٤ ص ٤٨٣ .

أن مَنْ سلَفَ من ملوك مملكتنا العالية الذُّرى، والمملكة القانيَّة المرفوعة الذِّكْر رفْع نارِ القِرى، لم تزل ملوكُهم مجتمعةً مع تنائى الدِّيار، مؤتلفةً على المحبّة وإن شطَّ المزار، محافظين على تتابُع الرُّسُل وإن حالَ دُونَهُمُ الصِّفاح، مثابرين على توارُدِ الكُتُب ولو على أجنحة الطير ومُتُون الرِّياح؛ وقد مضتْ مدّةٌ مديدةٌ لم يقْدَم علينا من المقام الشريف - عظَّم الله تعالى شأنه - رسولٌ يُطفئ لَوَاعِجَ الاشتياق، ولا وَرَدَ عنه كتابٌ يتعلَّل المحبُّ بتلقّيه عن حقيقة التَّلاق، بل سُدَّ بابُ المكاتبة حتّى كأنَّ المكاتبة لم تُخْلَق، وأُغلِق بابُ المراسلة وإن كان بابُ المحبّة - بحمد الله - لم يُغْلَق؛ فطمح بخاطرنا الشريف طامحُ الشوق المُتزايد، وحمَلَنا موصولُ المحبّة المستغنى بمواصلته عن الصِّلة والعائد، أن نُفاتحَ المقامَ العالى دامتْ معدلتُه بهذه المُفاوضة: لتُجدِّد من العهود القديمة رُسومَها، وتُطلِعَ من مَشارقِ المخاطبة نُجُومَها؛ وتنسخ آيةَ الهِجْران وتَمْحُوها، وتَصْقُل مِرْآةَ المُصافاة وتَجْلُوها، وتستجْلِبَ الأُنْس وإن صحَّ المِيثاق، وتُذكِّرَ الخواطرَ الوِدادَ وإن ثبتتْ منه الأُصُولُ ورسختِ الأعْراق؛ وتنوبَ عن نظرنا الشريف فى مُشاهَدة محيّاه الكريم، ومُصافحةِ كفِّه التى حديثُ وُدِّها قديم؛ وتستطلِعَ أخباره، وتستعرِضَ على تعاقُبِ الأزمان أوطارَه.

وقد آخترنا لتبليغ رِسالتها، وأداءِ أمانتها؛ المجلسَ السامىَ المقرّبَ الأمين خَواجا فلان أعزّه الله تعالى، وحمَّلْناه من السلام ما يهتدى بضوئه السارى، ويفُوقُ بعَرْفه العنبرَ الشِّحْرىَّ والمِسْكَ الدّارى: ليُحكِم بحُسْن السِّفارة من المُخالَصة مبانيها، ويَعقِدَ منها بمتابعة الرُّسُل والقُصّاد أواخِيها؛ وجهّزنا صحبتَه كذا وكذا على سبيل الهديّة المندوبِ بَذْلُها وقبولُها، والحاكمِ بصحّة عقد المحبّة كثيرُها وقليلُها؛ والله تعالى يزيدُ فى آرتفاع قَدْره الخطير، ويحُوط به من ملكه الجنكزخانى ما يُحقّق أنه صاحبُ التاج والسَّرير.

الجمـــلة الثالثـــة

(فى رسم المكاتبة إلى مَنِ آنطوت عليه هذه المملكةُ من الأتباع والحُكّام؛
وهم على[١] أصــناف)

الصِّـــــنفُ الأوّل

(كُفّال المملكة)

قد تقدّم أن ترتيب هــذه المملكة فى أُمَراء الأُلُوس والوزير نحوُ مملكة إيرانَ ، وإن لم يكن لأميرِ الأُلُوس والوزير بهــذه المملكة من نَفاذ الأمر نظيرُ ماهُنالك . ومقتضىٰ ذلك أن يكونا منحطَّين فى الرتبة عن أُمَراء الأُلُوس بإيرانَ والوزير بهـا ؛ وهذه الرسوم التى وقعتْ فى مكاتباتهم على ما أورده فى " التثقيف " .

وأُمَراء الأُلُوس أربعة ، أكبرهم يسمَّى بكلارى بك بمعنى أمير الأمراء كما تقدّم فى مملكة إيران . فقد ذكر فى " التثقيف " أنه كان منهم فى ســنة آثنتينِ وثمانينَ وسبعمائة قطلوبُغا إيناق ، وأنه كُتب إليه فى عاشر جمادىٰ الآخرة منها ما صورته :

«ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمى ، العادلىّ ، المؤيَّدىّ ، العَوْنىّ ، الزَّعيمىّ ، الممهَّدىّ ، المشيَّدىّ ، الظهيرىّ ، التُّونُبِىّ ، السَّيْفىّ ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين ، سيفِ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةِ الغُزاة والمجاهدين ، زَعيمِ الجيوش ، مقدَّم العساكر ، كهفِ الملة ، ذُخْر الدوله ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والعلامة «أخوه» وتعريفُه «قطلوبُغا إيناق نائب القان جانِى بك» .

---

(١) بياض فى الأصل ومع ذلك لم يذكر الا صنفين .

ثم ذكر أن الأمر كان عند القان محمد بمثابة الأمير يلبغا العُمَرى، يعنى الخاصكى بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وأنه ٱستُحدِثت المكاتبةُ إليه فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، وأنه كتب إليه فى قطع الثُّلُث ما صورتُه :

«أدام الله تعالى نعمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدى، الذُّخرىّ، النَّصيرىّ، الهُمامىّ، المقدَّمىّ، التُّوَينىّ، السيفىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصرة الغُزَاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر، ذُخر الدولة، عَضُد الملوك والسلاطين، حُسَام أمير المؤمنين» . والدعاء المناسب . والعلامة «والده» . وتعريفه «ممای» . وفى هذا نظر : لأنه إذا كان بمثابة ما كان عليه يَلْبغا بالديار المصرية، فمقتضاه أن يكونَ أكبرَ أمرائه . وإذا كان كذلك، فكيف يكتب إليه دونَ أمراءِ الألُوس؟ فقد تقدّم أنه يكتَبُ إليهم : «ضاعف الله تعالى نعمةَ الجنَابِ العالى» .

الوزِيرُ بهذه المملكة . قد ذكر فى "التثقيف" أن الوزير بها كان ٱسمُه محمودا، ولقبُه حُسَام الدين، وكان يعرف بمحمُود الدِّيوان . وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قطع الثلث ما صورتُه :

«أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى، الآمِرِىّ، الكبيرىّ، الذُّخرىّ، الأوحدىّ، الاكملىّ، المتصرِّفىّ، العَونىّ، الوزيرىّ، الحُسامىّ؛ مَجْدِ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء والوزراء فى العالَمين، جمالِ المتصرِّفين، أوحَدِ الأولياء المقرَّبين، ذُخرِ الدولةِ، مشيرِ الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، والعلامة «والده» . وتعريفُه «خَواجا محمود وزير المملكة القانيّة» .

قلت : وقد علمتَ أنَّ المكاتبـةَ إلى أمراء الألُوس والوزير بهـذه المملكة دُونَ المكاتبـة إلى أمراء الألُوس والوزير بمملكة إيرانَ ، فقد تقدم أن المكاتبةَ إلى بكلارى بك أكبر أمراء الألُوس بمملكة إيران : «أعزَّ الله تعالى نصر المقرّ الكريم» . و إلى الثلاثة الذين دُونَه : «أدام الله تعالى نَصْر الجناب الكريم» ، ثم ٱستقر «أعز الله تعالى أنصارَ الجناب الكريم» . وأن المكاتبة إلى الوزير : «ضاعَفَ الله تعالى نعمةَ المجلِس العالى» . والمعنى في ذلك ماتقدم من أنه ليس لِأُمراءِ الألوس والوزيرِ بهذه المملكة من التصرُّف مالأُمراء الألُوس والوزيرِ من التَّصرّف بتلك المملكة .

قَجَا على بك بهذه المملكة . قال فى "التثقيف" : وهو ممن ٱستُحدِثَتِ المكاتبة إليه فى سنة خمس وستين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التثقيف" الأسم و «السامىّ» بالياء وتعريفه ٱسمــه .

الصـــنف الثانى

(الحُـكّام بالبـلاد بهـذه المملكة)

وها أنا أذكُرُ مَنْ ذكر المكاتبةَ إليه منهم فى "التثقيف" .

الحاكم بالقِرِم : وهو إقليمٌ شمالىَّ بحر نِيطش . وقاعدتُه مدينة صُلْغاتَ ، وهى مدينة على نصف يومٍ من البحر ، وقد غَلَب عليها ٱسمُ القِرم . وقد ذكر فى "التثقيف" أن الحاكم بها فى سنةِ خمسينَ وسبعمائة كان ٱسمُهُ زينَ الدين رمَضَان ، ثم ٱستقر بعده على بك ٱبن عيسى بن تلكتمر . وقــد رأيت فى بعض التواريخ أن الحــاكم بهــا فى حدود ســنة ستٍّ وسبعين وسبعمائة كان مَامَاى المقــدَّم ذكره . وقد ذكر

فى "التثقيف" أن رسمَ المكاتبة إلى الحاكم بها فى قَطْع العادة، والعلامة «أخوه» و «صدرت» و «العالى» . والذى رأيتُه فى دُستورٍ يُعزَى فى الأصل للمقرّ العلائىّ بن فضلِ الله أنه يكتَبُ إليه فى قطع الثلث وأن المكاتبة إليه « السامىّ » بالياء . وتعريفه «الحاكم بالقِرِم» .

الحاكم بأُوزَاق : وهى مدينةٌ على بحر مانِيطش المقدّمِ ذكره فى الكلام على المسالك والممالك. وهو المعروفُ الآنَ ببحر الأَزَق، وهى عن القِرِم فى جهة الجَنوب والشرق، وبينهما نحوُ خمسَ عشرةَ مرحلةً . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إلى الحاكم بها مثلُ الحاكم بالقِرِم على السَّواء . والذى رأيته فى الدُّستور المقدّمِ ذكرُه أنه فى قَطْع الثلث «السامىّ» بالياء كما فى الحاكم بالقِرِم .

الثـــانى

(من ملوك تُورانَ من بنى جنكزخان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدةُ مُلْكه فى القديم بُخارا ، والآنَ سَمَرْقَنْد . ومن مضافاتها غَزْنةُ وما والاها من مُتاخِمِ الهند . وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام على المسالك والممالك . وقد ذكر فى "التعريف" أنَّ آخِرَ ما استقرّتْ لترماشِيرِينَ، وكان حسَنَ الإسلامِ عادلَ السِّيرة، طاهرَ الذَّيْل، مُؤْثِرا للخير، محبًّا لأهلِه ، مُكْرِما لمن يَرِد عليه من العلماء والصُّلَحاء، وطوائف الفُقَهاء والفقراء .

قال : وكُتِب إليه على رسم المكاتبة إلى صاحبِ إيرانَ . وقد تقدّم فى الكلام على المكاتَبةِ إلى صاحب إيران نَقْلا عن "التعريف" أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع

البَغْدادىّ الكامِل ، يبتدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخُطْبة الغراء المكتتبة بالذهَب المزَمَّك بألقاب سلطاننا علىٰ عادة الطُّغراوات ؛ ثم تكمّل الخطبةُ ويُفتتح ببعدية الىٰ أنْ تُساق الألقابُ، وهى : «الحضرةُ العالية، السلطانيّة ، الأعظميّة ، الشاهنشاهيّة ، الأوحدية، الأَخَوِية ، القانيّة ، الفلانية» . ولا يخلط بها «المَلَكِية» لَهوانها عليهم ؛ ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المفخّمة الملوكية : من إعزاز السُّلْطان، ونَصر الأعْوانِ، وخُلُود الأيام، ونَشْر الأعلام، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وغير ذلك مما يَجرِى هذا المَجرىٰ . ثم يُقال ماقيه التصريحُ والتلويح بدَوام الوِدَاد ، وصفاءِ الاعتقاد، ووَصْف الأشواقِ، وكَثْرة الأتْواق، وما هو من هذه النسبة؛ ثم يُؤتى علىٰ المَقاصد ، ويختَمُ بدعاءٍ جليل وتستعرض المَرَاسِيم والخِدَم ، ويُوصَف التطلُّع إليها، ويظهر التهافُتُ عليها ؛ وأنه تكتَب جميع خُطبة الكِتاب وطُغْراه بالذهب المزَمَّك ، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من آسم جليل ، وكل ذى شأنٍ نبيلٍ : من آسم الله تعالىٰ أولنبيه صلّى الله عليه وسلم ، أو ذكرِ الإسلام ، أو ذكر سلطانِنا أو السلطان المكتوب إليه ، أو ماهو متعلّق بهما ، مثل لنا ولكم ، وكتابُنا وكتابكم ، جميعُ ذلك يكتب بالذهب وما سِواه بالسَّواد . وأن العُنوانَ يكون بالألقاب إلى أن ينتهىَ إلى اللقب الخاص ، ثم يُدْعىٰ له بدعوةٍ أو اثنتين نحو أعزّ الله تعالى سلطانَها ، وأعلىٰ شانَها ؛ ونحو ذلك . ثم يسمّى آسمُ السلطان المكتوب إليه ؛ ثم « يقال » خان : مثل أن يقال : ترماشيرين خان ، ويطْمَغُ بالذهب طَمَغات عليها ألقابُ سلطاننا تكونُ علىٰ الأوصال ، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أوّل وَصْل ، وعلىٰ اليسار فى ثانى وَصْل ، ثم علىٰ هذا النمط إلىٰ أن ينتهِىَ فى الآخر إلىٰ اليمين ؛ ولا يُطْمَغ علىٰ الطرّة البيضاء . والكاتب يخلِى لمواضِع الطَّمْغَة مواضعَ الكتابة تارةً يمنةً ، وتارة يَسْرةً ، إلىٰ غير ذلك مما سبق القول عليه .

قلت : وآخرُ ما آستقرّت هذه المملكة تمُرلنك ، وتُمُر آسمه الذى هو علَم عليه ، ومعناه بالتركية حديد . ولَنك لقبٌ عليه ، ومعناه بالفارسية أعْرَج : لأنّه كان به عرَجٌ ظاهر ، ولذلك تسمّيه الترك تُمُر أقصق ، إذ أقصَق عندهم بمعنى أعرج . وهو يتسمّى فى كُتُبه تَيمور كوركان . ومن هذه المملكةِ آنساب على بلاد إيرانَ حتّى آستولى على جميعها ، وسار إلى بلاد الهند فاستولى عليها ، ثم طاح إلى الشام فى سنةِ ستٍّ وثمانمائة وعاثَ فسادًا ، وخرّب وأفسد ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » فرَج آبن الظاهر برقوق صاحب مصر والشام على دِمَشْق ، وجرت بينهما مراسَلَةٌ ؛ ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ماأوجب عَوْده إلى مصر لأمرٍ عرَض له من جهةِ بعض أمرائه ، وبقى تُمُرلنك نازلًا بالشام محاصِرًا لدمَشْق ، إلى أن خدَع أهلَها وفتحها صُلْحا ، ثم غدَر بهم ونهبها وسبى حريمَها ، ثم حرّقها بعد ذلك بعد أن أسرف فى القتل وأثخن فى الجراح ، وأمعَن فى الأَسْر .

وللمكاتبة اليه حالتان :

الحالة الأولى — حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج — عزّ نصره — بالشام محاربا له ، وكُتُبه حينئذ تَرِد فى القطع الصغير على ما سيأتى ذكره ، وكان يكتب إليه حينئذ فى قطع (١)

---

(١) بيض المؤلف لبقية الكلام ، وآستدرك بعضهم له بقية وأثبتها فى النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا "مما فات المؤلف" .

ممـا فات المؤلف رحمه الله تعالىٰ

ما كُتِب عن مولانا الشهيد الملكِ الظاهر أبى سعيد بَرْقُوق، تغمَّده الله تعالىٰ برحمته ورِضْوانه ، فى جوابِ الأمير تمرْلَنك المدْعُوّ تَيْمور ، عن الكُتُب الواردة منه قَبْـلَ ذلك ـ من إنشاء المرحوم المَقرّ البَـدْرى محمد ، ابن المرحوم المقرّ العلائى على ابن المرحوم المقرّ المحيْوى يحيى ، بن فضل الله العُمَرى العَـدَوى القرشى رحمهم الله تعالىٰ ـ فى سنة ست وتسعين وسبعمائة ، عند سَفَر مولانا السلطان المشار إليه إلىٰ حَلَبَ المحروسة لملتقى المذكور ، فى قطع الثلث بغير علامة ، وسَعةُ مابين السطور قدر عَرْض الإصبعين . والطرّة وصلانِ ، طولُها نحو الذّراع الهاشمىّ ، وكان عُنوان كتاب تمرْلنك الذى ورد آخرًا وهو الذى اقتضىٰ الحركةَ الشريفةَ والجوابَ المشارَ إليه :

سلامٌ وإهْداءُ السَّلامِ من البُعْدِ * دليلٌ علىٰ حُسْنِ المودّةِ والعهْدِ

فكتب العنوان الشريف :

طَويلُ حياةِ المرْءِ كاليوْمِ فى العَدّ * فَخيرَتُهُ أن لايَزيدَ عن الحدّ !

فلا بُدَّ من نَقْصٍ لكلّ زيادةٍ * لأنَّ شديدَ البَطْش يقتصُّ للعَبْد !

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلىّ الشان ، العظيمِ السلطان ، العَمِيمِ الإحسان ، العليمِ بما كانَ ومايكونُ فى كل زمانٍ ومكانٍ ، تاهتْ فى مَيَادِينِ فَلَواتِ معرفته سَوَابِقُ جيادِ الأفهام ، وتَدَكْدَكتْ لهَيْبة جَلاله جبالُ العُقول والأوهام ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد حبيب الرحمٰن ، وسيدِ الأكوان ، وصاحبِ المعجزات والبُرْهان ، المبعوثِ الىٰ الخلق أجمعين من الإنس والجـانّ ، والمنعُوتِ بالفضل العميم ، والخُلُق العظيم ، فى التَّوراةِ والإنجيل والزبور

والفُرقان، وعلى آله وصَحْبِه الغُرّ الكِرامِ الحِسان، وعلى التابعينَ لهم بإحسان، وسلّم تسليما كثيرا ماتَعاقَبَ الحَدَثان .

وبعد، فقد وصلَ إلى أبوابنا الشريفةِ العاليةِ كُلُّ ماجهَّزته أوّلا وآخِرا يا أمير تَيْمور من كِتاب، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بما فيها من كلامٍ وخِطاب، وقَصْدٍ وعِتاب، وإرْعادٍ وإرْغاب وإرْعاب .

فأما ما ذكرته فى أوّل كُتُبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم، والتَّبْجِيل والتفخيم، فقد علمناه وعَرَفْناه، ولكن وجدنا الكلمتيْنِ اللتين فى الطمغات آخِرَ الكُتُب وهما راسْتي رِسْتِي منافيَتَين لذلك التعظيم، وهذا غيرُ مستقيم؛ لأنه متناقضٌ غير متَناسِب، فعجِبْنا من هذا التناقُض الواضح، والتخالُف الفاضح، وفى المثل السائر : « أصْلِحْ وقابِلْ وأفْسِدْ وقابِلْ » .

وأمّا إرسالُك السيفَ والتَّرْكاش لنا، فقد تعجَّبْنا منه إلى الغايه، وأنكرْناه إلى النِّهايه : لأنك لم تَزَلْ فى كُتُبك كلِّها تستشْهِد بتاريخ جنكزخان وأخبارِه وأحوالِه، وتقتَدِى به فى أقوالِه وأفعالِه، وما سمِعْنا فى التواريخ ولا اتّفق قطُّ من جنكزخان، ولا ممن تقدّمَه وتأخّره من ملوك مملكته فى زمنٍ من الأزمان، أنّه أهدَى إلى خادم الحَرَمين الشريفين سَيْفا ولا تَرْكاشا، ما آختلَفَ فى ذلك آثنان . فإرسالُهما منك إلينا هل هو من باب المحبة أولا، وإن كان تخويفا، فنحن مانخافُ من سَيْفك وتَرْكاشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السَّيْفُ والرُّمْحُ والنُّشّاب قد علِمَتْ ◦ منّا الحُروبَ فسَلْها فَهْىَ تُنْبِيكا!
إذا آلتقَيْنا تَجِدْ هذا مُشاهَدَةً ◦ فى الحَرْبِ، فاثْبُتْ فأمرُ الله آتِيكا!
بخِدْمة الحَرَمَيْنِ اللهُ شَرَّفَنا ◦ فَضْلًا ومَلَّكَنَا الأمْصارَ تَمْلِيكا!

وبالجميلِ وحُلْوِ النَّصْـــرِ عوَّدنا، * خُذِ التَّوارِيخَ وٱقْــرَأها تُلَبِّيكَا!
والأنبياءُ لنا الرُّكْنُ الشَّـــدِيدُ فكَمْ * بجاهِهِمْ من عَدُوٍ راحَ مَفْلُوكَا!
ومَنْ يكُنْ ربه الفَتَّاحُ ناصِرَه، * ممَّنْ يخَافُ؟ وهذا القولُ يَكْفِيكَا!

وقد أجبناك عن السيف والتُّرْكاش فيما مضى قبلَ هذا الوقت وتقدم، فاعرِفْ ذلك وٱعْلَمْ.

وأما ما ذكرتَه من قولك: إنك فتحتَ معنا بابَ المحبة والوِدَاد، والصُّحْبة والاتِّحاد، لابابَ المخاصمةِ والمُشارَرة والعِناد، فقد علمنا ذلك وفهمناه. والذى نُعَرِّفك به أنَّ الذى وقع منك بخلاف ماقلتَ: لأنك لو كنتَ صادقا فى قولك، كنتَ لمَّا حضر إليك شُكْر أحمد وأرْغُون السلامى اللذان هما من بعض مماليكنا ومن جملة رَعايانا أمسكْتَهما وجهَّزتهما إلينا بعد أن قيدتَهما؛ فما فعلت ذلك بل عمِلْت بالضدّ منه لأنك آويتَهما، وحمَيتهما وعظَّمتهما وأكرمتهما، وجعلتَهما من خواصِّك وأحبابك، وأوليائك وأصحابك. وأيضا توجّه إليك صَوْلة بن حِيار[1] الذى هو قِطْعة هجَّان من هجَّانتنا فأكرمته، وألبسته التاجَ وعظَّمته، وبعثتَ معه خِلعةً إلى نُعَيْر المذكور وإلى غيره من عُرْبانه، ووعدتَه بالتَّقْدِمة والإماره، بالتصريحِ العظيمِ لا بالتلويح والإشاره؛ وكتبتَ إليه كتابا ما تركتَ فيه ولا خلَّيت، وأظهرتَ كلَّ ما كان عندك وما أبقَيت، فجهَّزه إلينا وقُرِئَ على مسامعنا الشريفة كلمةً كلمه، وعرَفْنا واضحَ معناه ومبهَمه؛ وها نحن نشرحُه لك لتعلَمَ وتحقَّق أنه وصل إلينا، وٱطَّلعنا عليه وما خفِىَ أمره علينا. وهذا نصه:

(١) هذا الضبط من الأصل ورسم فيه تحتها حاء صغيرة إشارة إلى الإهمال ولكن الذى سبق فى الأجزاء المتقدمة جبار بالجيم والباء تبعا للأصل والضوء والتعريف فحرر.

دام دولتـــه

الأمير الكبير، المعظَّم أمير نُعَير، أدام [الله] دولته شمسا. نُعْرِض لعلو علومه المحروسة أنه قد اتّصل بنا طَرْدُك عن الشام، ومعاملتُهم معك غيرَ الواجب. حال وُقوفك على هذا المثال تُسْرِع فى الوصول إلينا بحيث نُعطِيك ما أُعطِىَ المرحوم عمك أمير سليمان طابَ ثراه، ونجعلك مقدّم العساكر المنصورة؛ وبهذا برَز الحكمُ المطاعُ من الحضرة العاليـة؛ ففى عزم العساكر والجيوش المعظَّمة الوصولُ إلى أطراف البـلاد شرْقا وغَرْبا ورُومياً من سائر النواحى والأمصار، والبلاد والأقطار، وإنْ أبطأ ركابُك عن الوصول، فنحن واصلُون إليكم فى طريقنا إلى مِصر وغيره، ولا يبقى لطاعتك مزيّة ولا منّـة، فيكون ذلك على الخاطر المبارَك. فينبغى أن لايكونَ جوابُ الكتاب، إلا قُدومَ الركاب، ففيه لكم الفوائدُ العظيمه، والعطايا الجسيمه؛ ومعَ [ذلك] إصابةُ الرأى منكم، تُغنى عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عُرِض من المهامّ يقضىٰ حسَبَ المراد، ومَنْهج السَّداد، والله الموفق.

وبحاشية الكتاب المذكور ما نصُّه :

وقد كتبنا إلى السـلطان أحمد أنْ يصـلَ إلينا ، فانظُرْ كيف كان عاقبةُ أمره ؟ فينبغى أن تتوجّهَ أو يتوجّه بعضُ أولادك إلينا لأجل مَصالحك كافّةً .

فيا أمير تَيمُور لو كنتَ صادقًا ، وكلامُك بالحق ناطقا، ما وَقَع منك مثلُ هذا ولا صدَر، ولا اتّفق بَلْ ولا ببالك خَطَر؛ ولكن كلُّ مايكونُ فى خاطر الإنسان يظْهَر من الكلام الذى يخْرُج من فيه، وكلُّ وعاء ماينضح إلا بمـا فيه .

يافاعلًا بالضِّـــدِّ من قوْلِهِ ❊ فِعلُ الفتىٰ دالٌّ علىٰ باطنه ،
والمَـــرْءِ مَجْزِىٌّ باعمـاله ❊ إذا ظْهرتْ ما كان فى كامنه !

وأما طلبُك منّا السلطان أحمد الجلايرى غيرَ مرّة، فقد علمناه. ولكن عرِّفنا يا أمير تيمُور إيش عَمِل بك؟ حتّى حلفت له عِدّة مرار بأيمان الله تعالى العظيمة وأعطيته العهود والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلى مملكته ولا توافيه ولا تشوّش عليه، حتّى اطمأنّ بأيمانك، وركن إليك، وأحسن ظنّه فيك، ووثِق بك، واعتمدَ عليك فخُنته وغدَرْته، وأتيته بغتةً على حين غَفْلة وبَدْرته، وأخذت مملكتَه وبلادَه، وأموالَه وأولادَه. وأعظمُ من ذلك أنك أخذتَ أيضا حريمَه وهُنّ فى عَقْد نِكاحه وعِصْمته وأعطيتَهنّ لغيره، وقد نطق الكتابُ والسنةُ بتحريم ذلك وعُظْم ذَنْب فاعله وقَبيح جُرمه، ففى أىّ مذهَب من المذاهب يحِلُّ لك أخذُ حريم المسلمين، وإعطاؤُهنّ لغير أزواجهنّ من المُفْسِدين الظالمين؟ وهنّ فى عِصْمة أزواجهنّ وعَقْد نكاحِهنّ إنّ هـذا لَهُوَ البَلاء المبين، وكيف تدّعى أنك مسلم وتفعل هذه الفِعَال؟ عرِّفنا فى أىّ مذهَب لك هـذا حَلال؟ فأعمالُك هـذه كلُّها منافيةٌ لدعواك، بل منافيةٌ لدين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الكافِرُون﴾ وقال: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الظّالِمون﴾ وقال: ﴿ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُم الفاسِقُون﴾ وقال عز وجل: ﴿ومَنْ يَتعدَّ حُدُودَ الله فقدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾ وقد بيّن لنا الخيرَ والشرّ، والحلالَ والحرامَ وأهلها فقال: ﴿إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبى ويَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْى﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تَقْرَبُوا الزّنا إنّه كانَ فاحِشَةً ومَقْتًا وساءَ سَبِيلا﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الّذِينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ والّذِينَ هُمْ عَنِ اللّغْوِ مُعْرِضُونَ والّذِينَ هُمْ للزّكاة فاعِلُونَ والّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلّا عَلى أزْواجِهِمْ أوْ ما مَلَكَتْ أيْمانُهُمْ فإنّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ فمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فأُولئِكَ هم العادُون﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ

حَرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه". وقال عليه السلام: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ ولِسَانِهِ". ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تَستَحِلُّ هذه المحرّمات العظيمة، والمُنكَرات القَبِيحة الشنيعة الجَسِيمة، التى يهتزّ لها العَرْشُ ويَغْضَبُ الله عزّ وجلّ لها ورُسُلُه والملائكةُ والناسُ أجمعون؟ وما كفىٰ ما فعلتَ مع القان أحمد المشارِ إليه حتّى تطلبُه منا؟. اعلم أنّ القانَ أحمد المشار إليه قد آستجَار بنا وقَصَدنا، وصار ضَيْفَنا؛ وقد ورد: مَنْ قصَدَنا وجَبَ حقُّه علينا. وقال تعالىٰ لسيد الخلق أجمعين فى حقّ الكفار الذين هم أنحس الناس: ﴿وإنْ أحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ آستَجَارَكَ فأجِرْه حتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أبْلِغْهُ مأْمَنَه﴾ فكيف بالمسلمين إذا آستجاروا بالمسلمين؟ وكيف بالمُلُوك أبناءِ ملوك المسلمين، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع مُلُوك الإسلام خُدّامِ الحرمين الشريفين صُحبةٌ ومحبةٌ وأخوّة فى الله تعالىٰ؟ ولو لم يكن ذلك كيف يجوز فى شرع المُرُوءة والنَّخْوة والوفاء أن نُسلّمَ ضيفَنا ونزيلَنا والمستجيرَ بنا؟ خصوصًا وجِنْسُنا جَرْكَس جنسُ ملوك الإسلام السالفين، خُدّامِ الحرمين الشريفين الذين آتّفق لهم مع التّتار ما تَشهَدُ به التواريخ، ومن عادتنا وشأننا وطِباع جِنْسنا أننا لانُسلّمُ ضيفَنا ولانزيلَنا ولامَنِ آستجار بنا لأحد. وإن كنت ماتُصدّق ذلك فعندك مَنْ هم من جنسنا، سَلْهم يعرّفوك؛ فنحن لا يُضام لنا نَزِيل، ونَقرِى الضيفَ ونعاملُه بالجميل، وهذه جِبِلّتنا الغريزيّةُ وعادةُ أصلنا الأصيل؛ فإرسالُ القان أحمد إليك أمرٌ مستحِيل.

إنّا ذَوُو الفَضْلِ الغَزِيرِ الوارِفِ * أبوابُنا هِىَ مَلْجأٌ لخائف!

نَقرِى الضُّيوفَ ولا يُضامُ نَزِيلُنا، * شِيَمٌ وَرِثْنا فَضْلَها عن سالِفِ!

وكُلَيْمَةٌ تَكْفِى الذى هو عاقِلٌ، * والرَّمْزُ تصريحًا غدا للعارف!

وقولك: إن العادة كانتْ جاريةً بين مَنْ سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار، أنّه مَنْ هرب من جهةٍ إلىٰ أخرىٰ يُمْسِكه الملك الذى يَهْرُب إليه ويقيّده ويجهّزه إلىٰ الملك الذى هَرَبَ من عِنْـده، وأن دَمَرْداش بن جُوبان لما هرَب فى الزمن الماضى من مَلِكه وجاء إلىٰ سلطان مملكتنا المعظّمة المشرّفة، أمسكه وقيّده وأرسله إليه، فقد علمناه، وليس هذا الذى قلتَه وحكيتَه بصحيح، لأن الذى وقع واتّفق بخلافه: وهو أنّ أميرا من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمّى قَراسُنْقر، هرب من عنده وراح إلىٰ أبى سعيد فقطع رأسه، وجهّزه إلىٰ الملك الناصر. وأما دَمَرْداش المذكور فالملك الناصر ما أرسله إلىٰ أبى سعيد مثل ما قلتَ وما مات دَمَرْداش المذكور إلا فى مصر المحروسة، فليكُنْ ذلك فى علمك ثابتًا، وعلىٰ كلّ حال فكلامُك حجةٌ عليك لا لك: لأنّك قد آويتَ شُكْر أحمد وأرْغُون السلامى وأكرمتهما وقرّبتهما، وكذلك كلُّ مَنْ حضر إليك من ممالِيكنا ورَعايانا وخَدَمنا من أهل مملكتنا، فلو أمسكْتَهم وقيّدتَهم وجهّزتهم إلينا، كنتَ تكون صادقًا فى قولك، وكنتَ إذا طلبتَ منا أحدًا ما نُتلام علىٰ طلبه، فكيف وأنت البادِى والمعتَدى؟ فهذا الكلام كلُّه شاهدٌ عليك لا لك.

وأما قولك: إنّ صاحب تِكْريتَ كان حَراميًا قاطعَ طريق، ففعلتَ معه ما فعلتَ مقابَلةً له علىٰ نحسه وحَرامه وقَطْعه الطُّرُقات، فقد علمناه وسلّمنا لك هذا الأمر، بَيّضَ اللهُ وجهَك، وما قَصّرت فيه، لحبّذا ما عمِلْتَ، ونِعم ما فَعَلْتَ فى حقّه من إعطائه جزاءه. أفأهلُ بغداد كانوا حراميّةً قُطّاع طريق حتّى فعلتَ بهم ما فعلتَ، وقتلتَ منهم من التُّجّار خاصّةً ثمانمائةِ نفْسٍ فى المُصادَرة بالعقُوبة والعذاب. ففى أىّ مذهبٍ يجوز هذا؟ وهل يحِلُّ لمن يَدّعى الإسلامَ أن يعمل بخَلْق الله تعالىٰ الذين أمر بالشفقة عليهم والإحسان إليهم ونَشْر العدل فيهم هذه الفِعالَ؟ وقد تعجّبْنا منك

يا أمير تيمور إلى الغاية ! كيف تدّعى أنّك عادل، وتعمل بأهل بغداد المسلمين الموحّدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل؟ أما تعلم أنّ الشفقة على خلق الله تعظيمٌ لأمر الله، وأنّ الله رحيم يحبّ من عباده الرُّحَماء، وأن الظُّلْم حرام فى جميع الملل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله تعالى يقول : ياعبادى إنّى حرّمتُ الظُّلم على نفسى وجعلتُه بينكُمْ محرّمًا فلا تظّالموا" . وقال عليه السلام : "لا أحَدَ أغيرُ من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن " . وورد : "إنْ فاتنى ظُلْم ظالم فأنا الظّالم"وحَسْبُ الظالمين ربُّ العالمين الذى قال فى حقهم ﴿ ألا لعنةُ الله على الظّالمين ﴾ وقال ﴿ إنه لا يُفلِحُ الظالمون ﴾ . والباغى له مَصْرَع . ولما جاء هُولاكو ومنكوتمر وغازان وقصدوا ملوكَ الإسلام خدّامَ الحرمين الشريفين، الذين كانوا من جنسنا كما ذكرنا لك أعلاه، اتّفق لهم ما اتّفق مما هو مشروح فى التواريخ ومعلوم عند الناس، فمهما أخذه أولئك تأخُذُه إذا جئت .

وأما قولك فى كُتُبك : إنه إن لم نجهز إليك السلطانَ أحمدَ الجلايرى مقيّدا تجئ فى أوّل فصل الربيع إذا نزلت الشمسُ بُرْجَ الحمل، أو لمّا تنزل الميزان ، وإن جهّزناه إليك مقيدا، تتأكد المحبةُ والصُّحْبة بيننا وبينك ، فقد علمناه ؛ والذى نعرّفك به هو أننا كنّا نتوقّع أنك تجيء قبل هذا الوقت ، فقد أبطأت كثيرا، وملوكُ الإسلام خُدّامُ الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلَنا ما تصالحوا مع مثل هُولاكو وغيره إلا حتّى تزاوروا وتقابلوا واجتمعوا، ونحن أيضا كذلك ما نصطلح إلا بعد أن نتزاور ونتقابلَ ونجتمع . وأنت طلبت أحمد الجلايرى، وهانحنُ واصلونَ إليك به، نطلب منك أن تشفّعنا فيه، وتهبنا ذنبه الذى صدر منه، وندخُل عليك بسببه، ونسأل إحسانك أنْ تعيّن لنا موضعا نلتق معك فيه، حتّى نأتيك بأحمد الجلايرى

المذكور فيه ، ونشْفَع فيه عندك . فعيِّن لنا الموضعَ المذكورَ علىٰ حسب ماتختار : إما من ذاك الجانبِ من الفُرات، أو من هذا الجانب . وأىّ موضع عيَّنته وسمَّيته لنا جئناكَ بالمشار إليه فيه، وندخل عليك فى أمره، ونستوْهِب ذَنْبَه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذى نُعرّفُك به هو أن الرسولَ المذكور كان يكتُبُ المنازلَ منزلةً منزلةً إلىٰ بلادنا المحروسة ، واطّلَع عليه فى ذلك جماعةٌ من جهتنا ، ولما وصلَ إلىٰ الرَّحْبة المحروسة، قال للنائب بها : بُسِ الأرضَ للأمير تَيْمور واقرأ الخُطبةَ باسمه . فلو كان رسولاً مُصْلحا ما كان كتَبَ المنازل، ولا أكثرَ فُضُولَه ، وتحدّثَ بما لا ينْبَغِى له ، وتكلّمَ فيما لا يَعْنِيه، وتعدّى طَوْرَه : لأنه لاينبَغِى للرسول أنْ يكونَ إلا أعمىٰ أخرس غزيرَ العقل،ثقيلَ الرأس، كما قال بعضهم :

إذا قصَدْتَ الملوكَ فالبَسْ * من التُّقىٰ والعفافِ مَلْبَس!
أدخُلْ إذا مادخَلْتَ أعمىٰ، * واخْرجْ إذا ماخَرجْتَ أخْرس!

وكيف يُمكن نائبَنا الذى هو من جملة مماليكنا، وجُبِل لحمُه ودمُه علىٰ أنْعُمِنا وصَدَقاتِنا ،وغُذّىَ ورُبّى بلِبَان فَضْلنا وجُودنا [أن] يَبُوسَ الأرض لغيرنا، أو يخْطُبَ باسم غيرنا؟ وكيف يترك اسمَ خادم الحرمين الشريفين أستاذِه، ويذكُرُ اسمَ غيره؟ .

فقد تكرّرت منك الفِعالُ القبيحة،الموجِبةُ لما يقدِّره الله تعالىٰ؟ ونحن نُقسِم بالله تعالىٰ لولا قلت لُنغيّر تعالَ حتّى أعملَك مقدّم العساكر، ونَمْشِى علىٰ الشام ومصر، وقرّبْت مماليكَنا وآويتَهم، وبدأتَ بهذا كلّه وحصَلَ منك التعدّى، ما كان يتفِقُ لرُسُلِك ما اتّفق . ولكنّ الجزاءَ من جِنْس العمل، والخيرُ بالخير والبادِى أكرم، والشّرُّ بالشر والبادى أظلم .

وأيضا كلَّ وقت تَسأل عن ممالكنا المصونة، وكثرةِ عساكرنا المنصورة من قِلّتها . فلو كنتَ طالباً المحبةَ والصحبةَ والمصادَقة، ماوقع منك هذا .

وأما قولك إنَّ هُولا كو أخذ من كلِّ مائة رجلٍ رجلين وجاء بهم ، وأنت قد جئتَ بالرجلَيْن و بالمائة، وآعتمادُك علىٰ كثرة عَسْكرك علىٰ قولك فقد علمناه ، وإن كان آعتمادُك علىٰ كثْرة عسكرك فاعتمادُنا نحن علىٰ الله تعالىٰ وآستمدادُنا من الحرمين الشريفين، ومَدَدُنا ممّن بهما من الأنبياء، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ، والصحابةِ والصالحين رضى الله عنهم. فاذا تلاقَيْنا يكون مايقدِّره الله تعالىٰ ويُعْطِى الله النصْرَ لمن يَشَاء، وتَعلَمُ ذاك الوقتَ لمن العاقِبةُ ، ويظهرُ فعلُ الله الربِّ القادر تعالىٰ ، وعوائده الجميلةُ بنا التى لا شكَّ عندنا فيها ولا رَيْبَ ، وقطُّ ملوكُ التتار ما آنتصروا علىٰ ملوك الإسلام، بل ملوكُ الإسلام خدّامُ الحرمين الشريفين، هم المؤيَّدون المنصُورون المظفَّرون بعون الله تعالىٰ، وبِبركة سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، معوَّدُون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغنائم والفُتُوحات : لأنهم أهل الكتاب والسُّنَّة والعَدْل والخير والخَوْف من الله تعالىٰ ، لايقعُون فى محَارِمه ، ولا يُقْدِمُون علىٰ آرتكاب مايَنْهىٰ عنه، فهم المؤمنون المتَّقون . وقال الله تعالىٰ : ﴿وكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنينَ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ إنَّا لنَنْصُر رُسُلَنا والذينَ آمَنُوا ﴾ وقال : ﴿ والعاقِبَةُ للتَّقْوىٰ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ولقد كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْد الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبَادِىَ الصَّالِحُون﴾ وسوف يُنجِزُ الله تعالىٰ وعده، لأنه لايُخْلِف الميعاد .

وأما ماذكرته من أمر قرا يُوسف و بير حسن وغيرهما ، وأنَّ فى معاشهم زَغَلا، وأنهم مفسِدُون . وجعلُك لكل واحدٍ منهم ذنبا، وأنك أنتَ العادل الخيِّرُ المُفْلح ، والناس كلُّهم مناحيس وأنت الصالح؛ والله يعلم المُفْسِدَ من المُصْلح ،فقد علمناه . والذى نعرِّفك به هو أنَّ النُّور لايجتَمِع مع الظلام، ولا اليَقظةُ والمَنَام، ولا الخير والشَّرُّ فى حيزٍ واحد : لأنها متضادّة، ليس بينها آتّفاق ولا آلتئام ، وفعلُ المرء دالٌّ علىٰ نيته وطويَّته ، قال الله تعالىٰ : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ علىٰ شاكِلَته ﴾ وقال :

﴿وما يَسْتَوِى الأَعمىٰ والبَصِيرُ ولا الظُّلُماتُ ولَا النُّورُ ولا الظِّلُّ ولَا الحَرُورُ وما يَسْتَوِى الأَحْياءُ ولَا الأَمْواتُ﴾ وقال : ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقاكُم﴾ وشتَّانَ مابين أهل الخير والفَساد، وأهل العَـدْل وأهل البَغى والعِناد، فالخيِّرُ هو المتّقِى، ومن يرتكب ماحرّم الله ويعتَقِدُ أنه علىٰ الحق فهو الشَّقِى .

إذَا المَرْءُ لم يَعْرِف قَبِيحَ خَطِيئتِه * ولا الذَّنبَ منـه معْ عَظِيمِ بَلِيَّتِـهْ
فذٰلِكَ عيْنُ الجَهْلِ منه مع الخَطَا * وسـوفَ يَرَىٰ عُقْباه عِنْدَ مَنِيَّتِـه
ولَيْسَ يُجازَىٰ المرءُ إلا بِفِعْـله * وما يَرْجِعُ الصَّـيَّاد إلا بِنِيَّتِـه!

وأما قولُكَ إنَّ نُعير العرب أرسَلَ بالخُفْية يطلُب السلطانَ أحمد، وأننا نرسُم لنوّابنا أنْ يحترِزوا من توجُّهه إليه ولايُمكِّنُوه منذلك، فإنه إن اتّفق توجهه إليه يكُنْ ذلك سببا لخَرَاب الدِّيار، فقد علمناه. والذى نعرّفك به هو أننا نَحقَّق أن مايحصُلُ خرابُ الدِيار والدَّمار ومحوُ الآثار إلا لمن يسعىٰ ويتكلَّم بخراب الديار ﴿ولَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بأَهْلِهِ﴾ . وستعلَم ديارُ مَنْ تُخرَب، وعُمْرُ منْ يَذْهب، وعلىٰ من تكون دائرةُ السُّوء دائرِه، وسَطَواتُ المَنايا قاهِره؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وها نحنُ واصلون بجُيوش وجُنود وعساكر مؤيَّدة من السَّباع أسْبَع، لاتروىٰ أسْلِحَتُهم من دِماء البُغاة ولا تَشْبع، والجواب ماتَرى لا ماتَسْمَع :

قُلْ لِلَّذِى فى الوَرَىٰ أضحىٰ يعادِينَا : * احْذَرْ فأمْرُكَ رَبُّ العَرْش يكْفِينا!
مازَالَ يَمْنَحنا فَضْـلا ويَكْلَؤُنا * وفى العِـدا بعظِيمِ النَّصر يَشْفِينا!
أقامَنَا رحـمـةً للنـاس أجمعِهم، * ولم يَزَلْ من جَزِيل الجُود يُعْطِينا!
بالعِزِّ والنَّصرِ والتأيِـيـدِ عوّدَنا، * وزادَنا فى مَـدِيدِ الأرض تمكِينا!
وبالجميل وفِعْـلِ الخـيرِ وَفَّقَنا، * شُكْرًا له سِـتْرُه الأعلىٰ يغطِّينـا!

قَدْ أَسْكَنَ الرحمةَ الحُسْنَى التى أَمِنَتْ * بِهَا الأَنَامُ بأقصَى مُلْكِنا فِينَا!

فكُلَّما بالدُّعاء المُرْتَضَى نَطَقَتْ * لنا الرَّعايَا، أجابَ الكَوْنُ آمِينَا!

اللهُ حافِظُنَا، اللهُ ناصِرُنَا، * مَنْ ذا يُعانِدُنا؟ من ذا يُقاوِينَا؟

واللهُ الموفِّق بفضله العميم، والهادى إلى الصراطِ المستقيم؛ بمَنّه وكرمه، وجُوده ونعمه، إن شاء الله تعالى.

كتب فى ... ... من جمادىٰ الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة[1].

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشأم إلى الديار المصرية وخرّب هو دمشق وحرّقها، ثم انتقل عنها، وتردّدت رسله بطلب أطلمش: أحدِ أمرائه الذى كان قد أُسِر فى أيام السلطان الملك الظاهر "برقوق".

وفى هذه الحالة كان يُكتَب له فى قطع الثُّلثين، والعنوانُ بقلم جليلِ الثُّلُث بحَلِّ الذهب سطرانِ، مضمونهما «المقامُ الشريفُ العالى، الكبيرىُّ، العالِمىُّ، العادلىُّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ، المَلْجَئىُّ، المَلاذىّ، الوالِدىّ القُطْبىّ، نُصْرة الدين، مَلْجأ القاصدين، ملاذُ العائذين، قطبُ الإسلام والمسلمين، دامتْ مَعْدَلته تَيمور كوركان». والبسملة فى أوّل الوصل الرابع، والخُطبةُ جميعها بالذهب، وكذلك البَعْدِية وما يتعلّق بالمكتوب إليه على عادة القانات، والعلامةُ بجليلِ الثُّلُث بحَلِّ الذهب بالهامش ماصورته: «المشتاقُ فرجُ بن برقوق» إلا أنه آختلفَ مكانُها فى المكاتبات على ماسيأتى ذكره. إلا أن افتتاح المكاتبة إليه فى هذه الحالة كان على ضربين بحسَبِ ماآقتضاه الحالُ.

---

(١) هنا آخر ما أضيف الى الأصل من بعضهم.

الضـــرب الأوّل

(الأفتتاح بـ«أما بعد» وذلك عند أوّل عقد الصلح)

وهـذه نسخةُ مكاتبـةٍ كُتِبت إليه جواباً عمـا ورد منه بطلب أطلمش المذكور والتماسِ الصُّلح. جُهِّزت صحبةَ الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك، والأمير قانى بيه (١) صحبةَ رسوله خَواجا مسعود الكججانِيّ رسوله الوارد بكتابه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسٍ وثمـانمـائة . وعُلِّم له فيها فى الهامش بين السطرين الثانى والثالث بقلم جليل الثلث بمحَلِّ الذهب « المشـتاق فرج بن برقوق » علىٰ ما تقدّم ذكره؛ والورق قطع الثلثين وهى :

أمَّا بعد حمدِالله الذى جعل الأرواح أجنادًا مجنَّده، ووصلَ أسباب الرُّشْد والفلاح بمَنِ افتتح بابَ الإصـلاح ولم يُخلِف موْعِدَه، وكَفَلَ لمن توكَّل عليه فى أموره النجاحَ يومَه وغَدَه. والشهادةِ له بأنه الله القاهرُ فوق عباده بقدرته المؤيِّده، والصلاةِ والسلام علىٰ أشرف نبىٍّ طيَّب الله عنصُرَه ومَحْتِدَه، وأصلح ببعض نَسْلِهِ الشريف بين فئتين عظيمتين بلَغ كلٌّ منهما من الخير مَقْصِدَه . وعلىٰ آلِه الطاهرين، وذُرِّيته الظاهرين بالمصالح المُرْشِده، وأصحابه الذين كانتْ غالبُ قضاياهم صُلْحا بين النـاس ورسُلُهم بالأتِّفاق مردَّدة ومِنْ عدمِ الشِّقاق غير متردِّده؛ صلاةً وسلاماً نَصِل بهما حبْلَ البُنوّة بالأُبوّة المتجدِّده، ونُخمِد بهما نارَ الحَرْب المتوقِّده .

فقد أصدرنا هـذه المفاوضةَ إلىٰ المقام الشريف، العـالِى، الكبيرىِّ، العالمىِّ، العـادلِىِّ، المؤيَّدىِّ، المظفَّرىِّ، المَلْجَئِىِّ، المَلاذىِّ، الوالِدىِّ، القُطْبىِّ، نُصْرة الدين، مَلْجإ القاصدين، ملاذِ العائذين، قُطْب الإسلام والمسلمين، تَيْمُوركوركان، دامتْ مَعْدلتُه . تُهْدِى إليه سلاما تُتْلىٰ سُوَره وآياتُه، وثناءً تتوالىٰ غَدَواته ورَوْحاته

(١) سيأتى قريبا قانى باى الخاصكى .

ولا تتناهىٰ غاياتُه ، وتبدى لشريف علمه أنَّ مفاوَضَته العالية [التى] وردَتْ أوّلا وآخِرا ، تضمنت رموزُها باطنا وظاهرا ، تجهيزَ الأمير أطلمش لزَم المقام الشريف إلىٰ حضرته العليَّـــة : لتنحسِمَ مادّةُ الحركات ، وتسكُنَ القلوب والخواطرُ فى سائر الجهات ، وتتَّحِدَ المملكتان فى الصَّـداقة والوفاء ، والمحبّة والصَّفَاء ، علىٰ الصُّورة التى شَرَحها ، وبيَّن مَنَاهجها ووَضَّحها ، خصوصا ماأشار إليه من أنَّ لجواب الكتَاب حقًّا لايَضيع ، فوقَفْنا عليها وُقوفَ إجلال ، وفَهِمْنا ما تضمَّنته علىٰ التفصيل والإجمال .

والذى نُبْديه إلىٰ علومه الشريفــة أنَّ ســبب تأخير أطلمش أنه لَمَّا قدِم المقام الشريف إلىٰ حدود الممــالك الشاميَّة ، وتوجَّهْنا من الديار المصريه ، عرض لنـا ما أوجب العَوْدَ إليها سريعا ، وكان الحزمُ فيا فعلناه بمشيئة الله تعالىٰ . ثم تحقَّقْنا من المفاوضة الواردةِ علىٰ يد سُودُون ، وسودون (؟) والتمر ، والحاج يبسق أحد أمراء أخوريه ، قَسَمَه بالله الطالب الغالب ، المُدْرِكِ المُهْلِك ، الحىّ الذى لاينام ولايموتُ أنه إن جُهِّز إليه أطلمش المشارُ إليه ، رجع المقام الشريف إلىٰ بلاده ، وأنه متوقِّع حُضُوره إليه بقَارَةَ ، أو سَلَمْيَةَ ، أو حِمْصَ ، أو حماةَ . فأخذْنا فى تجهيزه إلىٰ حضرته الشريفةِ علىٰ أجمل مايكُون .

فبينَا نحنُ علىٰ ذلك إذ وردَتْ علينا الأخبارُ بما آتفق لدِمَشْقَ وأهلها : من أنواع العذابِ وتَخْريب قَلْعتها ودِيارها ، وإحراقِ جامعها الذى هو الجامعُ الفَرْد فى الممالك الإسلاميَّة ، وغيرِه من المساجد والمَدَارس والمَعَاهد والمَعابد . فلمَّا تواترتْ هذه الأخبارُ ، وتحقَّقتْ هذه المَضَارّ ، لمحنا من عدم ترحُّلكم عن دِمَشْق وهى عامرةٌ نقْضَ ما تقرّر ، وعدم آلتفاتِكم إلىٰ الأمير أطلمش المذكور وتجهيزه . فلما وردتْ مفاوضتُه الشريفةُ المجهَّزةُ إلىٰ صاحب مارِدِين ، أرسلها إلينا [وهى] الواصلةُ علىٰ يد المجلِس السامىّ ، الشيخىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمىّ ، الناسكىّ ، الحَسِيبىّ ، النَّسيبىّ ، الشَّرفىّ ، عبدِ المؤمن ، شيخ

الجبال، ٱبن وليّ[١] الله، إمام العارفين، عبد القادر الكِيلانى، أعاد الله تعالىٰ من بركاته. والصَّـدرِ الأجلّ فخر الدِّين التـاجر السَّفّار، المؤرّخةُ بثانى عشر ذى القَعْدة الحرام من سـنة أربع وثمـانِمائة، المتضمِّنةُ وصولَ المقـام الشريف إلىٰ أَرْزَنْكان وكَماخ قاصدًا للبلاد الرُّومية، والقصدُ فيها تجهيزُ الأمير أطلمش وأن يُفْتَح بابُ المصالحه، ويُسْلَكَ طريق المصادَقَة، رعايةً لصَلاح المملكتين، ونظرًا إلىٰ إصلاح ذاتِ البَيْن؛ وأنّه لامَطْمَعَ إلا فى صحة المودّة، وإرسال أطلمش صحبةَ شخص من مقرّبى حضْرتنا الشريفة: لينظر ما يصـدُر بعد وُصُولهما من تمهيد قواعد المجاملة، وتشييد مبـانى المحبة. وأنَّ المقـام الشريـف ـ زِيدتْ عظمتُهُ ـ أقسمَ بالله الّذى هو فى السَّماء إلٰهٌ وفى الأرض إلٰهٌ، أن يكون فى هذه الحياةِ محبًّا لمن يُحِبُّنا، مُبْغضا لمن يُبْغِضنا، وأنّا نتلقَّظ بحضور الأمير أطلمش كما تلفَّظتم. فعند ذلك ٱجتمَعْنا مع مولانا أميرِ المؤمنين، المتوكل علىٰ الله، أدام الله تعالىٰ أيّامه، والشيخِ الإمامِ الفرد، شيخ الإسلام سراج المِلّة والدِّين عمر البُلْقِينى ـ أعاد الله تعالىٰ من بركته ـ وقُضاة القضاة ومشايخ العِلْم والصَّـلاح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرِئتِ المفاوضـةُ بحضورهم. فلمـا سمِعُوا ما تضمَّنَتْه من عظيم القَسَم، والحَلِف ببـارئ النَّسَم، وعلموا أنَّ جُلَّ القَصْد فيها تطلُّعُ المقـام الشريـف إلىٰ تجهـيز الأمير أطلمش المذكور، فٱجتمعتِ الآراءُ علىٰ إرساله إلىٰ حضرته الشريفة صحبةَ من ٱقتضَتْه الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك المفاوضةُ من المقام الشريف ـ زِيدت عظمتُه ـ علىٰ يدِ شخص من أهل أَزْمِـيرَ ـ مؤرَّخةً بثانى عَشر شهر صفر المبارك سـنة تاريخه، متضمِّنةً ما حصل من النصر على ٱبن عُثْمان، والظَّفَر به، والٱستيلاء علىٰ غالب قلاعه. وزُبْدةُ الكلام فيها الإسراعُ بتجهيز أطلمش المذكور، ليجتمع شَمْلُه بأولاده بالحضْرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

---

(١) يريد أنه من ذريته لأن عبد القادر توفى سنة ٥٦١ .

علينا مفاوضةٌ شريفةٌ علىٰ يد المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الكبيرىّ ، الأوحدىّ ، العارفىّ ، السالكىّ ، المقربىّ ، مسعود الكججانىّ ، رسول المقام الشريف . وصحبته المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الإمامىّ ، القُدْوىّ ، الشَّمْسِىّ ، شيخ القُرَّاء ، إمام أئمة الكُبَراء ، محمد بن الجزرىّ أدام الله النفع به . مؤرّخةٌ بغرّة ربيع الأوّل سنة تاريخه ، متضمنة معنى الكائين المجهّزين من ماردين وأزمير . وجُلُّ القصد فيها تجهيزُ الأمير أطلمش لتحصل طُمَأْنينة قلوب العالمين ، وإخمادُ باب الفِتَن ، وأنّ العمدة علىٰ المشافهةِ التى تحمَّلها الخَوَاجا نِظامُ الدين مسعودٌ المشار إليه ، وأن قولَه قولُ المقام الشريف . ومهما عَقَد الصلح عليه والتزم به ، كان من رأى[1] المقام الشريف وشوره ، لا يخرُج عنه ولا يميل إلىٰ غيره بقول ولا فعل . فلما أحضَرْناه وأصْغَينا إلىٰ ما تحمَّله من المشافَهة ، فإذا هى مشتملةٌ علىٰ خالص المحبَّة ، وأن يكون المقامُ الشريف والدنا عوضًا عمن قدّس الله تُربه ، وأن نُجهز الأميرَ أطلمش إليه ، وتكون عمدتُنا بعدَ الله عز وجلّ عليه ، فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار ، ومَحَونا آيةَ ليل الجَفَاء ، وأثبتْنا آية نهار الوَفَاء ، فى الإعلان والإسرار ، وقبلْنا أبوّتَه الكريمةَ علىٰ مدىٰ الأزمان وتَوَالِى الأعصار ، وشاهَدَ الخواجا مسعودٌ حال أطلمش ، وعلم اهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمُدّةٍ اعتمادا علىٰ ألِيّته السابقه ، ووثُوقا بما صَرح به من الاتّحاد والمصادقَه ، وعقَدْنا الصُّلْح مع الشيخ نظامِ الدين مسعودٍ المذكور بطريق الوَكالة الشرعية عن المَقام الشريف ، وحَلَفْنا نظير ما حَلَف عليه ، بموافقة مولانا أمير المؤمنين ـ أدام الله أيامه ـ علىٰ ذلك بمحضَر من شيخ الإسلام ، وقضاة القضاة ، ومشايخ العِلْم والصَّلاح ، وأركانِ الدولة الكِبَار ، مع حضور الأمير أطلمش ، لَزَم المقام الشريف ، وشهادةِ من يَضَعُ خطه علىٰ نُسَخ الصُّلْح التى

(١) كذا فى الأصل وهى عامية لا أصل لها فى اللغة بالمعنى المراد له اذ مراده المشورة كما لا يخفى .

كتبت ، وجهَّزنا منها نسختين مثْبوتَتَيْن إلىٰ حضرته الشريفة قرينَ هـذا الجواب الشريف ، لتُحيط العلومُ الشريفـة بمضمونِهما ، و بأحدهما خطُّنا الشريف لتخلَّد بخزانته الشريفة ، والأُخرىٰ يشمَلُها بخطه الشريف وتُعادُ إلينا صحبةَ رسولنا : المجلس العـالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهِدىّ ، المؤيِّدىّ ، المقرَّبىّ ، الأعَزّىّ ، الأخَصّىّ ، الأصيلىّ ، الشّهابىّ ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقرَّبِنـا ومقرَّبِ والدنا الشهيد ـ أدام الله تعـالىٰ نعمته ـ وجهَّزنا صحبتَه المجلسَ الساميَ ، الأميرَ ، الأجلَّ ، الكبيرَ ، المقرَّبَ ، المرتضىٰ ، الأخصَّ ، الأكمَل ، سيفَ الدين ، قانى باى الخاصِكىّ الناصرىّ ، أدام الله سعادته ، المتوجهَيْنِ بهـذا الجواب الشريف ، المجهَّزين صحبة الأمير أطلمش ، وبقية قُصَّاد المقام الشريف ورُسُله .

ومـا نبديه لعلومه الشريفـة أنه ممـا تضمنه الملخَّص الشريف المجهز عطفَ الكتاب الواصل علىٰ يد الشيخ مسعود الكججانى مضاعفةُ الوصـية بأولاد الشـيخ شمس الدين الجَزَرىّ ورعايةِ أحوالهم وتعلُّقاتهـم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقَبول وقرَّرنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله ـ وكفىٰ به شَهيدا ـ قد أخلَصنا النيـة للمقـام الشريف ، وعاهدْنا الله عز وجلَّ فى التعاضــد والتناصُرِ والاجتهاد ، فى عمل المَصَالح للعباد والبلاد ، وعدم التَّقاصُر والعمل بمـا فيه بياضُ الوجه عِنْد الله فى الدنيا والآخرة ، وإجراءُ الأمور علىٰ السَّداد . بتوفيق الله عز وجلَّ ، وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم آستقبل لسان الحال يُنْشِدنا :

* يا أوّلَ الصَّفْوِ هٰذا آخِرُ الكَدَرِ *

فيكون ذلك فى علومه الشريفة ، والله تعالىٰ يُديم عوارفَه الوَرِيفه ، بمنّه وكرمه .

والمستند «حسَبَ المرسومِ الشريف» .

الضـــرب الثـانى

(ما صار إليه الأمر بعد وُصُول أطلمش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوانُ سطران بقَلَم الثلُثِ بماء الذهَب ماصورتُه :

«المقامُ الشريفُ، العالى، الكبيرىُّ ، العالمىُّ، العادلىّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ، الملجئىّ، المَلاَذىّ، الوالِدِىّ، القُطْبىّ، نُصْرةُ الدين، ملجأُ القاصدين ، مَلاَذُ العائذِين، قطبُ الإسلام والمسلمين؛ تَيْمُوركوركان ـ زيدت عظمته ـ .

والطرَّةُ ثلاثة أوصال، والبسملةُ الشريفة فى أوّل الوصل الرابع . ثم «الحمدُ لله» وتتمة الخُطْبــة بالذَّهب، وبيت العلامة عرضُ أربعــة أصابع مضمومةً، وما يليها من الأسطر سعةُ ثلاثةِ أصابع ، والعلامةُ الشريفة بين السطر العاشر والحادى عَشَر من سطور الكتابة ، موافقا لانتهاء الخطبة عند « أما بعــد فقد صدرت هــذه المفاوضةُ» .والعلامة الشريفة بجليل الثلُث بماء الذهب «المشتاقُ فرج بن برقوق» . وهامش الكتاب أربعةُ أصابع مطبوقةً ، والخطبة وما يليها من البَعْدية وألقاب المقام القُطْبى المركبة والمفردة الجميعُ بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمدُ لله الذى شيَّد قواعدَ الإصلاح، ومهَّد مواطنَ الرُّشد والنَّجاح؛ وجعل أذانَ المؤمن يُجيب داعىَ الفَلاح .

نحمَـدُه على أنْ ألَّف بين القلوب بلطيف الارْتيـاح ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له إلهٌ زمَّ نفوسَ المؤمنين بحبْـل التقوىٰ من حَمِيَّة الجمَـاح؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى وَضَح من نُور رسالته فجْرُ الإيمـان ولاح ، ونَفح

من نوّر معجزاته زَهَرُ الدين الحنيفىّ وفاح ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله الذين شدُّوا ظهورَ كلمهم من الصِّدْق بأتقن وِشاح ، وعلى صحابته الذين بينوا من عُهودهم(؟) بفقهِهم فى الدين الواجبَ والمندوبَ والمحظورَ والمُباح ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فقد صدرَتْ هذه المفاوضةُ إلى المقام الشريف ، العالى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيَّدى ، المظفَّرى ، الملجئى ، المَلاذى ، الوالدى ، القُطْبى ، نُصْرة الدين ، ملجإ القاصدين ، ملاذِ العائذين ، قطبِ الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يفوقُ الخلقَ طُرًّا هَيْبةً * فيـه نهايةُ غايةِ التأميـل !

تيموركوركان — زيدَتْ عظمتُه ، ودامتْ معدِلَتُـه ، ولا زالتْ راياتُ نَصْره خافقةَ البُنود ، وآياتُ فضله متلوّةً فى التهائم والنُّجود ، وسُحُبُ فضائله هاميةً بالكرم والجُود ، ومَهـابةُ سـطوته تملأُ الوُجُود — تُهْدِى إليـه من السلام ماحَلا فى حالتى الصُّـدُور والورُود ، ومن الإخلاص ما صَفَا وصَفَتْ منه البُرود .

وتبـدِى لعلمه الشريف أن مفاوضـته الشريفة وردَتْ علينا جواباً عمـا كتبناه إلى حضرته الشريفة ، على يد المجلس العـالى الأميرىّ الشهابى ، أحمـد بن غلبك وسَـيْف الدين ، قانى بيه النـاصرى ، المجهَّزين صحبةَ المجلس العـالى ، الأميرىّ ، الجلالىّ أطلمش ، لَزَم المقـام الشريف ، بوصول الأمير جلال الدين أطلمش إلى حضرته الشريفة طيِّبًا ، مبدِيًا بين يديه ماحمَّلناه من رسائل الأشواق ، مبيِّناً ماهو اللائق بخِلاله الحسـنة عن حضرتنـا مادبِّج به الأوراق ، شاكرًا لإنعاماتنا التى هى فى الحقيقة من شِيَم فضلكم الخفَّاق ، مثبِتاً منه ومن فَحْوى الخطاب فى نَظْم الكتاب صدقَ المَقال وصحَّةَ العهد ورسُوخَ الميثاق ، وأنه قد ثبَتَ بما بَثَّ من غرائب المَعانى حصولُ الأمانىّ ، وسَرى بعدُ مايكون من هَدَايا التَّهانى ، وأن الذى اتفق الآنَ هو

المطلوب ، والمكتوبَ به إلى والدنا الشهيد الطاهر أوّلا هو المرغوب، وخلافُه كان موجِبًا لنقل الحركات الشريفة إلى جِهَة البلاد، وما آتفق فيـه للعِباد، ولكن كلٌّ بقضاء وقَدَر . ولمـا حصل قبولُ الإشارة بتجهيز الرُّسُل والأمير أطلمش ، صارت القلوب متفِقه ، والعُيونُ قارّة، وصفَتْ مواردُ الصَّفاء ، وصَفَتْ بُرود الوفاء، وقُطعت حبالُ المنافاة والجَفاء. وأنّ المقام الشريف كان أقسَمَ فى كتبه قَسَمًا وأعاده، ثم فصَّـلَ مجملَه وأفاده ؛ وهو ـ واللهِ الطالب الغالبِ، المدرِكُ المهلِك، الحيّ الذى لا ينـام ولا يموت ـ من يومه هذا لا يخالِفُ ماصـدر من عقد الصُّلْح المسطور ، ولا يرجع عن حُكْمِه للعهد المزبُور ؛ ويُحبُّ من يُحِبُّنا ويُبْغِض من يُبْغِضنا؛ ويكون سِلْما لمسالمينا، حَرْبا لمحاربينا، ومتى آستنصَرْنا به على أحد من مخالفينا أمدّنَا بما شئنا من العساكر ، وانه أمْرٌ مانالَه أحد من الناس غيرَنا ، وإنه لوكان القَسَم على الوجه الذى ذكره مصرَّحا مذكورا فى لفظ الكتاب ، وعبـارة الخطاب ؛ لكان أوضَحَ ، والتبيينُ أملَح ، وأنه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورةِ لممالكنا أحدٌ من المفسدين يجهِّزه إلينا مقيَّدا . وحيث كان أحدٌ من المفســدين بممالِكنا المجاورةِ لممالكه يعرّفنا به لنجهِّزه إليه : لآتفاق الكلمتين ، وآتحاد المملكتيــن ، وطمأنينةً لقلوب الرعايا والسالِكينَ من الجهتين؛ وما تفضَّل به : من سؤال المقـام الشريف اللهَ عزَّ وجل زيادةَ أسـبابِ دولتنا ، ونُمُوَّ إيالتنا ؛ وأنَّ الهلالَ إذا رأيت نموَّه ، أيقنْتَ أن سيصير بَدْرا كاملا . وأنَّا سنرى ما يصنعُه المقام الشريف ، من الفضل المنيف ؛ ومن تَلَافِى الأمور ، مايظهر للخاصَّة والجُمْهور ، مما يَزِيدُ بدْرَنا نُمُوّا، وقَدْرنا بين المُلُوك سُمُوّا : لأنه لنـا أكفَى كفيل ، وأشفَقُ من الوالدِ والصاحبِ والخَليل ؛ وإن من علامة الصفا، إظهار ماخفى: وهو أن فى أطراف ممـالكنا الآنَ بلادًا كانتْ داخلةً فى ممالكه، وهى أبُلُسْــتَينُ ، ومَلَطْيَةُ ، وكَرْكَرُ ، وكَخْتَا ، وقلْعة الرُّوم، والْبِيرةُ، وأنه

كان حُمِل معناها على لسان المجلس السامى، النظامى، مسعود الكججانى أولا، المجهَّز الآنَ صحبةَ الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه ، وأن القصد أن نأمرَ مَنْ بها من النوّاب أن تسلِّمها لنوابه، والمعوّل فى آنتظام الأمور على ماتحمَّله المشارُ إليه وعوّل عليه، وأنه شاكرٌ لمرافقتنا، موافِقٌ لمُوافِقنا، وأنه يصغى إلى ماتُبْديه، ونُتحف به ونُهديه، على الصورة التى أبداها، والتحيّة التى بكريم الشِّيَم أهداها، فقد علِمْنا ذلك جملةً وتفصيلا ، وشكَرْنا حسنَ صنيعه إقامةً ورحيلا ، وتضاعفَ سُرورُنا بوصول الأمير أطلمش إلى الحضرة الشريفة . ووصل إلينا الأميرُ شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه مرتِّلَيْنِ من ذكر محاسنكم ترتيلا ، وعرَضَا ماتفضلتم به فى حقّنا إكراما وتوْقيرا وتَبجيلا، وأنهيَا بين أيدينا ماعُومِلا به من الفضل الذى ماعليه مَزِيد، والبِرّ الذى تَعجِز الفصحاء أن تُبْدِئَ بعض محَاسنه أو تُعِيد، وأنهما كانَا كلَّ يوم من توفُّر الفضل فى يوم عِيد، وحصَلَ لهما من الإقبال مالا يُحصَى بالحصر والتحديد، فحمِدنا للمقام الشريف الوالدىّ حُسنَ هذا الفَضْل العام، وشكَرْنا جميلَ تفضُّله الذى أخجل الغَمَام، وتزايد شوقُنا وحبُّنا حيثُ زُمْزِمتْ ألفاظُ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام .

لَيْس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ ⁂ أنْ يجمَعَ العالَمَ فى واحِد!

وهذا هو اللائق بالخِلال الشريفه ، والمؤمَّل فى جلال صفاته المُنيفه ، ووصل الخواجا نظامُ الدين صحبتهما مبدياً عن جنابكم من رسائل المحبّة والصَّفاء، والموَدّة والوفاء، مايَعْجِز عن وَصْفه الناظِمُ والناثِر، مُظْهِرا من حُسْن المودّة وغزير المعرفة مايَفْخَرُ به المُوالِى والمؤازِر، سالكًا من تأكيد أسباب الصُّلْح ماتجمَّل به مفَارِقُ المفاخر، معتذرًا عما تقدّم فما قُدّر رُبّما يكون سبباً لإصلاح الآخِر، متكفِّلا عن صفاء طويّتكم لنا بما يَسُرّ السرائر . فضاعفْنا إكرامَه، ورادَفْنا إنعامه، ووفَّرنا من العزّ

أقسامه، وأنزلناه منزلا يليق به، ووصلنا كلَّ خيرٍ بسَببه ؛ وما هو إلا مستحقٌّ لكل ما يُراد به من فيض فَضل وفَضْل .

وأمّا ما أشار إليه من إعادة القسم تأكيدًا للصُّلح، وتوضيحا للنُّجح ؛ ولو كان القسم الذى أقسمنا به مصرّحا لكان أولى ، فقد علمنا ذلك وكتبنا ألفاظ القسم فى كتاب الصُّلح مصرَّحةً، وأعدناه إلى حضرته ليُقْرأ على مسامعه الشريفة، ويَشْمَله الخط الشريف ويُعادَ إلينا، ونحن نكرّر القسم، بباريء النَّسم ؛ الذى لا إله إلا هو، الطالبُ الغالب، المدركُ المهلِك، الحيّ الذى لاينام ولا يموت، أنّا من يومنا هذا لانُخالف ما انتظم من عَقْد الصُّلح المسطور، إلى يوم البعْث والنُّشور، ولا نُحلّ عُراه الوثيقةُ المشارُ إليها ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها ؛ ونكونُ حَرْبا لمن حاربه، وسِلْما لمَنْ سالمه ؛ ومُبْغضين لمُبغضيه، ومحبّين لمحبّيه ؛ ومَنْ أشارَ بإشاره، أو شنّ على أحد من [رعاياه] غارَه، رادَفْنا إسعافَه وضاعَفْنا استِظْهاره ؛ وأخلصْنا القولَ والعمل فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بحمد الله قد تمّ وكَمَل، فيكون ذلك فى شريف علمه .

وأمّا ما أشار إليه من أمر القُرىٰ التى قصد تسليمَها لنُوّابه، وأنّها داخلةٌ فى حدود مملكته : كأُبلُسْتَين، ومَلَطْية، وكَرْكَر، وبَهَسْنا، وقَلْعة الرُّوم، والبِيرة، فقد علمنا ذلك . ونحن نُبْدى إلى علومه الشريفة أنّ هذه البلادَ لايحصُل لنا منها خَراج، ولا ينالُ مُلكَنا ونُوّابَنا منها فى كلّ وقتٍ إلا الانْزِعاج ؛ وإذا جهّزنا إليها أحدًا من النُّوّاب، نتكفّل له غالبًا بالخيل والرَّجْل والرّكاب ؛ وبضواحيها من سُرّاق التُّرْكُمان، وقُطّاع الطريق من العُرْبان ؛ مالا يَخفىٰ عن مقامه . ولو كانَتْ دِمَشْقُ أو حَلَبُ، أو أكبر من ذلك مماله(؟) عن الطَّلَب، ماتوقّفنا فيها عن قَبُول إشارته لتأكيد المحبّه، واتّحاد الكلمتين من الجانبين فى أعلىٰ رُتْبه ؛ غير أنّ لتسليمها من الوَهْن لمَمْلكتنا منافاةً لما

تفضَّل به المقامُ الشريف من سُؤال الله تعالىٰ فى زيادة سَلْطنتنا. خصوصًا وقد وعَدَ المقامُ الشريفُ الوالدىُّ بما سنرىٰ، وسوف تظهر نتيجتُه مما يتفضَّل به بين الورىٰ؛ وأنَّ الذى سمح لنا به من الاستظهار مانالَه أحدٌ من النـاس، وما حصل لنا بمـا أبداه الخواجا مسـعود بين أمراءِ دولتنـا من المشافهَة عن مقامه الشريف من قوة الجاش والإيناس، ونحن نترقَّب يُمْن حَرَكاته، وسديد إشاراته؛ زيادةَ الخـير فى النَّفس والمُلْك والمال، ونتوقَّع من جميل كَفَالته السعادةَ الأبديَّةَ فى الحال والمآل؛ فيكونُ ذلك فى شريف علمه.

وقد جهَّزنا بهـذه المفاوضة المجلسَ العـالىَ، الأميرىَّ، الكبيرىَّ، الأعزىَّ، الأخَصّىَّ، المقرَّبىَّ، المؤتمَنىَّ، الأوحدىَّ، النَّصيرىَّ، مجدَ الإسلام والمسلمين، شرفَ الأمراء الخواصّ فى العالمين، منتخَبَ الملوك والسـلاطين، منكلى بُغَا النـاصرى أمير حاجب، أدام الله تعـالى سعدَه، وأنجح قصْـدَه، وعلى يده من الهـديَّة المصرية ماتهيَّأ تجهـيزُه بمقتضىٰ القـائمة الملْصَقة بذَيْلهـا، وأعدنا المجلسَ العـالى النظامىَّ: مسعودًا ومَنْ معـه إلىٰ المقـام الشريف، متحمِّلين من رسائل الأشواق والاتِّحاد، مالا يقع عليـه الحصرُ والتَّعداد، وماأخرنا الخواجَا نظامَ الدين مسعودا هـذه المدّةَ بالباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضيَّة السلطان أحمد بن أويس، وهربِه من بغـدادَ إلى حَلَب، وجهَّزنا من البـاب الشريف من يُحْضِره إلىٰ دمشق ليَحْصُلَ منه الأرب، ثم بعـدَ ذلك بأيام ورد الخبرُ من كافِل الشام المحروس، بوصول قَرَا يوسُفَ بن قَرَا محمد إلىٰ دِمَشْـق فى نَفَر قليل. فجهَّزنا أحدَ الأمراء إلىٰ كافل الشام بمثالٍ شريف، يتضمَّن القبض علىٰ السـلطان أحمدَ بن أويس وقَرَا يوسفَ المذكورين، وإيداعَهُما الاعتقالَ بقلعة دمشْقَ المحروسة، وفاءً

للعهد وتأكيدًا . وحمّلنا الأمير سيف الدين منكلى بغا المذكور، مشافهةً فى معناهما. والقصدُ من جميل محبّته، وجزيل أُبُوّته، قبولُ المجهزّ من ذلك، وبسطُ العذر فيه إذا وصل إلىٰ حضرته هنالك : لأن الديارَ المصرية وأعمالهَا حلَّ بها من المَحْل لعدم طلوع النّيل فى هذه السنة مالايُحْصَر ولايحصىٰ، ولاسُمِع بمثله . وشمولُ نسخةِ الصلح المعادة بالخط الشريف، ومضاعفةُ إكرام حاملها الأمير منكلى بغا بالبِرِّ الوَرِيف، والإصغاءُ إلىٰ ماتحمّله من المشافهَة فى معنىٰ أحمد بن أَوَيْس وقَرا يوسف، والله تعالىٰ يشيِّد بتمهيدهِ قواعدَ الدين الحنيف، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الثالث

(من مُلُوك تُورَانَ من بنى جنكزخان القانُ الكبير، صاحب التَّخت، وهو صاحب الصِّين والخِطَا)

قال فى "التعريف": وهو أكبرُ الثلاثة، ووارثُ تَخت جنكزخان . قال : ولم يكُنْ يكاتَبُ لترفُّعِه وإبائه، وطَيَرانه بسُمعة آبائِه، ثم تواتَرتِ [الآن] الأخبارُ بأنه قدأسْلَمَ ودانَ دِينَ الإسلام، ورقَم كلمةَ التوحيد علىٰ ذَوائب الأعْلام . قال : وإن صَحّ ذلك ـ وهو المؤمّل ـ فقد ملأتِ الأمةُ المحمدية الخافقين، وعَمّت المشرقَ والمغربَ، وآمتدّت بين صَفْقَى المحيط . ثم قال : فإنْ صَحّ إسلامه وقُدّرت المكاتبةُ إليه، تكون المكاتبة إليه كالمكاتبة إلىٰ صاحبِ إيرانَ ومَنْ فى معناه من سائر القانات المقدّم ذكرهم، أو أجلّ من ذلك .

قلت : ولم يتعرض إلى المكاتبة إليه على تقدير بقائه على الكفر، ويشبه أن تكون المكاتبة إليه على ذلك[١] وشدة سطوته، فيعطى من قطع الورق بقدر رتبته . ثم يجوز أن تبتدأ المكاتبـةُ إليه كصاحب القسطنطينية ومن فى معناه، مع مراعاة معتقده فى ديانته بالنسبة إلى [٢] كما يُرعى مثلُ ذلك فى المكاتبة إلى ملوك النصرانية، والوقوف فى الخطاب وما ينخرط فى سلكه عنـد الحد اللائق به . والأمرُ فى ذلك موكولٌ إلى اجتهاد الكاتب ونظره .

المهيـــع الثالث

(فى المكاتبات إلى من بجزيرة العرب مما هو خارجٌ عن مضافات الديار المصرية، وفيـه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى المكاتبات إلى ملوك اليمن، وهم فرقتان)

الفـــرقة الأولى

(أئمـة الزيدية)

قال المقر الشهابى بن فضـل الله فى "التعريف" : وهو من بقايا الحسنيين القائمين بآمل الشط من بلاد طبرستان، وقد كان سلفهم جاذب الدولة العباسية حتى كاد يطيح رداءها، ويشمت بهـا أعداءها . وهـذه البقية الآن بصنعاء وبلاد حضرموت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآن فيهـم فى بنى المطهر، وتقدم فى المقـالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أن أول من قام من هذه الأئمة باليمن الإمامُ (يحيى الهـادى) بن الحسين الزاهد، بن أبى محمد القاسم الرسى،

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله النعوت والألقاب كما يعلم مما تقدم .

ٱبن إبراهيم طَبَاطَبـا ، بن إسماعيل الدِّيباج ، بن إبراهيم الغَمْر[(١)] ، بن الحسن المثنّى ، ٱبن الحسن السِّبط ، ٱبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى سنة ثمان وثمانين ومائتين فى خلافة [المعتَضِد[(٢)]] ، وأنه كان فقيها عالما مجتهدا فى الأحكام ، حتّى قال فيـه ٱبن حزم : إنه لم يبْعُد عن الجماعة فى الفقه كلَّ البُعْـد . ثم [ولى بعـده ٱبْنُه محمد المرتضىٰ وتمّت له البيعةُ فاضـطرب الناس عليه وٱضطُرَّ إلىٰ تجريد السيف بمفرده ومات سـنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سـنة من ولايته و[(٣)]] ولى بعده أخوه (أحمدُ الناصر) ثم أخوه (القاسمُ المختار[(٤)]) ثم (الحُسَين المنتَجَب) . وٱطّرد أمرهم بصنعاءَ إلى أن غلب عليهم السُّليمانيُّون أمراءُ مكة عند خُروجهم منها ، فاستقرّت بأيديهم إلى أنْ ملك اليَمَن من جهة الساحل (أحمدُ المُوطِّئُ) ٱبن الحسين المنتجَب المقدّم ذكره ، وذلك فى أيام سيف الإسلام ٱبن أيوبَ سنة خمس وأربعين وستمائة . وبقى أمر الزيديّة هناك فى عَقِبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله أن الإمامة فى زمانه ، فى الدولة الناصرية ٱبن قلاوون كانت فى (حَمْزة) وذكر فى "مسالك الأبصار" أنّ يحيىٰ بنَ حمزة وُلِّى بعد أبيه ، وكان فى زمن المؤيَّد داود بن يوسف صـاحب اليمن . وذكر قاضى القضاة ٱبن خَلْدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعمائة كان (علىَّ بنَ محمد) من أعقابهم ، وتُوُفِّى قبل الثمانين . وولى ٱبنـه (صَلَاح) وتابعه الزيدية ، وكان بعضهم يُنكِر إمامتَه لعدم

---

(١) ذكره فيما تقدم فى ج ٥ ص ٤٧ "عبد الله" . وقد نبهنا هناك نقلا عن "الكامل لابن الأثير" أنه إبراهيم كما هنا ، فليتنبه .

(٢) فى الاصل المأمون وهو خطأ فان المأمون توفى سـنة ٢١٨ وقد تقدم الكلام على هـذه الدولة فى ج ٥ ص ٤٧ وما يليها فارجع اليه .

(٣) الزيادة من جزء ٥ ص ٤٨ وهى لازمة لأن أحمد الناصر ٱبن يحيي الزاهد لا أخوه .

(٤) أخره فيما تقدم عما بعده .

آستكمال الشروط فيه فيقول : " أنا لكم ماشئتم إمام أو سلطان " . ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده آبنه (نجاح) فامتنع الزيديّة من بيعته فقال : أنا "محتسبٌ لله تعالىٰ". قال فى "التعريف" : وأمراءُ مكة تُسِرُّ طاعته، ولا تفارق جماعتـه . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرَّسُولىّ باليمن مهادَنات، ومفَاتَحات تارةً وتارةً . قال : وهذا الإمام وكلُّ من كان قبله علىٰ طريقة ماغيَّروها. وهى إمارة أعرابية لا كِبْرَ فى صدورها، ولا شَمَم فى عَرَانينها، وهم علىٰ مُسْكة من التقوىٰ، وترَدٍّ بشِعار الزُّهْد، يجلس فى نَدِىِّ قومه كواحدٍ منهم، ويتحدّث فيهم ويحكم بينهم، سواءٌ عنده المشروفُ والشريف، والقوىُّ والضعيف، وربما آشترىٰ سِلْعته بيـده، ومشىٰ فى أسواق بلَدِه، لايُغْلَق الحجَاب ، ولا يكِلُ الأمورَ إلىٰ الوزراء والحُجّاب، يأخذُ من بيت المـال قدرَبُلْغَته من غير توسُّع ، ولا تكثُّرِ غيرِ مُشْبِع؛ هكذا هو وكل مَنْ سلَف قبله مع عَدْلٍ شاملٍ، وفَضْلٍ كامل . قال : فى "مسالك الأبصار" : ولشيعة هذا الإمام فيه حُسْن الآعتقاد، حتّى إنهم يستشفُون بدعائه، ويُمِرُّون يده علىٰ مَرْضاهم، ويستَسْقُون به المطرَ إذا أجْدَبوا، ويبالغُون فى ذلك كلَّ المبالَغة . ثم قال : ولا يَكْبر لإمام هـذه سيرتُه ــ فى التواضُع لله ، وحُسْن المعاملة لخَلْقه ، وهو من ذلك الأصْل الطاهر والعُنْصر الطَّيِّب ــ أنْ يُجاب دعاؤُه ويُتقبَّل منه . قال : وزِىّ هذا الإمام وأتباعِه زِىُّ العرب فى لِباسهم والعمامةِ والحَنَك، ويُنادىٰ عندهم بالأذان «حىَّ علىٰ خير العَمَل» .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" : أدام الله تعالىٰ أو ضاعف الله تعالىٰ نعمةَ ، أو جلَالَ الجانبِ الكريم ، العالى ، السيِّدىّ، الإمامىّ، الشريفىّ، النَّسيبىّ، الحَسيبىّ، العَلّامىّ، سليلِ الأطهار، جَلالِ الإسلام، شرفِ الأنَام، بقيّةِ البيت النبوىّ، فخرِ النَّسب العَلَوىّ، مؤيِّد أمور الدِّين، خليفةِ الأئمة، رأْس العلَماء،

صالح الأولياء، علَم الهُداة، زعيم المؤمنين، ذُخر المسلمين، مُنجِد الملوك والسلاطين. ولا زال زمانُه مُربِعا، وغيلُه مُسبِعا، وقِراه مُشبِعا، وكرمُه لفيض نَداه منبَعا، وهُداه حيثُ أمَّ بالصُّفوف متَبعا، ومُلكه المجتمع باليَمن لو أدركه سيفُ بنُ ذى يزَن لم يكن إلا لديه منتضًى وتُبَّعٌ لم يكن له إلا تبَعا. ولا فتِئت معاقدُ شَرفه بالجوزاء، وعقائدُ حُبّه تُعدُّ لحسن الجزاء، ومعاهدُ وطنِه آهلةً بكثرة الأعِزّاء، ومبَاسِمُ أهل ولائه تعزُّ إليه بالاعتزاء، ومبَاسِم ثغور أوِدَّائه ضاحكةَ السُّيوف فى وجُوه الأرْزاء، هذه النَّجوىٰ إلىٰ روضه المُمرِع وإلا فما تُزَمُّ الرّكائب، وإلىٰ حوضِه المُترَع وإلا فما الحاجةُ إلىٰ السَّحائب، وإلىٰ حِماه المُخصِب وإلا ففِيمَ يَسْرِى الرائد، وإلىٰ مَرْماه المُطنَّب فوق السماء وإلّا إلىٰ أيْنَ يُريد الصاعد، تَسْرى ولهـا من هادى وَجْهِه دَليل، وفى نادى كرَمِه مَقِيل، وإلىٰ بادى حَرَمه وما فيه للعاكف، وإلىٰ عالى ضَرَمه مالا ينكره العارف، وفى آثارِ قَدَمه ما يحكُم به كل عائف، وفى بدارِ خدَمــه مايذَر عِداه كرَمادٍ اشتدَّتْ به الرِّيح فى يوم عاصف. مبديةً وأول ما تبدأ بسلام تُقدِّمه علىٰ قولِ كَيْتَ وكَيْتَ، وثناءٍ ولا مثلَ قوله: ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ﴾.

* * *

صدر آخر — ولا عُطِّل محراب هو إمامُه، ولا بَطَل عملٌ هو تمامه، ولا جَفَّ ثَرىً نباتٍ هو غَمامه، ولا خَفَّ وَقارُ امرئٍ بيدِه المصرِّفةِ زمامُه، ولا ارتدَّ مَضرِبُ سيف رءوسُ أعاديهِ كِمَامُه، ولا ارتابَ فى حصُول الخيرة له مَنْ كان إلىٰ كنَفه انضمامُه. وأطال الله باعَ عَليائه، وأطابَ بأنبائه سَمَاعَ أوليائه، وأدام إجماعَ السُّرور عليه، ومُصافاته لأصفيائه وترامِيه إليـه. صدرتْ بها الركائبُ إليه مُحِفَّة، وسَرَتْ

بها النجائبُ لتِقِفَ عليـه والقلوبُ بها مُحِفَّه[(١)]، وأهوَتْ لدَيْهِ يَشْـمَخُ بها لوصولها إليه الكِبر، وطوَتْ إليه اليدَ طَيَّ الشُّقّة تقِيسُها المَطَايا بالأذْرُع والثُّرَيّا بالشِّبْر؛ تأتى بالعَجَب إذ تَجْلُبُ إليـه المِسْكَ الأذْفَر، وتجلُوله الصَّـباحَ وما لاحَ والليلَ وما أسْفَر؛ وتَحُلُّ فى مَقَرِّ إمامتـه، وتُحَلِّى العاطلَ بمـا نثره من الطَّلِّ صوبُ غَمَـامته؛ مُوصِّـلةً لعلمه مالا يُقْطَع، ومضوعةً عنده من عَنْبَر الشِّحْر مايُستَبْضَع، ومُعلِمةً له كَيْتَ وكَيْت .

قلت : هـذا ما أصَّله فى "التعريف" وحاصلُه أنه يأتى بالصَّـدْر المقدَّم ذكره إلىٰ قوله : «مُنْجد الملوك والسـلاطين» ، ثم يأتى بالدعاء المناسب، ثم يقول : «هذه النجوىٰ» إلىٰ آخره «مبدية لعلمه» أو «معلِمة» أو «صدرتْ بها الركائب» ونحو ذلك .

ثم لم يتعرّض فى "التعريف" لقطْع الورق الذى يُكتَب إليه فيـه، ولا للعلامة له، ولا لعُنْوان كتابه، ولا لتعريفه، ونبَّه علىٰ ذلك فى "التثقيف" وأنه أهمل ذلك ثم لم يُنَبِّه هو عليه . وقد رأيت فى دُسْتور منسوب للمَقَرّ العَلَائىّ بن فضـل الله بيانَ ماأهملاه من ذلك فقـال : والخطابُ له بمولانا الإمام، والطلب منه «والمسئُول» وخَتْمُ الكتاب بالإنهاء، والعُنْوان بالألقـاب والدعاء المقـدّم ذكره، والعلامة «الخـادم» .

وقد ذكر فى "التعريف" أنه وصل إلىٰ الديار المصرية، فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» سقىٰ الله عهده رسولٌ من هذا الإمام [ابن مطَهَّر إمام الزيدية][(٢)] من صَنْعاء، بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطال فيه الشَّكْوىٰ من صاحب اليمن، وعدَّد قبائحَه،

---

(١) لعله محففة فانه ليس فى كتب اللغة التى بأيدينا أحف به ولكن حف به واحتف فتنبه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

ونشر على عيون الناس فضائحه، واستنصر بمدد يأتى تحت الأعلام المنصورة لإجلائه عن دياره، وإجرائه مجرى الذين ظلموا فى تعجيل دماره، وقال : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها، وقاد إليها الأشراف والعرب أجمعها، ثم إذا استنقذ منه مابيده أنعم عليه ببعضه، وأعطى منه ماهو إلى جانب أرضه . ثم قال: فكتبت إليه مؤذنا بالإجابه، مؤديا إليه ما يقتضى إعجابه، وضمن الجواب أنه لارغبة [لنا][1] فى السلب، وأن النصرة تكون لله خالصة وله كل البلاد لاقدر ماطلب .

وهذه نسخته :

ضاعف الله تعالى جلال الجانب ـ بالألقاب والنعوت ـ وأعز جانبه عزا تعقد فواضله بنواصى الخيل، وصياصى المعاقل التى لم يطلع على مثلها سهيل، وأقاصى الشرف الذى طلع منه فى الطوق وتمسك سواه بالذيل، وقدمه للمتقين إماما، وجعله للمستقين غماما، وشرفه على المرتقين فى علا النسب العلوى ونوره وصوره تماما، ومن على اليمن بيمنه، وأعلم بصنعاء حسن صنيعه وبحضرموت [حضور][2] موت أعدائه، وبعدن أنها مقدمة لجنات عدنه، ولا زالت الآفاق تؤمل من فيضه سحابا دانيا، وتتهلل إذا شامت له برقا يمانيا، وتتنقل فى رتب محامده ولا تبلغ من المجد ما كان بانيا .

هذه النجوى وكفى بها فيما يقدم بين يديها، ويقوم ولا يقوم من كل غالى الثمن ماعليها؛ تطوى المراحل، وتجوب البر والبلد الماحل، وتثب إليه البحار وتقذف منها العنبر إلى الساحل، وترسى به سفنها، وتحط إليه بل تحط لديه مدنها، وتؤذن علمه ـ سره الله ـ بما لم يحل إليه من نظر، ولم يخل منه من سبب ألف به النوم أو نفر، ورود وارد

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥ .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦ .

رسوله فقال : يابُشْراى ولم يقُل هذا غُلام ، ووصولِهِ بالسلامة والسلام ، وماتضَمّنه ما ٱستَصْحَب منه من صحيفة كلُّها كَرَم ، وأخبارٍ صحيحةٍ كلُّها مما لو قُذف به الماء لاَضْطَرم ،ذكَرَ فيها أمْرَ المتغلّب العادى ، [والصاحب الذى يَفعل فِعلَ الأعادى][1] ، والجار الذى جارَ والظالِمِ البادى ، وما مَدَّ الأيدىَ إليه من النِّهاب ، وما ٱختطَفَ به القلوبَ من الإرهاب ، وتحدَّثَ عن أخباره وعنْدنا علمه ، وأخبر عن أفعاله ممـا له أجرُ الصبر عليه وعليه ظُلْمُه ، وقصَّ رسـولُه القَصَص ، وزاد الشَّجىٰ وضَيّق مَجالَ الغُصَص ، وأطار من وكْرِ هذا العُـدْوان طائرا كأنمـا كان فى صَدْره ، وحرّك منـه لأمرٍ كان يتجرّع له كأسَ صَبْره ، وقد أسمعَ الدّاعى ، وأسْرع الساعى ، وبلّغ الأمانةَ حاملُها ، وأوصل الكلمةَ قائلُها ، ومَرْحَباً مَرْحَباً بداعى القيام مِنْ قِبَله ، وأهْلا أهْلا بمـا بَلّغ علىٰ ألسنة رُسُله ، وهَلُمَّ هَلُمَّ إلىٰ قلع هذه الشجرة التى لم يُخْبِ ظَنَّ غارسها ، وقَطْع هذه الصَّخْرة التى لم تُنْصَبْ إلا مَزْلقةً لدائسها ،والتعاضُدَ التعاضُدَ لِمَا هتَف به هاتِفُه الصارخ ، وسمِعَه حتّى الرُّمْحُ الأصمُّ والسيفُ المُتصاوخ ، فلْيأخُذْ لهذا الأمرِ الأُهْبه ، ولْيَشُدَّ عليه فقد آنَتِ الوَثْبه ، فقد سُطّرت وقد نَهَض إلىٰ الخيل مُلْجِمُها ، وبادَرَ وضْعَ السهام فى الكَنائن مُزْحِمها ، وكأنّه بأوّل الأعنّه ، وآذانُ الجِيادِ تفوّق بين شَطْرى وجهها الأسِـنّه ، وكأنه برسوله القائد وفى أعقابه الجيشُ المُطِلّ ، والألويةُ وكلُّ بَطَل باسِـل يبتدِرُ الوَغىٰ ولا يَسْتذِل ، ولا أرَبَ لنا فى ٱستِزادة بلادٍ وسّع الله لنا نِطاقَها ، وكثّر بنا موادَّ أموالها وقدَر علىٰ أيدينا إنفاقَها ، وإنما القصـدُ كلُّه والأرَبُ جميعهُ كشْفُ تلك الكُرَب ، وتدارُكُ [ذلكَ الدَّماء الذى][1] أوْ شَـك أوكَرَب ، وإن قُدِّر فُتُوح ، وتيَسّر ماطَرَف سِوَانا إليـه طَموح ، كان هو أحقّ بسقْبِه[2] : لأنه جارُ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح عن التعريف ص ١٧ .

(٢) فى الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكانى كما لايخفىٰ .

الدار ، والأوّلُ الذى كان له البِدَار ، ويقِلُّ له لعظيم شَرَفه ما نَسْمَح به وإنْ جَلّ ، ومانَهَبُهُ منه وإن عَظُم ـ شأنُ كلّ تَبَع وهو ببعْضه ما ٱستقلّ ، وكأنَّه والخيلُ قد وافته تُجِدّ فى الإحضار ، وتُسْرِع إليه وتَكْفيه مـُونَةَ الآنتظار ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفِرْقة الثـانيـــة
(أولاد رسول)

وهم المعرُوفُون بملوك اليمن عنـد الإطلاق ، ومقرُّ مملكتهم حِصْنُ تَعِزّ . ورسولُ هذا الذى كان يُنْسَب إليه ملوك هـذا النَّسَب من اليمن هو رسولٌ أميراخُور الملك الكامِلِ محمد بن العادل أبى بكر بن أيُّوب . قال فى "التعريف" : ولما بعثَ الملكُ الكاملَ ولدَه الملِكَ المسعود أطْسز ، وهو الذى تسـمِّيه العامّة أقسيس ، بعثَ معه رسـولًا أميراخور فى جملة مَنْ بعثه معه . قال : ثم تنقّلت الأحوال حتّى ٱستقلّ رسول بمُلْك اليمن ، وصار المُلْك فى عَقِبــه إلىٰ الآنَ . والذى ذكره المؤيَّد صاحب حمـاة ، وقاضى القُضاة ولىُّ الدين بن خلدون فى تاريخيهما وهو الصـواب أنَّ أوّلَ مَنْ ملَك اليمن علىُّ بنُ رسول ، ثم ٱبنه المنصورُ عمرُ ، ثم ٱبنه المظفَّر يوسُفُ ، ثم ٱبنه الأشرفُ عمرُ ، ثم أخُوه المؤيَّد هِزَبْر الدين داودُ ، ثم ٱبنه المجاهدُ سيفُ الدين علىٌّ ، وهو الذى قال المقرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى " التعريف " إنه كان فى زمنـه ، ثم المنصور أيوبُ ، ثم المجاهدُ علىٌّ المقدّم ذكره ثانيا ، ثم ٱبنُه الأفضلُ سيف الدين عَبّاس . وهو الذى قال فى "التثقيف" إنه كان فى زمنه فى الدَّوْلة الأشرفية «شعبان ٱبن حسين» ثم ٱبنُه المنصورُ محمـد ، ثم أخوه الأشرفُ إسماعيل ، وهو الذى كان فى الدولة الظاهرية برقوق . ثم ٱبنه [الملك الناصر أحمد][1] وهو القائم بها الآنَ .

(١) بياض بالأصل هنا وفى ج ٥ ص ٣٢ أيضا عندالكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحيح من بغية المستفيد لابن الديبع .

وآعلم أنّ المكاتبات بينَ صاحب مصر وصاحب اليَمَن من حين آستقرت مملكةُ اليمن مع بنى أيُّوب ملوكِ مصر وصارت المملكان كالمملكة الواحدة ، ثم تواصلت المكاتبات بين مُلُوكهما وتأكّدت المودّة إلى زماننا هذا، خَلَا ماوقع فى خِلَال ذلك من حصول تباينٍ وقع بين أهل المملكتين فى بعض الأزمان، وهو على ضربين :

الضـــرب الأوّل

(ماكان الأمرُ عليه فى الدولة الأيوبية ، وهو أن تُفْتتح المكاتبة بلفظ «أصـــدرناها»)

وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ صاحبِ مصر والشام ، إلى أخيه سيفِ الإسلام صاحب اليمن يستقدِمُه إليه ، معاوناً له على قتال الفَرَنج، ويُخبِره بما وقع له من الفُتُوحات فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهى :

أصدَرْنا هذه المكاتبةَ إلى المجلس ، ومما تجدّد بحضرتنا فُتُوح «كَوْكَب» وهى كرسىُّ الإسبتاريّة ودارُ كُفْرِهم ،ومستقَرُّ صاحبِ أمرِهم ، وموضعُ سلاحهم وذُخْرِهم ، وكان مَجْمَع الطُّرُق قاعدا ،وملتقَى السُّبُل راصدا ، فتعلَّقت بفتحه بلادُ الفتح وآستوطنَت ، وسُلِكت الطرقُ فيها وأُمِّنت ، وعُمِّرتْ بلادُها وسُكِنت ، ولم يبقَ فى هـذا الجانب إلا «صُور» ولولا أنّ البحر يُنْجِدهـا والمراكب تَرِدها ، لكان قيادُها قد أمكَن ، وجِماحُها قد أذْعَن ، وماهمْ بحمد الله فى حِصْن يحميهم ، بل فى سِجْن يَحْويهم ، بل هم أُسارى وإن كانوا طُلَقاء ، وأمواتٌ وإنْ كانُوا أحيـاءً، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًا ﴾ ولكل آمرِئٍ أجلٌ لابدّ أن يَصْدُقه غائبُه ، وأملٌ لابدّ أن يكْذِبه خائبُه .

وكان نزولنا على « كوكب » بعد أن فتحنا «صَفَد» بلدَ الدّيوية ومَعْقِلَهم ، ومُشْتَغَلهم وعملَهم ومحلَّهم الأحْصَنَ ومنزلهم ، وبعد أن فتحنا « الكَرَك » وحصُونَه ، والمجلسُ السيفيّ - أسماه الله - أعلمُ بما كان على الإسلام من مَئُونته المُثقِلة ، وقضيّته المُشْكِلة وعلّته المُعْضِلة ، وأن الفرنج - لعنهم الله - كانوا يقعُدون منه مَقاعِدَ للسّمْع ، ويتبوّءُون منه مواضع للنّفْع ، ويحولُون بين قات (؟) وراكبها ، فيُذَلّلون الأرضَ بما كان منه ثِقلًا على مَناكبها . والآنَ ما أمْنُ بلادِ الحرمين ، بأشدَّ من بلاد الحَرَمين ؛ فكُلُّها كان مشترِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت تُرامِى ولا تُرام ، وتُسامِى ولا تُسام ؛ وطالمَا آستفْرَغنا عليها بيوتَ الأموال ، وأنفقنا فيها أعمارَ الرجال ، وقَرَعْنا الحديد بالحديد إلى أن ضجّت النّصالُ من النّصال ؛ والله المشكورُ على ما آنطوى من كلمة الكُفْر وآنتشر من كلمة الإسلام . وإنّ بلاد الشام اليومَ لا تَسمَعُ فيها لغوا ولا تأْثيما إلا قيلًا سلامًا سلامًا [فادخُلوها بسلام] (١) ، وكان نزولنا على «كوكب» والشتاءُ فى كوكبه ، وقد طلع بُيْمن الأنواءِ فى مَوْكبه ، والثلوج تنشر على البلاد مُلاءَها الفَضِيض ، وتكسُو الجبالَ عمائمَها البِيض ، والأوديةُ قد عجّت بمائها ، وفاضَتْ عِنْد آمتلائها ، وشمخَتْ أنوفها سُيُولا ، فخرقَتِ الأرضَ وبلغَتِ الجبالَ طُولا ، والأوحالُ قد اعتقلت الطُّرُقات ، ومَشَى المطلَقُ فيها مِشْيةَ الأسيرِ فى الحلَقات ؛ فتجشَّمنا العَناء نحن ورجالُ العساكر ، وكاثرْنا العدوَّ والزّمانَ وقد يُحْرِز الحظَّ المُكاثِر ؛ وعلِم الله النيّةَ فأنْجَدَنا بفضلها ، وضميرَ الأمانةِ فأعانَ على حَمْلها ؛ ونزلنا من رءُوس الجبالِ بمنازلَ كان الآستقرارُ عليها أصعبَ من نَقْلها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقْلها ﴿ وأمَّا بنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ ﴾ .

---

(١) الزيادة عن كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (ج ٢ ص ١٣٦) .

والحمدُ لله الذى ألهمَنا بنعمَتِه الحديث ، ونَصر بسَيفِ الإسلام الذى هو سيفُه وسيفِ الإسلام الذى هو أخونا الطيِّبَ علىٰ الخبيث ، فمدحُ السيف ينقسِم علىٰ حدَّيه ، ومدحُ الكريم يتعدّى إلىٰ يديْه ، والآنَ فالمجلسُ ـ أسماه الله ـ يعلَمُ أنَّ الفرنجَ لايَسْلُون عما فتَحنا ، ولا يَصْبِرُون علىٰ ماجَرَحْنا ، فإنهم ـ خذَلهم اللهُ ـ أممٌ لا تُحصىٰ ، وجيوشٌ لاتُستقصىٰ ، ووَرَاءَهم من مُلوك البحْرِ من يأخُذ كلَّ سفينةٍ غَصْبا ، ويطْمعُ فى كلِّ مدينةٍ كَسْبا ، ويَدُ الله فوْقَ أيْدِيهم ، والله محيطٌ بأقرَبِيهم وأبْعَدِيهم ، و﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرا﴾ . ﴿لا تَدْرى لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلكَ أمْرا﴾ .

وماهُمْ إلا كلابٌ قد تعاوَتْ ، وشياطِينُ قد تغاوَتْ . وإن لم يُقْذَفوا من كلِّ جانبٍ دُحُورا ، ويُتْبَعُوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحُورا ، آستأسَدُوا وآستكْلَبُوا ، وتألَّبوا وجَلَّبوا وأجْلَبُوا ، وحارَبُوا وتحَزَّبوا ، وكانُوا لباطلهم الدَّاحض ، أنصرَ منَّا لحقِّنا الناهِض ، وفى ضَلالهم الفاضح ، أبصرَ منَّا لهُدَانا الواضح ، ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ يَنْصُر الكَرَمَ آبنُها ٭ وآبنُ اللَّئيمةِ للِّئامِ نَصُورُ!

فالبِدَارَ إلىٰ النَّجْدةِ البِدَار ! ، والمُسارعةَ إلىٰ الجنة فإنها لن تُنَال إلا بإيقاد نارِ الحربِ علىٰ أهلِ النَّار ، والهمَّةَ الهمةَ ! فإن البحارَ لاتُلْقىٰ إلا بالبِحار ، والملوكَ الكبَارَ لايقِفُ فى وُجوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلَّا نَهضةٌ تُورِثُ العُلا ٭ ليوْمِك ما حنَّت رَوَازِمُ نِيبُ!

ونحنُ فى هذه السنة ـ إن شاء اللهُ تعالىٰ ـ ننزِل علىٰ أنطاكِيَة ، وينْزِل ولدُنا الملكُ المظفَّر ـ أظفره الله ـ علىٰ طرابُلُس ، ويستقِرُّ الرِّكابُ العادلىّ ـ أعلاه الله ـ بمصر فإنها مذكورة عند العدُوِّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق ، وأنَّ الطلَبَ علىٰ الشام ومصْرَ تفرَّق ، ولا غنَى عن أن يكونَ المجلسُ السيفى ـ أسماه الله ـ بحراً فى بلاد الساحل

يَزْخَرُ سِلَاحا، ويجرّدُ سيفا يكونُ علىٰ مافتحناه قُفْلا ولما لم يُفْتح بعدُ مِفْتاحا؛ فإنه ليس لأحدِما للآخ من سُمْعةٍ لها فى كل مَسْمَع سَمْعه، وفى كلِّ رُوعٍ رَوْعه؛ وفى كل مَحْضرٍ مَحْضَر، وفى كل مسجِدٍ مِنْبر، وفى كل مَشْهَد مَخْبر، فما يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم، ولا يُرْجىٰ لموقف الصبرِ الكَريمِ إلا الكريم؛ والأقدارُ ماضيه، وبمشيئة الله جاريه؛ فإنْ يشإ الله ينْصُرْ علىٰ العـدوِّ المضَعَّف، بالعدد الأضْعَف؛ ويُوصِّلْ إلىٰ الجوهر الأعلىٰ، بالعَرَض الأدْنىٰ؛ فإنَّا لانرتابُ بأنَّ الله مافتَح علينا هـذه الفُتوحَ ليُغْلِقها، ولا جمعَ علينا هـذه الأمـة ليُفرِّقها؛ وأنَّ العدوَّ إنْ خرج من داره بَطَـرا، ودخل إلىٰ دارنا كان فيها جَزَرا؛ وما بَقِىَ إن شاء الله تعالىٰ إلا أموالٌ تُساقُ إلىٰ ناهبها، ورقابٌ تُقاد إلىٰ ضارِبها، وأسلحةٌ تحمَلُ إلىٰ كاسبها؛ وإنما نُؤْثِر أن لاتنطوِىَ صحائفُ الحمد خاليةً من اسمه، ومواقفُ الرُّشْد خاويةً من عَزْمه؛ ونُؤْثِر أنْ يُساهِم آلَ أيوبَ فى ميراثِهم منه مواقعَ الصبر، ومطالِـعَ النصر؛ فوالله إنَّا علىٰ أن نُعطِيَه عطايا الآخرةِ الفاخره، أشدُّ منَّا حِرْصا علىٰ أن نُعْطِيَـه عطايَا الدنيا القاصره، وإنَّا لايسُرُّنا أن ينقضِىَ عُمُره فى قتال غير الكافر، ونِزَالِ غير الكُفْء المُناظر؛ ولا شكَّ أنَّ سيفه لو اتَّصلَ بلِسانٍ ناطقٍ وفَمٍ، لقال : مادمتُ هناكَ فلستُ ثَمَّ؛ وما هو محمولٌ علىٰ خُطَّة يخافُها، ولا متكلَّفٌ قضيةً بحكمنا يَعافُها؛ والذى بيده لانَستكْثِره، بل نَستقْصِره عن حقِّه ونستَصْغِره؛ وما ناولْناه لفتح أرضه السِّلاح، ولا أعرْناه لِملْكِ مركزِه النَّجاح؛ إلا علىٰ سَخاءٍ من النفس به وبأمثاله، علىٰ علمٍ منَّا أنه لا يقعُدُ عنا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نكُنْ به ظنًّا أحسنَ منه فعلا، ولا نرضىٰ وقد جعلَنا الله أهلاً أنْ لانراه لنَصْرنا أهْلا؛ وليَستَبْشرْ أهلَ الرشاد فإنهم [لا يألُونه][(1)] حقًّا واستِنْهاضا، وليَعَضَّ أهلَ الغَواية

(١) فى الأصل «يالوه حقا» كما تقدم أيضا فى ص ٢٧ من هذا الجزء والصواب ما أثبتناه فى الصلب كما يقتضيه المعنى وقواعد اللغة تأمل .

فإنهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضا، ومن بيته يظعن وإلى بيته يقفل، وهو يجيئنا جوابَ مثله لمثلنا، وينوى فى هذه الزيارة جمعَ شملِ الإسلامِ قبل نيّة جمع شملنا، ولا تقعدُ به فى الله نهضةُ قائم، ولا تخذله عزمةُ عازم، ولا يستفتِ فيها فوت طالب ولا تأخذه فى الله لومةُ لائم، فإنما هى سَفرة قاصده، وزَجْرة واحده، فإذا هو قد بيّض الصحيفةَ والوجهَ والذِّكرَ والسُّمعه، ودانَ الله أحسن دِينٍ ولا حرجَ عليه إنْ فاء إلى أرضه بالرَّجعه، وليتدبّرْ ما كتبناه، وليتفهَّمْ ما أردناه، وليُقَدّم الاستخاره، فإنها سِراجُ الاستناره، وليَغضبْ لله ولرسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان الاستغضاب والاستثاره. وليحضُرْ حتّى يشاهد أولادَ أخيه يستشعرون لفرقته غمّا، وقد عاشُوا ماعاشُوا لايعرفون أنّ لهم مع عمِّهم عمّا، والله سبحانه يُلهمه توفيقا، ويسلُك به إليه طريقا، ويُجِدُنا به سيفا لرقبة الكفر ممزقا ودَمِه مُريقا، ويجعله فى مِضمار الطاعات سابقا لا مسبوقا. إن شاء الله تعالى.

الضــرب الثانى

(من المكاتبات إلى صاحب اليمن ما الأمرُ عليه من ابتداء الدولة التركيه وهلُمّ جرًا إلى زماننا، وهو على ثلاثة أساليب)

الأســلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «أدام الله تعالى نعمةَ [أيام] المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كُتِب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون، جوابَ كتابٍ ورد من صاحب اليمن فى مقابلة البُشرى بدخول العساكر المنصورة إلى بلاد الأرمن، وطلبِ سلامش نائب التتار بالرُّوم الدخولَ فى الطاعة، وذَكَرَ أنّ[1] نائبًا كان لأبيه

(١) أى صاحب اليمن فى كتابه الذى ورد منه فى مقابلة البشرى.

فى قلعة طمع وعصى عليه فظفر به فبشر بذلك ، ويحرضه على الجهاد وإنفاذ الأموال ، ويهدده ، ويوجه به قصاده إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله ، وهى :

أدام الله تعالى نعمة أيام المقام العالى ! وأنهضه بفرض الجهاد الذى بمثله يبتهج ، وأيقظه لمتعين الغزو الذى ما (١) له تدرك الرتب وترتفع الدرج ، وأشهده فى سبيل الله مواقف النصر التى إذا أودعنا نشر بشرها الطروس عبقت بما فيها من الأرج ، وأراه مشاهد فتوحنا التى إذا حدثت الأحلام عن عجائبها حدثت عن البحر ولا حرج ، وصان مجده عن إضاعة الوقت فى غير حديث الجهاد الذى هو أولى ما بذلت له الذخائر وابتذلت فيه المهج .

صدرت هذه المكاتبة تخصه بتحية تتضوع نشرا ، وتتحفه من متجددات الظفر بشرا ، يملأ الوجود مسرة وبشرى ، وتقص عليه من متجددات فتح يأتى على ما أتعبت فيه الأفكار قرائحها من مشتهى التهانى فلا يدع له ذكرا ، وتتلو على من ظن بعد ما سمع من البلاغ بلاغ العدا أن إزالة وال عن مركزه فتح كبير : لقد جئت شيئا نكرا . وتوضح لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت مقصورة على نبإ لا يعتد بذكره ، محصورة على خبر لا ينبغى لمثل مجده أن يمره على فكره ، مطلقة عنان القلم فيما كان ينبغى طى خبره وتعفى أثره ، وإخفاء سببه وتركه نسيا منسيا فضلا عن التبجح بذكره ، والتهنئة به ، إذ فى ذلك مقابلة البحر بالثماد ، والروح بالجماد ، والشمس بالذبال ، والهدى بالضلال ، فلم يكمل له فى ذلك المراد ، وأتى بما قالت له التهانى : (نحن فى واد وأنت فى واد) ، وقابلناها مع ذلك بالقبول الذى اجتلى غررها ،

(١) بياض فى الأصل ولعله الذى بالقيام به تدرك الخ .

وأحمدتْ لدَيْه وِرْدَها وصَـدَرَها ، فأحطنا علمًا بما تضمَّنتْه من الأحوال التى أبداها، والمتجدِّدات التى عَظُم موقـعُ نشرها عنده فأهْداها .

وأما ماذكره من أمر القلعـة التى كان [النائب بها] (١) لوالده شخصا آعتمد عليه، وولَّاه مستحفِظًا ظَنَّـه مع تغاير الأحوال مؤتمنا علىٰ مافى يدَيْه، وأن ذلك الشخص بعد آنتقال والده رحمه‌الله طمِع فيما آستُودِع بجَحْد الوديعة والمُوادَعه، ورام المنازَعة والمقاطَعَه ،وخالَف وحالَف ، وقارَبَ العِصْيان وقارَف، وأنه فى هذا الوقت قلَعَ ذلك النائبَ، من تلك القلعـةِ المغتَصَبه، وأراحَ من همِّه الناصب ، أفكارَهُ وصَبَه ، إلىٰ غير ذلك ممـا أورده علىٰ وجه البشرىٰ لهذا السبب الضَّعيف ، وأبرزَه فى مَعْرِض التهنِئة من هذا الأمرِ الطفيف، وأراد أنْ يتكثَّر فيه بما لامَدْخَل له فى كُثْره وقُلِّه، فذكَر بُروزَه بجمعه إلىٰ شخص واحد فى قُبالة ما آتصل به من نبإ كل موطن برَزَ فيه الإسلامُ كلُّه إلىٰ الشِّرك كلِّه، وظاهرُ الأمر أنَّ ذلك الشخص ماعصىٰ بالمكان الذى كان فيه إلا لِمـا رأىٰ بالمملكة اليمنِيَّة من آضْطِراب الأحوال ، وأسبابِ الآختلاف والآخْتلال ، والوَهْن الذى حَسَّن له الآحترازَ والاعتزال، والخلْوة التى حمَلتْـه علىٰ أنْ (طلَبَ الطعْنَ وحدَه والنِّزال) ، وآمتدادِ الأيْدِى العادِيَة بكلِّ جِهة إلىٰ مايليها، وضَياع رَعايا كلِّ ناحيـة بالاشتغال عن آفتقادِ أحوال مَنْ يُباشِرها وآنتقاد تصرُّف مَنْ يليها، فهو الذى أوجب طَمَعَه، وقوّى ضِلَعه، وحمله من مَرْكَب العناد، وأراه نظراءه بتلك الجهة ممَّنْ سلكَ الفساد . وهذا الأمرُ ماخَفِىَ علينا خبَرُه ، ولا توارىٰ عنَّا وِرْدُه ولا صَدَرُه ، فإن أخبار مملكة اليمن مازالتْ متواصلةً إلينا بما هى عليه من آضطرابٍ وافٍ ، وآختلافٍ غير خافٍ، وهَيْجٍ لايرجِعُ الأمرُ فيه إلىٰ كافٍ كافٍ، وما أخَّرْنا لحَقَ جيوشِنَا المنصوره، وعساكِرِنا التى ممـالكُ العِـدا بمَهابتها محصُوره،

(١) لم يأت لأما بجواب واضح ولكنه يدرك بالتأمل .

عن الوُصول إلى المملكة اليمنيــة لتقويم أوَدِها، وتمكين شــدِّها، وإقامةِ أمر المُلك فيها، وحَسْم مادّة الفَساد عن نَواحيها، وتَطْمين البلاد، وإنامةِ الرَّعايا من الأمْن فى أوطإ مهاد، والاحْتراز على الخزائن والأموال، وصَوْنها عن الإنفاقِ فى غير جُنْد الله الذين منعُوا دعوةَ الشرك أن تُقام وكلمةَ الكُفْر أن تُقال، إلّا لأنّ عساكرنا كانت الآنَ فى المــالك والأقاليم التى بيد الكُفْر : من التّتار المخذُولين، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين، تقتُل وتأسِر، وتلقَى الجيوشَ الكافرة فتكْسِب وتكْسِر، وتصْحَبهم حيثُ حَلُّوا طَلائِعُ رُعْبها، وتُصَبِّحُهم منها أين طَلُّوا ريحُ عاد التى تُدَمِّر كُلَّ شَىْءٍ بأمرِ ربِّها .

وماسَطَّرْنا هــذه المكاتبةَ إلا وجيوشُــنا المنصورةُ قد وَطِئت عُقْر بلادهم فأذَلَّتها وأذَالَتْها، وغيَّرت أحوالَها وحالَتَها، وقاسمَتْهم شرَّ قسمة فلها منها الحُصُون والمصُون، والجنّاتُ الوارفة الغُصُون، ولهم منها الخَراب والتّباب، والدارسُ الذى لا يحصُــل بكفّ دارسِ بيْتِه إلا التُّراب، وهاهى قادمةٌ إلينا يقْدُمها النصر، ويتقدّمُها من أسْر العــدا وغنائمهم مايُربِى عن الحصر، ومابيْنَها وبين رُكُوب هــذا البحر لمُلك تمهّده، وعَدْل تُجدّده، وبُغاة تكُفُّ غَرْبَها، ورُعاة تؤمِّن بالمَهَابة سِرْبَها، وتُصَفِّى من أكدار الفِتَن شِرْبَها ؛ وخزائنَ لهــا عن غير الإنفاق فى سبيل الله تَصونُها إلا بمقدار ماتستقِرُّ بهــا المنازلُ آستِقْرار السِّنَة بالجُفُون لا النوم (1) ، وأضرمَتْ نواحيَها، وآستاقَتْ اهلَها ومواشِيَها، وجعلتْ قُصُورَها صَعِيدا، وزَرْعها حَصِيدا ؛ وعقائلَها إماء، ومعاقلَها هَبَاء ، وآبتــذلَتْ مَصُونَها الذى جعله اللهُ لهــا أثقالا ، وآختارَتْ من حصونها لمُلكنا ماكانتْ سيوفُنا له مَفَاتحَ فلمّــا فُتح عُدْنَ له أقفالا ؛ وآقتلعَتْ من القِلاع التى كانتْ بيد الكُفْر كلَّ مَعْقِل أشِب، وحِصْنٍ شابتْ نواصِى

(1) بياض بالاصل ولعله لاالنوم بالعيون فما من جهة للعدا إلا وأضرمت الخ تأمل .

اللَّيل وهو لم يَشِبْ، قد صُفِّح بالصِّفَاح، وشُرِّف بأسِنَّة الرِّماح، وآستدارَ بقُنَّة قلة يَنْهَب الترقِّ إليهـا هُوجَ الرِّياح، فطَهَّرتُه من النَّجَس، وعوضْـتُه بصوتِ الأذانِ عن صَـوْتِ الجَرَس، وأخرَسْتِ الناقوسَ بسـورةِ الفتح الذى عوَّدتْه نُوبُ الدهر بآياتِ الحَرَس، مع ماأُضِيف إلىٰ تلك القِلاع من بِلاد وتِلاد، وأغوار ونِجَاد، وجنَّاتٍ وعُيون، وأموالٍ آرتُجِـع بها ما كانَ للاسلام فى ذِمَّة الكُفْر من بَقايا الدُّيون. وكلُّ تلك الغنائم منَحْناها جُيوشَنا المنصورة وأبحْناها، وقوَّيناهم علىٰ أمثالها من الفُتُوح برَفْع العوائق التى أزلْنَاها، بالقناطيرِ المقَنْطرة من الذهب والفِضَّـة وأزَحْناها، وما وصـل الآنَ قُصَّادُه إلىٰ أبوابنا العاليةِ إلا والبشائرُ تَنْطِق بألْسِنة التَّهانى، وتُحَقِّقُ بمجدَّدات هذه الفتُوح فى الأقاصِى من ممالكنا والأداَنِى، وقد شاهَدُوا ذلك وشَهِدُوه، ورأَوْا ما رأىٰ غيرُهم من نَوادرِ الفُتُوح التى أربَتْ علىٰ ما ألِفُوه من قبـلُ وعَهِدوه. هـذا وما وَضَعت الحـربُ إلىٰ الآنَ أوزارَها، ولا خمدتْ نارُ الوغىٰ التى أعدَتْ جيوشُنا المنصورةُ للأعداء أُوَارَها، وما يَمْضِى وقتٌ إلا والبشائرُ متواردةٌ علينا بفتح جديد، ونَصْرٍ له فى كلِّ يومٍ مُخلَّق تخلُّق وفى كل برٍّ بريد. وقُصارىٰ أمرِ العدوّ الآنَ أنهم ليس لهم بلَد، إلا وقد (أخْنىٰ عليه الذى أخنىٰ علىٰ لُبَد)، ولادارٌ إلا وقد أضحت كدارِميَّةَ التى (أقوتْ وطال عليها سالِفُ الأمَد)، ولا جيشٌ إلا وقد فرَّ وأين يفرّ وهو يطْوِى فى قبْضتنا المَراحل؟، ولا طرائدُ بحرٍ إلا وهى مَطْرُودة فى اللُّجَج لتيقُّنِهم أن العَطَبَ لا السلامةَ فى الساحل.

فمن أجل ذلك رأينا أنَّ آشتغالَ جيش الإسلام بجانب الكُفْر هو المهمُّ المقدَّمُ علىٰ ماسواه، والغَرَضُ الذى نيَّتُنا فيه إنقاذُ أهل الإسلام من كلمة الكفر وتحكُّمه «ولكلِّ آمرِئٍ مانواه» ورأينا أنَّ أمرَ هذه الجهة مايفُوتُ بمشيئة الله وعونه وتمكينه، وإذا كان الله قد أقام بقُدْرته منا مَلِكا لنصرة دينه فإنَّ اليُمْنَ وغيرَه فى يَمِينه، وهى محسوبةٌ

من أعداد ممالكنا المحروسه، ومعدودةٌ من أقسام بلادنا التى هى بوُفُود الفُتُوح مأنُوسه، ولا بُدّ من النظر فى أمرها، وإعمال الفِكْر فى إزاحة ضُرّها، وتجريد العساكر المنصورة إليها، وإقدامِ الجيوش التى عادتُها الإقدامُ فى الوَغَىٰ عليها، ليكونَ العملُ فى أمرها بما يُرْضِى الله ورسولَه، ويبلُغَ مَنْ كان بتلك الجهات يروم الجهادَ ولا يُطيقُه سُولَه، فإن المملكةَ المذكورة توالتْ عليها المُدَد، ومضى عليها الأبد، وهِمّةُ من فيها إلى اللَّهْو مصْرُوفه، وعلى اللّذات موقُوفه، وأحكامُ الجهادِ عندهم مرفُوضة حتى كأنَّ الجهادَ لم يبلُغْهم وغره حلمه[1]، ولا أحاطتْ أفكارهم بشىء من علمِه، بل كأنه علىٰ غيرِهم وجَب، وكأنَّ ما أعدّ الله من الأجر عليه إنما أُرِيد به الذين يكْنِزون الذهب، وتمادَتِ الأيامُ وليس فى نِكايَةِ أعداء الله منهم مُصيب، وتفرّقت الأموالُ وما لجُند الله فيما آحتَوْا عليه من ذلك منْهُمُ ولا نَصيب، وأىُّ عذرٍ عند الله لمَنْ جعله مؤتَمَنا علىٰ مالِهِ فلم يكُنْ له فى سبيل الله إنْفاق؟ وأىُّ حجةٍ لمن [لم] يقِفْ موقِفَ جهاد وقد قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم: "مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحدِّثْ به نَفْسَه ماتَ علىٰ شُعْبة من نِفاق".

والآنَ فإنَّ الله سبحانَه وتعالىٰ قد أقامَنَا لنُصْرة الإسلام ورفْع كلمةِ الإيمان وتمهيدِ البلاد، وإجراء الأحوالِ فى القريب منها والبعيدِ علىٰ ما يُرضِى الله تعالىٰ ويُرضِى رسوله عليه السلام من السَّداد، وأهمُّ الأمور عندنا أمرُ الغُزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا مُمسِكٌ بعِنَان فَرَسه، مكْتَحِلٌ بسُهاد حَرَسه، لا يأمن العَدُوُّ مهاجمة خيله فى سُراه، ولا مفاجَاة خَيالِه فى كَرَاه، حِصْنُه ظهرُ حصانه، وجوابُه علىٰ لسان سِنانه، كلَّما سَمِع هَيْعةً أو وَقْعةً طار علىٰ مَتْن فرسه يلتمسُ الموتَ والقتلَ فى مظانِّه، وهؤلاءِ هم جيوشُنا الذين دوّخُوا البلاد، وأذلُّوا أهلَ العناد، وطهّروا السَّواحل، وأجْرَوْا فى كل

(١) لعله «لم يبلغهم فرض حكمه».

موطن من أنهار الدماء مايُرْوى البَلَدَ الماحل، وهزَمُوا جيوشَ التتاروهم فى أعْداد الكواكب، وحصَدُوهم بسُيوفهم عرورة (؟) وهم فى نحو المائة ألف راكب؛ حتّى إن ملوك التتار الآنَ ليتمنّوْن إرضاءَنا وإغضاءَنا، ويستَدْعُون ويَدْعُون للآبادِ وَلاءَنا، ويطْلُبون المسالمةَ منا، ويودُّون نَسمةَ قبول تصْدُر إليهم عنّا؛ والطويلُ العُمرِ منهم وممَّن والاهم هو الذى يَهْرُب من بين يدَىْ جيوشنا المنصورةِ ليَسْلَمَ بنَفْسه، وإنْ أسلَمَ ما يعِزُّ عليه من مالِهِ ووَلَدِه وعِرْسه. فمثلُ هٰؤلاء الذين يستحقُّون أموالَ الممالك الإسلامية ليستَعِينُوا بها فى جَهازِهم لجهادِهم، ويُنْفِقُوها فى إعدادِهم لأعْدائهم؛ ويَصْرِفوها فى ذَبِّهم عن دِينِ رَبِّهم .

وهذه المملكة اليَمنيَّة قد اجتمع فيها من الأموال ما يُرْبى عن الحَصْر والحَدِّ، ويَزِيدُ علىٰ الإحصاء والعَدِّ، لايُنْفَق منها شىءٌ فى الجهاد، ولا يُعَدّ منها مصْرُوفٌ إلا بما لا تُحمَد عاقبتُه فى المَعَاد، قد صُدَّ عنها جندُ الله الذين ينفِقُونها سِرًّا وجهْرا، ويستنزلون بها أرواحَ أعداءِ الله علىٰ حُكْم سُيُوفهم قَسْرا وقَهْرا، وأبِيحتْ لمن تأبّىٰ الجهادَ جانبا، ورضِى باللهو صاحبا، واقتنىٰ السِّلاح لغير يوم الباس، واعتنىٰ بارتباطِ الجِياد بَطَرا ورِئاءَ الناس .

وكان كتابنا قد تقدّم فى أمر المجاهدين وما يحتاجُونه من الإعانة بما يُحمَلُ إليهم من الأموال بالمملكة اليَمنيَّة : ليُصْرَف ذلك فى حقه، ويصل إلىٰ مستَحِقّه؛ ويكونَ قد أُعِدّ منها للإنفاق فى سبيل الله جانبٌ بحيث لا يُضَاع، ووصل إلىٰ مجاهدى الأمة نصيبٌ من مال الله الذى هو فى يَدِ مَنْ وَلّاه شيئًا من أمور عباده علىٰ حكم الإيداع؛ ويدخُل ذلك[1] فى زُمْرة الذين يكْنِزُون الذهبَ والفِضَّة ولا ينفِقُونها؛ فحصلت المكابرةُ فى الجواب عن ذلك، وأىُّ عُذْر فى المكابرة عن

(١) كذا فى الأصل ولعله ويخرج بذلك من زمرة الخ تأمل .

مثل هـذا الأمر وشَغْلِ الوقت بذكره ؟ ونحن عنـدنا فى كل وقتٍ من البشـائر بمَوَاهب الفتح، وغرائب المَنح، ومتجدِّدات الظَّفَر والنصر، ومتحلِّيات التأييد التى قسَّمَتْ أعداءَ الله بين الحَصْد والحَصْر، مايهبُّ نَشْرُه هبوبَ الرِّيح فى البَرِّ والبِحار، ويودُّ الدهرُ لوَرقّه بذهب الأصيل على صفحات النَّهار؛ وكلُّ ذلك فى أشدّ أعداء الله تعـالى : من التتار، الذين عُرِف عَدَدُهم وجَلَدُهم ، والفَـرَنج الذين طال وكثُر فى عَدَاوة الإسـلام أبَدُهم ومَدَدُهم ، والأرمن الذين هم أكثرُ الطائفتين فى الظاهر وِفَاقا ، وأشـدّ الفئتين فى الباطن نَفْرا ونِفَاقا ؛ وهم لهؤلاء وهؤلاء مادّة تمـير وتمير ، وتُغْريهم وتُغْرُهم فتصيرُبهم من نارالحربِ المضرَّسة لسيوفنا إلى جهنّمَ وبئس المَصير؛ وأىُّ شىءٍ من ذلك يُذْكَر عندمواقف جيوشنا المنصورة، وظَفَرِ عساكرنا المؤيَّدة؟ ، لو كان حَصَـل عنده الفكرُ الصائب ماوردتْ مكاتَبَته إلا وهى مقترِنةٌ بما يُرضى اللهَ ورسولَه وأهلَ الإسلام : من إمداد الغُزاة بالأموال، وإعانتِهم على الكُلَف التى كُلّما أعد لها مال[بدتْ]حال يُلائمها الإنفاقُ فى سبيل الله ويَسْئلُونَكَ عن الجبال؛ وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمُها النصر،ويتقدمُها من أسرى العِـدا وغنائمهم مايُربِى عن الحَصْر؛ وما بينها وبينَ رُكوبِ ثَبَج هـذا البحر لمُلْكٍ تُمهِّـده ، وعَدْلٍ تُجدّده؛ وبُغاةٍ تَكُفُّ غَرْبها، ورَعايَا تُؤمِّن بالمَهَابة سِرْبَهـا ، وتُصفّى من أكدار الفِتَن شِرْبَها؛ وأموالٍ تصونها، وخزائنَ يُنزِّه عن غير الإنفاقِ فى سبيل الله مَصُونُها؛ إلا بمقدار ماتستقرُّبها المنازلُ آستقرار السِّنة بالجُفُون لاالنوم،وتأخُذُ أُهْبةً لذلك المُهِمِّ فى يومٍ أو بعضِ يوم.

أللهم إلا أن تلبِّى دعوةُ الجهاد من تلك الجهة بألسنة النَّفير، وتُعبَّى صُفُوفُ الجِلاد فى الجَوَارِى التى تكادُ بأجنحة القُلُوع تَطِـير؛أو تَنُوبَ عنها خزائنُ الأموال التى تُنْفَق فى سبيل الله تعالى، أو تَقُومَ مَقَامهـا النفقاتُ التى تُصْرَف إلى جنود الله التى تَنْفِرُ فى سبيل اللهِ تعـالى خِفَافا وثِقَالا ، ليكونَ قد آسـتدرّ ببركة ذلك الطَّلِّ

أخلاقَ الوابل ، وأنفقَ ما ٱختزنه فى سبيلِ الله الذى مَثَـلُ ما يُنْفَق فيه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ ، و تَسْـتعدّ الجيوش المنصورةُ إلىٰ طوعٍ يَصُونُ برأيه مُلْكه و يَصُول ، و يستَطِيلُ علىٰ الوجُود ولوأنّ البرَّ سُيُوف والبحْرَ نُصُول ، والله تعالىٰ يُرْشِده إلىٰ ماهو أقرب للتقوىٰ ، و يُمَسِّكُه من طاعتــه بالسبيلِ الأقوم والسَّبَبِ الأقوىٰ ، إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الثـانى

(وهو المـــذكور فى "التعريف")

أن تفتتَح المكاتبةُ بلفظ : «أعزّ الله تعالىٰ جانبَ المقام العالى» إلىٰ آخر الألقاب ، ثم الدعاء ، مثل : ولا زَال يُحْسِن وِلايةَ حَسَبه ، و يَنْهَضُ بجناحِ نَسَبه ، و يصُونُ مُلْكه بعَدْلِه أكثرَ من قُضُبه ، و يُثْبِت فى اليَمَن اليُمْنَ فى حالةِ إقامتِه ومنقَلَبه .

أصدرْناها إلىٰ مَقَامه موشَّحةَ المَعَاطف بحُلِيِّه ، شاكرةً عُلَا عَلِيِّه ، ذاكرةً من محامده مايتكثَّر السحابُ بوَلِيِّه ، مُبدِيةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ .

وهذه أدعيةٌ وصدُور تناسِبُ كل سلطانٍ بها :

ولا زالَ به «تعِزُّ» تَعِزُّ وتَفُوز ببره زَبِيــدُ ، و يخرُجُ من عَدَنَ عَدْنُ فضله المَدِيد ، وتَمْتَلِي بوُفُود البرِّ والبحْر : هــذا تطيرُ به المَرَاكبُ وهذه الركائبُ كِلَاهما من مكانٍ بعيد ، ولا بَرِحتْ به آهلةَ الأوطان ، مشتقّةً صفاتُ قُطْره اليَمَنِيّ مَن «الإيمانُ يَمانٍ» ، محجُوبًا بالجلالة أو محْجُوجًا لمـا يُنْسَب إليه من أحَدِ الأركان .

أصدرْناها والسـلام يُبارِى ماتُنْبِت أرضه من نَبـاتِها الطيِّب ، و يجارى بالثَّناء مايَنْهَلُّ فى أكنافه الجَنُوبيَّة من سَحَـابها الصيِّب ، وتَسْرِى إليـه بتحيَّاتنا الشريفة علىٰ قادمةِ كل نَسِيم ، وفى طىِّ كلِّ عامٍ له وُقُوف علىٰ ربْعه وتَسْلِيم ، وتوضِّح لعلمه الكريم .

دعاءٌ وصدرٌ يختصّ بالمجاهد علىّ، وهو :

ولازال أفضَلَ متوَّج فى يَمَنِه، وأعلىٰ علىّ إذا قيس بابْنِ ذى يَزَنِه، وأشجعَ مَنْ حمىٰ بعُهُوده مالا تقدِر السُّيوف علىٰ حِمَايته من وطنه، ولا ٱنفكَّ الملكُ المجاهدَ عن عِرْضه المَصُون، وسيْفَ الدين الذى يقومُ فى المَفْرُوض من مَرَاضى الله بالمَسْنُون، وأبَا الحَسَن لما يَحْسُن فى فِطْنته الحُسنىٰ أو فِطْرته من الظُّنون، والعلىَّ قدرا إذا أخذتِ الملوكُ مراتِبَها وحدَّقت إليه العُيُون .

صدرتْ هذه المفاوضةُ إلىٰ حضرته وسلامُها يتفاوَحُ لدَيْها، ويُصافِحُ غمائِمَه فى يدَيْها، وتجرى سفائنُ إخلاصِه حتّى تقِف عليها، وتَسْرى بتحياتِنا محلِّقةً بالبُشْرىٰ فى صباح كلِّ يومٍ يقرُب من الوصُول إليها، وتبدى لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف علىٰ صورة مكاتبة مفتتَحة بلفظ «أعز الله تعالىٰ جانب المقام» كُتِب بها إلىٰ بعض ملوك اليمن فى زمنٍ من الأزمان؛ فأوردها ٱستشهاداً لهذا الأسلوب .

الأسلوب الثالث

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ : «أعزّ الله تعالىٰ نُصْرة المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كتب به إلىٰ صاحب اليمن أيضا، عن السلطان الملك المنصور قلاوون، مبشّرا بفُتوح صافيتا[1]، من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهو :

(١) لم نجد لفتح مصدرا على فعول فإما أن يكون جارى العرف و إما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه ووقائعه وهو بعيد تأمل :

أعزَّ الله تعالىٰ نُصرة المَقام العالى، المولَوىّ، السلطانىّ، المَلكىّ، المظفَّرىّ، الشّمْسىّ، وأشركَه فى كل بُشرىٰ تُشَدُّ الرحالُ لاستماعها، وتُحَلُّ الحُبىٰ لاستطلاعها، وتتهافَتُ التواريخُ والسِّيَر علىٰ ٱسترفاعها، وتتنافس الأقلامُ والسيوفُ علىٰ الأفهام بأجْناسها وأنْواعها، ولا خَلَا موقِفُ جهادٍ من اسمِه، ولا مصرِفُ أجرٍ من قِسْمه، ولاغَرَضُ هَباءٍ من سَهْمه، ولاأُفُق ابتهاجٍ من بُزُوغ شمسه وطُلُوع نجمه. سطَّر المملوكُ هذه البُشرىٰ والسيفُ والقلمُ يستمدّانِ : هذا من دمٍ وهذا من نِقْس، ويَمْضيان : هذا فى رأس وهذا فى طِرْس، ويتجاوَبان : هذا بالصَّليل وهذا بالصَّرير، ويتناوَبانِ : هذا يستَميلُ وهـذا يستَمير، وكلٌّ منهما ينافِسُ الآخَرَ علىٰ المشافهة بخبر هذا الفتح الذى ماسَمَتْ إليه هممُ المُلُوك الأوائل، ولا وُسِمَتْ به سِيَرُهم التى بدَتْ أجيادُها من حِلَاه عَوَاطِل، ولادارَ فى خَلَدٍ أن مثله يتَهيّأ فى المُدَد الطويله، ولا تشكّلَ فى ذهن أنه سيُدْرَك بحَوْل ولا حِيله، وهو النَّصر المرتَّب علىٰ حركتنا التى طوىٰ الله لركابنا فيها المَراحل، وألقىٰ بدرَر عساكرِنا من بَحْر الحديدِ المالحِ إلىٰ الساحل، وهُجومنا علىٰ البلاد الفَرَنجيّة: وهى طرابُلُس وصافِيتا وأنْطَرسُوس ومَرَقيّة والمَرْقَب، كما يهجُمُ الغيث، ومُصادمتِنا صُدُورَها كما يَصْدِمُ الليث، وسلوكِنا منها حيثُ لم يَبْقَ حيث، وما جرىٰ فى هـذه الوِجْهة من إغاراتٍ أحسنَتْ متقلَّبَ الأعِنّه، ومتعلَّق السيُوف ومخترَق الأسِـنّه، وماتهيّأ منها من فُتُوح صافِيتا التى هى أمُّ البلاد، ومنتجَعُ الحاضرِ والبـاد، وكونُها قدّمت نفسَها فى جملة ما يُقْرىٰ به الضيف، وقالتْ : هـذا فتوحٌ حضَر علىٰ هـذا الفُتُوح لهذا السيف، وتلطَّفتْ فى منْح أطراف الأمان، وطلبَتْ شُكْرا ومنّا شُكْران، وأحضرتْ إلينا من أهلها الوقت وهدَتِ السيوفُ فى أعناقهم فتشبَّهتْ بها الأغلال، وأنِفت أيمانُ أهلِ الإيمان من مُصالحَتِهم لأنهم أصحاب الشِّمال، فأطلقَهـم سيفُنا وأمَلُه يمتدُّ إلىٰ مَنْ هو أعزُّ منهم مالا، وأكثر ٱحتفالا،

وأَبْرَمَا لا ، وأَهَزَّ سيوفًا قِصارا ورِماحًا طِوَالا ، وآستطار منها شَرَارُ نارِ الحرْب المُوقَدة الىٰ غيرها من القِلاع ، وآستطال إلىٰ سِوَاها من الحُصُون منهم البـاع ، فلا حِصْنَ إلا وآفترت ثَنِيَّتُه عن تَضيرٍ مُسَهّل ، وفتح مُعجل ومؤَجّل .

فمن ذلك حصنُ الأكراد الذى تاه بعِطْفه علىٰ المَمـالِك والحُصون ، وشَمخ بأنفه عن أنْ تمتدَّ إلىٰ مثـلِه يَدُ الحَرْب الزَّبُون ، وغدَا جاذِبًا بضَـبْع الشام ، وآخذًا بمخانِق بلادِ الإسلام ، وشَلَلًا فى يَدِ البلاد ، وشجًـا فى صَدْر العباد ، تَنقَضُ من عُشّه صُقُور الأعداءِ الكاسره ، وترتاعُ من سَطْوتها قلوبُ الجُيُوش الطائره ، وتَرِبضُ بأرباضه آسادٌ تحمِى تلكَ الآجام ، وتُفَوِّقُ من قِسِيِّه سهامٌ تُصْمِى مُفَوَّقاتِ السِّهام ، تُعْطِيـه الملوكُ الجزيةَ عن يدٍ وهُمْ صاغِرُون ، ويَصْطفِى كِرَامَ أموالهم وهم صابِرُون لامُصابِرُون ، كم شكَتْ منه حماةُ تثنى بنكرها قِلَّةَ الإنصاف ، وكم خافَتْـه معرّةُ وما من مَعَرَّةٍ خاف ؛ مازالتْ أيدى الممالك تمتدُّ إلىٰ الله بالدعاء عليه تَشكو من جَوْرِ جِوَاره تلك الحصونُ والصَّيَاصى ، وتبْكِى بمدمع نهرُها من تأثيرِ آثاره مع عِصيانها وناهيك بمَدْمَع العاصى ؛ حتَّى نَبَّه الله ألحاظَ سيوف الإسلام من جُفُونها ، ووَفَّى النُّصرةَ ماوجب من دُيُونها ، وذاك بأنَّا قصدْنا فَسِيحَ رَبْعه ، ونزلْنا ونازَلْنا محمِىَّ صُقْعه ، وختَمْنا بنِصالنا علىٰ قَلْبـه وسَمْعه ؛ وله مُدُنٌ حَوْلَه خمسٌ هو كالراحةِ وهى كالأنامِلِ ، وتكادُ بُروجُه تُرىٰ كالمطايا المُقَطَّرة وهى منها بمنزلة الزَّوامِل ؛ ماخيَّمنا به حتَّى آستبَحْنا مَحْمِىَّ تلك المدائنِ المكنِىِّ عنها بالأرباض ، وأسحَنَـا بساحاتها بحرًا من الحـديد ماآندفَعَ حتَّى فاض ؛ وأخذنا النُّقوبَ فى أسـوارٍ لاتُنقَض ولا ينقَضُّ بُنيـانها المرْصُوص ، ولا تقرأ المَعـاوِلُ ماالخواتم أبراجِها من نُقُوش الفُصُوص ، ونصَبْنا عليها عِدّةَ مجانيقَ حُمِلتْ فى شواهق الجبال ، علىٰ رؤُوس الأبطال ، فتغيَّظتِ السَّمْهَرِيَّة أنَّ الذى تقومُ به هـذه تِلْكَ به لاتقُوم ، وأنَّ مامنها إلا لَهُ من الأيدى والرُّءُوس مقامٌ معـلوم ، وصار يَرْمى بها كُلُّ

كمىّ مختلس ، وأروعَ منتهس ، وكلُّ ليثِ غابةٍ يحميها وتحميه ! فشكرًا لأسود حتى غاباتُها تفترس ، إلى أن جثتْ أسوارُها على الرُّكَب ، وكانتْ سِهامُ مجانيقها تميلُ من العُجْب فصارتْ تميـدُ من العَجَب ، وكانتْ تطلُبُ فصارتْ تهْرب من الطَّلَب ، واشـتدّ الأمر على الكُفَّار فقاتلوا قتالًا أقضَّ مضاجعَ الأسلحه ، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحه ، وأشجىٰ بشـجْو النُّصول المترنّمة على غُصون السِّهام المترنّحه ، هـذا وأهل الإيمان يتلقّون ذلك كلَّه بصبرٍ يستطعِمُون منه شُهْدا ، وإقدامٍ يتلقّى صَدى الحديد بأكبادٍ مازالتْ إلى مَواردِه قصْدا ، يقتحمون نارَ الحرب التى كُلّما أوقدُوها أطفأها الله وقال يانارُ كُونى بَرْدا ، والبلادُ الفرنجيَّة قد غُضَّت منها الأبصارُ وخشعتِ القلُوب ، واعتقد كلٌّ منهـا فى نَفْسه أنه بعد هـذا الحصن المَطْلوب ، فهذه تودّ لو أكنَّتْها البحارُ تحتَ جَناح أمواجها ، وهذه لو أسبلَتِ الرياح العواصفُ عليها ذُيولَ عَجاجها ، وهذه لو اجتُثَّت منْ فَوْقِ الأرض مالها من قَرار ، وهذه لو خُسِف بها الثّرىٰ وعفَت منها الآثار ، وذلك لِمَا بلغهم وشاهَدُوه من وَيْلٍ حلَّ بأهل هـذا الحِصْن المَنيع ، ومن ذلك أمحلَ رَبْعَه المَريع ، وضيَّق مجالَه الوَسيع ، وقِراع أضجَرَ الحديدَ من الحديدِ والأبطالُ لم تَضْجر ، ونضالٍ أسهرَ كلَّ جفن حتّى جفونَ السيوف لأنَّا عوّدْناها مثلَ جفُوننا أن تَسْهر ، فكمْ شكتِ القُلُوب من منّا كيهم زِحاما ، والشُّرفات من ترقّيهـم التزاما ، والرِّقابُ من سيُوفهم اقتساما ، وكم حَمدت التجاربُ من رأيهـم شيخا وحَمِدَ الإقدامُ من ثُبُوتهم غُلاما ، قد دوّخوا البـلاد فلا موْطنَ إلا لهم به معْركه ، وأرملُوا الحلائلَ فلا مُشركَ إلا وقد أرملَ من مُشركه ، وأزعجُوا الكفرَ فلا قلْبَ إلا به منهم خوفٌ ولا سَمْع إلا لهم به حَركة ، وملكُوا الأرضَ كثرةً وكيف لايكثّر الله جمعًا للإسلام جعل الله فيه بَركه .

وكتابنا هذا والمولى بحمد الله أحقُّ من هُنِّئ بهـذا الفتح الذى تُثْنى على كتاب بشائره الحقـائب ، وتجرى إلى سَمـاع أخباره الركائب ، وتتزاحم على المَسير تحت البُرد الواصلة به متونُ الصَّـبا وظهورُ الجنائب ، وإذا ذُكِرت ملاحمة ، قال كلٌّ : هذا كتابٌ أم كتيبةٌ تلوح ، وإذا شُوهِدتْ حمْرةُ طِرْسه قيل : وهذا ما صبغتْه فى اليد المعَلِّمة عليـه دمُ الكفر المسْـفُوح ، ويتَّعم ـ أعز الله نصره ـ بالإعلان بهذا النبإ الحسن الذى تسْتَروِح إليه الأسماع ، وتُسَرّ بالإفهام به أخواتُ هذا الحصن من مُدُنه ومن قلاعه العظيمةِ الامتناع ؛ فإنه مابَرِحَ الأخُ يفْرَح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما اشترك كلُّ شيء فيه ، إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخة كتاب آخرَ إلى صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل محيى الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جوابَ تعزية أرسلها إليه فى وَلَده الملك الصالح فى ورقٍ أزْرقَ ، وكانت العادة أن تكون فى ورقٍ أصفرَ . ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعـالى نُصْرة المقام إلى آخر الألقاب ، وأحسنَ بتسليتِه الصبرَ على كل فادح ، والأجرَ على كلِّ مصابٍ قَرْحِ القرائح وجَرْحِ الجوانح ، وأوفدَ من تعازِيه كلَّ مسكِّن طاحتْ به من تِلقاء صنعاءِ اليمن الطَّوائح ، وكَتَبَ له جزاءَ التصـبُّر عن جارٍ من دمعٍ طافح ، على جارٍ لسُويْداء القلبِ صالح .

المملوكُ يَخْـدُم خدمةً لا يَذُود المواصـلةَ بها حادث ، ولا يؤخّرها عن وقتها أمرٌ كارث ، ولا ينقُصها عن تحسينها وترتيبها بواعثُ الاختلاف ولا اختلافُ البواعث ؛ ويُطْلِـع العِلمَ الكريمَ على ورود مثـالٍ كريم ، لولا زُرْقةُ طِرْسه وزرقةُ لِبْسه لقال :

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . لتضمَّن ما كان حَدَث من رُزْء تلافىٰ الله بتَناسيه ، وتوافىٰ بعوْد الصـبر فتولّىٰ التسليمُ تليين تقاسيه وتمرينَ قاسـيه ؛ فشكَرْنا الله تعالىٰ علىٰ ما أعطىٰ وحَمِدْناه علىٰ ما أخذ ، وما قُلْنا : هـذا جَزَع قد آنتبَه إلا وقلنا هذا تثبُّتٌ قد آنتبَذ ، ولا توهَّمنا أنَّ فِلْذَة كبد قد آختُطِفتْ إلا وشاهدْنا حولنا من ذرِّيتنا والحمدُ لله فِلَذ ؛ وأحسنَّا الآحتساب ، ودخلتِ الملائكةُ علينا من كل باب ، ووفَّانا الله عز وجلَّ أجرَ الصابرين بغـيرِ حساب ؛ ولنا ـ والشكرُ لله ـ صبرٌ جميل لا نأسَفُ معه علىٰ فائت ولا نأسىٰ علىٰ مفقُود ، وإذا علم الله سبحانه حُسْنَ الآستنابة إلىٰ قضائه ، والآستكانة إلىٰ عطائه ، عوَّض كلَّ يوم ما يقول المبشِّر به : هـذا مَوْلِىً مولُود . وليست الإبلُ بأغلظَ أكبادًا ممن له قَلْبٌ لا يُبالِي بالصَّـدَمات كثُرتْ أو قلَّت ، ولا بالتَّبـارِيح حَقُرت أو جلَّت ؛ ولا بالأزمات إنْ هى توالتْ أو تولَّتْ ، ولا بالجُفُون إنْ ألِفَتْ بمـا فيها من الدُّموع والهُجُوع وتحلَّتْ ؛ ويخافُ من الدَّهرِ مَنْ لا حَلَب أشْطُرَه ، ويأسَفُ علىٰ الفـائت من لا باتَ بنبإ الخطوب الخَطِره ، علىٰ أنَّ الفادح بموتِ الولد الملكِ الصالح ـ رضى الله عنـه ـ وإن كان مُنْكِيا ، والنافحَ بشجوه وإن كان مُبْكِيا ، والنائحَ بذلك الأسـف وإن كانـ لنار الأسف مُذْكِيا ؛ فإن وراءَ ذلك من تثبيتِ الله عز وجلَّ ما يَنْسِفُه نَسْفا ، ومن إلهامه الصـبرَ ما يجدِّد لتمزيقِ القلوبِ أحسنَ ما به تُرْفَىٰ . وبكتابِ الله تعالىٰ وبسُنَّة رسوله صلَّى الله عليـه وسلم عندنا حُسْنُ آقتـداءٍ يَضْرِب عن كلِّ رثاءٍ صفحًا ، وما كُنَّا مع ذلك ـ والمنةُ لله ـ نُصْغى لمن يؤنِّب ويؤبِّن أُذُنا ، ولا نُعِـيرها لمن يَلْحا إذِ الولَدُ الذاهبُ فى رضوانِ الله تعالىٰ سالكًا طريقًا لا عِوجَ فيها ولا أمْتا ، وآنتقل سارًّا بارًّا صالِحًـا صالِحا وما هٰكذا كلُّ المَوْتىٰ نَعْيا ونَعْتا ، ولَئِنْ كان نَفَعنا فى الدنيا فها نحنُ بالصَّدَقات والترحُّم عليـه نَنْفَعُه ، وإذا كان الولَدُ عملَ أبيه وقد رَفَع الله تعالىٰ رُوحَ

ولدنا إلى أعلى عِلِّيِّين تحقق أنه العمل الصالح يرفعه؛ وفيما نحن بصدده من اشتغال بالحروب، مايهوّن مايهول من الكروب؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وقلبه يحول، بل عن تخيل أسف فى الخاطر يحول .

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا * فأهون ماتمرّ به الوحول!

فلنا بحمد الله تعالى ذُرّية درِيّه، وعقود والشكر لله كلها دُرّيّه .

إذا سيّد منهم خلا قام سيّد * قئول لما قال الكرام فعول!

مامنهم إلا من نُظر سعده ومن سَعْده يُنتظر، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن يسدّ حاله بكفالته وكفايته مسدّ الخبر، (والشمس طالعة إن غيّب القمر) ؛ لاسيما من الذى يراد هو[1] صلاحه أعرف، ومن إذا قيل لبناء مُلك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعد أشرف . وعلى كل حال لا عدم إحسان العمل الذى يتنوّع فى برّه، ويعاجل قضاء الحقوق فيساعف مرسومه فى توصيله طاعة بحره وبرّه؛ وله الشكر على مساهمة المولى فى الفرح والترح ، ومشاركته فى الهناء إذا سنح وفى الدمع إذا سفح ؛ وما مثل مكارم المولى من يعزب ذلك عن علمها ، ولا يعزى إلى غير حكمها وحلمها؛ وهو ـ أعزه الله ـ ذو التجارب التى مخضت له من هذه وهذه الزّبده، وعرضت عليه منها الهضبة والوهده . والرغبة إلى الله تعالى أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمه ، كما لم يجعلها للظهور قاصمه ، وأن يجعلها بعد حمل هذا الهمّ وفصاله على عليه فاطمه؛ وأن يحبّب إلينا كل مايلهى عن الأموال والأولاد، من غزو وجهاد ، وأن يخولنا فليس يجد لدينا على مفقود تأدّبا مع الله عز وجل غير السيوف فإنها تعرف بالحداد، وأن لاتقصف رماحنا إلا فى فود أو فؤاد، ولا تحول سروج خيلنا إلا من ظهر جواد فى السرايا إلى ظهر جواد ؛ وأن لاتشق لدينا إلا

(١) كذا فى الأصل ولم ندرك مغزاه .

أكبادُ النـادّ، ولا تُجز غيرُ شعورِ ملوك التتار تُتوَّجُ بها رءوسُ الرماح ويُصْعَد بها على قِمَم الصِّعاد ، والله تعالى يشكُرُ للمولى سعْىَ مَرَاثيه التى لولا لُطفُ الله بما صبَّرَنا به لأقامتِ الجنائز ، وآستخفّتِ النحائز ، ولأهوتْ بالنُّفوس فى آستعمال الجائز من الأسَف وغير الجائز، ولا شَغَل اللهُ لُبَّ المولى بفادِحه ، ولا خاطِرَه بسانِحةٍ من الحُزْن أو بارِحه ، ولا أسمَعَه لغير المَسَرَّات من هواتف الإبْهاج صادِحه، إن شاء الله تعالى .

الأســـــلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف العالى» وعليها كان الأمرُ فى أول الدولة التركية)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك، كُتِب بها عن الملك المظفَّر قطز ـ وصاحبُ اليمن يومئـذ المنصور ـ بالبِشارة بهزيمة التَّتار . وأظنها من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

أعزَّ اللهُ تعالى أنصار المقرّ الشريف العـالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، المنصورىّ ، وأعلى مَنارَه ، وضاعف آقتدارَه ، تُعْلمه أنه لمـا كان النِّصف من شهر رجب الفرد، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعُّر بأْسِهِ * لَٱخْضَرَّ جُودا فى يَدَيْه الأَسْمَرُ

فصدرت هذه التهنئة إليه راويةً للصدق عن اليوم المحجَّل الأغرّ :

يَوْمٌ غَدَا بالنَّقع فيــه يَهْتدِى * مَنْ ضَلَّ فيــه بأنجُمِ المُرَّانِ

ففى أُذُنِ الدهرِ من وَقْعِه صَمَم ، وفى عِرْنِين البَـدْر من نقعه شَمَم؛ ترفَعُــه رواةُ الأَسَل عن الأسنّه ، ويُسْـنِده مَجَرُّ العوالى عن مَجَرّ الأعِنّــه ، أما النصرُ الذى شهد

الضربُ بِصحّته ، والطعْنُ بنصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى آستطالُوا على الأيام ، وخاضُوا بلادَ الشام ، واسْتنجدُوا بقبائلهم على الإسلام :

سَعَىٰ الطَّمَعُ المُرْدِى بهم لحُتُوفهم * وَمَنْ يُمْسِكْ ذَيلَ المَطَامِعِ يَعْطَبِ

فاعتاضُوا عن الصحة بالمَرَض ، وعن الجَوهرِ بالعَرَض ، وقد أرْخَتِ الغفلةُ زِمامهم ، وقاد الشيطانُ خِطَامهم ، وعاد كَيْدُهم فى نُحورهم : ﴿وردّ اللهُ الّذين كفروا بِغَيْظِهِمْ لم ينالُوا خيرًا وكفَى اللهُ المُؤْمنينَ القِتالَ وكانَ اللهُ قويًّا عزيزًا﴾ .

رامُو الأُمورَ فَـلَـدُ لاحَتْ عَوَاقِبُها * بِضِدّ ما أمّلُوا فى الوِرْدِ والصَّـدَرِ ،

ظَلُّوا حَيَارَىٰ وكأْسُ الموتِ دائرةٌ * عليهِـمُ شَرَعًا فى الوِرْدِ والصَّـدَرِ !

وأَضْعَفَ الرُّعْبُ أيْدِيهِـم فطَعْنُهُمُ * بالسَّـمْهَرِيّةِ مِثْـلُ الوَخْزِ بالإِبَرِ !

لاجرمَ أنّهم لِسنِّ النّدم قارِعُون ، وعلى مقابَلَةِ إحساننا بالإساءة نادِمُون .

تَدرّعُوا بِدُروعِ البَـغْيِ سابغة * والمَرْءُ يَحْصُدُ من دُنْياه مازَرعا !

فأقلعتْ بهم طَرَائقُ الضَّـلال ، وسارتْ مراكبُ أمانيِّهم فى بِحَار الآمال ، فتلك آمالٌ خائبه ، ومراكبُ للظُّنُون عاطِبه ، وأقلَعُوا فى البحر بمرَاكبه ، والبَرّ بموَاكبه ، وساروا ولِلشيطان فيهم وَسَاوِس ، تغرُّهم أُمْنِيَّـةُ الظُّنُون الحَوا س ، فما وَسْوسَ الشيطانُ كُفرًا إلّا وأحرقه الإيمـانُ بكوكب (١) هذا وعساكرُ المسلمين مستوطنةٌ فى مَواطنها ، جاذِيةٌ عِقْبانُها فى وُكُورِ ظِباها ، رابضةٌ آسادُها فى غِيل أقْناها ، ماتزَلْزَلَ لمؤْمنٍ قدمٌ إلا وقدم إيمـانه راسخه ، ولاثبتتْ لأحدٍ حجّةٌ إلا وكانت الجمعةُ لهـا ناسخه ، ولا عُقِد[تْ] بُرْجُمة ناقوس إلا وحَلّها الأذَان ، ولا نَطَق كتابٌ إلا وأخرسـه القُرءان ، ولم تزَلْ أخبارُ المسلمين تنتقِلُ إلى الكُفّار ،

(١) بياض بالاصل .

وأخبارُ الكُفّار تنقل إلىٰ المسلمين إلىٰ أنْ خَلط الصّباحُ فِضّته بذَهبِ الأَصِيل، وصار اليومُ كأمْس، ونُسِختْ آيةُ الليل بسُورة الشمس، وٱكتحلتِ الأعينُ بمِرْوَد السُّبات، وخافَ كلٌّ من المسلمين إصدارَ البيات

ينـامُ بإحـدىٰ مُقْلتيْـهِ ويتّقِي ٭ بأُخرىٰ الأعادِي، فهو يَقْظانُ نائمُ!

إلىٰ أن تراءتِ العينُ بالعين، وٱضطرَم نار الحربِ بين الفريقَيْن، فلم ترَ إلا ضَرْبا يجعلُ البَرْقَ نِضْوا، ويترك فى بطنِ كلٍّ من المشركين شِلْوا، حتّىٰ صارت المَفاوِزُ دِلَاصا، ومراتِعُ الظّبا للظُّبا عِراصا، وٱقتنصَتْ آسادُ المسلمين المشركينَ ٱقتناصا، ورأىٰ المجرِمُونَ النارَ فظَنُّوا أنّهُمْ مُواقِعُوها ولم يجِدُوا عَنْها مَنَاصا، فلا رَوضَةَ إلا دِرْعٌ ولا جَدْولَ إلا حُسَام، ولا غمـامةَ إلا نَقْعٌ ولا وَبْلَ إلا سِهَام، ولا مُدَامَ إلا دِماءٌ ولا نَغَمَ إلا صَهِيل، ولا مُعَرْبِدَ إلا قاتِلٌ ولا سَكْرانَ إلا قَتِيل، حتّىٰ صار كافُورُ الدِّين شَقِيقا، وتلوّنُ الحَصْباء من الدّماء عَقِيقا، وضَرَبَ النقْعُ فى السماء طَرِيقا، وٱزدحمت الجنائبُ فى الفَضاء فجعلتْه مَضِيقا، وقُتِل من المشركين كلُّ جبّارٍ عَنِيـد، ذلك بمـا قدّمَتْ أيْدِيهم ﴿وما رَبُّكَ بظَلّامٍ للعَبِيد﴾ .

قلت : وهذه النسخة تلقّفْتها من أفواه بعض الناس، ذكر أنه وجدها فى بعض المجاميع فحفظها منـه، وهى فى غايةٍ من البلاغة، إلا أنهـا لاتخلُو من تغْيـير وقع فى بعض أماكنها، ولعـله من الناقل لهـا، من حيثُ إنه ليس من أهـل هـذه الصـناعة . ولم يسَعْنى تركُ إيرادها لمـا فيها من المحاسن، ولانفرادِها بأُسْـلوب من الأساليب التى كتب بها إلىٰ ملوك اليمن، فأوردتُها علىٰ ماهى عليه، وجزىٰ الله خيرا من ظَفِر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصحّحها وأصلح مافيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ما جرى عليـه فى " التثقيف " أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ
أعزّ الله تعالى أنصار المَقام العالى)

صدره على ما ذكره فى "التثقيف" أعزّ الله تعالى أنصار المقام العالى، السلطانىّ، المَلَكى، الفلانى، الفلانى، مثل أن يقال : الأفضلىّ السيْفى ؛ ثم الدعاء ، ثم يقال : أصدَرْناها وتُبْدِى لعلمه الكريم كذا وكذا . قال فى "التثقيف" والمكاتبة اليه فى قَطْع النصف والطلب منه «والقصد من المقام العالى» وخاتمة الكتّاب بالدعاء ، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب اليمن» . وفى دُستور المقرّ الشهابىّ بن فضـل الله أنّ خطابَه يكون بالمقام العالى .

وهذه نسخة كتاب إليه ، ذكر المقرّ الشهابى بن فضل الله فى تذكرته أنه أنشأها جوابا عن هديتـه ولم يكتُبْ بها إليه ، وهو يومئذ الملكُ المجاهد سيفُ الدين علىّ آبن داود .

أعَزّ الله تعالى أنصارَ المَقام العالى، ولا زالتْ مكارِمُه تَخُصّ من كلّ نوع بأحسَنِه، وتُتحِف بأزْيدِه وأزْيَنِـه ، وتجلُبُ كلَّ غريبِ الديار من وَطَنه ، وتمنَح من السّوابق بمـا تَمتدّ المجرّةُ فى رَسَنه ، ومن المحاسن بما يُمْلِى على (علىّ) أوصاف حُسْنه ، ويُعْرِب عن الفَرَس والسيف والرمح بأطْيبِ لحنْ فى نصبِه وجَرِّه ورَفْعه .

صـدرت إلى المقام العالى أعزّ الله جانبَه تصِـلُ بوداده ، وتَصِـفُ حُبًّا عَلِق بفُؤاده ، وتعرّض بِبُرَحاء يمنيّـة أحلام الكرى طمعًا أن يرى طيفـه فى رُقاده . وتبـدى أن كتابه الكريمَ ورد جالبا لِدَرّ مِنَنه ، جالبًا لليُمْن من يَمَنه ، نافحًا بالطّيب

من عَدَنِه ، ناقِدًا من قوّة السيوف بمـا لايَدَّعِيه ٱبنُ ذِى يَزَنِه ، فتُؤمِّل ما حوىٰ من كَرَم لايُجارىٰ ، ونِعَم تملأ البَرَّ برًّا والبِحارَ بِحارا ، وأبدَعَ فى الهبة التى قدر مُهْدِيها[(١)] ، وقدّر فيها من التُّحَف مالا يُوجَد إلا فيها ، وجاء بكلّ ما يستعين به المُرابِط ، وتهتزّ به الخزائنُ والمَرابط ، وتفتخِرُ من الرِّماح بكل معتدِل قاسِط ، و بمـا يُرْدِى العِـدَا من أسِنَّته بكلّ نَجْم هابط . كَمْ لهـا من فعلٍ جميل لايُشَارَك ، وكم قال طَعِين : إنّ لهـا كَعْبا مُدَوَّرا وما قَدَر الطاعِنُ أن يقولَ إلا أنها كَعْبٌ مبارَك . ومن السُّـيوف بمـا لايُطْبِع النهر فى نَصْـله ، ولا يَطْمَع البرق فى مناضَلَةِ مِثْـله ، ولا يطمَحُ الهلال أن يستقِيمَ علىٰ شَكْله ، كم أخمدتْ أنفاسا ولهـا ٱلْتِهاب ، ولَمَعَتْ من نواحى الغُمُود كما نصلَتْ أنمُلٌ من خِضاب . ومن الخيل بما ترْقُص فى أعِنّتها ، وتفتخِرُ علىٰ البُدُور بأنها تَدُوسُ علىٰ أهلَّتها : من كلّ أشهبَ يُحْسِنُ ٱبتِـدارا ، ويُحْسَبُ قمرًا قد تكمّل إبدارا ، ويُطْلِـع فى كلّ ناحيةٍ نَهارا جِهارا . وأدهَمَ قد غَصَب الظلام ، وٱستدارت غُرَّتُه فأسفَرَ وجهُه تحتَ بُرْقُع من لِثام . وأحْوىٰ أخضَرِ الجلدة من بَيْتٍ للعرب ، قد حَوىٰ من الروض ماسَلَب . وكُمَيْت يَنْضُو النقْعَ وهو سَبُوق ، وتقدّمَ فى مَيادِينه بِجَاء مضمَّخا بالخَلُوق . وأشقَرَ قد كشَفَ البَرْق عِذاره ، وأطار الرَّكْضُ منه شَراره ؛ ومعها كلُّ فِيـلٍ كأنه غَمـام تبدّى ، أو مَلِكٌ مُفَدّى ، بخُرْطُوم يرتدُّ كالصَّوْلجان ، و يمتدُّ كالأفْعُوان ، و يهُولُ مَنْظَرُه كأنه من تمَـام الخَلْق بُنْيان ، و يتحرّكُ فتحْسَبُه كَمّ راقصة تُشِير به إلىٰ النُّدْمان ، تقشعِرُّ منها الجلود ، وتقتُلُ نَفْسَها بنِيران الحِقْد محافَظةً علىٰ عُهود الهُنُود ، كم أحسنَتْ بخَراطِيمها لهـا من صُـدُورها الضـيِّقة مَخْرَجا ، وأضاءتْ من فُروجها بين أنيابها طُرّةَ صُبْح تحتَ أذيالِ الدُّجىٰ ، وزَرَافة ، لها إنافة ، كأنّها شَفَقٌ بينه نُجُوم ، أو بُروقٌ تكلّلتْ بقَطْر الغُيوم ، لهـا فى المَدْخَل علىٰ القُلُوب

(١) لعله التى دلت على الخ تأمل .

حذاقه، وولُوج من بابٍ ودُخُولٌ من طاقه. وحمارةٍ وحشيّة جاءتْ بوَصْف الرَّبيع في اعْتدالِ الليـل والنّهار، وجمعتِ الهـالاتِ والأقمـار، ودلّتْ على أصلٍ كريم تفتّحتْ في فُروعه الأزهار، وحكَتْ بخُطوطها الدَّوْح مما تراكم ظِلُّه فأظلم وانفرج فأنار. ونَمِرٍ يُؤلِّف على نِفاره، ويَنْسَخُ ليلُه في أنهارِ نَهاره، يتدفّق في مثل أنبوب القَناة المضْطَمِر، ويُصَدّق من شَبّه رُكُودَ الرُّبَا على الرِّمال بقِطْعـةٍ من جِلْدة النّمِر. وقِطّ الزَّبَاد الذي لاتحكيه الأُسُودُ في صُوَرها، ولا تسمَحُ غِزْلانُ المِسْك بما يَخْزُنه من عَرْفـه الطيِّب في سُرَرِها؛ كَمْ تَنَقّل في بيوتٍ وطابَتْ مَوْطِنا، ومشى من دار أصحابه فقالوا: رَبَّنَا عَجِّـلْ لَنَا قِطَّنَا، وكذلك من الطِّيب ما يَطيب، وما يَزُور بنَفْحه الحبيب؛ قد بعثَ أكْبَره، وأفاد أكْثَرَه، واستخدم المتنعّمون به صَنْدَلَه وكافُورَه وعنْبَرَه. وغير هذه الأنواع مما جاد بإرساله، وأتى من كلِّ بديع به وبأمثاله؛ فقُوبلتْ بالقَبول هذه التُّحَف، وأُكرِمَتْ إكرامَ مَنْ لها عَرَف و[بها] اعترف، وحُمِد سحابُه الذي تسرّعتْ مَوَاطِره، وبعثَتْ من طُرَفها بالروض وما تنوّعَ عنه أزاهِرُه، وشرعت بما اتّصلتْ بمصر أوائلُه و باليَمَن أواخرُه؛ والله تعالى يشكُرُ هِمَمَه التي تعالَتْ، وشِيَمَه العَلَويّةَ التي لأجلها المحامدُ قد توالَتْ. وقد جَهّزنا له من التُّحَف المنعم بها ما أمكن تعجيلُ حَمْله، وجرتْ عوائدُ ملوك الأقاليم بالتشريف من خزائننا العالية بمثله؛ وحمّلنا رُسُلَه من السلام ما تَعْبَقُ به الفِجَاج، وتعذُبُ به البحار وهي مِلْحٌ أُجَاج. والمرادُ منه أن يواصلَ بمكاتباته التي تتناوبُ الصُّدُور، وتنوب عن لَمْحَة البُدُور، وتَنُوبُ بما تَقَدّمُ به من السرور؛ والله تعالى يُديم لسلطانه التأييد، ولمُلْكه التأبيد، ولاقتداره مابه تَعِزُّ تَعِزُّ وتَمِيدُ زَبِيد. إن شاء الله تعالى.

فائدة — المكاتبـةُ إلى صاحب اليمن عن وليّ العهد بالسلطنة كالمكاتبةَ إليـه عن السلطان نفسه في جميع المكاتبة على السَّواء.

وعلى ذلك كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر عن « الأشرف خليل ابن قلاوون » قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، بالبشرى بفتح طرابُلُس .

وهذه نسخته :

أعزّ الله تعالى نُصرةَ المقام! وأوفَدَ عليه كلّ بُشرى أحسَنَ من أختها، وكلّ تهنئة لايجلّيها إلا هو لوقتها، وكلّ مُبهِجة يَعجز البنانُ والبيانُ عن نَبتها ونَعتها، وتبلّج فَتودُّ الدُّرر والدّرارىّ لو رَقَتْ هذه إلى تَرَقّيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها . وصبّحه منها بكل هاتفة أسمَعَ من هَواتف الحمائم، وبكل عارفة أسرَعَ من عَوارِف الزَّهر عند عَزائم النَّسائم، وبكلّ عاطفة أعِنّـةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكرت الصِّفاحُ منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرَمَ قادم، والغزوِ الذى لا يخُصّ تِهامةَ بِبُشراه بل جميعَ النُّجود والتّهائم، وذوى الصّوارم والصّرائم، وأولى القُوى والقوائم، وكلّ ثغر عن ابتهاج الإسلام باسم، وكلّ بَرٍّ برٍّ بتوصيل ماترتّب عليه من مَلاحم، وكلّ بحرٍ عَذْبٍ يمونُ كلّ غازٍ لايخيس عن جِهاد الكُفّار فى عُقر الدّار الشّكائم، وكلّ بحرٍ مِلحٍ كم تغيّظ من مجاورةِ أخيه لأهل الشرك ومشاركتِهم فيه فراحَ وموجُه المتلاطِم .

المملوكُ يَخْدُم خدمةً يقتَفى فيها أثرَ والده، ويجرى فى تجميلها على أجملِ عوائده، ويستفتح فيها آستِفتاحًا تَحُفُّ به من هُنا ومن هُنا تُحَفُ محامِده، ويصِفُ وَلاءً قد جعله الله أجملَ عُقوده وأكملَ عقائده، ويَشْفَعُها باخلاصٍ قد جعله مَيْلُه أحسن وسائِله وقلبُه أزينَ وسائده، ويُطْلِعُ علمَه على أنّ من سَجايا المتعرِّضين إلى الإعلان بشكر الله تعالى فى كلّ مايعرِضُ للمسلمين من نصر، ويُفْتَرَض لهم من أجرِ غزوٍ كم قَعَد عنه مَلِك فيما مضى من عَصر، أن يَقْدُروا هذه النعمةَ حقّ قَدْرِها من التحدُّث

بِنعمتها ، والتنبيه بسَماع نَغَمتِها ، وإرسال أعِنّة الأقلام بها فى ميادين الطُّروس ، وإدارة حِرْباءِ وصفِ حَرْحرب (؟) إلى مُواجَهة خير الشُّموس .

ولما كانت غَزَواتُ مولانا السلطانِ ملكِ البسيطة الوالدِ خَلَّد الله سلطانه قد أصبحتْ ذِكْرىٰ للبَشَر، ومواقِفُه للنصر كم جاءتْ هى والقَدَرُ علىٰ قَدَر، وقد صارت سِيَرُها وسَيْرُها هذه شَدْو فى الأسمار، وهذه جادّةٌ تَستطِيبُ منها حُسْنَ الحَدْو السُّفّار، فكَمْ قاتلتْ مَنْ يليها من الكُفّار، وكم جعلَتْ من يُواليها وهو مَنْصُورها منصورا بالمهاجِرين والأنصار .

ولمّا أذلّ الله ببأسها طوايِفَ التّتار فى أقاصِى بلادِ العَجَم ، وجعلَ حَظّ قلوبهم الوَجَع من الخَوف ونَصِيبَ وجُوهِهم الوجَم ؛ وأخلىٰ الله من نُسُورهم الأوكارَ ومن أُسُودهم الأَجَم ، وقَصَّرتْ بهم هِمَمُهُم حتّى صارُوا يخافُون الصُّبحَ إذا هَجَم ، والظّنَّ إذا رَجَم ؛ وصارتْ رُؤيةُ الدماء تُنْزِعُهم فلو آحتاج أحدُهم لتنقيص دم لمرضٍ لأَجْنَح من خَوْفه وما آحتَجَم . وأباد الله الأرمنَ لحل بالنّبيل منهم الوَيْل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلاميّة عن ساعد إلا وشمّر هو من الذّلّ الذيل ؛ ولا أثارتِ الجِيادُ من الخيل عِثيرًا منعقِدا إلا وظَنّوه مَساءً قد أقبل أو لَيْل، وآنتهتْ نوبةُ القتل بهم والإسَار إلىٰ التكفور ليفون ملك الأرمن الذى كان يحمِى سَرْحَهم، ويمُدّ صَرْحهم ، ويستنطِقُ هَتْفَ التّتار ويسترجِع صَدْحَهم ؛ وتعتزّ طرابُلُس الشام بأنّه خالُ آبْنِها الكافر، ولسان شُورته السّفِير ووجهُ تدبيره السّافر . وطالَما غَز وأغْرىٰ ، وأجَرّ وأجْرىٰ وضَرّ وأضْرىٰ ؛ فلما توكّل مولانا السلطان وعزم فتوكّل ، وتحقّق أنّ البلاء به قد نَزَل وما تشكّك أنّ ذلك فى ذِهن القَدَر قد تصوّر وتشكّل ؛ وأنّ يومَه فى الفَتْك سيكونُ أعظَمَ من أُمنِيّته ، وأعظمُ منهما مُعاداة غَده ،

وأنَّ نصر الله لن يُخلِفه صادقُ وعده، أكَل يَدَه ندامـةً على ما فرّط فى جَنب الله وساق الحَتْف لنفسه بيده، فعمّر الله بُروحه الخبيثة الدَّرْك الأسفلَ من النار، وسقاه الحَتْف كأسًا بعد كأس لم يكن لها غَيرُ المَلَك من خمّار . وكانتْ طرابُلُس هى ضالّةَ الإسلام الشّريده، وإحدى آبقاته من الأعوام العَديده، وكلما مرّتْ شمختْ بأنفها، وتأنّقتْ فى تحسين منازه مَنازِهها وتزيين رَيْحانها وعَصْفها، ومرّتْ وهى لاتغازلُ مَلِكا بطَرْفها ، وكلّما تقادَمَ عهـدُها تكثّرت بالأفواج والأمْواج من بين يَدَيْها ومن خَلْفها . إذ البحرُ لها جِلْباب والسَّحابُ لها خِمار، وليس لها من البَرّ إلا بمقدار ساحة الباب من الدار، كأنها فى سِيف ذلك البحر جبَلٌ قد آنحطَ، أو مَيلُ آستواءٍ قد خرج عن الخَطّ، وما قصد أحدٌ شطَّها بنكاية إلا شَطّ وآشتطّ .

قدّر الله تعالى أنْ صَرفَ مولانا السلطانُ إليها العِنَان، وسبَق جيشُه إليها كلَّ خبَر و"ليس الخبرُ كالعِيَان"، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد حرسته عيونُها وتلك المَخاوفُ كلُّها أمان، وقد آتّخذ من إقدامه عليها خيرَ حبائلَ ومن مُفاجاته لها أمدَّ عِنَان، وفى خِدْمته جنودٌ لاتستبعِدُ مَفازه، وكم راحتْ وغدتْ وفى نفسها للأعداء حَزازه، فامتطَوا بخيولهم من جبال لُبْنانَ نِيجانًا لها صاغتها الثُّلوج، ومعارجَ لامُرافِق بها غيرُ الرياح الهُوج، وآنحطّتْ تلك الجيوشُ من تلك الجَنادل، آنحطاطَ الأجادل، واندفعُوا فى تلك الأوْعار، اندفاعَ الأوعالِ، ولم يحفِلْ أحدٌ منهـم بسَرْب لاصق، ولا جبلٍ شاهق، فقال : أهـذا منخفضٌ أو عال، وشرَعُوا فى التحصيل لما يُوهِى ذلك التحصين، وآبتنَى كلٌّ سورا أمامَ أسوارها من التدْبير الحسَن والرأْي الرَّصين، فما لبثوا إلا بمقدار ماقيل لهم دُونكم والآختطاب ، ونقَل المجانيق على الخيلِ وعلى الرقاب ، حتى جرّوها بأسرَعَ من جرّ النَّفس ، وأجْروْها على الأرض سفائنَ وكم قالوا : السَّفينةُ لاتجرى على يَبَس ، وفى الحال نُقِلَتْ إليها فرأَوْا من

متوقلها مَنْ يمشى بها على رجلين ومنهم مَنْ يمشى على أربع ، ووجهت سهامُها وجُوهَها إلى منافذها فما شُوهدتْ منها عينٌ إلا وكان قُدامَها منها إصْبَع ، وألقيت العَداوةُ بين الحجارةِ من المجانيق والحجارة من الأسوار ، فكم نقبت ونقبت عن فلذة كبدها ، عن (١) وأوقدت نيرانُ المكايد ثم فكم حولها من صافن ومن صافر ، وكم رمتهم بشَرر كالقصْر فوقع الحافرُ كما يقال على الحافر ، وما برحت سُوقُ أهلِ الإيمان فى نَفاق ، على أهل النفاق ، وأكابرُهم تُساقُ ، أرواحهم الخبيثةُ إلى الساق .

وكان أهلُ عكّا قد أنجدوهم من البحر بكل بَرّ ، ورمَوا الإسلام بكل شَرر وبكل شَرّ ، فصار السهمُ الذى يخرُجُ بها لا يخرج إلا مقترنا بسهام ، وشُرفاتُ ذلك الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة مَنْ بها لا تفترّ عن ابتسام .

وما زالتْ جنودُ الإسلام كذلك ، ومولانا السلطانُ لا تُرىٰ جماعةٌ مقدمة ولا متقدّمة إلا وهو يُرىٰ بين أولئك . واستمرّ ذلك من مستهَلّ ربيع الأول إلى رابع ربيع الآخر ، فزحف إليها فى بُكْرة ذلك النهار وهو الثلاثاء زَحْفا يقتحِم كُلَّ هَضْبة ووَهْده ، وكلَّ صُلْبة وصَلْده ، حتى أنجز الله وعْدَه ، وفتحها المسلمون مجازًا وفى الحقيقة فتحها وَحْده ، وطلعتْ سناجِقُ الإسلام الصُّفرُ على أسوارها ، ودُخلتْ عليهم من أقطارها ، وجاستِ الكسابة إلى ديارها ، فاحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا ، وما كان يكون له فى فتحها شريكٌ وقد نفىٰ عنها شِركا ، وكلّما قيل هذه طرابُلُس فُتحتْ قال النصرُ لمن قُتل فيها من النَّجد الواصلة : واكثر عكّا وأهلَ عكّا ، وأعاد الله تعالى بها قوّةَ الكفر أنكاثا ، فكان أخذُها من مائة سنةٍ وثمانين سنةً فى يوم ثُلاثا ، واستُرِدَّت فى يوم الثُّلاثا .

---

(١) بياض بالأصل .

ولما عمّت هذه البشائر، وكل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلى حسان هذه العرائس، ويستحلى نفيس هذه النفائس.

سيّر مولانا السلطان إلى المولى كلّ بشرى تقعقع بها البريد، لتتلى بأمره على كلّ من ألقى السمع وهو شهيد؛ وكما عمّ السرورُ بذلك كلّ قريب قصد أن يعمّ الهناءُ كلّ بعيد.

وأصدر المملوكُ هذه الخدمة تجرّب بين يديه نجواها، ويتوثّب بعد هذه الفاتحة المباركة لكلّ سانحة يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها؛ لابرح المقامُ العالى يستبشر لكماة الإسلام بكلّ فضل وبكل نُعمى، ويفرح بترح الكفر إذا أثمك وبسفح الملك إذا يُحمى، وبسمع الشرك إذا يُصمّ وبقلبه إذا يُصمى؛ والله الموفق.

الجملة الثانية

(فى المكاتبات إلى عرب البحرين ومن انضاف إليهم)

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنّ بلاد البحرين لم تزل بيد العرب، وأنها صارت الآن بيد بنى عُقَيل -بضم العين- من بنى عامر بن صعصعة، من هوازن، من قيس عيلان، من العدنانية. قال فى " التعريف ": ومنهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصولَ التجّار، يجلبون جيادَ الخيل وكرام المهارى واللؤلؤ وأمتعةً من أمتعة العراق والهند، ويرجعون بأنواع الحباء والإنعام والقماش والسكّر وغير ذلك؛ ويُكتب لهم بالمسامحة فيردون ويصدرون. قال: وبلادهم بلاد زرع وضرع، وبرّ وبحر، ولهم متاجر مُربحة، وواصلهم إلى الهند لاينقطع، وبلادهم مابين العراق والحجاز، ولهم قصور مبنيّة، وآطامٌ عليّة، وريفٌ غير متّسع، إلى مالهم من النَّعم والماشية، والحاشية والغاشية؛ إلا أنّ الكلمة قد صارت بينهم شتّى،

والجماعةَ متفرّقة . وقد سبق الكلامُ علىٰ بلادهم مستوفىً فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلىٰ كُبرائهم «السامىّ» بالياء . والعلامة الشريفة «أخوه» ثم مادُونَ ذلك لمن دُونَهم .

وآعلم أنه فى "التثقيف" قد جمع بين عَرَب البحرين وعربِ البصرة وما وَالىٰ ذلك ، وجعل المكاتبةَ إليهم علىٰ ثلاث مراتِبَ .

المرتبة الأولىٰ — مَنْ يكتب إليه «السامىّ» بالياء والعلامةُ الأسم ، وذكر أنّ بها يكاتَب أميرهم ، وسماه حينئذ « صَدَقة بن إبراهيم بن أبى دلف » وأن تعريفه فلان بن فلان . وذكر فى رتبته فى المكاتبة يومئذ محمدَ بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلىّ بن منصور .

المرتبة الثانية — من يكتب إليه « السامى » بغير ياء والعلامة الأسم . وذكر منهم بَدْرانَ بنَ مانع ـ رُومِىّ بن أبى دلف ـ زَيْنُ بن قاسم ـ يُوسُف بن قاسم ، سَعيد بن مَعْدى ـ راشد بن مانع ـ عيسىٰ بن عَرَفة ـ ظالم بن مُجَاشع ـ إسماعيل آبن صوارى ـ كَلْبى بن ماجد بن بَدْران ـ مانع بن علىّ ـ مانع بن بَدْران .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه « مجلس الأمير » والعلامة الأسم . وعدّ منهم جماعةً ، وهم عظيم بن حسن بن مانع ـ موسىٰ بن أبى الحسن ـ سعد بن مُغَامس ـ زيد بن مانع ـ هلال بن يحيىٰ ـ معمر بن مانع ـ محمد بن خَلِيفة .

قلت : وحاصلُ ماذكره فى "التعريف" و"التثقيف" أنّ جملةَ المكاتبة إليهم لاتجاوزُ المراتبَ الثلاث المذكورة ، والكاتبُ يستخبِرأخبارَهم فى المِقْدار ، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم علىٰ قَدْرِ مرتبته من ذلك كما فى الأسماء المتقدّمة الذكر .

المَهْيَـــعُ الرابع

(فى المكاتبة إلى صاحب الهِنْد والسِّنْد)

وقد ذكر فى "التعريف" أن صاحبــه فى زمانه كان ٱسمُه أبا المجاهــد محمدَ بن طُغْلُقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقًا وغَرْبا وجَنُوبا وشَمـالا ، وبَرًّا وبحرا ، وسَهْلا وقَفْرا ؛ وأن سِمَته فى بلاده « الإسكندر الثانى » ثم قال : وتالله إنه يستحِقُّ أن يسـمَّى بذلك ويُوسَم به : لاتِّساع بلاده ، وكَثْرة أعْدادِه ، وغُزْر أمداده ، وشَرَف مَنابت أرضه ، ووُفُور معادِنه ، وما تنبتُه أرضُـه ، ويُخْرِجه بحره ، ويُجْبىٰ إليه ، ويَرِدُ من التُّجّار عليه . وأهلُ بلاده أممٌ لاتُحصىٰ ، وطوائف لاتُعَدّ . ثم حكىٰ عن قوم ثقات منهـم قاضى القُضاة سِراجُ الدين الهنـدىّ الحنفىّ ، وهو يومئـذ مدرِّس البِيدُمريَّة بالقاهرة ، والتاجُ البَزّى ، والشيخ مبارك الأنْبايِّى : أن عسكرَ هذا السلطان نحوُ التسعمائة ألف فارس ، وعنده زُهاءُ ألفَىْ فِيل يقاتِل عليها ، وخَلْقٌ من العبيد تقاتِلُ رَجّالة مع سَعَة المُلْك والحال ، وكَثْرة الدَّخْل والمال ، وشَرف النَّفْس والإباء ، مع الاتِّضاع للعلمـاء والصُّلَحاء ، وكثْرةِ الإنفاق ، وعميم الإطلاق ، ومعامَلةِ الله تعالىٰ بالصَّدَقه ، وإخراجِ الكِفَاية لمرتَزِقه ، بمرتَّبات دائمة ، وإدْرارات متَّصِـلة ؛ بعـد أنْ حكىٰ عن رسُولَيْـه دميرخوان(1) وافتخار ما قال : إنه لو سكنتِ النفوسُ الى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجائب ، وحدَّث عنه بالغرائب ؛ ثم ذكر أنه أرسل مَرَّة مالا برَسْم الحرمين وبيتِ المَقْـدِس ، وهديةً للسلطان تزيد علىٰ ألف ألف دينار ؛ فقُطِع عليها الطريقُ باليمن ، وقُتِـل مُحضِرُها بأيدى ممـاليك صاحب اليمن ، لأمرٍ بُيِّت بليل ؛ ثم قُتِل قاتلُوه ، وأخذ أهل اليمن المـالَ وأكلوه ؛

(1) فى التعريف ص ٤٩ دمترخوان والافتخار.

وكتب عن السلطان إلى صاحب ايمن فى هذا كتاب منه « وقد عدّدت عليه فَعْلته » وقيل فيه : « وفعَل مالا يَليق ، وأمسى وهو يُعَدّ من الملوك فأصبح يعدّ من قُطّاع الطريق » . وقد سبق فى الكلام (١) على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعِظَم قَدْر رجالها مافيه كفايةٌ عن الإعادة .

قال فى " التعريف " : ورسمُ المكاتبة إليــه رسمُ المكاتبــة إلى القانات الكِبار المقدَّم ذكرهم ، فى هيئة الكتاب وما يُكتب به والطُّغْراة والخُطْبة . وألقابه « المقام الأشرفُ، العالى، المَوْلوِىّ ، السلطانىّ ، الأعظمىّ ، الشاهنشاهىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المرابطىّ ، المثاغرىّ ، المظفّرىّ ، المؤيَّدىّ، المنصورىّ، إسكندرُ الزمان، سلطانُ الأوان، منبع الكرم والإحسان، المَعفّى على ملوك آل ساسان، وبَقَايا أفراسياب وخاقان، ملكُ البسيطة ، سلطانُ الإسلام، غياثُ الأنام ، أوحدُ الملوك والسلاطين » ويُدعى له . قال : ولم يكتب إليــه فى ذلك الوقت لقبٌ ينسب إلى الخلافة نحو « خليل أمير المؤمنين » ومايجرى هذا المجرى، إذ كان قد بلغنا أنه يَرْبأ بنفسه إلى أن يدّعى الخلافه، ويرى له فضْل الإنافه .

قلت : مقتضى ماذكره فى "التعريف" حيث قال : إن رسم المكاتبة إليه رسم المكاتبة إلى القانات الكبار فى هيئة الكِتاب وما يكتب به، والطُّغراة والخُطْبــة، أن المكاتبة إليه تُفتتح بخُطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» كما تقدم فى افتتاح المكاتبات إلى القانات . والذى ذكره فى " التثقيف " أن المكاتبة إليه تكون فى قَطْع البغدادىّ الكامل بالذهب والأســود، كما جرت العادةُ به، يعنى فى كُتُب القــانات، إلا أنه جعــل رسْم المكاتبة إليــه : « أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام ، العالى ، السلطانىّ ،

(١) فى الأصل وقد سبق القول فى الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالمىّ، العادلىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» . ثم قال : وهذه الألقابُ سطران كاملان وبينهما بيت العلامة على العادة، وبعد السطرين المذكورين فى الجانب الأيمن من غير بياض «أبو المُجاهد محمدُ ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمته» . ولا يذكر لقبه . والدعاء، والعلامة «أخوه» . وتعريفه «صاحب الهند» . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير على هذه الصورة :

أعـز الله تعـالى أنصـار المقـام العـالى

بيت العلامـة

السـلطانىّ، العـالمىّ، العـادلىّ، المـلكىّ، الفـلانىّ

قال فى "التعريف" : والعُنوانُ جميعُه بالذهب وهو سطران، وتعريفه «صاحب الهند» . وبقية الكتاب بالسواد والذهب أسوةَ القانات؛ وبه يُشْعِر كلام "التعريف" فيما تقدّم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يليق به، ذكره فى "التعريف" وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُبِيرا، وزمانُه بما يقضى به من خُلُود مُلْكه خبيرا، وشانه وإن عَظُم يتدفّق بحرا ويُرْسِى ثَبِيرا، ومكانُه وإن جلّ أن يحلّيَه مِسْكَ الليل يملأُ الأرجاءَ أَرَجًا والوجودَ عبِيرا، وإمكانُه يستكين له الإسكندر خاضعًا وإن حاز نَعِيما جَمًّا ومُلْكا كبيرا، ولا برِحَتِ الملوك بولائه تتشرّف، وبآلائه تتعرّف، وبما تَطْبَعُ مهابَتُه من البيض ببِيض الهند فى المُهَج تتصرّف . المملوكُ يخدُم بدعاء يحلّق إلى أفقه، [ويُحِلّ العلياءَ والمجرّةَ فى طُرُقه][1]، ويُهْدى منه مايعتدلُ به التاج فوقَ مفرِقه، ويعتدُّ له النّجمُ ولايَثْنيه إلّا وسادة تحتَ مِرْفَقِه؛ ويسمو إلى مقام جَلَاله ولا يسامُ

(١) الزيادة من "التعريف" وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلُّ له إذا ملّت النجوم عن السيرْ، ولا يزال يَصِفُ ملكَه المحمّدىّ بأكثر مما وُصف به المُلْكُ السليمانى، وقد قال: وأُوتِينَا من كلِّ شىْء، وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطير.

قلت: وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد ابتداء المكاتبة بالدعاء، خلافا لما تقدّم أنه مقتضَى تصوير كلامه فى "التعريف".

وٱعلم أنّ فى هذه المكاتبة على ما ذكره فى "التعريف" شيئين قد خالف فيهما قاعدةَ المكاتبات عن الأبواب السلطانية.

أحدهما ـ إتيانه فى "التعريف" فى ألقابه بالمولوى. والثانى ـ قوله فى الصدر المتقدّم الذكر «المملوك يخدم». فقد ذكر صاحب "التعريف" فى كتابه "عرف التعريف": أن السلطان لا يكتب عنه فى العلامة «المملوك» وإنما خالف القاعدةَ فى ذلك هنا تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاءً لرتبته، حيث قال فى أوّل كلامه: إنه أعظمُ ملوك الأرض على ما تقدّم ذكره، فعبَّر عن مقامه بما يليقُ به، وخاطبه بما يليق بخطَابه، كما تقدّم أنه كان يُكْتَب إلى أبواب الخلافة «المملوكُ» أو «الخادم يتنهبُ ثرَى الأعتاب» أو «يقبّل الأرض» ونحو ذلك تعظيما لمحل الخلافة، لا سيما وقد تقدّم أن صاحب الهند حينئذ كان يدّعِى الخلافةَ، إلا أنّ نظام هذا الملك قد ٱختلَّ ونقَصَ عمّا كان بموت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفى، وٱستقر مكانه ٱبن خالتِه فَيْرُوز شاه.

ولعل المكاتبةَ التى ذكرها فى "التثقيف" إنما رُتِّبت على حُكْم ما كان فى أيامه بعد[(١)] ذكر المكاتبة المذكورة، بعد أن ذكر أنّ محمد بن طغلقشاه مات وقام فَيْرُوز شاه

(١) لعل هذه البعدية برمتها من زيادة الناسخ أو طغيان القلم كما لا يخفى.

مَقامه ، إلا أنه مثل المكاتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضى أن يكون هو المعنيَّ بالمكاتبة . ثم تفرقتِ المملكةُ بعد ذلك فى سلطانين ، فيما اخبرنى به بعضُ أهل الهند، ثم تزايد نقصُها بعد أن غزا[ها] تمرلنك وغلَب عليها ، ثم نزح عنها . وبكل حال فلاينبغى أن يقصَّر بصاحب الهند عن رُتْبة القانات . ولم أقف على نص مكاتبةٍ كتب بها إلى صاحب الهند فأذكُرَها .

المقصد الثانى

(من المصطلح المستقرّ عليه الحال من المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية فى المكاتبات إلى ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(فى المكاتبات إلى صاحب أفريقيةَ ، وهو صاحب تُونُس ، وتنضم إليها بجايةُ وقُسَنْطِينةُ تارةً، وتنفرد عنها أخرى)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أنّ حدّ هذه المملكة غَرْبا من جزائر بَنِى مِزْغَنّانَ إلى عقبة بَرْقة الفارقة بين طرابُلُس وبين بَرْقة ، وهى نهايةُ الحدّ الشرقى ، ومن الشام البحرُ[1] ، ومن الجَنُوب آخر بلاد الجريد والأرضُ السَّوّاخة ، إلى ما يُقال إنه موقعُ المدينة المسمّاة بمدينة النُّحاس . ثم قال : وهو أجلُّ ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدّم هُنَاك أيضا ذكر حال مملكتها ومَنْ ملكها جاهلية وإسلاما ، وأنها كانت قبلَ الإسلام بيد البَرْبَرِ حين كان معهم جميعُ المغرب، ثم انتزعها منهم الرُّوم

(١) أى الرومى كما تقدم فى ج ٥ أثناء الكلام على مملكة تونس .

والفَرَنْج إلىٰ أن آنتهتْ حالَ الفتح الإسلاميّ إلىٰ جرجيس ملك الفَرَنْج فى جملة ممالك المغرب، ودارُ مُلْكه يومئذٍ سُبَيطَلَةُ، إلىٰ أنْ فُتحت فى خلافة عثمان رضى الله عنه علىٰ يدِ عبدِ الله بن أبى سَرْح، وتوالتْ عليها نوّاب الخُلَفاء، وصارتْ دارُ المملكة بها القَيْروان حتّى صارَتْ منهم إلىٰ [بنى الأغلب](1) ثم إلىٰ العُبَيْدِيين بنى عبيد الله المهدىّ، ثم الموحِّدين أصحاب المهدىّ بن تُومَرْت، وهى بأيديهم إلىٰ الآنَ . وهى مستقرّة الآنَ بيد الحَفْصِيِّين منهم، وهم يدَّعون النسبَ إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه فيقولون : أبو حَفْص عمرُ بن يحيىٰ بن محمد بنِ وانُّود بن علىّ بن أحمد بن والآل بن إدريس بن خالد بن اليَسَع بن إلياس بن عُمر بن وافتن آبن محمد بن نُجَيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمُون بها من بنى أبى حفص يدَّعُون الخلافةَ، ويُدْعىٰ القائم منهم فى بلاده بأمير المؤمنين، وربّما كاتبه بها بعضُ ملُوك المغرب. قال فى "التعريف" : ومن أهل النسب من يُنْكِر ذلك، ويجعلُهم تارةً ينتَسِب إلىٰ عَدِىّ بن كعب : رهْط عمرَ بن الخطاب دُونَ بنى عمرَ. ومنهم من ينْسُبهم إلىٰ هَنْتَاتَةَ من قبائل البربر بالمغرب، وهى قبيلة عظيمةٌ مشهورة .

وهى الآن (إلىٰ حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبى فارس عَزُّوز ، وقد دوَّخَ البلاد وأظهر العدلَ ورفَع منارَ الإسلام . وقد ذكر فى "التعريف" أنَّ السلطان بها فى زمانه كان المتوكِّل علىٰ الله أبو يحيىٰ أبو بكر .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" أن يُكتَب بعد البسملة . «أما بعد حمدا لله» بخطبة مختَصَرة فى مقتضىٰ الحال ، ثم يقول فهذه المفاوضةُ، أو النجوىٰ، أو المذاكَرة ، أو المطارَحة، أو ما يجرِى مَجْرىٰ ذلك، تُهْدى من طِيب السلام (ومن

(١) بيض له فى الاصل والتصحيح مما تقدم فى ج ٥ ص ٢٢ .

هذا ومثله) إلى الحضرةِ الشريفة ، العليّـة ، السنية ، السريّة ، العاليّة، العادليّة، الكامليّة ، الأوحدية ، حضرة الإمارة العَدَوِيّة ، ومكان الإمامة القُرَشيّة، وبقيةِ السُّلالة الطاهرة الزكيّة، حضرة أمير المسلمين ، وزعيم الموحِّدين، والقائم في مصالح الدنيا والدين، السلطانِ السيِّد الكبير، المجاهد، المؤيَّد، المرابط، المثاغر، المظفَّر المنصور، المتوكّل على ربه ، والمجاهد في حبِّه ، والمناضل عن الإسلام بذَبِّه، فلان ويُدْعىٰ له بما يناسب مختصَرا، ثم يذكر مايليق بكرم الجُدُود .

✦ ✦ ✦

صدر آخر — من "التعريف" أيضا :

صـدرت إليه تُهدى إليه من طِيبِ السلام ما ترِقُّ في جانبه الغربيّ أصائلُه ، ويَرُوقُ فيما يَنْصَبُّ لديه من أنهار النّهار جَداوله ، ويحمِلُه لكلِّ غادٍ ورائح ، وتجرى به السُّفُن كالمُدُن والركائبِ الطَّلائح ، وتخصُّ ذلك المقرّ منه بثناءٍ يعِزُّ لأن يُنِيبَ لبُعْده الدار ، ويستطِلع ليلُ العِراق به من فَرْق أفْرِيقيّة النهار ، وتحامِى مصرُ عن جارتها المَنَّعه ، وتَفخر بجاريتها الشمس التى لا تُرىٰ فى أُفُقها إلا مُبَرْقَعه .

ولم يذكر في " التعريف " قَطْع الورق، ولا العُنْوان ، والخاتمة، والعلامة، وما في معنىٰ ذلك . والذي ذكره في " التثقيف " أنّ رسم المكاتبة اليه في قطع الثلث بقَلَم التوقيعات ، نظيرُ ما كُتِب به لصاحب فاس ؛ وهو أن يكتَب بعد البسملة بحيث يكون تحتها سواءً في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبدُ الله ووليُّه » ثم يخلّي مقدارُ بيت العلامة ، ثم تكتب الألقابُ الشريفة من أوّل السطر مسامتًا للبسملة . وهي «السلطانُ ، الأعظمُ ، المـالكُ ، الملِكُ ، الفلانيُّ ، السيدُ ، الأجلُّ ، العـالمُ ، العادلُ ، المؤيّد ، المجاهد ، المرابِط ، المثاغِر ، المظفَّر ، الشاهنشاه ـ وهـذه

تختصر غالبا ـ ناصرُ الدُّنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدلِ في العالمين ، مُنصِف المظلومين من الظالمين ، وارثُ المُلْك ، سلطانُ العرب والعجَم والتُّرْك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، إسكندَرُ الزَّمان ، مُولي الإحسان ، جامع كلمة الإيمان ، مُمَلِّك أصحاب المنابر والتُّخُوت والتِّيجان ، ملكُ البحرين ، مسَلِّك سبيل القبلتين ، خادم الحرَمين الشريفين ، ظلُّ الله في أرضه ، القائم بسُنّته وفَرْضه ، سلطان البسيطة ، مؤمِّن الأرض المُحيطة ، سيدُ الملوك والسلاطين ، وليُّ أمير المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلاني فلان الدين والدنيا » ويرفع في نسبه إلى منتهاه «خلَّد اللهُ سلطانَهُ ، ونصَرَ جيوشَه وأعوانَه . ويجتهد أن يكون «وأعوانه» آخرَ السطر أو قريبًا من آخره . قال : والواجبُ بدل وليّ أمير المؤمنين قَسيم امير المؤمنين ، ثم يقول : يخُصُّ الحضرةَ ، العاليةَ ، السَّنِيَّة ، الشَّريفة ، الميمُونة ، المنصُورة ، المصُونَة ، حضرة الأميرِ العالم ، العادل ، العابد ، المؤيَّد ، الأوحد ، فلان ، ذُخْر الإسلام والمسلمين ، عُدّة الدنيا والدِّين ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، سيفِ جماعةِ الشاكرين ، صَلاح الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمدِ اللهِ بخُطْبة مختَصَرة جِدًّا ، فإنا نوضِّح لعلمه الكريم ، وتعريفه «صاحب تونس» .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر "برقُوق" من إنشاء علاء الدين ، وهى

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله ووليِّه .

السلطانِ الأعظم المالك ، المَلِك الظاهِر ، الأجلِّ العالِم العادِل ، المجاهِد المرابِط ، المثاغِر المؤيَّد ، المظفَّر ، سيفِ الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ،

مُحيِي العدْل فى العالَمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، قامع الخوَارج والمتمرّدين، وارث المُلْك، مَلِك ملوك العَرَب والعَجَم والتُّرْك، مُبِيـد الطُّغاة والبُغاة والكُفّار، مُمَلَّك الممالك والأقاليم والامصار، إسكَنْدرِ الزمان، ناشِرِ لِواء العدْل والإحْسان، مليك أصحاب المَنابِر والأسِرّة والتُّخُوت والتِّيجان، مالكِ البحرين، صاحبِ سُبُل القِبْلتين، خادمِ الحَرَمين الشريفين، ظلّ الله فى أرضه، القائم بسنّته وفَرْضه، سلطانِ البسيطه، مؤمِّن الأرض المحيطه، سيـدِ الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، «أبى سـعيد بَرْقُوق» خلد الله سلطانَه، ونصر جُنُودَه وأعوانَه، وأفاض على العباد والبلاد جُودَه وإحسانَه، تحيـــةٌ تتارَّج نَفحا، وتتبلّجُ صُبْحا، وتَطوى بعَرْفها نَشْر الخُزامى، وتعيدُ ميْتَ الأشواق حيًّا إذا ما، تَخُصُّ الحضرةَ العلية، السنيّةَ السريّة، المظفَّرة الميمُونه، المنصورةَ المَصُونه، حضرةَ الأميرِ العالم، العادلِ، المجاهِد، المؤيّد، الأوحد، ذُخْرِ الإسلام والمسْلمين، عُدّةِ الدنيا والدين، قدوة الموحّدين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، سيف جماعةِ الشاكرين، صلاح الدول، المتوكّل على الله أحمد، ابن مولانا الأميرِ أبى عبـد الله محمد، ابن مَوْلانا أمير المؤمنـين أبى يحيىٰ أبى بكر، ابن الأمراء الراشـدين، أعزّ الله دولتـه وأذلّ عُداته، وأنجز من صُعُود أوليـائه وسُعود آلائِه صادقَ عِداتِه.

بعدَ حمد الله جامعِ الشمل بعد تفْرِيقه، راتقِ خَلَل المُلْك عند تمزيقه، والشهادة بأنْ لا إلٰه إلا هو مُبيدُ الباطل بحقّ سِرّه وسِرّ تحقيقه؛ والصلاةِ والسلام على سيدنا محمدٍ عبدِه ورسوله موضّحِ سبيلِ التوكّل على الله وطريقه. وإهـداءِ سلامٍ ما الزَّهرُ بأعبقَ من فَتِيقه، وثناءٍ ما الروضُ بأعطرَ من خَلُوقه؛ فإننا نُوضّح لعلمه الكريم أنّ كتابه الكريم ورَدَ ورُودَ السِّنة على الجَفْن الساهر، أو المُزْنة على الروض الزاهر، أو الزُّلال على الأُوام، أو البُرْء على السِّقام؛ فمدَدْنا إليـه يَدَ القَبول، وارْتَحْنا له ارتياحَ الشمائل

إلى الشَّمُول، وملنا إلى مُفَاكهته ميلَ الغُصون إلى الرِّياح، وامترجنا بصُفافاته امتزاجَ الماء بالراح، وفضضنا ختامه عن فضّيّ كلامه، وذهبنا إلى ذهبيّ نثاره ونظامه، وتأمّلناه تأمُّلا كلَّ نظرِ عبده وخادمه، ووقفنا عليه وقوف شحيح ضاع فى التُّرب خاتَمُه، ونظمنا جواهر اعتباره فى قلائد الأفكار، وصبونا إلى اختباره كما صبت النفوس إلى الأذكار، وفتحنا له جُهد الطاقة بابًا من المحبة لم يُغلَق، ونُقسِم بمن خلق الإنسان من عَلَق أنها بغير قلوبنا لم تَعلَق، فإذا سطوره جنودٌ مصطفَّه، أو قِيانٌ بها الحِسان محتفَّه، وإذا رقُّه طِرازُ حُلَّه، أو عقدٌ شدّه البَنانُ وحلَّه، وإذا لفظُه قد رَقّ وراق، ومرّ بالأسماع فملأ بحلاوته الأوراق، وإذا معناه ألطفُ من النَّسيم السارِي، وأعذبُ مذاقا من الماء الجارِي، وإذا سَجْعه يفوقُ سَجْع الحَمائم، ويُزرِى بالرَّوض الضاحك لبُكاء الغمائم، وإذا سلامُه قد حيّته الأزاهِر، وطوى بعَرفه نَشرَ الروض الزاهِر، وإذا هَناؤُه قد ملكَ عِنانَ التَّهانى، واستمطر عِنانَ الأمان من سماء الأمانِى، فعبّر لنا لفظُ عَبيره عن معنى المحبَّه، وقرَّب شاسعَ الذِّكر وإن بعُد المدَى بينَ الأحبَّه، وأقام شاهدَ الإخاء على دعوى الإخلاص فقبِلْناه، ونادى مُطيعَ المودّة فاستجَبْنا له ولبَّيناه، سَقيًا له من كتاب غُذِّى بلِبان الفصاحه، وجرى جوادُ اتّضاحه من مِضمار المَلاحه، لاعيبَ فيه، سوى بلاغةٍ فيه، ولا نقْصَ يعتريه، سوى كمالِ باريه، لعمرى لقد فاق الأواخرَ والأوائل، فما أجدرَ كلامَه بقول القائل:

وكلامٍ كدمْعِ صَبٍّ غريبٍ ◦ رَقَّ حتّى الهواءُ يَكْثُفُ عِندَه!
راقَ لفظًا ورَقّ معنًى فأضحى ◦ كُلُّ سحرٍ من البَلاغة عَبْدَه!

لله درُّه من كتابٍ حلَب دَرّ الأفراح، وجدّد من أثواب المَسرّة ما كان قد أخلقتْه يدُ الأتراح، فهِمنا معناه فهِمْنا، وشرحنا متْن فَحواه فانشرحْنا، وعلمنا ما اتّصل

بسمعكم من خبرنا العجيب ، وحديث أمرنا القديم الغريب ؛ الذى أظهر فينا لله أسرارا ، وكتب لنا منه عناية كبت بها أشرارا ؛ جلّ جلاله خافضٌ رافع ، مُعْلٍ بحكمته واضع ؛ سبحانه أوجد بعد العدم وأنسى ثم أنشا ، قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ؛ كسر وجبر ، وقرن المبتدأ بالخبر ؛ وهب ما كان سلب ، وجعل لصبرنا حسن المنقلب ؛ أعادنا إلى المُلك مع كثرة الأعداء وقلّة الأنصار ، وأظهرنا بعد الخفاء فاعتبروا يا أولى الأبصار ؛ وأبرز إبريزنا بعد السبك خالصا يروق الناظر ، ويفوق برونقه وجه[1] الروض الناضر ؛ فاعلموا أنّ لله فى ذلك سرًّا خفيًّا ، لم يزل ببركة رسوله صلّى الله عليه وسلم بنا حفيًّا ؛ فتمّ لنا فيه بواجب الهنا ، وأحاط بنا طولكم الطويل من هاهنا وهاهنا ؛ فاستجلينا من كتابكم عرائس بشراه ، وحمدنا عند صباح طرسه ليل مسراه ؛ وشكرنا له هذه الأيادى التى تقصر عنها الأيدى المتطاوله ، وثنينا إليكم عنان الثناء الذى فاق بمخايله الروض الأريض وخمائله .

ولمّا تمثل إلينا رسولكم المكرّم ، وصاحبكم الكامل المعظّم ؛ ذو الأصل الطاهر ، والنسب الباهر ؛ والرأى السديد ، والبأس الشديد ؛ فلان : لازال على مقامه حسنا ، وجفن علمه لايبعث الجهل عليه وسنا ؛ فأبدى إلينا ما فى وطابه ، وأثلج الصدور بحكمة فضله وفصل خطابه ؛ وأخذ يجاذبنا عنكم أطراف الأحاديث الطيّبه ، ويرسل علينا من سماء محبّتكم مزنها الصيّبه ؛ وأطربنا بسماع أخباركم ، ونصر أعوانكم وأنصاركم ؛ ونبّه على ما أودعه كتابكم ، وتضمّنه من النصرة خطابكم ؛ ودوس جنودكم جزيرة «غودش» وعودهم بالمنّ والمنح ، وتلاوتهم عند الانتصار ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وقفولهم متفيّئين من الجهاد بظلّه ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ؛ بعد أن نعقت منهم على الكفّار الغربان ، واقتنصت الرجال آجالهم اقتناص العقبان ؛ وجاءتهم كالجبال

(١) لعله " حسن الروض " .

الرّواسى ، وظَفِرت بهم أظافيرُ الرُّماة ومخالبُ المَرَاسى ؛ وغنّتْ عليهم أوتارُ القِسِىّ فأرقصتْ رءوسَهم على الضَّرْب ، وسقَتْهم كُئُوسَ الرَّدىٰ مُتْرَعةً ونِعم هـذا الشَّرْبُ لأولئك الشَّرْب ؛ وأعادتِ المسلمين بالغنائم إلىٰ الأوطان بعد نَيْل الأَوْطار ، وبَشَّرت الخواطرَ بما أقرّ العُيونَ من النجاح والنّجاة من الأخطار ؛ هذا والعدوّ المُلقِى السَّلَمَ عند الجِهاد ، جِيء بهم مقرَّنين فى الأصفاد ؛ يالهَـا غزاةً أشرق نُورُها كالغَزاله ، وأشرق يومُ إسلامها على ليل الكُفر فأزاله ، وتولّدمنها الجهـادُ فلا يرىٰ بعدها إن شاء الله عقيما ، وتلا لسانُ الشَّوقِ إليه ﴿ يالَيْتَنِى كُنْتُ معَهُمْ فأفُوزَ فوزًا عظِيما ﴾ . لا زالتْ رقَابُ الأعداء لأسيافكُمْ قِرابا ، وغزواتكم الصالحةُ تُنيلكم من الله أجْرا وثوابا .

ولمـا عُرِضتْ علينا من جُودكم عنـد العَشِىّ الصافِناتُ الجِيَـاد ، وحَلَّينا منهـا بقلائدِ مَنِّها الأجياد ؛ نُقسم لقد حيّرتنا ، ألوانُها إذ خيّرتنا .

فمن أشهبَ ـ كأنّ الشُّهُب له قَنِيصه ، أو الصَّباحَ ألبسه قميصَه ؛ أو كأنمـا قُلِب من اللُّجين فى قالَب البياض ، وسُقِى سوادُ أحداقِه أقداحَ الرّاحة من غير حياض .

ومن أدهَمَ ـ كأن النِّقس لمسه[(1)] فى مِدَاده ، أو الطَّرْف أمدّ طرفه بسَوَاده ؛ أو كأنما تقمَّص إهابَ الليل ، لَمَّا طلع عليه فجرُ غُرّته فولّى مشمِّر الذيل .

ومن أحمر ـ كأنما صِيغَ من الذهَب ، أو كُوِّن من النار واللَّهَب ؛ أو كأنّ الشَّفَق ألقىٰ عليه قميصَه ثم أشفق ، أو الشَّقيقَ أجرىٰ عليه دمعه دمًا وجَيْبُه شقَّق .

ومن أشقَر ـ كأنمـا أُلبِس ثوبَ الأصيل ، وبَشّر السرِيَّةَ يُمْنُ طَلْعته بالنصر والتحصيل ؛ أو كأنَّ النُّضار كساه حُلّةَ العُشّاق ، وقد آدَّرَعُوا بأسواق المحبّة مطارِقَ الأشواق ؛

(١) لعله غمسه فتأمل .

ومن أخضرَ – كأنما تلفَّع من الروض الأَريض بأوراقِه، أوصُبِغ بالعِذار المخضرّ وقد شُقَّتْ عليه مرائرُ عشّاقه، أوكأنَّما الزُّمُرّد تلوينُه، أومن شارب الشادنِ تكوينُه، كلٌّ بطِرْف منها يسبِقُ الطَّرْف، ويروقُ الناظرَ بالحُسْن الناضرِ والظَّرْف، تُقامُ به حجّةُ الإعراض وهو باعترافِ ممتطِيه قادرملى، وينصب إلى الادراك حسنَ السير بجُلْمُود صَخرٍ حطّه السَّـيْلُ من عَلِ – فأسرَجْنا[1] لهـا جواد القَبُول، وآمتطَيْنا منها صَهوة كلِّ مأمول، وأعددْناها مَراكبَ لمَواكب، ولليلِ المهمّات الواقعة بُدورًا وكواكِب؛ وأطلَقْنا أعِنّةَ شُكْرِها فى ميادينِ المحامد، وطَفِقْنا نُرجّع ذكرها بين شاكرٍ وحامِد.

مكاتبة وزير تونُس

رأيت فى الدستور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله أنه كتب إلى أبى عبد الله آبن بعلاص.

صدرتْ هذه المكاتبةُ الى [2] الشَّيْخىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الفاضلىّ، الأوْحدِىّ، الأكْمَلىّ، الأرشَـدى، الأمجدِىّ، الأثيرىّ، البليغىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام، بَهاءِ الأنام، شرفِ الفضلاء، زينِ العلماء، نجل الأكابر، أوْحدِ الأعيان، بركةِ الدّوْلة، صَفْوة الملوكِ والسلاطِين؛ (ويدعى له بما يناسبه). وتوضّح لعلمه المبارك كيت وكيت؛ ولم يذكر قطع الورق ولا العلامة ولا التعريف. والذى يظهر أنّ قطع الورق العادة، والعلامة «أخوه». والتعريف «وزير تونُس».

---

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لمـا عرضت قد قرن بالفاء، وهو جائز بعد لمـا وحتى اذا تأمل.

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه "إلى المجلس الشيخىّ" الخ".

الجملة الثانية

(فى مكاتبة صاحب الغَرْب الأوسط ، وهو صاحبُ تِلِمْسانَ)

وقد تقدّمَ فى المقالة الثانيــة فى الكلام على المَسَالك والمَمَالك الكلامُ علىٰ هــذه المملكة ومَنْ ملكها جاهليَّةً و إسـلامًا ، وهى الآنَ بيد بَنِى عبـد الوادِ من زَناتةَ من قبائل البربر — والقائمُ بها الآنَ منهم إلىٰ حدود الثمـانمـائة من الهجرة هو الســلطانُ أبو زَيَّان ، ابنُ السلطانِ أبى حَمُّو : موسىٰ بن يوسُفَ ، بن عبد الرحمن ، بن يحيىٰ ، آبن يَغْمَراسن ، بن زَيَّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن زكدار(١) ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، آبن علىّ ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هــذه المملكةَ فى "مســالك الأبصار" مضافةً إلىٰ مملكة فاس : لانضمامها حينئذٍ إليها فى مملكة السلطان أبى الحسن المَرِينىّ : صاحب فاس فى زمانه ، ولذلك لم يذكُر لصاحبها مكاتبةً فى "التعريف" . على أنِّى رأيت من صاحبها موسىٰ آبن يغمراسن مكاتبةً إلىٰ الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتى إيرادُها فى جملة المكاتباتِ الواردةِ إلىٰ هذه المملكة . وذكر صاحب "التثقيف" أن صاحبها فى زمانه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حســين » أى سلطانَها يومئذ أبو حفص عمرُ بن أبى عمران موسىٰ ، وأن المكاتبة إليه مثلُ المكاتبة إلىٰ صاحب تونُس المقدم ذكره علىٰ السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأىٰ جماعةَ كُتَّاب الإنشاء يكتُبونه ، وكذلك رأيته فى الدُّسْتور المنسوب إلىٰ المقرّ العلائى بن فضلِ الله ، ولم أظفر بصورة مكاتبةٍ فأذكُرَها .

---

(١) فى "العبر" ج ٧ ص ٧٥ زكراز وحرر .

الجمـــلة الثـالثة

(فى المكاتبة إلى صاحب الغَرْب الأقصى)

وهو صاحبُ فاس، وتعرف مملكته ببَرّ العُدْوة . وقد تقدم الكلامُ على مملكتها وأحوالها ومَنْ ملكها جاهليّةً وإسلاماً فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممالك، وأنها الآنَ بيد بَنِى عبد الحق من بَنِى مَرِين من زناتَةَ من قبائل البربر، وأنها الآنَ بيدِ السلطان أبى فارسٍ عثمانَ، ٱبنِ السلطان أبى العبَّاس أحمد، ٱبنِ السلطان أبى سالمٍ إبراهيمَ، ٱبنِ السلطان أبى الحسن علىّ، ٱبنِ السلطان أبى سـعيد عثمانَ، ٱبن السلطان أبى يوسفَ يعقوبَ، ٱبن عبد الحق، بن محيُو، بن أبى بكر، بن حَمَامةَ، ٱبن محمد، بن ورصيص(1)، بن فكُّوس، بن كوماط، بن مَرِين، بن ورْتاجن، ٱبن ماخُوخ، بن وحريج(2)، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتنيص، ٱبن المعز، بن إبراهيم، بن رجيك، بن واشين، بن بصلتن، بن شرا(3)، بن أكيا، ٱبن ورشيك، بن أديدت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر فى "التعريف" أن السلطنة فيهم فى زمانه فى الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» صاحب مصر كانت فى السلطان أبى الحَسَن علىّ بن عثمان المقدّم ذكره . ثم قال : وورِث هذا السلطانُ مُلْكَ العزفيّين بسَبْتَة، ومُلْكَ بنى عَبْد الواد بتِلِمْسانَ، وأطاعه ملِكُ الأندَلُس، ودانَ له ملِكُ أفريقيَّة، وعرض عليـه ٱبنتَه فتزوّجها، فساقها إليـه سَوْقَ الأمَة . ثم قال : وبنو مَرِين رجالُ الوغى وناسُها،

---

(1) تقدم فى ج ٥ ص ١٤٤ "ورزيز" .

(2) تقدم "جديج" .

(3) تقدم "ورمشد" .

وأبطالُ الحربِ وأحلامُها، وهم يفخَرُون بغَزارة علمه وفضْل تقواه . قال : وهو اليوم ملِكُ ملوك الغرب، ومُوقِدُ نار الحرب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" بعد البسملة :

من السلطان الأعظم الملك الفلانى، إلى آخر الألقاب المذكورة فى المكاتبة لصاحب تونُس، إلى قوله ونصر جيوشه وجنودَه وأعوانه . ثم يقول: تحيةٌ يفتتح بها الخِطاب ، ويقـدّم منها ما زكا وطاب ، وتقال هنا سَجعاتٌ مختصرة نحو أربع أو خمس، يُخَصُّ بها الحضرةَ الشريفة العلية، الطاهرة الزكيّة، حضرةَ المقام العالى، السلطان ، السيد ، الأجلّ، العالم ، العادل ، المجاهِد ، المرابِط ، المثاغِر ، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الأسرى، الأسنى، الزكىّ، الأتقى، [المجاهد فى الله][1] المؤيَّد على أعداء الله، أمير المسلمين، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزاة والمجاهـدين، مجنِّد الجنود، عاقد البُنود ، مالِئ صدور البَرارِى والبحار ، مُزَعْزِع أسِرَّة الكُفَّار ، مؤيِّد السنة، معزّ الملة ، شَرَف الملوك والسـلاطين ، بقِيَّة السَّلَف الكريم ، والحَسَب الصَّمِيم ، رَبِيبِ المُلْك القديم، أبى فلانٍ فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أوّل نسـبه . ويقال : فى كل منهم : أمير المسلمين أبى فلان فلان ، ثم يُدْعَى له : نحو أعز الله أنصاره أو سلْطانَه أو غير ذلك من الأدعيـة الملوكية بدعاء مطوَّل مفخَّم . ثم يقـال : أما بعدَ حمـد الله ، ويخطب خُطبة مختصرة . ثم يقـال : أُصدِرتْ إليـه ، وسُيِّرت لتُعْرَض عليه، لتُهدِىَ إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال : وممـا تبديه كذا وكذا .

صدر : يليق بهذه المكاتبة ـ تُهدِى إليه من السلام مايطلُع عليه نهاره المُشْرِق من مَشْرِقه، ويحييه به الهلالُ الطالع من جانِبه الغَرْبىّ على أُفُقه، وتَصِف شَوْقا أقام

(١) زدناها من "التعريف" .

بين جَفْنَيْه والكَرَىٰ الحَرْب ، ووِدَادا يَملأ برسله كلَّ بحر ويأتى بكل ضَرْب ، وثناء يُسْتَرْوَح بنسيمه وإن كان لا يستروَح إلا بمـا يَهُبُّ من الغرب ، مقدّمةً شكرًا لمـا يبهَـر من عَزَماته التى أعزَّتِ الدين ، وغزَتِ المُلْحدين ، وحلّقتْ على مَنْ جاورها من الكُفّار [تحليقَ][1] صُقور الرجال على مُسِفَّة الغِرْبان ، وتُقيم عند الشجاع عُذْرَ الجبان ، وتبيِّن آثارَها فى أعناق الأعداء وللسُّيوف آثارُ بيَان ، وإن كان فعلُه أكثَرَ مما طارتْ به الأَخْبـار ، وطافَتْ به مُحَلِّقات البشائر فى الأقطار ، وسار به الحَجِيجُ تَعْرِف آثاره عَرَفات ، وصارت تَستَعْلِم أخبارَه وتندُبُ قبل زمانِه مافات .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان السلطان فى زمانه فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبى الحَسَن على المقدّم ذكره ، وذكر أنّ المكاتبة اليه فى قطع النِّصف ، وأنه يُكتَب تحتَ البسملة فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبدُ الله ووليُّه » ثم يُخلَّى بيت العلامة ، ثم تُكتَب الألقابُ السلطانيةُ فى أول السطر مسامتًا للبسملة «السلطانُ الاعظمُ الملك الفلانى» إلى آخر الألقـاب السلطانية المـذكورة فى المكاتبة إلى صاحب تونس ، إلى قوله : ونصر جُيوشَه وأعوانَه . ثم يقول : تَخُصُّ المقـام العالى ، السلطان ، الملك ، الأجلَّ ، الكبيرَ ، المجاهدَ ، المعاضدَ ، المرابَط ، المثاغر ، المُكرَّم ، المعظَّم ، المظفَّر ، الموقَّر ، المؤيَّد ، المسدَّد ، الأسعد ، الأصعد ، الأرشَد ، الأنجَد ، الأوحَد ، الأمجد ، البَهِىَّ ، الزَّكِىَّ ، السَّنِىَّ ، السَّرِىَّ ، فلان ، أمير المسلمين ابن أبى فلان فلان ، إلى عبد الحق المَرِينى . والدعاء بمـا يُناسب ذلك المقـام ، ثم أمّا بعـد حمـد الله ، بخطبـة لطيفة ، فإنا نُفاوِضُ علمه الكريم ونحوِ ذلك . وأكثرُ مخاطبته بالإخاء ، وتُختَم بالدعاء .

---

(١) زدنا هذه الكلمة وان لم تكن فى الاصل ولا فى التعريف لمـا لايخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه «مَلِك الغرب» . وفى الدستور العلائى أنّ الطلَب منه بالمستمدّ، ويختم باستعراض الحوائج والخِدَم مكمّلا بالدعاء .

وهذه نسخة كتاب من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبى الحسَن المَرِينىّ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه منه وهى :

عبدُالله ووليُّه ، السلطان الملكُ الناصر ، ناصرُ الدنيا والدين ، سلطانُ الإسلام والمسلمين ، مُحيِي العدل فى العالمين ، مؤمِّن أولياء الله المؤمنين ، ظلُّ الله الممدود ، ومُيَسِّر السُّبُل للوُفُود ، حامِى القبلتَيْن بحُسامه من أهل الجحود ، وخادمُ الحرمين الشريفين متّبِعا للسنة الإبراهيمية فى تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والرُّكّع السُّجُود ، والقائم بمصالح أشرف روضة وطِيبُه يعطّر طِيبَها فى الوجود ، ولىّ أمير المؤمنين جمعَ الله به كلمة الإسلام بعد الافتراق ، وقَمَعَ برُعْبه أهلَ العناد والشِّقاق ، وأوزعه شُكْرَ نعم الله التى ألّفتْ على وَلائه قلوبَ ملوكِ الآفاق ، وأمتعه بها منحةً صيّرت له الملك بالإرث والاستحقاق ، وسيّرت كواكبَ مناقبِه فلها بالمغارب إضاءةٌ وبالمشارق إشراق . ابن السلطانِ السعيدِ الشهيدِ الملك المنصور، سيف الدنيا والدين ، سقى الله عهده عِهادَ الرحمة ذواتِ إغراق ، وأبقى مجدَه بمحمّده الذى للأمة المحمدية على تعظيمه إجماعٌ وعلى تقديمه اتّفاق ، يخُصُّ المقام العالى ، الملكَ الأجلَّ الكبيرَ ، المجيرَ ، العاضدَ ، المُثاغِرَ ، المظاهِرَ ، الفائزَ ، الحائزَ ، المنصُورَ ، المأثُورَ ، الفاتحَ ، الصّالحَ ، الأمكنَ ، الأصْوَنَ ، الأشرفَ ، الأعرَفَ ، الكريمَ ، المعظمَ ، أبا الحسن علياً أميرَ المسلمين ، ابنَ السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر ، الفاخر ، الماجِد ، الزاهِد ، الأورع ، الأرْوَع ، أمير المسلمين ، أبى سعيد عثمان ، ابن السلطان ، السعيد ، الرَّشيد ، السابِق ، الوامق ، الجامع ، الصادع ، أميرالمسلمين

أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق، ناظم مُفَرَّق الفَخَار، وهازم فِرَق الفُجّار، والملازم لإحياء سنّة الجهاد المتروكة فى الأقطار، حتّى يجمع فى ملكه أطرافَ الغرب الأقصى للاستيلاء والاستظهار، ويُخضع لفتكه كلّ متكبّر جبّار، ويُرصّع فى سلكه ماتأبّى وصَعُب من تلك الديار، ويرفع لنُسُكه أعمالاً من الجهاد والاجتهاد تَسُرّ الحفظة الأبرار، يظهر فيها لبركة الاسم العلوىّ من نشر الهدى، وقهر العدا، أوضحُ الأدلّة وأبينُ الآثار، ويؤثر سلطاننا المحمدىّ من علىّ عزمه، وحِمىّ حزمه، بأعزّ الأعوان والأنصار، فتظفر دارُ الإسلام من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يَقَرّ لهم بأمّ القرى قرار، وتَيسير سواهم للبيت ذى الحَجَر والحِجْر والباب والميزاب والملتزم والجدار والأستار، بسلام مُشْرِق الغُرَر، مُونَق الحِبَر، وثناءٍ مع رَيّاه لا يُعبأ بالعَبير مع نَشْره ولا يعتبر، ووِدادٍ مُخفىّ الخبر، واعتدادٍ يطول منه فى ألسنة الشكر عن إحصائه واستقصائه قِصَر، وإيرادٍ لمفاخره التى سارتْ بها الأخبار والسِّير، واعتقادٍ لمآثره التى سبق عثمانُها إلى إحراز مزايا الفضل وجاء علىُّها على الأثر .

أما بعدَ حمدِ الله الذى أمر أولياءه المؤمنين بالمُعاونة والمُظافره، ونهى عباده الصالحين عن المباينة والمُنافره، ورعى لحُجّاج بيته حرمةَ القصد وكتب لهم أجر المهاجَره، ودعا إلى حَرَمه، من أهّله من خَدَمه، فأجابه بالتلبية وأنابه وآجره . والشهادة له بالواحدانيّة التى تُسعد بمصاحبة المصابره، وتُصعِد إلى الدرجات الفاخره : والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المَناقب الباهره، والمواهب الزّاخره، والمراتب التى منها النُّبوّة والرسالةُ فى الدنيا والوسيلةُ والشفاعةُ فى الآخره، وعلى آله وصحبه الذين أفنى الله الشركَ بصَوارمهم الحاصدة وأذْنى القتلَ بعزائمهم الحاضره، صلاةً إلى مظانّ الرّضوان متواتره، ما ربحتْ وفودُ مكةَ البركةَ الوافره ، ووضحتْ لقاصدى الكعبة البيت الحرام أوجهُ القبول سافره .

فإنه ورد ـ أورد اللهُ تعالى البُشْرىٰ على سمعه ، وأيَّد آهتمامه بتأليف شَمْل السَّعْد وجمعه ـ من جانبه المُكرَّم ومَعْهَده وربْعه ، كتابٌ كريم نسبهُ ، فخيم أدبُهُ ، عليٌّ منْصِبه ، مَليٌّ إذا أخلف السَّحابُ بما يَهَبُهُ ، سَرِيٌّ سَرَتْ إلىٰ بيتِ الله وحَرم رسوله القريب قُرَبُهُ ، على يد رسوله : الشيخ الأمينِ الأزكىٰ ، الأوْرَع الأتقىٰ ، الخطيب البليغ ، المدرِّس ، المفيد أبى إسحاق ابنِ الشيخ الصالح أبى زيد ، عبد الرحمن بن أبى يحيىٰ ، نفع الله به ، وحاجبه الكبيرِ المختارِ ، المرتضىٰ ، الأعزّ ، أبى زيَّان عريف آبن الشيخ المرحوم أبى زَكَرِيَّا ، أيده الله تعالى ، وكاتِبه الأمجد الأسعدِ أبى الفضل آبن الفقيه المُكرَّم أبى عبد الله ، بن أبى مَدْيَنَ ، وفقه الله تعالىٰ وسدّده ، ومَنْ معهم من الخاصَّة والزعماء والفُرْسان الماثِلين فى خدمة الجهة المصونة بلَّغها الله أرَبها ، وقَبِل قُرَبها ، الواصلة بركْبكم المباركِ الرَّواح والمَغْدىٰ ، المُعانِ على إكمال فرض الحج المؤدَّى ، المَرْحُولين بحمد العقبىٰ كما حُمِد المَبْدا ، ففضَضْنا خِتامه الذَّكيّ ، وأفضْنا فى حديث شكره الزَّكىّ ، وعرَضْنا منه بحضرتنا روْضًا يانعُ الروض به مَحكيّ ، وحضَضْنا نُوَّابنا على إعانة خاصَّة وفْده وعامتهم علىٰ قضاء النُّسُك بذلك الحرم المكيّ ، وتلمَّحنا فصوله الميمونة فإذا هى مقصوراتٌ على مَثُوباتٍ محضه ، ورَغَبات تُؤدَّى من الحج فَرْضه ، وهِباتٍ يعامِلُ بها مَنْ يضاعِفُ أجرَه ويُوَفِّيه قَرْضه ، وقُرُباتٍ يَحْمَدُ فاعلُها يوم قيام الأشهاد نَشْرَه وحشْرَه وعَرْضَه .

فأمَّا ما ذكره من ورود الكاتبين الواصلين إلىٰ حضرته صُحْبة الشيخين الأجلَّين « أبى محمد عبد الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبى لحان » وأنه أمضىٰ حكمهما ، وأجرىٰ رسْمَهما ، فقد آثرْنا للأجر حَوْزَه ، وآخترنا بالشُّكر فوزه ، وقصدْنا بهما تجديد جلْباب الودَاد ، وتأكيدَ أسباب الولاء علىٰ البِعاد ، وإلا فمع وجودِ إنصافه الحقوقُ

من غاصبها تُستَعاد ، والوثوقُ بنصْره للظلوم وقهرِه للظالم لا يختلف فيه اعتقاد ؛ وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال ، وآثرنا حمْدكم فى المحافل والمحال .

وأما ما نعته مما أشرتم إليه مما يتعيَّن له التقديم ، ويستحقُّ توفيَةَ حقه من تكرير التكريم ، وهو تجهيزُ رَكْبِكم المحروس فى السُّرىٰ والمُقام ، فى خدمة مَنْ يقوم مقام الوالدة المرحومة فى الاحترام ، سقىٰ الله صوبَ الرحمة صفيحَها ، ورقّىٰ إلى الغُرُفات روحَها ، ومعها وجوهُ دولتكم العزّ ، وأعيانُ مملكتكم من سُراة بنى مَرِينٍ الذين تُبْهج مرائيهم وتَسُر ، وما نبهتم عليه من ارتفاع شانهم ، واجتماع فُرْسانهم ، واستيداع أماَنتِنا نفائسَ أنفسهم وأديانِهم ، فقد استقبلْناهم علىٰ بُعْد بالإكرام ، وأحللْناهم من القُرْب فى أعلىٰ مقام ، وصرفْنا إلى تلقائهم وجهَ الإقبال والاهتمام ، وعرّفنا حقَّهم أهلَ الإسلام ، ونشرْنا لهم بفنائنا الأعلام ، ويسّرنا لهم باعتنائنا كلَّ مرام ، وأمَرْنا بتسهيل طريقِهم ، وتوصيل البِرّ لفريقِهم ، وأسدلْنا الخلَع علىٰ جميعهم ، واحتفلْنا بهم فى قُدومهم ومُقامهم وتشييعهم ، وأجزلْنا لهم أقسامَ الإنعام فى توجيههم ، وكذلك يكون فى رُجُوعهم ، وعرَضُوا بين أيدينا ما أصحبْتَهم من الطُّرَف والهدايا ، التى لا تحملها ظهورُ البحار فكيف ظُهورُ المطايا ، من عُقُود منَظّمه ، وبُرودٍ مُسَهّمه ، ومطارِفَ مُعْلَمه ، ولطائفَ بالإمكان والإتقان مُعْلِمه ، وصنائعَ محكَمه ، وبدائعَ للأفهام مفْحِمه ، وذخائرَ معظَّمه ، وضرائرَ للشموس فى الكون والسِّمه ، وبواتِرَ تفرّق بين الهام والأجسام والهام ملحمه ، وأحجارٍ بمقدار مُهْدِيها فى الجلال مُفْهِمه ، وخيولٍ مُسوَّمه بالأهلَّة مُسْرجَة وبالنُّجوم ملجَمه ، معوَّدةٍ نِزَالَ الأبطال معلَّمه ، ذواتِ صدور مبقُورةٍ وأكفالٍ مسلَّمه ، تسحَبُ من الحرير أذيالا ، وتَصْحَب من الوَشْى سِرْبالا ، وتميسُ بحُلَلها وحِلاها عُجْبا واختيالا ، ويقيسُ مشبِّهُها سُرْعتَها بالبرق فلا يتغالىٰ ، عاتِيات الأجْسام ، عاليات كالآكام ؛ لفُحُولهـا صَهِيل يذْعَر الأُسُود ، ولسنابِكِها

وقع يَفطُرُ الجُلمود، أتعبتِ الرُّوّاض ، ورُكِبَتْ منها صَهْوةُ كلِّ بحرٍ سابحٍ حيثُ لُجَجُ الموت تُخاض ، وقُرِنَتْ مرابطُها بحمايةِ جواهرِ النُّفُوس من الأَغْراض ، وجنيبة تجرُّ من ذُيولها كل فَضّاض ، وحُسِبت لاختلاف شِياتها كأنها قِطع الرِّياض : من شُهب كأنما ٱرتدت الأَقاح ، أو غدَتْ رافلةً فى حُلَل الإصباح . ودُهْم نفضَتْ عليها الليالى صِبْغَها فلا بَرَاح ، وربما أُغفِلَتْ من ذلك غُررٌ وأوضاح . وكُمْتٍ كأنها فتخ[1] صُلْبِ البِطاح ، تطيرُ إلى الظَّفَر بجناح . وحُمْر كأنها خُلِقَت للنَّجاح ، وأُطْلِقَتْ أعِنتها فقالت ألْسِنةُ أسِنَّتها للطَّرائد : لابَرَاح . وخُضْر كأنها البُزاةُ الموشّاة الوِشاح ، أو مشيبٌ فى الشَّباب قد لاح . وشُقْر تكْبُو فى طَلَبها الرِّياح ، وتخبُو نارُ البَرْق إذا أمسى بسَنَا سَنابِكِها ٱقتِداح .

ووراءَها البِغال، التى تحملُ الأثقال، ولا تَزِلُّ فى الأوحال بحال، وعليها الزَّنّاريّات الموشعه ، وحَلْيُها الحِلال الملمّعه ، وهى تمشى رُوَيْدا ، وتُبْدى قوّةً وأَيْدا ، كأن قُلامتَها قناه عيدا (؟) وهى وافرةُ الأمداد ، فاخرةٌ على الجِياد ، باهرةُ العدد متكاثرةُ الأعداد ، راسخاتُ القوائم كأنها أطْواد ، شامخاتُ الرءُوس حالياتُ الأجياد ، باذخاتُ الأكفال غِلاظٌ شِداد ، وسارَتْ لها إلى رِحابنا ٱنقياد ، وصارت من محَلّ إسعاد إلى مواطن إصْعاد ، فتقبلّنا أجناسها وأنواعَها ، وتأمّلنا غرائبها وإبْداعها ، وجعلنا يومًا أو بعضَ يومٍ فى حَواصِلنا إيداعها ، ثم ٱستصفَيْنا منها نفائسَ آثرْنا إليها إرجاعَها ، وفرّقنا فى اوليائنا ٱجتِماعَها ، وقسَمْنا مُشاعها ، وغنِمنا لمّا أفاء الله صَفَاياها ومِرْباعها ، فتوالتْ لكلِّ ولىٍّ منها مِنَح ، وسارتْ إلى كل صَفِىٍّ منها مُلَح ، وقالت الألْسِنةُ وطالتْ فى وَصْف ما عليه به فتح ، فاستبان ووضَح ، وكان لأهل الإيمان بنَعْته أعظمُ هَناء وأكبرُ فرَح .

---

(١) من جملة معانى الفتخ الماء الجارى على وجه الأرض شبهها فى جريها بالماء الجارى على البطحاء الصلبة تأمل .

وسطّرناها وركبُكم المبارك قد رامت السُّرىٰ نجائبهم ، وأمّت أمّ القُرىٰ ركائبهم ، يسايرهم الأمنُ ويصاحِبهم ، ويُظاهرهم اليُمْن ويواظِبهم ، فقد أُعِدّت لهم المِيَرُ فى جميع المَنازِل ، وشُـيّدتْ لهم الهِجانُ البَوازِل ، وأُتْرِعت لهم المواردُ والمناهل ، وأُمْرِعت لهم بالمِيرةِ القِفارُ والمَراحل ، ووُكّلت بهـم الحَفَظةُ فى المَخاوِف ونُصِبَتْ لهم الأدلّةُ فى المَجاهل ، وجُرّد معهم الفُرْسان ، وجُدّد لهم الإحْسان ، وأُكّد لهم حقّـانِ حقُّ مُرْسِلِهم وحقُّ الإيمـان ، وقُلّد دَرَكَ حياطتِهم أمراءُ العُرْبان ، وشُوهِد من تعظيمنا لهم مايَحْسُدهم عليه ملوكُ الزمان بكلّ مكان ، وكتبنا علىٰ أيديهم إلىٰ أمراء الأشراف بالنُّهوض فى خدمتهم والوقوف ، وأن يُحيط بهم كلُّ مقدّمِ طائفةٍ ويَطُوف ، يتسلّمهم زعيمٌ من زعِيم ، إلىٰ أن تُحطّ رحالُهم بالحَطِيم ، ويَحُلّ كلٌّ منهم بالمَقام ويُقِيم ، وتُكمّل مناسِكُهم بشُهود الموقف العظِيم .

وكذلك كتبنا إلىٰ أمراء المدينة المشرّفه ، أن تتلقّىٰ بالقبول الحَسَن مُصْحفَه ، وتُحلّه بين الروضة والمِنْبر ، وتُجِلّه فقد ربِحَ سعْيُ كاتبه وبَرّ ، وكتبتْ له بعدد حُروفه أُجُور تُوفَّر ، ويمكّن مَنْ يرقّ لتلاوته فى الآصالِ والبُكَر ، ويُهيْمَن علىٰ ذلك فإنّه من بيتٍ هم المَلاك الأعلىٰ وعندهم وفيهم جاءت الآياتُ والسور .

وعمّـا قليل يتمّ حجُّهـم واعتِمارُهم ، ويؤُمّ طَيْبةَ الطيِّبةَ العـاطرة زُوّارُهم ، فيُكرّمُ جِوارُهم ويَعْظُم فَخارُهم ، وتَنْعَم بإشراقِ تلكَ الأنوار بصائرُهم وأبصـارُهم ، وتفوحُ أرواحُ نجـد من ثِيابهم ، وتلُوح أنوارُ القبول علىٰ شِيبهم وشَـبابهم ، ثم يعُودُون إلينا فنُعيدُ لهم الصِّلات ، ونُفيدُ كلًّا منهم دِيَمَ النِّعم المُرْسَلات ، ثم يَصْدُرُونَ إن شاء الله إليكم ركائبُهم بالمنائح مُثْقَلات ، ومطالِبُهم بالمَناجح مكمَّلات ، ويظْفَرُون من الله فى الدارين بقسمِ النِّعم المُجْزلات حتّىٰ يَلْقَوا برحابكم عصـا التَّسْـيار ، ويصونوا حُرّ وجوههم بالصبر علىٰ حَرّ الهَجِير [من] لَفْح النار ، ويَدّخروا بمـا أنفقُوا عند الله من

درهم ودينار، أجراً جمًّا وماعند الله خيرٌ للأبرار، والله تعالى يقربه من تلك المواطن، ويُدْنيه منها بالظاهر وإنْ كان يَسْرِى إليها بالباطن، ويسهِّل [له] ذُلُل الحرم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتى تحلّ ركائبُه بين المرْوَتيْنِ وتجيز، ويكونَ له بذلك على مُلُوك الغرب تميز، وما ذلك على الله بعزيز.

لازالتْ مقبولةً على المدى هَدَاياه، مجبولةً على النَّدى سَجَاياه، مدلولةً على الهدى قَضَاياه، منصورةً على العِدَا سَرَاياه، مبرورةً أبدا تحَايَاه. والسلامُ الأتمُّ الذى يعبَق ريَّاه، والثناء الأعمُّ المشرق محيَّاه، عليكم ورحمة الله وبركاته، والخير يكون، إن شاء الله تعالى.

* * *

وهذه نسخة جوابِ الكتاب الوارد على الملك الناصر «محمد بن قلاوون» من آبن أبى الحسن على المرينىّ، صاحب فاس المغرِب، بالبشارة بفتح بجاية، والآنتصار على تلمسان.

وآستفتاحُه بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ. والَّذِين كَفَرُوا فتَعْسًا لهُمْ وأَضَلَّ أعمالَهُمْ ﴾.

ثم المكاتبة المعهودة: من ألقاب الملِكين، والدعاء، والصدر:

قَهر اللهُ ببأسه مَنْ ناواه من أئمة الكُفر وطُغَاته، ونصَره على مَنْ لاواه من حِزْب الشيطان وحُماته. ونشَر أعلامَه بالظَّفَر بمن خالفه من عُداةِ الله وعُدَاته. وأجراه من بلوغ الوَطَر فى سُكُونه وحركاته، على أجملِ أوضاعه وأكمل عاداته. وسرّه بدوام سُعوده فتح ما آستغلق من مَعَاقل الحائدين عن مَرْضاته. ولا زالتْ ركائبُ البشائر عنه تَسْرِى وإليه من تلقائنا تَسير، ومَصيرُ الظَّفَر حيثُ يصير، ويدُورُ الفلَك المستدير، بسَعْده الأثيل الأثير، ويَنُور الحَلَكُ بضَوْء جبينه الذى يهتدى به الضالُّ

ويلجأ إليـه المستجير، وتغور أعينُ العـدا إن عاينوا جحفله الجرار وناهدُوا جيشـه المبير . بتحية تحكى اللطائم[1] عَرْفها الشميم ، وتودّ الكمائم لو تفتّقت عن مثـل مالهـا من نضارة أو تسنيم ، ويود عِقْدُ الجوزاء لو انتظم فى عقدها النضيد النظيم .

وكيف لا وهى تحيةٌ صادرةٌ عن مقـام شريف إلىٰ روضة غنّاء تزرى بالنبت العميم ، واردةٌ من محلّ عظيم ، علىٰ مُحيا وسيم ، منطويةٌ علىٰ [2] الأرض من سلامة ولملوك الإسلام من سلام سليم ، وطُرفةٍ نَشْرُها كالمسك الذى ينبغى أن يختتم به هذا الكتاب ، وثناءٍ يستفزُّ الألباب ، ويستقرّ فى حبّات قلوب الأحباب ، ويستدرّ أخلاف الوُدّين المتحابّين فى الله فلا غرو أن دخلتْ عليهم ملائكةُ النصر من كلّ باب . يتسابقان إلىٰ ذلك المجد الأسنىٰ فى أسعد مضمار ، ويتساوقان بحاز قصبات السّبق إلىٰ تلك العُصْبة المشرقة الأنوار ، ويزداد فيهما بالوفود عليه طيبا ، ويغدو عُودُ الودّ بهما رطيبا ، حيث الرَّبع مَريع ، والمَهْيَع مَنيع ، والعزُّ مجدَّد والقدر مُطيع ، وسُحُب الكرم ثرّه ، ورياض الفضل مُخضرّه ، وعساكر النصر تحلّ نحوه من المجرّه ، حيث تستعرُ الحرْب ، ويستحرُّ الضرْب ، وتشرقُ شموسُ المشرفيات لامعه [3] .

أما بعدَ حمد الله مُظهر دينه علىٰ كلّ دين ، ومُطهّر أرجاء البسيطة من المـاردين المـارقين ، ومجرّد سيف النصر علىٰ الجاحدين الحائدين ، وموهن كيد الكافرين ، ومُجزل أجر الصابرين ، ومُنجز وعد من بشّرهم فى كتابه المبين بقوله : ﴿بل الله مولاكم وهو خيرُ الناصرين﴾ .

---

(١) هى أوعية المسك أو أسواقها واحدها لطيمة وفى الأصل العظائم وهى تصحيف .

(٢) بياض بالأصل ولعله علىٰ ملء الارض .

(٣) بياض فى الاصل يسير .

الذى عَصَم حِمىٰ الإسلام بكل ملك قاهر، وفَصم عرىٰ الشِّرْك بكلِّ سلطان غَدَا علىٰ عدُوِّ الله وعدُوِّه بالحقِّ ظاهر، وقَصَم كلَّ فاجرٍ بمهابة أئمة الهُدىٰ الذين مامنهم إلا مَنْ هو للمحاسن ناظِمٌ ولقِمَم العِدا ناثر، ناشِرِ علَمِ الإيمان بحُماة الامصار، وناصِرِ علم الإسلام بملوك الأقطار، وجاعلِ كلمته العُلْيا وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، لاجَرَم أنَّ لهُمُ النَّار، جامع قلوب أهل الإيمان علىٰ إعلاء عَلَم الدِّين الحنيف وإن بعُدت بينهم شُقَّة النَّوىٰ وشَطُّ المزَار.

والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيِّدنا محمد الذى أرسله اللهُ رحمةً للعالمين ونقمة علىٰ الكُفَّار، ونصره بالرُّعْب مسيرةَ شهر و بالملائكة الكرام فى إيراد كلِّ أمرٍ وإصدار، وألانَ ببأسه صليبَ الصَّلَبُوت وأهانَ بالتنكيس عَبَدةَ الأصنام وسَدَنةَ النار، وأيَّده بآلٍ وأصهار، وأصحابٍ وأنصار، وجنودٍ تهون النَّقع المُثار، وأتباعٍ ما أظلم خَطْب إلا أجالوا سيوفَهم فبدا نجمُ الظَّفَر فى سماء الإيمان وأنار، وأمةٍ ظاهرةٍ علىٰ من ناواها، ظافرةٍ بمَنْ عاداها، ما تعاقبَ الليلُ والنَّهار، صلاةً وتسليماً يدُومان بدوام العَشىِّ والإبكار.

فقد ورد علينا كتابٌ مختومٌ بالتكريم، محتومٌ بالتبجيل والتقديم، محتوٍ علىٰ وَصْف فضلِ الله العَميم، ونَصره العظيم، ومَنِّه الجسيم، فأكرمْنا نُزُلَه، ونَشَرْنا حُلَله، وتفهَّمنا تفاصيلَه وجُمَلَه، فتيمَّنَّا بوصوله، وتأمَّلنا مخايلَ النصر العزيز من فُصُوله، ووجَدناه قد آشتمل من سعادة مُرْسِله علىٰ أنواع، ومن وَصْف تَعْداد نُصْرته علىٰ عونٍ من الله ومَنْ يعِنِ اللهُ فهو المنصورُ المُطاع.

فأما ماذكره المقامُ العالى من أمرِ الوالدةِ المقدَّس صَفِيحها، المغمورِ بالرحمة ضَريحُها، وما كانت عزمتْ عليه من قصد مبْرور، وتجارةٍ لن تبُور، وأمِّ إلىٰ البيت

الآمِنِ والحرم المعمُور، وما فاجأها من الأجَل، وعاجَلَها من أمر الله عزّ وجلّ ؛ فالمقامُ أجزل اللهُ ثوابَه يحقّق أنّ النيّةَ فى الأُجُور أبلغُ من العمل ، وأنه مَنْ أجاب داعِىَ الحِمَام فلا تقصيرَ فى فعله ولا خَلَل ، والله نسأل أن يكتُبَ لها ما نوته من خير ، وأن يُطِيف رُوحَها الزكية ببيتِه المعمورِ فى جنّاتِ عدنٍ كما أطافَ أرْواح الشهداء فى حَوَاصل ذلك الطَّيْر .

وكنّا نودُّ أن لو قدِمتْ ليتلقّاها منّا زائدُ الإكرام، ويُوافِى مَضارِبَها وافدُ الاحتفالِ والاهتمام ، ونستَجْلب دعواتِها الخالصةَ الصالحه، وتَظْفَر هى من مشاهدةِ الحَرم المعظَّم والمَثوىٰ المكرّم والبيتِ المقدّسِ بالصَّفقة الرابحه . علىٰ أنّه مَنْ ورد من تلقائكم قابَلْناه من جميل الوِفادةِ بما به يَليق ، وتقدّمْنا بمعاملته بما هو به حَقيق ؛ ويَسّرنا له السبيلَ وهدَيْناه الطريق ، وأبلغْناه فى حِرْز السلامة مع رَكْبنا الشريف أمَلَه من قضاء المَناسك والتَّطْوافِ بالبيت العَتِيق .

وأمّا ما أشار إليه من أمر مَنْ كان «بتلمْسان» وأنه ممن لا يَعرِف مواقِعَ الإحسان، وما وصَفَه المقامُ العالى من أحوالٍ ليس الخَبَرُ فيها كالعِيَان ، وأنه اعتدىٰ علىٰ مَن يتاخِمُه من الملوك ، وخرج عن القَصْد فيما اعتمَدَه من ذلك السُّلُوك ، حتّىٰ أن ملك تُونُس أرسل إلىٰ المقامِ ابنَه ووزِيرَه ، وسأله أنْ يكونَ ظهيرَه علىٰ الحق ونَصِيرَه ، وأن المقامَ العالىَ أرسل إلىٰ ذلك الشّخص منكرًا اعتمادَه ، طالبًا إصلاحَه لا إفسادَه ، راجيًا أن يكون ممن تنفعُهُ الذِّكرىٰ ، ظانًّا أنه ممّن يأبىٰ أن يُقال له : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ وأنه بعد ذلك تمادىٰ علىٰ غيِّه ، وأراد أن يذُوق طَعْم الموت فى حَيِّه ، وأبىٰ الظالمُ إلا نُفُورا ، وذكر الملكُ عنه أنه قتَل أباه بعدَ أن آتاه اللهُ به نعمةً ومُلْكا كبيرا . وأن المقامَ العالى أتاه نبأٌ عن أخيه المقيم بسجلْماسه ، وخَبَرٌ صِدْقٌ أوجب أن يُعامَلَ بما يَليقُ بجميل السياسة وحِرز الحراسه ؛ فجنّد المقام له

جنُودا ، وعقَد بنُودا ، وأضرىٰ أسُودا أوهنت كَيْده ، وأذهبتْ أيْدَه ، وعاجلَتْ صيْده ، وأذالَتْ باسه ، وأزالَتْ عنه سِما المُلْك ونزعَتْ لباسَه . وأنه فى غُضُون ذلك أتاه سلطانُ الأنْدلُس يستصْرِخ به علىٰ عدُوّ الله وعدُوّ المؤمنين ، ويستَعْديه علىٰ الكَفَرة المعتدين . وأنَّ المقام لبّىٰ دعوته مسْرعا ، وأكرم نُزُلَه مُمْرِعا ، ووعَده الجميل ، وحقَّق له التأميل . وأن صاحب تِلِمْسان لما غرَّه الإمهال ، وظنَّ هذه المَهامَّ توجب للمقام بعضَ آشتِغال ، أعمل أطماعَه فى التجرِّى علىٰ بعض ممالكه المحروسة ومَدّ ، وسار إلىٰ محلٍّ هو بينهما كالحَدّ ، وأنَّ المقام عند ذلك صَرف اليه وجْهَ العَزْم ، وأخذ فى حِفْظ شانه بما لأعلام النصر من نَصْب وما للاعتداء من رَفْع وما للاهتمام من جَزْم . وأنه لم يَقدِرْ عليه إلا بعد أنْ حَذَّره من أليم العقاب حُلُولا ، وتمسك فيه بقوله تعالى : ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [ولمَّا](١) لم ينفَعْه الإنذار ، وأبىٰ إلا المداومةَ والإصْرار ، أرسل اليه المقامُ العالى من جيشه الخِضَمّ ، وعسكره الذى طالَمَا تَعَضُّده ملائكةُ السماء وإلىٰ أعداده تنْضَمّ ، كلَّ باسلٍ يقوم مَقامَ الكتيبه ، وكلَّ مُشاهدٍ يشاهَد منه فى العَرِين كلُّ غريبه ، وكلَّ ضِرْغام تَعرِف العِدا مواقع ضَرْبه لكنها تجهَل نِدّه أو ضَريبه ، فأذاقوه كأس الحِمَام صِرْفا ، ولم يبتغُوا عن حِمَاه بدُون نَفْسه عَدْلا ولا صَرْفا ، إلى أنْ أخذوه فى جماعةٍ من بنى أبيه ، وشِرْذمةٍ قليلة ممَّن كانتْ تخالصُه فى الشدائد وتُوافيه ، وأن المقام العالى بعد ذلك سيَّر مَطارِفَ العَدْل فى الرعيَّه ، وأقرَّ أحوالَهُم فى عدم التعرُّض إلى الأموال والذُّرِّيه ، على ما هو المسنون فى قتال البُغَاة من الأمور الشرعيَّه . وفَهِمْنا جميعَ ما شرحه فى هذا الفصل ، وما أخبر به من هذا الظَّفَر الذى آبيَضَّ به وجهُ الفتح وإن كان قد آحمرّ به صَدْرُ النصل ، والله تعالى يزيد مُلْكه رُقِيّا ، ويَجْزِيه لقَبول النِّعم لُقِيّا ، ويجعلُه دائما

(١) فى الأصل "فلم ينفعه" بدون لما .

كوصفه مظفَّرا وكاسمه عليًا . وأن المقام العالى لما فرَغ وجهُه من هـذه الوِجْهة، وحاز هـذا المُلْك الذى لم يحُزْ آباؤه كُنْهه، عاد إلىٰ المهـمِّ الذى قَدِم فيـه سلطان الأندلُس لأنه ابدىٰ ما المسلمونَ فيه من مجاورة الأذىٰ، ومجـاورة العِـدا ، وقُرْب المسافة بينَ هذين العدْوَتين كالشَّجا . وفى عيونهم كالقذىٰ . وأنه تَوىٰ به من الطُّغاة من أسْدل علىٰ المسلمين أرديةَ الرَّدىٰ . وأنه علىٰ جانب البحر المعروف بالزُّقاق، وبه قُطَّانٌ يمنعُون الإرفادَ والإرفاق، ويصُدّون عن السبيل مَنْ قصد سُلوكه من الرفاق. وأن البرَّ أيضا مملوءٌ منهم بصُقُور صائده، وعُلُوج مُكايِده، وكُفَّار معانِده، وفُجّار علىٰ السُّـوء متعاضده، والبحْرَ مشحونٌ بغرْبان طائرة بأجنحة القـلوع طارِدَه، صادرة بالموت وارده، جارية فى فلَك البحر كالأعلام إلا أنها بالإعلام بالخبر شاهده، تتخطَّف كلَّ آمٍّ وقاصد، وتقعُدُ لأهل الإيمـان بالمَراصد، وتُدْنى الموتَ الأحمر، ممن ركب البحرَ الأخضر، وتمنعُ السـالك، إلا أن يكون من أهل الضَّلال الحالك، من بَنى الأصْفر.

وأنَّ المقام العالىَ عند ذلك قام لله وغار، وأنجد جُنودهُ فى طلب الثار من أهل النار وأغار، وأنجد قاصدَ حرمه ببُعُوث كرمِه وأعار، وأرسل عِقْبانَ فُرسانه محلِّقـةً إلىٰ ذلك الجبل الشَّامخ الذُّرىٰ وأطار، إلىٰ أن احاطت بهـم جنودُه إحاطةَ الآساد بالفرائس لا إحاطةَ الهالاتِ بالأقمار، فمـا منهم إلَّا مَنْ أعمل علىٰ العِدا رحىٰ المَنُون وادار، وسار وناعى البينِ يَقْدُمه إلىٰ أيْنَ سار، وقدّمَ عليهم ولَدَه الميمونَ النَّقيبه، الممنوحَ غَرْبُه من مَواقع النصر بكلِّ غَريبه، الجارِىَ علىٰ سَـنَن آبائه الكِرام، المظفَّر أنَّى سَرىٰ الممدوحَ حيث أقام. وأنه مزَّق جُموعَهُم الكثيفه، وهَدَم مَعاقلَهم المُنيفه، وٱستدْنىٰ منهم القاصِى، وٱستنْزَل العاصِى، وأخذ بالأقدام والنَّواصى، وأحلَّ العذابَ والنَّكال، بمن يستحقُّه من أهل الإلحاد والمَعاصى، وقرن بيْنَ الأرواح والآجال،

وأذكرهم بهذا النصر أيام ابن نصر وأعاد ، وأثبت لهذا الجبل حقيقة اسم المدح ، واستقر في صحائف فعله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلمنا أيضا ما اعتمده الطاغي المغتال لعنه الله من الحضور بنفسه ، وجمعه الملحدين من أبناء خدمته والمارقين من جنسه . وأنه أعظم هذا الأمر وأكبر ، وأبدى الزفير لهذا المصاب وأظهر ، وأقسم بمعبوده المصور وصليبه المكسر ، أن لا يعود إلا بعد أن يظفر بما سلبه الحق إياه وتبصر ؛ فأبى الله والمؤمنون أن تكون النية إلا خائبة ، وقضت سعادة الإسلام أن تكون الأيام لما عقده من الطوية الردية ناكبة ؛ فلما طال عليه الأمد وحان الحين ، عاد صفر اليدين ولكن بخفى حنين ، ناكصا على عقبه ، خاسئا لسوء منقلبه ، وأسرع إلى مقر طاغوته سرى وسيرا ، ولو كان من ذوى الألباب لتعقل فى أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ . وأن المقام العالى ألزمه بعد ذلك ما كان على أهل «أغرناطة» له فى كل عام موظفا ، ووضع عنهم إصرا ما برح كالأسر مجحفا .

وهذه عزة إسلامية جدد الله على يد المقام بذلك القطر صدورها ، وسطر فى صحائف حسناته أجورها ، وأبقى له مذخورها ، وأعدها له ليوم تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا إذا شاهدت عرضها ونشرها . ومنة من الله أربت على العد ، وتجاوزت الحد ، ومزية لا تطمح الآمال إلى ميلها فى جانبها ولا تمتد ، ورتب جد يلحق بها الولد الناجم فى سماء المعالى رتب الكرام من أب له وجد ـ والله يجعله مظفرا على العدا ، منصورا على من حاد عن سواء السبيل واعتدى ؛ مستحقا لمحاسن الأخبار على قرب المدة وبعد المدى .

وقد كان أخونا أمير المسلمين ، وسلطان الموحدين ، والدك الشهيد قدس الله سره ، وبوأه دار النعيم وبها أقره ، فى كل آونة يخبرنا بمثل هذا الفتح ، ويذكر لنا

مانالَه من جَزِيل المنح ؛ (فهذه شِنْشِنةٌ نَعْرِفُها من أَخْزَم)، وسُنَّةٌ سلك فيها الشِّبلُ الصائدُ سَنَنَ ذلك الضَّيْغَم الأعظَم ، ونحن نحمَدُالله الذى أقام المَقَامَ مقامَ أبيه لنُصْرة الإسلام وأبقىٰ ، وصَدَّق بمـا تُنْشِئه من حُسْن أفعالك وسـعيد آرائك أنّك أبو الحُسَيْن وأنّ أباك أبو سعيد حقًا .

وحيثُ سلك المقامُ سَنَنَ والده الشهيد، وأتحفنا من أنبائه بكُلّ جديد، وقصّ علينا أحاديثَ ذلك الجـانبِ الغَرْبِىّ المُشْرقِ بأنواره، ونَصّ متجَدّداته مفصّلةً حتّىٰ صِرْنا كأنّا مشاهِدُون لذلك النصرِ ومَوَاقِعِ آثارِه، فقضىٰ الوُدُّ أن نُتْحِفَه من أحاديث جَيْشنا الذى أشرقَتْ لَمَعاتُ سُيوفِه فى الشَّرْق الأعلىٰ بما يُشَنِّف سَمْعه، ويَسُرّ معشرَ الإسلام وجَمْعه ، ومَوطِنَه ورَبْعه : ليتحقّق أنّ نِعَم الله لكلِّ مَنْ قام بتشييد هذا الدِّين المحمّدِىّ عامّة، ومِنَنه لديْهم تامّة، وألطافَه بهم حافّة، ومُناصرتَه ليَدِ سُلطانِ الإسلام فى أعناق العِـدا مُطْلَقةٌ ولأكُفّ أهلِ الشِّرْك كافّة، ﴿وأمّا بِنِعْمةِ رَبّك فَحَدّثْ﴾ .

فمما نُبْديه لعلمه ، ونُهْدِيه لسـعيد فَهْمه ، أنّ من جملة من يحمِلُ لأبوابنا الشريفةِ من ملوك الكُفْر القَطِيعـةَ فى كلّ عام ، ويرىٰ أنّ ذلك من جمـلة الإفضال عليـه والإنعام، متملّكَ سِيسَ ، الذى هو فى مِلّته من ساكِنى البَرْكالرّيس، وبين بطارقته وطُغاته كالكَنْد الأعظَم أو كالقِدّيس النفيس، وعليـه مع ذلك لأبوابنا الشريفةِ من القناطير المُقَنْطَرة من الذهب والفِضّـة والخيلِ المُسَوّمة مالا يَحِيد عنه ولا يَحِيس، ومرتّب لايقبَل التنقيص ولايسمَح لِخناقه بتنفيس، تحمِلُه نُوّابه إلى أبوابنا الشريفةِ عن يَدٍ وهم صاغرون، ويقومُون به علىٰ قدَم العُبُوديّة وهم ضارِعُون .

ولَمّـا كان فى العام المـاضى سوّف ببعْضه وأخّر، ودافَع عند إبّانه وقَصّر، وسأل مَرَاحِمَنا فى تنقيص بعض ذلك المُقرّر، وأرسل ضَراعاتِه إلىٰ نُوّابنا بالممالك الشامية

فى هذا المعنىٰ وكَرَّ، وقدر فى نفسه المُراوغة وأسرَّ حُسْرا فى ارتعا (؟) والله أعلم بما قدر، فاقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُرسل إليه بعثًا يذلِّل قياده، ويُنكِّس صعاده، ويخرِّبُ بلادَه، ويوطئ أطواده، ويُوهِن عَناده، ويُذْهِب فَساده، ويُفرِّق أجْناده، ويمزِّق أنجاده، ويقلِّل اعداده، ويُفلِّل جموعه، ويُدكدك رُبوعه، ويُذْرِى علىٰ مُلْكه دُموعه، ويُدْنِى خُضوعه، ويفْصل تلك الأبدانَ التى هى للطُّغيان مجموعه، فأنهضنا إليه من الأبطال كُلَّ باسل، وأنهَدْنا إليه منهم كُلَّ ضِرْغام خادِرٍ يظُنُّ الجاهلُ أنه مُتكاسل، وأشهَدْنا حَرْبَه كلَّ مؤمنٍ يرىٰ الشهادة مَغْنَمًا، والتخلُّف مأْثَمًا والتَّباطُؤَ مَغْرَما، والعُذْرَ فى هذا المُهِمِّ أمْرًا محرَّما. ويعُدُّ الرُّكوبَ إلى هذا السَّفر قُرْبه، والرُّكونَ إلى وَطنه غُرْبه، ويَرْغَبُ فيما وعد الله به جَيْشه المنصورَ وحِزْبَه، ويربأُ بنفسه أن يكون من الخالفين حُبًّا لها وتكريما، ويبادرُ إلىٰ ما أُمِر به رغبةً فى قوله تعالى : ﴿ وفَضَّل اللهُ المجاهدينَ علىٰ القاعدينَ أجْرًا عَظِيما ﴾ . علىٰ صافنات جياد، ليس لها غيرُ الطَّيْر فى سُرْعة المَرام أضداد، وعادياتٍ عادياتٍ علىٰ أهل العِناد، وضابحات ذابحات لذَوِى الفَساد، ومُغيرات طالما أسفر صُبْحُها عن النَّجاح، ومُثيرات نَقع يتبلَّج غيهبُها عن تحقق النَّجاة وإزالة الجُناح. وصَواهِلَ عِراب، كَمْ للفضل بها من كُمُون وللموت اقْتراب، وأصائِلَ خَيْل، تُخيِّل لراكبها أنها أجرىٰ من الرياح وأسرىٰ من اللَّيل، قد عُقِد الخيرُ بنواصيها، وعُهِد النصْرُ من أعْرافها وصَياصيها، وتَسنَّمَ راكبُوها لذِرْوة العِزِّ من ظُهورها، واحتوَوْا علىٰ الكبير الأعلىٰ من نُصْرتها علىٰ العِدا وظُهورها، بسُيُوف تبدِّدُ الأوهام، وتُزيل الإيهام، وتَقُدّ الهَامْ، وتُدْنِى الموتَ الزُّؤام، وتُطَهِّر بميامنها نجس الشرك ودَنَسه، وتَقْرَعُ أجسادَهم فتَغْدُو كلُّها عُيونا ولكِنْ بالدِّماء مُنبجسه، قد تَسرْبلَ كلٌّ منهم من الإيمان دِرْعا حَصِينا، واتخذ لُبْسه جُنَّةً ولكن من الذهب والإستبرق ليكون

لفضل الله مُظهِراً ولإحساننا مُبِيناً، واتخذ لِسهام القِسِيّ ليوم اللقاء الألسُنَ الحِداد، ومدّ يدَ المُظاهَرة بِبيض قِصارٍ وسُمْرٍ صِعاد .

فلمّا جاسُوا خِلالَ تلكَ الدِّيار، وماسُوا يرفُلون فى حُلَل الإيمان التى تَشفِي صُدورَ قومٍ مؤمنين وتَغيظُ الكُفّار، لم يسلُكُوا شِعْبا إلا سلك شيطانُ الكُفرِ شِعْباً سواه، ولا وطِئوا مَوْطِئا إلّا وكلُّ كافرٍ يأباه، ولا نالُوا من عدُوٍّ نَيْلا إلّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ كما وعدَهُم الله، وما أتَوْا لهم على ضَرْعٍ حافلٍ إلا جَفّ، ولا مرُّوا على زَرْعٍ حافلٍ إلا أصبح هشِيما تَذْرُوه الرِّياح أو حَطِيما تكْفِيه الكَفّ، ولا هَشِيمٍ إلا حَرَّقُوه، ولاجمعٍ إلا فرّقوه، ولا قطيعِ شاءٍ إلاقطّعوه ومزّقوه، ولاضائنٍ إلا ضَنُّوا عليه أن يدّعوه لهم أو يُطلِقوه، ومابَرِحوا كذلك إلى أن نازلُوا البَلَد المسمَّى بآيَاس، فحصل لأهلِهِ من مسمّاه الاشتقاقُ الأصغر والاشتقاق الأكبر بقطع الأمل منه واتّصال الإيَاس، فناداهم مَنْ بذلك الحِصْن من أسارىٰ المؤمنين :

يارحمـةَ اللهِ حُلِّى فى منَازِلنا ✱ حَسْبِى برائحـةِ الفِرْدَوْس مِنْ فِيك

ويا نَصرَ الله أَنْشُر بالظّفَر راياتِ مُواجِهنا ومُنَازِلنا فطالمَا كُنّا نؤمّلك ونرتجيك، وياخيلَ اللهِ اركبي، وياخَيلَ الكُفّار اذهبي، وياجُنْد إبليس ارهبي، من جُنْدِ الله الغـالِبين، وانْ وَجَدْتِ مناصًا فانفِرِى، ويامَا لِلإسـلام من جُنُودٍ وأنصار، قاتلُوا الذين يلُونَكم من الكُفّار .

وكانتْ موافاةُ عسكرِنا المنصور إليهم عندَ الإسْفار، فلم يملِكُوا القَرار، ولا استطاعُوا الفِرَار، ولم يجِدُوا ملْجأ من اللهِ إلّا إليه . وقال : لاوزَرَ وكيفَ به لمن بُلِيَ الأوْزار، ورأوا ما أعدَدْنا لحِصارِهم من مجانيقَ تقُدّ الصُّخُور، وتُدكْدِكُ القُصور، وتَغِيض بها مياهُ نفوس تلك الأجساد الخبيثة فلا يجتمعانِ إلى يومِ البَعْث والنُّشور، وأنا أمدَدْنا

جُيوشَنا بجاريات فى بحر الفُرات، مشحونة بالأموال والأقوات، والعُدَد والآلات، وأرقَدْناهم من الذَّهب والفضَّة بالقناطير المقنطرات، وأوفَدْنا عليهم من أنجادنا بالديار البَكْرِيَّة، وأطراف البلاد الشامية، جُيوشًا كالسَّحاب المتراكم، وأطَرْنا عليهم عِقْبانَ اقتناص من عِقْبان التَّراكِمينَ اعتادَتْ صَيْدَ الأراقِم، وأسْرَ الضَّراغِم، فلمَّا تحقَّقُوا الدَّمار، لم يلبَثُوا إلا كما وصف الله تعالى حالَ مَنْ أهلك من القَوْم الفاسقين ساعَةً مِنْ نَهار.

فعند الظهيرة حَمِيَ الوَطيس، ونَكَص عِنْد إعلان الأذانِ على عَقِبه ابليس؛ وشاهَدُوا[1] الموتَ عِيانا، وتحقَّقُوا الذَّهابَ أموالًا وإخوانا ووُلْدانا، أذعَنُوا إلى السِّلْم، ونادَوُا الأمانَ الأمانَ يا أهل الإيمانِ والعِلْم، والكَفَّ الكَفَّ يا جُنْد الملك الموصُوف عند الشِّقاق بالحزم؛ وعند القُدْرة على العِقاب بالحِلْم. وأرسل طاغِيَتُهم الأكبرُ ليفون، يُقْسِم بصليبه: إنَّا من القوم الذين يقُومُون بما عليهم من الجِزْية ويُوفُون؛ ومن الرَّعيَّة الذين يُطيعون أمرَ مَلِكهم الأعظم وعن حمى الإسلام يكُفُّون؛ فعند ذلك رأى نوَّابُنا بذلك العسكر أن تُكَفَّ عنهم شُقَّة الشِّقاق وتُطوَى، ولانَتْ قلوبهم لتَذْكار قوله تعالى: ﴿وأنْ تَعفُوا أقرَبُ للتَّقوى﴾. وطالَعُوا علُومَنا بما سأله القومُ من الرحمة والرَّأفه، وما ضَرَعوا إليهم فيه من الأمانِ والألْفه، وإعطاء ما كُنَّا رسَمْنا به من تَسليم قلاعٍ معْدُوده، وتسويغ أراضٍ مَحْدوده، تستقرّ بيد نُوَّابنا وتُقْطَع بالمناشير الشريفة لأهلِ الجهاد من أبوابنا، مع استقرار مارسَمْنا به من قَطيعه، وعَقْد الهدنة على أمور هى عندنا مُحَبَّبة ولَدَيْهم فظيعة.

هذا بعد أنِ آستولت عساكرُنا على قِلاعٍ لهم وحُصُون، ومُحْرَز من أموالهم مَصُون، وطلعت أعلامنا المحمَّديَّة على قَلْعة آياس، ونزل أهل الكُفْر على حُكْم

(١) لعله وحين شاهدوا الخ ليتعلق به أذعنوا بعد.

أهل الإيمان وزال التحفُّظ والاحتراس، وأُعْلِن بالأذان فى ذلك الصَّرح، وظهرتْ كلمةُ الإيمان كما بدأتْ أوّلَ مَرّة وهذا يُغنى عن الشّرح، وعلَت الملّةُ الحنيفيّةُ بذلك القُطْر وقام أهلُها وصالُوا، وغُلّت أيدى الكُفّار ولُعِنوا بما قالُوا .

وكان جيشُنا قبلَ ذلك أخذ قلعةً تسمَّى « بكاوَرَا » واستنزلُوا أهلَها قسْرا، واسترالُوهم عنها مابينَ قتْلى وأسْرى، وهى قلعةٌ شامخةُ الذُّرى، فسيحةُ العَرا، وثيقةُ العُرا، يكاد الطرفُ يرجع عنها خاسئا .

ولما اتّصل بأبوابنا هذا الخبرُ السّارّ، وشَفَع لنا مَنْ نرىٰ قبولَ شفاعتِه فى إجابة ماسأله هذا الشّعبُ من إرجاء عذابِ أهلِ الكُفْر إلىٰ نار تلْكَ الدار، مَنَنّا عليهم بالأمان، وقابلْناهم بعدَ العَدْل بالإحسان، وتقدّم أمرُنا إلىٰ نُوّابنا بكفّ السيف وإغمادِه، وإطفاءِ مُسَعَّر الحرب وإخمادِه، وأنْ يُجرىٰ المَنُّ علىٰ مالوفِه منّا ومعتادِه، بعد تسليم تلكَ القِلاع، وهدْم الأسوار التى كان بها لأهْل الكُفْر الإمْتناع، واستبْقاء الرعيّه، واستحْياء الذُّرّيه، وإجراء الهُدْنة المسئُولة علىٰ القواعد الشرعيّه؛ وعاد عسكرُنا منشورَ الذوائب، مظفّر الكتائب، مؤيّد المواكب، مشحُونا بغرائبِ الرّغائب .

وعندَ وُصُولهم إلى أبوابنا فتحْنا لهم أبوابَ العطاء الأوْفَر، وبَدّلناهم بالتى هى أحسَنُ وعوّضْناهم الذى هو أكثَر، وأفضْنا عليهم من خِلَع القَبُول ماأنساهم مشقّةَ ذلك السُّرىٰ وشُقّةَ السّيْر، وتلا عليهم لسانُ الإنصاف ﴿ولِبَاسُ التَّقوىٰ ذٰلكَ خَيْرٌ﴾ .

وبعدَ ذلك ورد علينا كتابُ بعض نُوّابنا بالأطراف من أولاد قرمان، القائمين بمَشارق ممالكنا علىٰ وجه الأمن وسَعةِ الأمان، بأنّهم عند عودهم من سِيس، ونُصْرتِهم علىٰ حزْب إبليس، استطْردُوا فأخذُوا للكُفْر تسعَ قِلاع، مابرِحتْ شديدةَ الامْتناع،

لا تمتدّ إليها الأطماع ، فتكمَّل المأخوذُ فى هـذه السفرة وما قبلها خمس عشْرةَ قلعـه ، وبدّد الله شَمْلَ الكُفْر وفرّق جمْعه ، وآثرنا أن نُعْلِم المقامَ العالى بلمْحة ممـا لله لدينا من النِّعم ، ولبره من شارة يُسْتَدلُّ بها على أثر أخلاف كالدِّيَم ، ونُطْلِعه على دَرّة من سَحاب ، وغَرْفة من بحرٍ عُباب ، وطُرْفة نَشْرها كالمِسْك الذى ينبغى أن يختتم بها هذا الكتاب .

ونحن نرغَبُ الى المقام أن يواصلَ بكُتُبه المفتتحةِ بالوِداد ، المشتملةِ على النُّصْرة على أهل العِناد ، المشحونةِ بمَواقع الفتح والظَّفَر التى تتضاعَفُ إنْ شاء الله وتزداد ، المحتويةِ على الطّـارف من الإخلاص والتّـلاد ، المتّصـلِ سببُها بين الآباء الكِرام ونُجباء الأولاد ، والله تعالى يجعَـلُه دائمـا لثمرات النصر من الرماح يَجْتني ، ولوُجُوه الفتح من الصَّوارم يَجْتَلي ، ويُديم على الإسلام مزيدَ العِزّ الذى يتجدَّد كلَّ آونةٍ من طلائـعِ راياتِ محمد وبدائع آراءِ علي ، بمنه وكرمه .

✤

وهذه نسـخة كتاب جواب إلى صاحب فاس حيثُ ورد كتابه بالتعرُّض لوقعة « تمرلنك » من إنشاء مؤلِّفه ، كُتِب بذلك عن السـلطان الملك الناصر « فرج بن برقوق » وهو .

عبـد الله ووليُّه السـلطان الأعظم (الى آخر ألقاب سلطاننا) أجرى الله تعـالى الأقدار برِفْعة قَدْره ، وأدار الأفلاك بتأييده ونَصْره ، وأذلَّ رِقابَ الأعداء بسَطْوته وقَهره ، وشحن الأقطارَ بسُـمْعته وملأ الآفاقَ بذِكْره ، يخُصُّ المقامَ العالى (الى آخر الألقاب) : رفع الله تعالى له فى مُلكه الشامخ مَنارا ، وجعل النصرَ والظَّفَرَ له شِعارا ، وأحسن بحُسْنِ مُواتاتِه إلا لأهل الكفر جِوارا ، بسَلام يفوق العبيرَ عَبيقه ، ويزرى

بفَتيقِ المِسْك الدارىّ فَتيقُه ، ويُخجِل الروضَ المنمنَم إذا تزيَّن بالبَهار خَلوقه، وثناء يَكِلُّ الألسنةُ البليغةُ عن وَصْفه، ويعجِزُ بُناةُ المجد الأثيل عن حُسْن رَصْفه، وتعترفُ الأزاهرُ بالقُصور عن طِيبِ أرَجه ومسك عَرْفه، وشُكْر يوالى الوِردُ فيه الصَّـدَر، ويحقِّق الخُبْرُ فيه الخبَرَ، ويُشيع فى الآفاق ذكْره فتتخذُه السُّمار حديثَ سَمَر .

أما بعدَ حمدِ اللهِ واصلِ أسبابِ المَوَدّة وحافِظِ نظامِها، ومؤكِّدِ علائِقِ المحبّة بشِدّةِ التئامِها، ورابطِ جأشِ المُعاضَـدةِ باتِّحادِ كلمتِها وتَنَـاسُبِ مَرامِها، ومجدِّدِ مَسَرّاتِ القلوب بتَوالِى أخبارِها المُبْهِجة عن عالى مقامِها . والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد أفضلِ نبىّ رعىٰ الذِّمام علىٰ البِعاد ، وأكرمِ رسولٍ قرَنَ صِـدْقَ الإخاء منه بصِحّةِ الوِداد ، صلاةً تبلُغ من رُتْبة الشَّرف مُنْتهاها ، وتَنْطوى الشُّـقّةُ البعيدةُ دُونَ بلوغ مَداها ؛ فإنه ورد علينـا علىٰ يدِ رسُولكم فلان كتابٌ كريم طاب وُرُوده ، وتهلّلتْ بالبِشر سُـعُودُه ، وشهِدَ بِصدْق المحبـة الصادقةِ شُهوده ، وطلَع من الجانبِ الغَرْبىّ هلالُه فلاحَتْ بالمشرِق بحُسْنِ التلقّى سُعوده ، فقرّ منه برُؤْيته الناظر، وابتهج بموافاتِه الخاطر، ولاحَتْ من جوانبه لوائحُ البِشر فأحسَنّ تلقّيه سلطانُنا الناصر .

وقابلناه من القَبُول بما كاد باطِنُه لكمالِ الموافاة يكونُ عُنْوانا للظاهِر ، وفضَضْنا ختامَه المصونَ عن بَديع كلامٍ مخترَع ، وبناتِ فكرٍ قبلَه لم تُفترَع ، وفصاحةٍ قد أحكم اللَّسَنُ مبانيها ، وبلاغةٍ تناسبتْ ألفاظُها فكانَتْ قوالبَ لمَعانِيها ، وبراعةٍ قد أحسنتِ البديهةُ ترتيبَها فجاءتْ وتواليها تتبَع هواديهـا ؛ وفَهِمنا ما أظهره من كَوامِنِ المحبة التى بلَغتْ من القلب الشَّـغَاف ، وبَوارِح الشوق الذى عِنْـدنا من مثله أضْعافُ أضْعاف ؛ وانتهينا إلىٰ ما أشار إليه المقامُ العالى من التلويح إلىٰ ماطَرَق أطرافَ ممالكنا الشريفةِ مِنْ طارق الأعتدا ، وما كان من الواقعةِ التى كاد خَبَرُها لفظاعته يكونُ كالمُبتَدا .

ونحن نُبْدِى لعلم المقام العالى مايوضِّح له أنَّ ماوقع من هذه القِصَّة لم يكُنْ عن سُوءِ تدبير، ونُورد عليه من بيان السبَبِ مايحقق عنده أنَّ ذلك لم يكُنْ لعجزٍ ولا تقصيرٍ، بل لأمرٍ قُدِّر فى الأزَل، ومقدُور الله تعالىٰ لايُدْفَع بالحِيَل .

وذلك أنه لما اتَّصل بمسامعنا الشريفة قَصْدُ العدو إلىٰ جهتنا، وتجاوُزه حدَّ بلاده إلىٰ أطرافِ مملكتنا، بادرْنا الحركَةَ إليه فى عسكرٍ لجِب، وجُيوشٍ يضيق عن وُسْعها الفضاءُ الرَّحْب، من كل بطلٍ عركَتْه الحروب، وثقَّفته الخُطُوب، وحنَّكته التَّجارِب، وعَجَم عُودَه بكثرة المُنازلات قِراعُ الكتائب. قد امتطىٰ طِرْفًا عربىَّ الأصل كريمَ الحسَب، خالصَ العِتق صريحَ النَّسَب، يفوتُ الطَّرفَ مدىٰ باعه المَديد، ويَسْبِقُ حافرُه موقعَ بصرِه الحديد . ولبس دِرعًا قد أُحكِم سَرْدُها، وأُبرِم شَدُّها، وبالغَتْ فى السُّبُوغ فاتَّصفَت بصِفَات الكرام، وضاقَتْ عيُنها فمنعَتْ شَبحا حتَّى ذُبَابَ السِّهام. ووضَع علىٰ رأسه بيضةً تخطَف الأبصارَ وميضُ برْقها، وتزْلَقُ السِّهامَ الراشقةَ صلابَةُ طَرْقِها، وترفعُها الأبطالُ علىٰ الرءوس فلا ترىٰ أنها قامتْ ببعض حقِّها. وتقلَّد سيفًا يَمْضِى علىٰ الرقاب نافذُ حكمِه، ويقضِى بانقضاء الأجل انقضاضُ نجمِه، لايَنْبُو عن ضَريبة فيُردّ، ولايَقِف حدُّه فى القَطْع عند حَدّ. واعتقل رُمحا يُجْرِى الدماءَ سِنانُه بأنابيبه، ويمدّ إلى الفارس باعَهُ الطويلَ فيأخذُ بتَلابيبه، وتمسَّك المنَايا بأسبابه فتتعلَّق منه بالأذيال، وتُضَرِّسُ الحربُ بزُرْق أنيابه كأنها أنيابُ أغوال . وتنكَّب قَوْسا مُوعزُ الآجالِ هِلالُ هلالِها، ومُورِدُ المنُونِ إرسالُ نبالِها، ومُدْرِكُ الثار رنَّةُ وَتَرِها، ومُوقِدُ نارِ الحرب قَدْحُ شَرَرِها، قد اقترَنَ بها سِهامٌ تُسابِقُ الريحَ فى سُرْعتها، وتُعاجِلُ الموتَ بصَرْعتها، وتختطِفُ العيُونَ فى ممرِّها، وتختلِسُ النفوسَ من مَقرِّها، تدخُل هجمًا كُلَّ محتجِب، وتأتى الحَذِرَ من حيثُ لايحتسِب . وتناولَ عمُودًا يهجُم على الأضالع بأضلاعه فيقْدَغُها، ويُصافِحُ الرءوس بكفِّه الملتحمةِ الأصابع

فيدْمَغُها ، يُقرِّب من الأجل كُلَّ بعيد ، ويُخْلِقُ من العُمُر كلَّ جديد ، ولا يُقاومه في الدِّفاع بيضةٌ وأنَّى تُقاوِمُ البيضةُ زُبْرَةً من حَديد .

وتحركْنا من الديار المصرية في جُيوش لا يأخذُها حَصْر، ولا يلحقها هَصْر، ولا يُظَنُّ بها على كثْرةِ الأعداد كَسْر، ولم نزل نَحُثُّ السير، ونُسْرِع الحركةَ لِلقاء العدو إسراعَ الطير، حتّى وافينا دِمَشْـق المحروسةَ فنزلْنا بظاهرها ، مستمْطِرين النصرَ في أوائل حركتِنا وأواخِرِها ، وانْضَمَّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها، وتركمانها الزائدة على العَدّ وعشرانها، مالا ينقطِع له مَـدَد، ولا يدخُل تحتَ حَصْر ولا عدد . وأقبـل القومُ في لفيف كالجَراد المنتَشِر، وأمواج البحر التي لا تَنْحصر : من أجناسٍ مختلفـه ، وجموعٍ على تبايُنِ الأنواع مُؤْتلِفه، وتراءى الجمعانِ في أفسح مكان، ورأى كُلُّ قبيلٍ الآخَرَ رأْيَ العين وليس الخبرُ كالعِيَـان، واعتدَّ الفريقانِ للنِّزال ، واحتفَرُوا خَنادقَ للاحتراس وتبوَّأنا مَقاعِدَ للقتال، ولم يَبْقَ إلا المُبارَزه، والتقاءُ الصُّفُوفِ والمُناجزه، إذ ورد وارِدٌ من جهتِهم بطلب الصُّلْح والمُوادعه، والجُنوح إلى السِّلْم وقطْعِ المنازَعه، فأجَبْناهم بالإجابه، ورأينا أنَّ حَقْن الدماء من الجانبين من أتمِّ مواقِع الرأى إصابَةً؛ وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لَمَّـا أتانا مِنْكُمُ قاصِـدٌ ۞ يَسْأَلُ في الصُّلْحِ وكَفِّ القِتَال
قُلْنَا لَهُ نِعْـمَ الّذى قُلْتَـهُ ۞ والصُّلْحُ خَيْرٌ وأجبْنَا السُّؤَال

فبينا نحن على ذلك، واقِفُون من المواعَدةِ على المُوادَعة على ما هنالك، إذ بلغَنَا أن طائفةً من الخَوَنة الذين ضَلَّ سعْيُهم ، وعاد عليهم بالوبالِ ولله الحمدُ بَغْيُهم ، توجَّهوا إلى الديار المصرية للاستيلاء على تخْتِ مُلْكِنا الشريف في الغَيْبه ، آملِينَ مالم يحْصُلوا منه إلا على الخَيْبه؛ فلم يسَعْ إلا الإسراعُ في طَلَبِهـم ، للقبْض عليهم وإيقاعِ النَّكال

بهم، وجازيناهم بما يجازى به الملوك مَنْ رام مَرامهم، وظنَّ العدوُّ أن قصْدَنا الديارَ المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ فى خِداع أهل البلد حتى سلّموه إليه وفعل فَعْلَتَه التى فعل، ليَقْضِىَ اللهُ أمْراً كانَ مَفْعُولا .

ثم لم نزل نَدْأَبُ فى تحصين البلادِ وترويح أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل أحوالها، حائطينَ أقطارَها المتسعةَ بجيوش لا يكلُّ حدُّها، ولا يُعقَب بالجَزْر مَدُّها، ليكونُوا للبلاد أسْوارا، وللدولةِ القاهرةِ إن شاء الله تعالى أعوانًا وأنصارا، وأعاد الله تعالى المملكةَ إلى حالها المعروف، وترتيبها المألوف، فاستقرّتْ بعد الاضْطِراب، وتوطّنت بعد الاغتراب .

وفى خلال ذلك ترددت الرسُلُ إلينا فى عَقْد الصلح وإمْضائه، ودَفْن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه، فلم يسَعْنا التلكُّؤ عن المصالحة [بل سَعَيْنا] سَعْيها؛ والله تعالى يقول : ﴿ وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا ﴾ . فعقَدْنا لهم عقدَ الصُّلح وأمضَيْناه، وأحكمْنا قواعدَه توكُّلا على الله تعالى وأبرمْناه، وجهَّزْنا إليهم نسخةً منه طمغت بطمغة قا'ـهم عليها، وأعيدَتْ إلينا بعد ذلك ليكونَ المَرْجِعُ عنْدَ الاختلاف والعياذ بالله تعالى إليها : ﴿فمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ على نَفْسِه ومَنْ أوفَى بما عاهَدَ عليْهُ اللهَ فسيُؤْتيهِ أجْرا عظِيما﴾ .

والله تعالى يجنّب إخاءكُم الكريمَ مواقع الغِيَر، ويقْرِنُ مَوَدَّتَه الصادقة بصفاءٍ لا يَشُوبُه على ممرّ الزمان كَدَر، والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجمـــــلة الرابعة

(فى مكاتبة ملك المسلمين بالأندلس)

وهو صاحب غَرْناطةَ ، وقلعتها تسمى حَمْراء غَرْناطةَ . وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى المسالك والممالك ذكْرُ هذه المملكة وأحوالها ، ومَنْ مَلَكها جاهليّةً وإسلاما، وأنها الآنَ بيَدِ بَنِى الأحمر . وقد ذكر فى "التعريف" أنهم من وَلَدِ قيسِ بنِ سعد آبن عُبَادة سيد الخزرج الأنصارىّ : صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وهى منهم الآنَ بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد المخلُوع آبن يوسُفَ بن إسماعيل آبن الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ، وقد أزلَّ اللهُ من يجاوره من نَصارىٰ الفَرَنْج بسيفه ، وآمتنع فى أيامه ما كان يؤدِّيه مَنْ قَبْله من أواخر ملوك الأندلُس إلى مَلِك الفَرَنج من الإتاوة فى كل سنةٍ ،لآستقبال سنةِ ثنتين وسبْعين وسبعمائة وإلى آخر وقت .

وقد ذكر فى "التعريف" أنّ سلطانها كان فى زمانه فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» أبا الفضل يوسف ؛ ولعله يوسف بن إسماعيل المقدّم ذكره . قال : وهو شابٌّ فاضل له يدٌ فى الموشَّحات . ورسم المكاتبة إليه على ماذكره فى "التعريف" بعد البسملة "أما بعد" بخطبة مختصرة ، «فهذه المفاوضَةُ إلى الحضرة العلية ، السنيَّة ، السريَّة ، العاليَّة ، العادليَّة ، المجاهدية ، المؤيَّديَّة ، المرابطيَّة ، المثاغِرية ، المظفَّرية ، المنصوريَّة ، بقيَّة شجرة الفَخَار ،وخالصةِ سَلَف الأنْصار ، المجاهد عن الدين ، والذابّ عن حوزة المسلمين ، ناصِر الغُزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، خُلاصة الخلافة المعظمة ، أثير الإمامة المكرَّمة ، ظهير أمير المؤمنين ، أبى فلان فلان . »

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" وهو .

صدرتْ هذه المكاتَبةُ إليه متكفِّلةً بالنصر على بُعْد الدار ، مجرِّدةَ النصل إلا أنه الذى لا يؤخّره البِدار ، مُســعَدةً بالهِمَم ولولا الاشتغالُ بجهاد أعداءِ الله فيمن قَرُب لَمَا تقدمتْ سَرَعانُ الخيل، ولا أقبلت إلّا وفى [أوائل] [1] طلائعها للأعداء الوَيْل ، ولا كُتبتْ إلا والعَجاج يُتَرِّب السُّطور، والفِجاج تقذِفُ مافيها على ظُهور الصَّواهل إلى بُطونِ البُحور ، مبديةً ذكرَ ماعندنا بسببها لمجاورة الكُفّار، ومحاورة السيوف التى لاتَملُّ من النفار، مع العلم بما لها فى ذلك من فَضيلة الجهاد، ومَزِيّة الجَلَد على طول الجِلَاد ، ومصابَرةِ السهر لأوقات منيمه ، ومكاثرة هـذا العدوِّ بالصبـر ليكونَ لهـا غنيمه ، ونحن على إمدادها ـ أيدها الله ـ بالنصر و بالدعاء الذى هو أخفُّ إليها من العساكر، وأخفى مسيرًا إذا قدر حقَّه الشاكر ، ثقةً بأن الله سينصُر حِزْبَه الغالب، ويُكَفُّ عدوَّه المغالب ، ويصل بإمداد الملائكة لجُنْده، ويأتى بالفتح أوْ بأمرٍ من عنده ، لتجرى ألطافُه على ماعوّدتْ ، ويُؤخذَ الأعداء بالجريرة، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره وينظُرُ إلى أهل هذه الجزيره .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه مثل صاحب تونس فى القطع والخطابة، والاختتام، والعلامة، والتعريفُ "صاحبُ حمراء غَرْناطة" .

وهذه نسخة جوابٍ إلى صاحب حمراء غَرْناطة . وقد ورد كتابه فى ورقٍ أحمر يتضمّن قيـامَه بأمر الجهاد فى الكُفّار، وما حصل من استيلاء بعض أقاربه على مُلْكه ونَزْعه منه، وأنه استظهر بعد ذلك على المذكور وقتَـله، وعاد إلى مُلْكه على عادته . فى جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعمائة، وهى :

(١) من "التعريف" زدناه .

تخُصُّ الحضرةَ العلية، حضرة الأمير فلان، وألقابه، جعل الله له النصرَ أينَ سارَ قرينا، والظَّفَرَ والاستظهارَ مصاحبًا وخَدينا، وزاد فى محلِّه الأسنىٰ تمكينا وتأمينا، ومنح أفقه الغربىَّ من أسِرَّة وجهه المتلألئ الإشراق، ومَهابةِ بطشه الذى يُورِد العدا مَوارد الرَّدىٰ بالاتّفاق، تحسينًا وتحصينا – بإهداء السلام الذى يتأرّج عَرْفا، ويتبلّج وصْـفا، ويكاد يمازجُ النَّسيم لُطفا – وإبداء الشُّكرِ الذى جلّلَه ملابس الإكرام وأضفىٰ، وأجملَ منه نفائسَ عقْدِ المودّة التى أظهرها فلم تكُنْ تخفىٰ .

ثم بعدَ حمدِ الله مؤكِّد أسباب علاه، ومؤيِّد موجباتِ نَصْره وما النصرُ إلا من عنـد الله ؛ والصلاة والسـلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله الذى أمدّه بملائكته المقرَّبين، ونصَره بالرُّعب مسـيرةَ شهرٍ كما ورد بالنصِّ والتعيين ؛ ورفع باسمه ألوِيةَ المؤمنين الموحِّدين، وقمع ببأسه ثائرةَ البُغاة والمتمرّدين .

وعلى آله وصَحْبـه الذين لازَمُوا التمسكَ بأسباب الدين، وجاهدُوا فى إقامة منَار الإسلام لـما علِمُوا مِقدارَ أجرهم عِلمَ اليقين، صلاةً متوالية متواترةً علىٰ ممرِّ الأحقاب والسِّنين؛ فإنا نوضّح لعلمه الكريم أنَّ كتابه ورد علينا مشتمِلا علىٰ المحاسن الغرّاء، مُغْرِبا بل معربا لنا بحمرة لونِه أن نسبتَه إلىٰ الحمراء؛ مُشْبِهًا وَرْدَ الخدود والنقْسُ فيه كالخال، أو شَقائقَ النُّعمان كما بدَا روضُه غِبَّ السحاب المتوال . فوقَفْنا علىٰ مضمونه جميعِه، وتلمَّحنا بديعَ معانيه من جميل تَوْشيعه وترصيعه، وعلِمْنا ما شرحه فيه : من آستمراره علىٰ عادة سَلَفه فى القيام بأمر الجهاد، وقَطْع دابر الكَفَرة ذوى الشِّقاق والعِناد، وتوطيـد ما لديه من تلك البِلاد، وتطمينِ ما بها من العِباد؛ وما آتفق من قريبه فى الصورة لا فى المعنىٰ، وكيف أساء إليه فِعْلا وقد أحسنَ به ظنًّا، وأنه رصدَ الغفلةَ من جنابه، وأقدَمَ على ما أقدَمَ عليـه من اقتراف البغْى والتمسُّك بأسبابه، ولم

يزل يُراعى غَيبةَ الرَّقيب وهُجُوعَ السامر، إلى أن تمكن من الاستيلاء على ذلك المُلْك الذى ظنَّ أنَّ أمره اليه صائر، لكنه مع كونه قد اقتحم فى فَعْلته هذه الأهوال، وتوهَّم أنه قد حصَل بمكره على بُلُوغ بعض الآمال، فإنه ماسَلِمَ ولله الحمدُ والمِنَّة حتَّى وَدَّع، ولا أقبل سَحابُ استيلائه حتّى أقشع، بما قدّره الله تعالى لحضرة الأمير من نُصْرته، وعَوْده إلى محلّ أمْره وإمرته . وأنه آثر اطِّلاع علومنا الشريفـة على هذه الواقعه، لما يعلَمُ من تأكيد المودة التى غدَتْ حمائمها على أفنانِ المحبّة ساجعه ، وقد علمنا هذا الأمر ، وشكَرْنا جميلَ محبّته التى لم يَنْسُجْ على منوالها زيدٌ ولا عمرو ، وابتهَجْنا بما يسَّره الله تعالى له من ذلك ، وانتهزْنا فُرَصَ السُّرور بما منحه الله من ظَفَره المتقارب المتدارِك، وحمِدْنا الله تعالى على تأييد هذه العِصابة الإسلاميَّة، وما مَنَّ به من عَوْد شمس هذا الأُفُقِ الغربيِّ إلى مطالعها السنيَّة، ولا جرمَ ان كانت له النُّصْره، والاستيلاءُ والقُدْره: لأن الله تعالى قد تكفَّل سبحانه لاوليائه بمَزِيد التكريم والتعْزيز، إذ قال عز وجل : ﴿ذلكَ ومَنْ عاقَبَ بمثْل ماعُوقب به ثم بُغِىَ عليه لينصُرَنَّه الله﴾ ﴿إنَّ اللهَ لقوىٌّ عزيزٌ﴾ .

وأما غير ذلك، فقـد وصل رسولُ الحضرةِ العليةِ إلينا وتمثل بمواقفِنا المعظَّمه ، ومحالِّ مملكتِنا المكرَّمه ، وأقبَلْنا عليه، وضاعفْنا الإحسانَ إليه ، وأدَّى إلينا ما تحمَّله من المشافَهَة الكريمه ، ورسائل المحبَّة والمودَّة القديمه، فرسمنا باجابة قَصْده ، وتوفير بِرّه ورِفْده، وقضاءِ شُغْله الذى حضر فيه، وتسهيلِ مآربه بمَزِيد التنْويل والتنْويه ، ومسامحةِ الحضرة العلية بما يتعيَّن على ما قيمته ألفا دينار مصرية حسَبَ ماعيَّنه رسوله المذكور، ولو كان سألنَا أضعافَ ذلك لأجَبْنا سُؤاله من غير تروٍّ ولا فُتور. وقد جهَّزنا إليه صُحبَته ماأنعمَتْ به صدقاتُنا الشريفةُ عليه من الدِّرْياق ودُهْن البَلَسان، فليتحقق

ماله عندنا من المكانة والمحلّ الرفيع الشان ؛ وقد أعدنا رسـولَه المذكورَ إلى جهته الكريمة بهذا الجواب الشريف ، محترما مكرّما مشمُولا من إحساننا بالتّليد والطّريف ؛ فيُحيط عِلمًا بذلك والله تعالى يُمدُّه بمزيد التأييد ، ويمنحُه من جميل الإقبالِ ، وجزيل النّوال ، مايُربى على الأمل ويَزيد ! .

تم الجزء السابع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن

وأوّله المقصـــد الثـالث

(فى المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبى ممن جرتِ العادةُ بالمكاتبة إليه من العرب والسُّودان ، وفيه ثلاث جمل)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبـه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ٧٠٠٠/١٩١٤/٣٠٠٠)